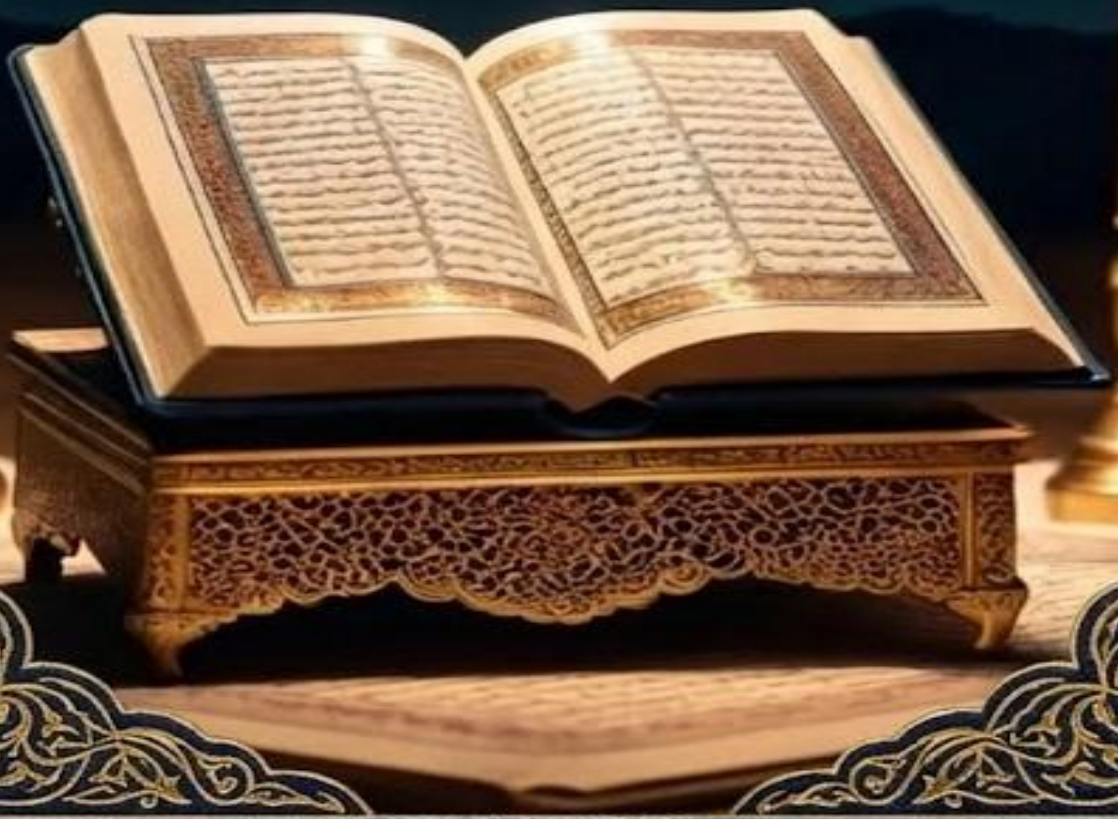
الأنفاس الزكية

في

شرح الأربعين النووية

إعداد

الدكتور حسين عامر




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، قيوم السماوات والأرضين، مدبر أمر الخلائق أجمعين، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، رحمة للعالمين، وجعل سنة نبيه صلى الله عليه وسلم بيانًا للكتاب، وتفصيلًا لمجمل الخطاب، وهدايةً للقلوب، ونورًا للسالكين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نرجو بها النجاة يوم الدين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام المتقين، وسيد المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن الاشتغال بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشرف العلوم قدرًا، وأعظمها نفعًا، وأجلّها أثرًا في إصلاح القلوب والأعمال؛ إذ به تُعرف معالم الدين، وتُفهم مقاصد الشريعة، وتستقيم العبادة، وتتهذب الأخلاق، وتُضبط المعاملات، ويُميز العبد بين ما يحبه الله ويرضاه، وما يبغضه وينهى عنه.

وليس علم الحديث مجرد رواية ألفاظ تحفظ، أو نصوص تردد، بل هو حياة للقلوب، وتربية للنفوس على التسليم لله ورسوله، والفهم الصحيح للدين القويم.

ومن أجلّ الكتب التي كتب الله لها القبول والانتشار بين الخاصة والعامة كتاب الإمام النووي رحمه الله المعروف بـ **الأربعين النووية**، وهو مع صغر حجمه، وقلة عدد أحاديثه، يعد من الكتب الجامعة التي اشتملت على أصول عظيمة من أصول الدين، وقواعد كلية من قواعد الشريعة، حتى صار محل عناية العلماء وطلبة العلم في الحفظ والشرح والتدريس، والتعليق، واستخراج الفوائد، والأحكام.

ولا يكاد طالب علم يبدأ طريقه في الحديث إلا ويكون لهذا الكتاب نصيب من بدايته، ولا يكاد مسجد أو معهد أو حلقة علمية تخلو من مدارسته؛ لما جمعه الله فيه من البركة وحسن الاختيار وعموم النفع.

وقد اعتنى الإمام النووي رحمه الله في كتابه هذا باختيار أحاديث جامعة، ليست مقصورة على باب واحد من أبواب العلم، بل تتناول العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات وتزكية النفس وآداب السلوك ومقامات الإحسان.

ففيه حديث النية الذي هو ميزان الأعمال الباطنة، وحديث جبريل الذي جمع مراتب الدين، وحديث الحلال والحرام الذي يربي المسلم على الورع، وحديث «لا ضرر ولا ضرار» الذي تقررت به قاعدة عظيمة في أبواب الفقه، وحديث «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» الذي يربي المسلم على الورع وترك الشبهات، وحديث «البينة

على المدعي» الذي يقرر أصلًا مهمًا في القضاء والحقوق.... وهكذا يجد القارئ أن كل حديث من أحاديث هذا الكتاب يفتح له بابًا من أبواب الدين، ويضع بين يديه أصلًا يرجع إليه في فهم الشريعة والعمل بها.

ومن أسباب أهمية هذا الكتاب أيضًا أن الإمام النووي رحمه الله لم يقصد به مجرد جمع أربعين حديثًا على عادة من صنف في هذا الباب، بل قصد أن تكون هذه الأحاديث مشتملة على مهمات الدين، وأن يكون كل حديث منها قاعدة عظيمة أو أصلًا جامعًا، ولذلك كتب الله لهذا المختصر قبولًا عظيمًا، حتى شرحه العلماء قديمًا وحديثًا، ودرّسه المشايخ، وحفظه الطلاب، وتناقله الناس جيلًا بعد جيل.

ومن هنا جاء هذا الشرح الموسوم بـ

(الأنفاس الزكية في شرح الأربعين النووية[1])

رغبة في تقريب معاني هذه الأحاديث المباركة، وربطها بحياة المسلم وواقعه، وإبراز ما فيها من هدايات تربوية، وإيمانية، وفقهية، وسلوكية؛ فليست الغاية من الشرح أن تُذكر المعاني اللغوية وحدها، ولا أن تُسرد الأقوال دون روح، بل المقصود أن يخرج القارئ من كل حديث بفهم أوضح، وعمل أصلح، وبصيرة أتم في دين الله عز وجل.

وقد روعي في هذا الشرح أن يكون قريب العبارة، واضح المعنى، بعيدًا عن التعقيد والتكلف، مع المحافظة على التأصيل العلمي؛ فربما احتاج القارئ إلى بيان لفظ غريب، أو توضيح تركيب لغوي، أو شرح قاعدة أصولية، أو ذكر فائدة تربوية، أو تنزيل المعنى على واقع الناس، فجاء الشرح جامعًا بين البيان العلمي والتوجيه العملي، حتى ينتفع به طالب العلم المبتدئ، ويستفيد منه الخطيب والمعلم، ويجد فيه عامة القراء ما يقربهم من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ويحببهم في العمل بها.

---

[1] فائدة: هل نقول: " شرح الأربعين النووية " أم " شرح الأربعون النووية"؟ من حيث الأصل الإعرابي :الصواب "شرح الأربعين"، وقد يجوز الوجه الثاني على سبيل الحكاية، فتصح إن كنت تحكي عنوانًا أو لفظًا ورد بهذه الصيغة، مثل أن تقول: هل قرأتَ كتاب شرح الأربعون النووية؟ والحكاية في النحو تعني نقل اللفظ كما هو دون تغييره، بغضّ النظر عن موقعه الإعراب.
فمثلاً: نقول :قرأت سورة المؤمنون، على الحكاية؛ أي حُكيَ الاسم كما ورد في المصحف، لأن اسم السورة في القرآن هو "المؤمنون"مرفوعا، ولو أعربناها دون حكاية لقلنا "قرأت سورة المؤمنين " لأنها مضاف إليه مجرور، وعلى هذا فكلاهما صحيح: "سورة المؤمنين" إعرابًا، و "سورة المؤمنون" حكايةً، ومثله قول: " شرح الأربعين النووية " أو " شرح الأربعون النووية"

ومن منهج هذا الشرح أنه يبدأ غالبًا ببيان تخريج الحديث ودرجته، وذكر موضعه في كتب السنة، ثم ينتقل إلى شرح ألفاظه ومعانيه، وبيان ما فيه من قواعد وفوائد.

كما يعتني بذكر ما يحتاج إليه القارئ من تراجم مختصرة لبعض الصحابة والرواة، لأن معرفة حال الصحابي أو الراوي تزيد النص حياة وقربًا من القلب، ويعتني الشرح كذلك بذكر اللطائف اللغوية والبلاغية حيث يكون في ذكرها نفع في فهم الحديث، دون إطالة تخرج القارئ عن المقصود.

ومن مميزات هذا الشرح عنايته بالجانب التربوي والإيماني في الحديث، فليس المقصود أن يعرف القارئ معنى الحديث فقط، بل أن يعرف كيف يربيه الحديث، وكيف يغير نظرته إلى نفسه، وربه، ودنياه، وآخرته.

فإذا مر بحديث النية علم أن صلاح العمل يبدأ من صلاح القلب، وإذا مر بحديث الإحسان علم أن الله مطلع عليه في سره وعلنه، وإذا مر بحديث الحلال والحرام أدرك خطورة الشبهات، وإذا مر بأحاديث التوبة والرجاء امتلأ قلبه حسن ظن بالله دون أن يتجرأ على المعصية.

ومن مميزاته أيضًا أنه يجمع بين الترغيب والترهيب في اعتدال، فلا يغلق باب الرجاء في وجوه العصاة، ولا يفتح باب التهاون والتسويف، بل يسلك مسلك أهل السنة في الجمع بين الخوف والرجاء، وبين العمل وحسن الظن، وبين التوحيد والمسؤولية.
فالعبد مأمور أن يرجو رحمة الله، وأن يخاف ذنبه، وأن يعمل بطاعة مولاه، وأن يبادر بالتوبة، وأن يعلم أن رحمة الله واسعة، لكنها ليست ذريعة للإصرار على المعصية، كما أن الخوف من الله ليس بابًا للقنوط واليأس.

كما حرص هذا الشرح على معالجة بعض الإشكالات التي ترد في أذهان الناس عند قراءة الأحاديث، سواء كانت إشكالات عقدية أو فقهية أو تربوية، مع تقريب الجواب بعبارة سهلة وأمثلة واضحة.

فالعلوم الشرعية ليست بعيدة عن حياة الناس، بل هي التي تهديهم في عباداتهم، وتقوم معاملاتهم، وتصحح تصوراتهم، وتربطهم بالله عز وجل في أحوالهم كلها.
ومن هنا كان من المهم ألا يكون شرح الحديث معزولًا عن واقع المسلم، بل موصولًا بقلبه، وسلوكه، وأسرته، ومجتمعه.

ومما يميز هذا العمل كذلك أنه ينتفع بكلام أهل العلم، ويستحضر شروحهم وفوائدهم، مع صياغة ذلك بأسلوب معاصر قريب من الأفهام، وليس المقصود جمع

الأقوال لمجرد الجمع، وإنما المقصود انتخاب ما يعين على فهم الحديث، ويقرب مراد النبي صلى الله عليه وسلم، ويفتح للقارئ باب التدبر والعمل.

وقد جاء اسم هذا الشرح **الأنفاس الزكية** إشارة إلى أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم حياة للقلوب، وأن مدارسة حديثه أنفاس طيبة مباركة، تزكي النفس، وتطهر القصد، وتبعث في القلب نور الإيمان.

فما أحوج المسلم في زمن كثرت فيه الشبهات والشهوات، وتزاحمت فيه المشاغل والملهيات، إلى أن يعود إلى هذه الأحاديث الجامعة، فيقرأها قراءة من يريد النجاة، ويتدبرها تدبر من يطلب الهداية، ويعمل بها عمل من علم أن العلم حجة له أو عليه.

وليس هذا الشرح بديلًا عن شروح العلماء الكبار، ولا دعوى للاستغناء عن كتب الأئمة المحققين، وإنما هو محاولة في تقريب هذا الكتاب المبارك، وتيسير الانتفاع به، وربط فوائده بواقع الدرس، والخطبة، والموعظة، والتربية.

فمن وجد فيه صوابًا فذلك من فضل الله وتوفيقه، ومن وجد فيه خطأ أو تقصيرًا فالنقص من طبيعة البشر، والكمال لله وحده، والعصمة لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما بلّغ عن ربه.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لكاتبه وقارئه وسامعه، وأن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، والقلب الخاشع، واللسان الذاكر، وأن يجعلنا من أهل حديث نبيه صلى الله عليه وسلم رواية ودراية واتباعًا، وأن يحشرنا في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.
وأسأل الله لوالديّ ولمشايخي الرحمة والمغفرة، ولإخواني من الأئمة والدعاة الهداية والتوفيق، ولأبنائنا، وذرياتنا الهداية، والصلاح، والعفاف.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه
د. حسين عامر
لافال -كندا
غرة شهر محرم 1448

التمهيد

ويحتوي على

أولا/ ترجمة الإمام النووي

رحمه الله (631- 676هـ)

ثانيا/ مقدمة عن كتاب الأربعين النووية

أولا/ ترجمة الإمام النووي

رحمه الله (631- 676هـ)

مولده:

ولد في بلد اسمها نوى، وهي قريبة من دمشق الآن في سوريا، على عادة العلماء والفقهاء في زمانه بالنسبة إلى بلادهم أو صنائعهم، مثل البخاري نسبة إلى بخارى، وكذلك النووي والقرطبي نسبة إلى قرطبة، والترمذي نسبة إلى ترمذ، والنسائي نسبة إلى بلد اسمها نساء (بفتح النون) [1]، ومن العلماء من اشتهر بمهنته مثل القماش، نسبة إلى القماش، والجصاص نسبة إلى عمل أو بيع الجص وهو الجير، وهكذا.[2]

اسمه ونسبه:

هو يحيى بن شرف بن مُرِّيِّ بن حسن بن حسين بن محمد جمعة بن حِزام.
وقال الذهبي في وصفه: (كان أسمر كث اللحية، ربعة مهيباً، قليل الضحك، عديم اللعب، بل جدّاً صرفاً، يقول الحق وإن كان مُراً، لا يخاف في الله لومة لائم"، ووصفه الذهبي أيضاً بأن لحيته سوداء فيها شعرات بيض، وعليه هيبة وسكينة)[3]

كنيته:

أبو زكريَّا، مع أنَّه من العُلَماء العزَّاب، الذين آثَرُوا العلم على الزواج، وإنما كنى بأبي زكريا لأن اسمه يحيى، والعرب تكني من كان كذلك بأبي زكريا التفاتا إلى نبي الله يحيى وأبيه زكريا ـ عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ، كما تكني من كان اسمه يوسف بأبي يعقوب ومن اسمه إبراهيم بأبي إسحاق، ومن اسمه عمر بأبي حفص على غير قياس، لأن يحيى ويوسف مولودان لا والدان، ولكنه أسلوب عربي مسموع.

---

(1) أحد الجهلة قال: لقب بالنسائي لأنه كان يحب النساء!! فالنسائي نسبة إلى بلد اسمها نساء، ويذكر أنه عندما دخل المسلمون بلاد خراسان، هرب أهلها ولم يبق فيها سوى النساء .عندما وصل المسلمون لم يروا رجالا، فقالوا "هؤلاء نساء والنساء لا يقاتلن"، فقرروا أن يؤجلوا أمر هذه البلدة (أي ينسأوها) إلى أن يعود رجالها، فسميت باسم "نساء".

(2) الإمام مسلم اشتهر باسمه فقد كان اسمه مسلم بن الحجاج، فاشتهر بالإمام مسلم، فلم ينسب لا إلى صنعة ولا إلى بلد، وكان عندنا بعض المشايخ هداه الله يقول: وأنت في الدرس لو أحرجك شخص وقال لك من روى هذا الحديث؟ قل له رواه مسلم، وأنت تقصد مسلم من المسلمين!!!

(3) *تذكرة الحفاظ* للذهبي (4 /1470) وقال في *سير أعلام النبلاء* (23 / 393): وكانت لحيته سوداء فيها شعرات بيض، وعليه سكينة وهيبة.

لقبه:

كان لقبه رحمه الله: **(محيي الدين)** لأنَّ تلك الألقاب كانت مُتداوَلة في عصره، وقد كان رحمه الله يكره أن يلقب به، ولعله كره ذلك تواضعا، وإلا فهو جدير به لما أحيا الله به من سنن وأمات به من بدع، وما نفع الله به المسلمين من مؤلفاته العظيمة.

أوقاف المدارس الشرعية:

وكان الخلفاء والأمراء يقومون بعمل وقف للمدارس الشرعية للإنفاق منها على المشايخ وطلبة العلم، فلم يكن العالم محتاجا لمال من الناس أو من الحكومة، ولا كان الطلبة محتاجين، فثمرة الوقف ينفق منها على العلماء وعلى طلبة العلم.[1]
وكانت البيئة العلمية كالتالي، الطفل يبدأ بتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ثم يتلقى العلم على أيدي العلماء.

طفولة الإمام النووي:

كان والد الإمام النووي مستور الحال له دكان يبيع فيه بعض البقالة أو ما شابه ذلك، وبدأ في حفظ القرآن الكريم، وكان يبدو عليه من صغره الجدية وكان الأطفال يكرهونه على اللعب معهم فلا يرضى أن يلعب أبدا.[2]

وكان من صالحي أهل زمانه رجلا اسمه الشيخ ياسين لما رآه على هذه الحال ذهب إلى شيخه الذي يحفظّه القرآن، فقال له: إن هذا الصبي له شأن كبير فاهتم به، قال أوحي يوحى به إليك أم منجم أنت؟ قال لا والله هذه كلمة ألقاها الله على لساني.

فقالوا إنه بالفعل كان مقدما على أقرانه الذين هم في سنه، فختم القرآن ولم يناهز الحلم[3].
ويذكر أنه كان نائما بجانب والده ذات مرة؛ ليلة السابع والعشرين من رمضان، فاستيقظ في منتصف الليل وأيقظ أباه قائلا: يا أبتي إني أرى البيت مملوءًا نورا، فقام إليه أبوه يبحث ما الذي في الدار؟

---

[1] ويذكر أن الإمام أبا حامد الغزالي رحمة الله عليه كان سبب طلبه العلم أنه نشأ يتيما فقيرا فقد توفى والده، ووصى به هو وأخوه لصديق له، ليعتني بابنيه بعد وفاته، وقد استمر هذا الصديق في الإنفاق عليهما حتى نفدت الأموال، وعندما اضطر لعدم الاستطاعة على مواصلة الإنفاق، اقترح عليهما اللجوء إلى طلب العلم في المدارس للحصول على قوتهم، وهذا هو ما أدى إلى توجههما لطلب العلم، حيث ذكر الغزالي أنهم طلبوا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله .

[2] وهذه سمات شخصية خاصة به، لكن الصحيح تربويا مراعاة سن وعقل الطفل وأن يكون له وقت يلعب فيه مراعاة لطفولته؛ فالصواب هو الموازنة بين التعليم ووقت اللعب للطفل.

[3] كان قريبا من البلوغ.

فلم يجد شيئا فكأن الله كشف عن بصيرة النووي، وهو طفل ابن سبع سنين، فقال لوالده: هذا الكلام قال: لعلها يا بني ليلة القدر، فقام واجتهد في العبادة على أنها ليلة القدر.

وأدى النووي الحج مع والده وكان عمره 22 سنة، وكان رحمة الله عليه كثير العبادة، يعرف بكثرة صيامه، وكان له ذاكرة حديدية قوية، فكان يكتب من حفظه الكثير والكثير، ويسطر الصحائف ويكتب بيده.

رحلته لطلب العلم واجتهاده فيه:

ذهب به أبوه إلى دمشق لنيل العلم من معينه الصافي، ومورده الشافي، وكان ذلك في عام 649هـ، وكان عمره آنذاك 19 سنة، فقصد به الجامع الأموي ونزله، فطفق عندئذ يشمر النووي عن ساعد الجد في طلب العلم.

وذكر تلميذه الشيخ أَبو الحسن بن العطار أن الشيخ محيي الدين ذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على مشايخه شرحًا وتصحيحًا :
درسين في الوسيط، وثالثا في المهذب، ودرسا في الجمع بين الصحيحين، وخامسا في صحيح مسلم، ودرس في اللمع لابن جني في النحو، ودرسا في إصلاح المنطق لابن السكِّيت في اللغة، ودرسا في التصريف، ودرسا في أصول الفقه تارة في اللمع لأبي إسحاق، وتارة في المنتخب للفخر الرازي، ودرسا في أسماء الرجال، ودرسا في أصول الدين.

وقال النووي عن نفسه: إنه كان لا يضيع له وقتًا لا في ليل ولا في نهار حتى في الطريق، وأنه دام ست سنين. ثم أخذ في التصنيف، والإفادة، والنصيحة.

شيوخه:

تتلمذ على يد الكثير من العلماء منهم:

-القاضي الخطيب عماد الدين عبد الكريم بن القاضي جمال الدين.

- الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري.

-الحافظ الزَّين خالد بن يوسف بن سعد بن حسن بن مفرج.

-ومنهم ابن البرهان رضى الدين أَبو إسحاق إبراهيم بن أبي حفص.

- ومنهم الإمام الزاهد ضياء الدين أَبو إسحاق إبراهيم بن عيسى.

تلاميذه:

تخرج على يديه جماعة من العلماء منهم:

-علاء الدين بن العطار.

- والحافظ المزي.

- وابن النقيب.

- وخطيب داريا أَبو الربيع الهاشمي.

- وابن أبي الدر.

أول مؤلفاته:

ظهر أول مؤلف له في سن الثلاثين من عمره، وقال المؤرخون: لو جمعنا الكتب التي ألفها الإمام على سنين عمره فمعنى ذلك أنه ألف في كل يوم كراستين، إشارة إلى غزارة ما كتبه رحمة الله عليه، وهذا الأمر بلا شك بركة من الله سبحانه وتعالى.

وأي باحث يدرك أن البحث عن المعلومة ومعرفة مكانها وسياقها وتوظيفها وتحليل الأقوال ونقل أقوال العلماء، كل هذا يحتاج إلى جهد، لكن هؤلاء آتاهم الله ذاكرة قوية جدا، وكانت الحياة أبسط مما نحن فيه الآن، فكان الرجل يقضي يومه بتمرات[1].

فهذه البساطة جعلت لهم بركة في الوقت، وأيضا لعلها كانت سببا للذاكرة القوية عند علمائنا، وكان اليوم يبدأ من الفجر فيتحصلون على بركة اليوم، وعندما يظلم الكون عند العشاء الناس تتجه للنوم، فينعمون بالنوم الهادئ، وربما من أسباب ذهاب البركة عندنا عدم تنظيم الأوقات وإهدار أوقات كثيرة في تفريعات وفي تعقيدات الحياة، الله المستعان.

لماذا لم يتزوج؟

والإمام النووي لم يتزوج، وهذا الأمر ليس فيه سنة تتبع، السنة عن رسول الله ﷺ أنه تزوج النساء، لكن هذا أمر خاص بالنووي، وأيضا ابن تيمية لم يتزوج، ما هو

---

[1] والرسول- صلى الله عليه وسلم- كان يقول بيت لا تمر فيه جياع أهله، وتقول عائشة: كان يمر الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة ولا يوقد في بيت الرسول نار، أي لم يكونوا يطبخون، قال لها ابن أختها: فما كان يعيشكم يا أماه؟ قالت الأسودين التمر والماء.

السبب؟ هل انشغلوا بالعلم؟ الله أعلم، ولم ينقل شيء عن الإمام النووي عن سبب عزوفه عن الزواج، لكن نقول إن الأصل في ذلك اتباع الرسول ﷺ.

أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر وموقفه مع الظاهر بيبرس:

ولم يكن النووي يخشى في الله لومة لائم، وعرف عنه أنه وقف للسلطان بيبرس مرتين:

الأولى: لما أراد أن يفرض ضرائب على الناس أثناء حربه مع التتار، فقال له قبل أن تفرض الضرائب على الناس عندك ألف جارية، كل جارية عندها علبة مجوهرات، خذ ما عندهم من ذهب وأنفقه على الجيش، وعندك العبيد يلبسون الحياصي من الذهب، (الحياصي صدرية كان لها أزرار ذهبية) علامة على الغنى، وبعد بيع كل هذا إن كنت محتاجا للمال فافرض على الناس الضرائب.

فغضب بيبرس وقال اقطعوا عنه راتبه واعزلوه عن منصبه، فقالوا الشيخ ليس له راتب ولا منصب، فقال له غيب عني وجهك فقال سمعا وطاعة. فخرج من دمشق إلى نوى التي هي قريته التي ولد فيها.

ويقال إن هذا الموقف حدث له لما الظاهر بيبرس أراد أن يستخرج الأموال من الناس فقال كل من كان له أرض أو بيت يأتينا بما يثبت ملكيته لها فإن لم يأت وجب عليه أن يشتريها من الدولة، أي باعتبار أن الدولة المالكة لهذا الشيء أصلا، فوقف له الإمام النووي أيضا ولعل الموقف تكرر، وقال له كل من كان تحت يده بيت أو أرض أو دار، فليس مطالبا بأن يثبت ملكيته لها، إنما أنت الذي تثبت العكس، لأن الرسول ﷺ قال: **(البينة على من ادعى واليمين على من أنكر)** فكفي الله تعالى المؤمنين شر هذا القانون الجائر، وكان الأمراء والسلاطين في هذا الوقت يخافون من العلماء لأنهم يتبعهم خلق كثير، وطالما أن العالم كان له كلمته التي تخرج لإرضاء ربه وليس لإرضاء ذي السلطان كانت كلمة لها وزنها.

وفي زماننا انتبه الملوك والرؤساء لهذا الأمر فجعلوا الأوقاف كلها بيد الدولة، وتعطي من عنده ولاء للنظام، ويعطى المكافآت والألقاب، ويمنع من لا ولاء له للنظام، ومن هنا نشأت طبقة علماء السلطان.

فلعل من أسباب إخلاص الإمام النووي هذه الوقفات التي وقفها أمام الظلم. ولم يخش في الله لومة لائم.

مؤلفاته:

ذكرنا أن النووي عاش خمسا وأربعين سنة، وترك من المؤلفات ما لو قسم على سني حياته، لكان نصيبُ كل يوم كُرَّاستين، فإذا علمنا أنه لم يبدأ في طلب العلم إلا في سن الثامنة عشرة، وأنه أخذ في التصنيف في حدود الستين والست مئة(سنة 660 للهجرة)، وإلى أن مات كما يقول الذهبي ـ رحمه الله ـ ؛أي: بعد مكثه في دمشق بعشر سنوات، علمنا أن الله رزقه البركة في العمر، أضف إلى ذلك انشغاله بتعليم الطلبة، وقراءة الكتب، فإنه ما كان يضيع من وقته لحظة إلا في قراءة أو تعليم أو تأليف أو عبادة، وقد ألف النووي في علوم شتى: الفقه، والحديث، وشرح الحديث والمصطلح، واللغة، والتراجم، والتوحيد، وغير ذلك، وتمتاز مؤلفاته بالوضوح، وصحة التعبير، وانسيابِه بسهولة وعدم تكلف، يقول الذهبي: "إن عبارته أبسطُ من كلامه"، وأسلوبُه أسلوبُ عصره، مع عذوبة في الألفاظ، وجزالة في التراكيب، ولثقة الناس عامَّتِهم وخاصَّتِهم بالنووي وعلمه وحسن تأليفه، بادروا إلى اقتنائها ودراستها والعَزْوِ إليها حتى انتشرت في الآفاق، وحَرَصَ عليها العلماء من جميع المذاهب.

ويقول النووي في مقدمة كتابه روضة الطالبين وعمدة المفتين :

فإن الاشتغال بالعلم من أفضل القرب وأجل الطاعات، وأهم أنواع الخير وآكد العبادات، وأولى ما أنفقت فيه نفائس الأوقات، وشمَّر في إدراكه والتمكن فيه أصحاب الأنفس الزكيات، وبادر إلى الاهتمام به المسارعون إلى المكرمات، وسارع إلى التحلي به مستبقو الخيرات.

وقد تظاهر على ما ذكرته جمل من آيات القرآن الكريمات، والأحاديث الصحيحة النبوية المشهورات، ولا ضرورة إلى الإطناب بذكرها هنا لكونها من الواضحات الجليات."

من أهم مؤلفاته:

1- شرح صحيح الإمام مسلم"، وهو المعروف بـ "المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج"

2-الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ﷺ

3-رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ

4-الأربعون حديثًا النَّوَوِيَّة

5-روضة الطالبين"، وهو اختصار "الشرح الكبير"؛ للإمام الرافعي في الفقه الشافعي.

6-منهاج الطالبين"، وهو اختصار "للمُحَرَّر"؛ للإمام الرافعي مع الزيادة عليه بفرائد حسان.

7-"الإيضاح في المناسك"

8-"المجموع شرح المهذب للإمام الشِّيرازي"، وصَل فيه إلى الربا.

9-"التبيان في آداب حملة القرآن"

وفاته:

توفي الإمام النَّوَوِيُّ سنة 676 هـ عن خمس وأربعين سنة – رحمه الله تعالى على عالمنا وإمامنا الإمام النووي.

****

ثانيا/ مقدمة عن كتاب الأربعين النووية[1]

وسبب شهرته والسر في اختيار الرقم أربعين

رغم أن كتاب الأربعين النووية صغير الحجم ومتداول بين طلبة العلم، إلا أن الأحاديث التي ذكرها الإمام النووي لها قيمة كبيرة في الدين، فكل حديث من أحاديث الأربعين النووية يقعد لقاعدة أو يؤصل لأصل في شرعنا الحنيف.

مثل:

1-حديث (إنما الأعمال بالنيات) قالوا إنه داخل في سبعين بابا من أبواب الفقه، وهو يمثل ثلث الدين، لأنه من الأحاديث التي فيها جماع كلام رسول الله وهي ثلاثة أحاديث، حديث (إنما الأعمال بالنيات)، وحديث (الحلال بين والحرام بين) وحديث (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) أو (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد) أي أن من ابتدع في الدين فعمله مردود عليه.

2-حديث جبريل أخبرني عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم عن علامات الساعة.

3-الحديث الذي يبين الحلال بين والحرام بين.

4- حديث لا ضرر ولا ضرار.

5- دع ما يريبك إلى مالا يريبك.

6-البينة على من ادعى.

فكل حديث منها يقعد لقاعدة من أصول الدين.

وأصل هذا الكتاب أن العالم الجليل **"ابن الصلاح "**[2]وهو من أئمة الحديث في زمانه توفي سنة 643هـ جلس مجلسا من مجالس التحديث عن رسول الله ﷺ فروى

---

(1) كتاب الأربعين النووية هي تسمية مؤلفه من كلمتين وهي: الأربعين: وتعني العدد (40) ورغم أن عدد الأحاديث اثنين وأربعين حديثا إلا أنه قال: الأربعون النووية من باب التقريب في العدد على عادة العرب، والنووية: نسبة إلى (الإمام النووي) رحمه الله- فنسبت إليه وسميت باسمه.

(2) الإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الشهرزوري الشافعي، المشهور بابن الصلاح، وُلد سنة 577هـ بقرية شرخان من أعمال شهرزور، ونشأ في بيت علم وفضل، فأخذ العلم عن كبار شيوخ عصره، وبرع في الحديث والفقه والأصول، حتى عُدَّ من كبار أئمة الشافعية وحفاظ الحديث. تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق، واشتهر بالتدريس والإفتاء والتصنيف، وكان له أثر كبير في خدمة السنة وعلومها. ومن أشهر مؤلفاته كتاب "مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث" الذي أصبح أصلًا معتمدًا لمن جاء بعده في علم مصطلح الحديث، كما ألَّف "أدب المفتي والمستفتي"و"فتاوى ابن الصلاح" وقد أثنى عليه العلماء، ووصفوه بالإمامة والحفظ والإتقان، وتوفي بدمشق سنة 643هـ، رحمه الله تعالى.

لهم ستة وعشرين حديثا، فأتمها الإمام النووي اثنين وأربعين وجعلها في هذا المؤلف الذي بين أيدينا.

وفي عصرنا الحاضر تجد من مشايخنا من قام بعمل عناوين مشابهة :أربعون حديثا في القلب.... في الرياضة ...في الجهاد...في فضائل القرآن ...الخ، وعلى الرغم من هذا لم تنل هذه المؤلفات ذيوعا وانتشارا مثل الأربعين النووية، وهذا نحسبه من إخلاصه لله في هذا العمل وأن الله كتب له القبول والانتشار، فقلما تخلو مكتبة إسلامية من كتابي رياض الصالحين والأربعين النووية والأذكار للإمام النووي.

وكتاب الأربعين النووية نال اهتمام الكثير من العلماء بالشرح والتعليق والإعراب واستخراج الفوائد والأحكام، وهذا كله بركة للعلماء ولطلبة العلم بالمدارسة النافعة.

مقدمة الإمام النووي

الحمد لله رب العالمين قيوم السماوات والأرضين، مدبر الخلائق أجمعين. باعث الرسل – صلواته وسلامه عليهم إلى المكلفين لهدايتهم وبيان شرائع الدين بالدلائل القطعية، وواضحات البراهين؛ أحمده على جميع نعمه، وأسأله المزيد من فضله وكرمه.
وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار، الكريم الغفار، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وحبيبه، وخليله، أفضل المخلوقين، المكرم بالقرآن العزيز المعجزة المستمرة على تعاقب السنين، وبالسنن المستنيرة للمسترشدين المخصوص بجوامع الكلم وسماحة الدين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين وآل كل وسائر الصالحين.

أما بعد: فقد روينا عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وابن عمر، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنهم من طرق كثيرات بروايات متنوعات: أن رسول الله ﷺ قال: "من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء" وفي رواية: "بعثه الله فقيها عالما".
وفي رواية أبي الدرداء: "وكنت له يوم القيامة شافعا وشهيدا". وفي رواية ابن مسعود: قيل له: "ادخل من أي أبوب الجنة شئت" وفي رواية ابن عمر "كُتِب في زمرة العلماء وحشر في زمرة الشهداء".

واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإن كثرت طرقه.

وقد صنّف العلماء رضي الله تعالى عنهم في هذا الباب ما لا يُحصى من المصنّفات: فأول من علمته صنف فيه:
عبد الله بن المبارك، ثم محمد بن أسلم الطوسي العالم الرباني، ثم الحسن بن سفيان النسائي، وأبو بكر الآجري، وأبو بكر بن إبراهيم الأصفهاني، والدارقطني، والحاكم، وأبو نعيم، وأبو عبد الرحمن السلميّ، وأبو سعيد الماليني، وأبو عثمان الصابوني، وعبد الله بن محمد الأنصاري. وأبو بكر البيهقي، وخلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين، وقد استخرت الله تعالى في جمع أربعين حديثاً اقتداء بهؤلاء الأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام.
وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال. أهـ كلامه.

التعليق على كلام الإمام النووي

شرح معنى الحديث الضعيف:

الحديث الضعيف هو الحديث الذي فقد شرطًا أو أكثر من شروط قبول الحديث الصحيح أو الحسن، مثل اتصال السند، وعدالة الرواة، وضبطهم، وانتفاء الشذوذ والعلة القادحة .

وتتفاوت درجات الضعف حسب شدة العلة المفقودة في الحديث، ويُعدّ الحديث الضعيف مصطلحًا عامًا يضمّ تحته أنواعًا مختلفة مثل المعلق، والمنقطع، والشاذ، وغيرها .

أسباب ضعف الحديث

يمكن إجمال أسباب ضعف الحديث في فقدان أحد شروط الحديث المقبول، وهي:

1. **فقدان شرط اتصال السند :**ومن أمثلته الحديث المعلق والمنقطع .
2. **فقدان شرط عدالة الرواة :**كأن يكون الراوي ضعيفًا في ضبطه أو عدالته .
3. **فقدان شرط الضبط :**أي إذا كان الراوي كثير الخطأ أو الغفلة في روايته .
4. **فقدان شرط عدم الشذوذ :**وهو أن يخالف الحديث رواة آخرين أرجح منهم .
5. **فقدان شرط انتفاء العلة :**وهو ما يعرف بالحديث المعلل .

أقسام الحديث الضعيف

يقسم العلماء الحديث الضعيف من حيث سبب ضعفه إلى قسمين رئيسيين :

1- **ضعف يرجع إلى عدم اتصال السند :**

مثل الحديث المعلق، والمنقطع، والمعضل، والمرسل؛ فالأحاديث التي ورد السند فيها غير متصل عن رسول الله ﷺ بسبب انقطاع في السند فمعنى هذا أنه حديث غير صحيح لأن السند، كالسلسلة تماما لا بد من تواصل حلقاتها بلا انقطاع، فمثلا: لا بد أن من يروي الحديث عن رسول الله يكون صحابيا، فلو رواه تابعي ولد بعد وفاة الرسول ﷺ، فهذا حديث مرسل وهو من أقسام الضعيف، لأن عندنا انقطاع في السند، وهكذا، ولذلك كان العلماء يهتمون بالمواليد والوفيات، لمعرفة الاتصال والانقطاع في السند.

2- **ضعف يرجع إلى الجرح في الراوي :**

مثل الحديث المجهول، أو ما كان فيه كذب، كالحديث الموضوع .

حكم الحديث الضعيف في الحلال والحرام:

إذا جاءنا حديث فيه: إن الله حرم كذا، أو لعن كذا، أو أوجب كذا؛ نقول للمستدل: كيف تقول بحرمة هذا أو حله؟ وهو لم يثبت لنا من طريق صحيح عن رسول الله ﷺ؟ فالحديث الضعيف لا يعمل به في الأحكام.

يقول الإمام أحمد: كنا إذا روينا في الحلال والحرام تشددنا وإذا روينا في الفضائل تساهلنا.

وقد وقع في هذا الأمر عدد من الفقهاء يضع حكما في مسألة ثم يدلل عليها بحديث ضعيف، وهذا خطأ كبير يرجع إلى أن هذا الفقيه بضاعته في الحديث ضعيفة، أو ربما يدفعه التعصب للمذهب أن يحشد الأدلة كلها صحيحة أو ضعيفة لتأييد قول في المذهب.

حكم الحديث الضعيف في فضائل الأعمال:

فضائل الأعمال مثل: الأذكار، أو فضائل السور، أو بعض الأدعية.

العلماء على قولين:

الأول: عدم قبول العمل بالحديث الضعيف مطلقا، وقالوا نكتفي بالصحيح ففيه غنية عن الضعيف، ولو انشغل الناس بالصحيح لكفاهم.

الثاني: يجوز العمل بالحديث الضعيف في الفضائل لكن بشروط:

1- أن يكون الحديث في القصص، أو المواعظ، أو فضائل الأعمال، أو نحو ذلك، ولا يتعلق بالأحكام كالحلال والحرام، وغيرهما.

2- أن يكون الضعف فيه غير شديد فيخرج حديث من انفرد من الكذابين والمتهمين بالكذب، والذين فحش غلطهم في الرواية، والحديث الذي كثرت طرقه، ولم تخل طريق منها من شدة الضعف.

3- أن يندرج تحت أصل صحيح كالأحاديث الضعيفة الواردة في فضل سورة يس، أو غيرها من سور القرآن، هل معنى هذا لا نقرأ سورة يس؟ كلا، فلو قرأت سورة يس فأنت تقرأ كلام الله عز وجل، ولذلك عند فقهاء الحنابلة استحبوا قراءة يس عند احتضار الميت، وقالوا إنها تسهل خروج الروح؛ عملا بالحديث الضعيف: **(اقرأوا يس على موتاكم)**

4- الاعتقاد بعدم ثبوته عن رسول الله، ونذكره بصيغة روي أو ذكر، وهذه يسمونها صيغة التمريض.

تتمة كلام الإمام النووي بالمقدمة

يقول الإمام: (ومع هذا فليس اعتمادي على هذا الحديث، بل على قوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة: "ليبلغ الشاهد منكم الغائب" وقوله ﷺ: "نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها"[1]

ثم من العلماء من جمع الأربعين في أصول الدين، وبعضهم في الفروع، وبعضهم في الجهاد، وبعضهم في الزهد، وبعضهم في الآداب، وبعضهم في الخطب، وكلها مقاصد صالحة رضي الله تعالى عن قاصديها.
قد رأيت جمع أربعين أهم من هذا كله، وهي أربعون حديثاً مشتملة على جميع ذلك، وكل حديث منها قاعدة عظيمة من قواعد الدين قد وصفه العلماء بأن مدار الإسلام عليه، أو هو نصف الإسلام أو ثلثه أو نحو ذلك.
ثم ألتزم في هذه الأربعين أن تكون صحيحة، ومعظمها في صحيحي البخاري ومسلم،

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، حديث رقم 3660، والترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، حديث رقم 2656، وصححه الألباني في صحيح أبي داود وصحيح الترمذي.

وأذكرها محذوفة الأسانيد، ليسهل حفظها، ويعم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى، ثم أُتبعها بباب في ضبط خفي ألفاظها، وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث، لما اشتملت عليه من المهمات، واحتوت عليه من التنبيه على جميع الطاعات وذلك ظاهر لمن تدبّره، وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي وله الحمد والنعمة، وبه التوفيق والعصمة.

التعليق على كلام الإمام النووي

الإمام النووي – رحمه الله- قال إنه سيجمع هذه الأحاديث وكل حديث منها يؤسس لقاعدة من قواعد الدين، أو عمدة في باب من أبواب الفقه، ثم جاء من بعده عالم جليل اسمه الإمام ابن رجب الحنبلي[1]، رأى أن الإمام النووي جمع الأحاديث الجوامع الَّتي يُقال :إنَّ مدارَ الدِّين عليها، رأى أن الإمام النووي جمع الأحاديث الجوامع الَّتي يُقال: إنَّ مدارَ الدِّين عليها، فزاد ثمانية فصار العدد خمسين حديثا، في كتاب أسماه جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم. [2]

ورغم أن الإمام النووي قال إنه سيلتزم الصحيح في هذا الكتاب، لكن العلماء استدركوا عليه حديثين سنذكرهم فيما بعد إن شاء الله. [3]

قوله: وأذكرها محذوفة الأسانيد ليسهل حفظها...

أي أنه حذف (سلاسل الرواة) ليكون الحفظ أسهل على طلاب العلم ولينتفع بها الجميع من العلماء والعامة.

قوله :ثم أُتبعها بباب في ضبط خفي ألفاظها...

أي أنه سيقوم بعد ذلك بشرح الكلمات الصعبة أو الغريبة في الأحاديث حتى يفهمها القارئ على وجهها الصحيح.

قوله: وينبغي لكل راغب في الآخرة أن يعرف هذه الأحاديث...

---

[1] الإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، المشهور بابن رجب الحنبلي، وُلد ببغداد سنة 736هـ، ثم انتقل مع أسرته إلى دمشق، فنشأ في بيئة علمية، وأخذ العلم عن كبار العلماء، حتى أصبح من كبار علماء المذهب الحنبلي، وبرع في الحديث، والفقه، والوعظ، والتربية. عُرف بسعة علمه، وقوة حفظه، وحسن تصنيفه، وكان له اهتمام بالغ بشرح السنة وبيان معانيها. ومن أشهر مؤلفاته "جامع العلوم والحكم"، و«فتح الباري» في شرح صحيح البخاري (ولم يُكمله)، و"لطائف المعارف"، وغيرها، وقد أثنى عليه العلماء، وعدُّوه من كبار الحفاظ والفقهاء، وتوفي بدمشق سنة 795هـ، رحمه الله تعالى.

[2] انظر مقدمة كتاب جامع العلوم والحكم ص56 وما بعدها.

[3] وهما: الحديث الثلاثون" :إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها.." والحديث الحادي والأربعون" :لا يُؤمِنُ أَحدُكُم حتّى يكونَ هَواهُ تَبَعاً لِما جِئتُ بِهِ." وسيأتي بيانهما.

يدعو الإمام كل من يريد النجاة والفوز في الآخرة إلى تعلم هذه الأحاديث، لأنها تجمع أصول الطاعات والعبادات والمعاملات، ويقول إن ذلك ظاهر لمن تدبرها، أي من تأمل معانيها بعمق.

قوله: وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي...

يختم كلامه بإظهار تواضعه واعتماده على الله، لا على حوله وقوته، ويحمد الله على توفيقه، ويسأله العصمة من الخطأ.

****

الحديث الأول

إنما الأعمال بالنيات

(1) إنما الأعمال بالنيات

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإن لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها

فهجرته إلى ما هاجر إليه) متفق عليه.[1]

التعريف بالراوي

عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الصحابي الجليل أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي القرشي، ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن أعظم أصحاب النبي ﷺ منزلةً وفضلا أسلم في مكة، فكان إسلامه عزًّا للمسلمين وقوةً للدعوة، ولقّب بـ الفاروق؛ لأن الله فرّق به بين الحق والباطل عرف رضي الله عنه بقوة الإيمان، وشدة العدل، والزهد، والهيبة، والغيرة على الدين، والحزم في نصرة الحق، وتولى الخلافة بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، واتسعت في عهده الفتوحات الإسلامية، ونُظّمت دواوين الدولة، وضُربت الأمصار، واشتهر حكمه بالعدل والرحمة والرعاية الدقيقة لشؤون الرعية، واستُشهد رضي الله عنه سنة 23 للهجرة، بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي وهو يصلي بالناس الفجر، ودُفن بجوار النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه في حجرة عائشة رضي الله عنها.

شرح الحديث

عن أمير المؤمنين: عمر بن الخطاب: هو أول من تلقب بلقب أمير المؤمنين فيمن حكموا المسلمين بعد رسول الله وقد لقب الصديق أبو بكر بخليفة رسول الله ﷺ فكان يقال لعمر في أول الأمر يا خليفة خليفة رسول الله، فلما استثقلوها أشار عليهم عمر بلقب: أمير المؤمنين، فلقب بها وكان أول من حكم المسلمين بهذا اللقب أمير المؤمنين.

أبي حفص: أبي حفص هذه كنية عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-، وورد في سبب تكنيته بها قولان:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم 1)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإمارة، باب قوله إنما الأعمال بالنية، حديث رقم 1907)

الأول: كني بها نسبة إلى ابنته حفصة بنت عمر، ومن عادة العرب ترخيم بعض الأسماء، والترخيم هو حذف آخر الاسم تخفيفًا، وهذا يدل على التدليل كما كان الرسول يقول لعائشة يا عائش فيقال لحفصة حفص من باب التدليل في الكلام.
والقول الثاني: إن كنية أبي حفص نسبة إلى الأسد، لأن من أسماء الأسد حفص، فهو أبو حفص إشارة إلى القوة والشدة والشجاعة"

يقول سمعت رسول الله :إشارة إلى السماع المباشر بدون واسطة أي من فمه ﷺ.

يقول: إنما الأعمال بالنيات :(إنما) هذا أسلوب حصر، أي أن الأعمال لا تكون إلا بالنيات، والمراد الأعمال المعتبرة التي يجازي الله تعالى عليها هي الأعمال التي تكون بالنيات.

وكلمة الأعمال تشمل كل الأعمال، سواء الأعمال المتعبد بها أو غير المتعبد بها:
-الأعمال المتعبد بها مثل: الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج.
-أو غير متعبد بها وهي الأمور المباحة، أمور السعي والمعاش والملابس والطعام والشراب ... إلى آخره.

هل معنى ذلك أن يكون في كل شيء نية؟

قال العلماء: إن النية في العبادة شرط لصحتها، لماذا؟
لأنها تميز العبادة من العادة، لو قال الطبيب للمريض: لا بد وأن تكون صائما قبل العملية الجراحية، فبقي المريض صائما من الليل إلى اليوم التالي، ولم ينو الصيام عبادة لله، لكن للزوم العملية، أيضا بعض التحاليل: تحليل الدم أحيانا يطلبون منك أن تكون صائما، فهذا يعتبر عمل ليس فيه نية العبادة، إنما هو عمل لإجراء تحليل الدم.

مثال ثانٍ: شخص كان يلعب كرة قدم وقام بغسل يديه ووجهه ومسح رأسه وغسل رجليه دون أن ينوي الوضوء، هو يغسل اعضاءه من العرق والغبار فهذا لا يعتبر متوضئا لعدم نيته الوضوء.

إذن النية شرط لصحة العبادة، وتميزها من العادة.

والنية في العادات لتحصيل الأجر، بمعنى إنك لو جددت النية عند النوم من باب إن لبدنك عليك حقا أو لتتقوى بهذا النوم على عبادة الله وكانت نيتك أن تصحو لقيام الليل أو لصلاة الفجر، فهذه نية صالحة.

ويذكر عن معاذ أيضا قوله: (أما أنا فأنام وأقوم، وأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي.)[1] ، أي أحتسب في نومي وقيامي للصلاة الأجر من الله لأنه عبادة.
ومثل هذا إذا تبسمت في وجه أخيك؛ من عادة الإنسان أن يتبسم في وجه صاحبه، فإذا جددت النية لتكون هذه عبادة فهي عبادة يتحصل بها الأجر، رغم أنك ممكن تبتسم بتلقائية، لكن لما تجدد النية على أن ابتسامتك فيها صدقة، وتودد، وزيادة حب في الله، وفيها إدخال السرور على من هو أمامك، فأنت هنا تحصل على الأجر.

مثال ثانٍ: النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: (فإنك لن تُنفق نَفَقَةً تبتغي بها وجهَ الله إلا أُجِرتَ بها، حتى ما تجعلُ في فيِّ امرأتِك).[2]

ومعناه: لن تنفق أي نفقة ـ مهما كانت صغيرة أو كبيرة ـ إذا قصدتَ بها وجه الله، إلا كتب الله لك أجرًا عليها، حتى اللقمة التي تضعها في فم زوجتك؛ فوضع الرجل اللقمة في فم امرأته هذا من حسن العشرة، لكن إذا جدد النية لله يؤجر على هذا العمل.

ومثل هذا في أمور كثيرة من الأمور العادية إذا جدد المسلم النية فيها حصل الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى.

إذن النية في العبادات شرط لصحة العبادة، وفي العادات شرط لتحصيل الثواب.

قوله: بالنيات: النيات جمع نية، والنية العزم على الشيء مقترنا بفعله.

وهذا يدخل في أي عمل يقوم به الإنسان، ومن الممكن أن يكون العمل واحدا لكن يختلف على حسب نيتك.

وهذا الأمر في اللغة العربية في التراكيب اللغوية قد تكون الجملة واحدة لكن فهمها على حسب نية المتكلم؛ مثلا:

لما أقول: (جاء محمد.) ونضع بعدها نقطة فهذا خبر يفيد مجيء محمد فعلا.
فإذا قلت: (جاء محمد؟) وبعدها علامة استفهام فالمعنى أجاء محمد؟
لكن اختصارا تحذف أداة الاستفهام؟
محمد تأخر ونحن ننتظره لمدة أربع ساعات حتى جاء فنقول متعجبين: (جاء محمد!!!)

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الصوم، باب حقّ البدن في الصوم، حديث رقم 1976)
[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسير، باب النفقة في سبيل الله، حديث رقم 56)، ومسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على الأهل، حديث رقم 1002)

أو هذا الشخص مجيئه سيفسد علينا الخصوصية في جلستنا فنقول بألم وحسرة: (جاء فلان)
أو من قبيل التهكم والازدراء فنقول ضاحكين (جاء فلان)
ومن الممكن أن يكون الخبر بمعنى التحذير (جاء الجيش)

إذن الجملة واحدة وتأتي للخبر والاستفهام والندم والعجب والحسرة والفرح والتحذير، وكل هذا على حسب نية القائل، فالنية تحكم العمل، فلها مدخل في كل شيء.

فما معنى: (إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى)؟

أن من نوى في عمله الإخلاص والعبادة لله كان له ما نواه، ومن نوى الرياء في عمله كان له ما نواه.
فإذا نويت وجه الله والإخلاص يكتب عند الله عملك هذا فيه إخلاص.
وإذا نويت وجه الناس والرياء وأن يحمدوك ويمدحوك يكتب عند الله رياء، نسأل الله العفو والعافية.

قوله: (وإنما لكل امرئ ما نوى) كلمة امرئ تشمل الإنسان ذكر أو أنثى، أي أنها كلمة عامة الرجل أو المرأة، وإنما لكل امرئ ما نوى على تقدير حذف مضاف، أي جزاء ما نوى، أو إنما لكل امرئ جزاء ما نوى، كما قال اخوة يوسف: **(واسأل القرية)** فليس المقصود سؤال الحيطان والمباني، فحذف المضاف وتقديره: واسأل أهل القرية.

وإنما لكل امرئ ما نوى: فيعطى المرء على قدر نيته.

وسئل النبي ﷺ يا رسولَ الله، الرجلُ يُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويقاتل شجاعةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العُليا فهو في سبيل الله.)[1]

يقاتل حَمِيّة: أي عصبية لقَبيلته أو قومه أو وطنه فقط، لا لله.

يقاتل شجاعة: أي ليُقال عنه "شجاع" أو لإظهار قوّته.

يقاتل رياءً: أي ليُرى بين الناس ويمدحوه.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم 2810)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم 1904)

ومعناه: أن **النية التي تجعل الجهاد عبادة** هي: أن يقاتل المسلم **لنُصرة دين الله ورفع كلمته**، أما من يقاتل لأجل العصبية، أو السمعة، أو الشجاعة، أو الدنيا فليس قتاله في سبيل الله.

يقول عبد الله بن المبارك: " رب عمل صغير تعظمه النية (بالإخلاص)، ورب عمل كبير تحقره النية، (بالرياء) "

(وإنما لكل امرئ ما نوى) وفهم هذه الجملة من كلام رسول الله ﷺ يعالج مسألة الوسوسة في النية، كيف ذلك؟

أنت تريد أن تعمل عملا صالحا، اسأل نفسك لماذا؟ لله.

لمن ستصلي؟ لله.... لمن ستصوم؟ لمن ستتصدق؟

فإذا كان الجواب لله فلك ما نويت ولا داعي للوسوسة، فالأمر سهل جدا، إنما يفتح لك الشيطان باب وسوسة ويقول لك أنت مرائي ومن يضمن لك أنك مخلص؟ فإذا استجبت لوساوسه فأنت مطيع للشيطان عاص لله، أما إذا خالفته فأنت مطيع لله عاص للشيطان.

ولذلك كان بعض السلف يقول إن جاءك الشيطان يقول لك في صلاتك أنت مراءٍ فزدها طولا، أو يوسوس لك قائلا: أنت تحسن صوتك في القرآن ليقولوا صوتك جميل؟ زده حسنا... وهكذا.

ولو ظهر أثر للعمل فقد بشرنا النبي ﷺ كما في الحديث عن أبي ذر قيل لرسول الله ﷺ: (أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن.) [1]

فالنبي هنا سئل عن الرجل الذي يعمل العمل من الخير خالصا لله، يبتغي الأجر والثواب من الله، فإذا اطلع عليه أحد من الناس حمده عليه، أي: يثنون على ذلك العمل، أو على ذلك الخير، فهل هذا من الرياء الذي يبطل عمل صاحبه وأجره عليه؟

فأخبرهم ﷺ أن تلك المحمدة أو المحبة هي البشارة المعجلة له في الدنيا، فهذا من ثواب الدنيا الذي يعطيه الله لعبده، وهو أن يوقع محبته في قلوب الناس، ويوقع على ألسنتهم ذكره بالخير، وثوابه في الآخرة: اللقاء والجنة، وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله تعالى عنه، ومحبته له، فيحببه إلى الخلق.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى الناس على الصالح أنه بشرى لا تضر، حديث رقم 2642)

ومعنى ذلك أن من أخلص العمل لله تعالى أطلق الله الألسنة بالثناء عليه، وأنه من جملة أولياء الله عز وجل.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) رواه مسلم، وفي رواية ابن ماجه: (فأنا منه بريء وهو للذي أشرك)[1]

فالله تبارك وتعالى يقول أنا غني عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به.

يقول: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)

ما علاقة الكلام عن النية بالكلام عن الهجرة؟

لأنها من أنواع الأعمال، والنية تختلف في كل عمل حتى في موضوع الهجرة.
والهجرة المقصود بها أن ينتقل الإنسان من مكان إلى مكان، وأغلب ما تطلق تطلق على الانتقال من مكة إلى المدينة، باعتبار أن مكة كانت دار كفر، والمدينة دار إسلام، والذي يعيش في مكة لا يستطيع أن يجهر بدينه ولا أن يجهر بالفرائض والشعائر، فكانت الهجرة من مكة إلى المدينة في زمن من الأزمنة واجبة.
وبعد فتح مكة سنة 8 هجرية الرسول ﷺ قال: (لا هجرة بعد الفتح) [2]
لأن مكة فتحت، فسبب وجوب الهجرة من مكة للمدينة انتهى، ولكن جهاد ونية، جهاد أي أن من يخرج من مكة يخرج للجهاد في سبيل الله ونية الخروج في سبيل الله عز وجل، لكن مكة بقيت دار إسلام وليست دار كفر.

قوله: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله)

ظاهر هذه العبارة أنها محيرة، لأنه في اللغة العربية من المعلوم أن جواب الشرط يختلف عن فعل الشرط، فمثلا نقول: **من صدق نجا:** فعل الشرط صدق وجواب الشرط: نجا، فلا يصح أن نقول من صدق صدق.

هنا قال (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله) قال العلماء في رفع هذا الاستشكال: هذه بلاغة نبوية، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نية

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله، حديث رقم 2985)، وأخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب الزهد، باب الإخلاص والنية، حديث رقم 4202)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسير، باب لا هجرة بعد الفتح، حديث رقم 2783)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإمارة، باب لا هجرة بعد فتح مكة، حديث رقم 1864)

وقصدا، النية في الأساس مهاجر في سبيل الله، ابتغاء وجه الله، هجرته إلى الأرض التي هاجر إليها رسول الله ﷺ فرارا بدينه، هجرته ابتداء نية لله ورسوله ﷺ ، فهجرته إلى الله ورسوله ﷺ جزاء، فهجرته متقبلة عند الله سبحانه وتعالى، ويسمي العلماء هذا باتفاق اللفظ وتغاير المعنى ، وقد جاء في القرآن: **﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: 71]**، فهذا في ظاهره تكرار وهو ليس تكرار، فهذه بلاغة في التعبير، فالمعنى : **(من تاب إلى الله وعمل صالحا)** هذه النية ابتداء، نية التوبة، **(فإنه يتوب إلى الله متابا)** كناية عن قبول الله للتوبة.

إذن المعنى: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله نية وقصدا كانت هجرته إلى الله ورسوله جزاء وأجرا.

قوله: (ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) لم يقل في جواب الشرط هنا: فهجرته إلى دنيا يصيبها.. لماذا؟

قال العلماء: في الأولى كان التبرك بذكر اسم الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، وتعظيما لشأن هذه الهجرة، رجل ترك بيته وماله، وكل ما يملك ابتغاء وجه الله، والثاني هاجر لغرض أن يتزوج بامرأة أو لغرض إصابة الدنيا، طيب وهل هذا حرام؟

كثير من الناس في عصرنا يسافر من وطنه الأصلي إلى غيره بهذه النية أقصد لسعة الرزق، وطلبا للأمان، أو لتأمين مستقبله ومستقبل أولاده ... فهل معنى ذلك أن هذه الهجرة غير نافعة؟

كلا، المقصود هنا في موضوع النية أن رجلا هاجر ظاهره أنه هاجر إلى الله ورسوله، ولكن نيته أنه هاجر لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فالرسول ﷺ ذم هذا الفعل من هاجر وظاهره أنه هاجر لله ورسوله وباطنه أنه هاجر لدنيا أو لزوجة ينكحها، وإلا فنحن عندنا آيات القرآن الكريم في موضوع الهجرة، والانتقال، والسعي للتجارة، **قال تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [المزمل: 20] ، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15]** إلى غير ذلك من الآيات.

إذن المذموم هنا أنه أعلن هجرته لله ورسوله وأبطن أنه يهاجر من أجل الدنيا أو من أجل زوجة يتزوجها في هذا البلد.

فلو أن رجلا هاجر من بلد الى بلد في سبيل التجارة، أو سعة الرزق، أو العمل، أو ما شابه ذلك هذا ليس حرام هذا جائز ومباح.

ولو أن رجلا هاجر من بلد إلى بلد ليتزوج بامرأة وتوطن مدينة امرأته هذا جائز، ومباح لا شيء فيه.

قصة مهاجر أم قيس:

هذه الرواية أنكر العلماء ارتباطها بالحديث أي أن الرسول ﷺ لم يقل هذا الحديث لهذه الحادثة، لكن شراح الحديث ربطوها كمثال: رجل أحب امرأة اسمها أم قيس ورغب أن يتزوجها، فهاجر ليتزوجها، فكان ظاهر هجرته أنه مهاجر إلى الله ورسوله، وهو ينوي أن ينكح هذه المرأة، فهذه القصة ليست سببا لورود الحديث.

أعظم مهر في التاريخ:

كانت أمُّ سُليم (سهلة بنت ملحان) رضي الله عنها من أوائل المسلمات في المدينة، وكانت امرأةً عاقلة ثابتة على الحق.
جاءها أبو طلحة الأنصاري، وكان مشركًا يومها يريد الزواج منها، وكان رجلًا ذا مال وسلاح ونسب، فرفضت الزواج منه لأنها مسلمة وهو يعبد الأصنام.
فقالت له: يا أبا طلحة، ما مثلك يُرَدّ، ولكنك رجلٌ كافر، وأنا امرأةٌ مسلمة، لا يحلّ لي أن أتزوجك؛ إنك تعبد خشبة لا تضر ولا تنفع.
فعرض عليها المهر من ذهب ومتاع، فقالت له: ما مثلي يُسأل مهرًا، ولكن أريدك أن تسلم، فإن تسلِم فذاك مهري، ولا أسأل غيره.
فخرج متأثّرًا بكلامها، ثم عاد ونطق بالشهادتين:

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فكان إسلام أبي طلحة هو مهرها، وقال أنس بن مالك: ما سمعنا بمهر قطّ كان أعظم من مهر أم سليم: الإسلام. [1]

وتزوّجها أبو طلحة، فكانا من أبرّ الأزواج وأصبرهم وأثبتهم على الخير.

(1) أخرجه النسائي في سننه (كتاب النكاح، باب فضل أم سليم، حديث رقم 3340)، وأخرجه أحمد في المسند (مسند أنس بن مالك، حديث رقم 12127)، وقال ابن حجر: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح النسائي (حديث رقم 3133)

مسائل في الحديث

أولا/هل يستحب التلفظ بالنية؟ قولان للفقهاء:

الأول: قالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد: يستحب التلفظ بها لكونه أوكد وأتم تحقيقا للنية.
الثاني: وقال طائفة أخرى من أصحاب أحمد ومالك وغيرهما: لا يستحب التلفظ بها لأن ذلك بدعة لم تنقل عن رسول الله ولا علّم ذلك لأحد من أصحابه ولو ثبت لنقل إلينا.

قال ابن تيمية: وهذا القول أصح الأقوال؛ بل التلفظ بالنية نقص في العقل والدين؛ أما في الدين فلأنه بدعة، وأما في العقل فلأنه بمنزلة من يريد أن يأكل طعامًا فيقول: نويت بوضع يدي في هذا الإناء أني أريد أن آخذ منه لقمة فأضعها في فمي فأمضغها ثم أبلعها لأشبع.

مثل القائل الذي يقول: نويت أصلي فريضة هذه الصلاة المفروضة على حاضر الوقت أربع ركعات في جماعة أداءً لله تعالى. فهذا كله حمق وجهل؛ وذلك أن النية بليغ العلم، فمتى علم العبد ما يفعله كان قد نواه ضرورة، فلا يُتصور مع وجود العلم بالعقل أن يفعل بلا نية، ولا يمكن مع عدم العلم أن تحصل نية.

وقد اتفق الأئمة على أن الجهر بالنية وتكريرها ليس بمشروع، بل من اعتاد ذلك فإنه ينبغي له أن يؤدَّب تأديبًا بمنعه عن ذلك التعبد بالبدع وإيذاء الناس برفع صوته؛ لأنه قد جاء الحديث: **"أيها الناس، كلكم يناجي ربه، فلا يجهرن بعضكم على بعض بالقراءة"**[1] ، فكيف حال من يشوش على الناس بكلامه بغير قراءة؟
بل يقول: نويت أصلي، أصلي فريضة كذا وكذا في وقت كذا وكذا من الأفعال التي لم يشرعها رسول الله ﷺ ولا أحد من خلفائه الراشدين، ولا أمر بشيء من ذلك أحدٌ من أئمة المسلمين.) [2]
سؤال: لكننا لما نحرم بالحج والعمرة نقول اللهم لبيك عمرة اللهم لبيك حجة؟

هذا إعلان للنسك، وإظهار لشعيرة الحج أو العمرة.

---

[1] أخرجه أبو داود في «سننه» (كتاب الصلاة، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، حديث رقم 1332)، وأحمد في «المسند» (حديث رقم 11896)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود".
(2) مجموع *الفتاوى* (كتاب الصلاة، فصل في النية، المجلد 22، ص 236–237)

علاج الوسواس الإهمال:

بعض الناس خصوصا من عندهم وسواس تجده واقفا في الصف يقول نويت أن أصلي فرض الظهر أربع ركعات حاضرا جماعة نويت ...لا لا مرة أخرى... نويت أن أصلي فرض الظهر ويضغط على الحروف ويعيد الكلمات ويكبر ثم يعود وهكذا.

ولهذا أقول: إن الاستجابة للوسواس شر على صاحبه، لأن الشيطان يفرح بهذا الكلام ويلعب به، ويظل الموسوس في موضوع النية شهور وسنين، ولم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه تلفظ بالنية في عبادة من العبادات.

ثانيا/ أثر العمل يختلف باختلاف النية فالعمل واحد لكن بالنية يختلف ما يترتب عليه، مثلا:

- ذبح الحيوان، الحيوان الحلال أكله، ذبح فذكر اسم الله عليه، ما حكم الذبيحة؟ حلال.

-شخص آخر ذبح لغير الله (وما أهل لغير الله به) هذه ذبيحة حرام.

-رجل عصر العنب ليتخذه عصيرا، ما حكمها؟ حلال.

-آخر عصر العنب ليتخذه نبيذا يخمره ويبيعه نبيذا هذا حرام.

-ألفاظ الطلاق لها أثر في النية، إذا قال لزوجته الحقي بأهلك، هذا يسمى طلاق كناية أي إذا نوى الطلاق فهو طلاق، وإذا لم ينو الطلاق فليس بطلاق، يقول لها اعتبري ما بيننا انتهى، ما هي النية، هل نيتك الطلاق؟ أم نيتك أمر آخر لو نوى الطلاق فهو طلاق، أما إذا لم ينو ولم يرد على باله الطلاق فليس بطلاق.[1]

-أعطى الفقير مالا بنية الهدية، هل يجزئ أن يكون صدقة؟ لا.

(1) بمناسبة الوسواس بعض الرجال يوسوس أيضا في موضوع الطلاق، يقول كلما أردت أن أنطق كلمة يسبق على لساني كلمة الطلاق، يا أخي هذا من الشيطان !!ورحم الله الفقيه ابن عقيل جاءه رجل فقال له إن الشيطان يوسوس لي أني طلقت زوجتي، قال: ألم تطلقها؟ قال لا. قال: ألم تأتني بالأمس وطلقت زوجتك أمامي؟ قال لا والله. قال يا رجل. قال لا والله. قال إن جاءك الشيطان فأقسم له كما أقسمت لي.

- نويت أن هذه هدية فهي هدية. نويت أنها زكاة فهي زكاة.

-لو أن رجلا اخرج صدقة تطوع ولم ينو الزكاة، فلما جاء حين إخراج الزكاة قال احتسب ما أنفقت من زكاة مالي؟ نقول له لا. لا يصح لعدم وجود النية، ناهيك عن الذي يحسب الضرائب من الزكاة فهذا لا يجوز.

ثالثا/ الإرادة والقصد في النية:

لو أن رجلا قال كلمة كفر مخطئا لم يقصد بها الكفر، فإنه لا يحكم بكفره.
وفي الحديث: **(لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته التي عليها طعامه وشرابه فأضلها في أرض فلاة، فاضطجع قد أيس منها، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة على رأسه فلما رآها أخذ بخطامها وقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح)**[1]

فقوله: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) حقيقة اللفظ هنا كفر والعياذ بالله، لكن هل نوى الرجل الكفر؟ هل قصد الكفر؟ كلا؛ إذن ليس بكافر، بل إن النبي ﷺ ذكرها دلالة على شدة فرحه، ومعنى أن الرسول يذكرها دون أن ينكر دلالة على أن الله لن يعاقبه عليها، لماذا؟

لأن النية عمل قلبي، بمعنى: لو أني أريد الشيء وأقصده فهذا كله ينعقد في القلب، ويترتب عليه الأثر الشرعي، فلو قال كلمة كفر لم يقصدها ولم يردها فلا يكفر، ولو أقسم يمينا بالله مخطئا لم ينو شيئا، وليس له إرادة، ولم يقصد، فيمينه لا يقع.

ومثال ذلك في واقع الناس: أن يُسأل المرء عن قليل مالٍ فيحلف نافيًا لنسيانه قائلا: لا والله ما معي، وبعد أن عودته لبيته يتذكر أنه كان يحمل في معه بعض المال لكنه نسي، فهذا يسمى يمين لغو فلا يترتب عليه شيء.

فأنا أخطأت، لم أنو الكذب ولم أقصد الكذب، فاليمين هنا يمين لغو.

لكن واحد نوى وقصد وقال والله سأفعل كذا وكذا، سأسافر سأعطي فلان كذا... إلى آخره، فنوى وقصد هنا انعقد اليمين، قال تعالى: **﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: 89]**

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم 6309)، ومسلم في صحيحه (كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث رقم 2747)

مثال آخر: في الإكراه على فعل شيء، رجل أكره على قول الكفر مثل عمار بن ياسر- رضي الله عنه-، أو رجل أكره حتى طلق زوجته، أو أكره حتى كتب على نفسه ديونا وشيكات مثلا بأموال طائلة، فنقول هنا إنه لم ينو ولم يقصد، فشرط الإرادة والقصد هنا غير موجود، فلا يترتب عليه أثر شرعي، **قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106]**

ما حكم من أكل أو شرب في نهار رمضان؟

هل هو ناسٍ أو مخطئ أو متعمد، فلو نوى وقصد فصيامه باطل، وإذا لم ينو ولم يقصد، فأكل ناسيا فحكم صيامه أنه صحيح.

ولو أخطأ في تحري الفجر، أخطأ في الساعة نظر فوجد ما زال الوقت لم يدخل وقت الفجر فأكل، أو أكل قبل المغرب ظنا أن المغرب أذن فأكل أو شرب، ما حكم صيامه؟

صيام صحيح على الراجح، وبعض الفقهاء قالوا: إنه يقضي لكن الأصح الذي يتوافق مع الأدلة أن الخطأ قرين النسيان، لم ينو ولم يقصر.

والدليل على ذلك ما ورد عن زيد بن وهب قال: أفطر الناس في زمن عمر بن الخطاب، فرأيت عساسا (أقداحا ضخاما) أخرجت من بيت حفصة فشربوا ثم طلعت الشمس من سحاب فكأن ذلك شق على الناس، فقالوا: نقضي هذا اليوم، فقال عمر: لم؟ والله ما تجافنا لإثم .)[1]
أي لم نتعمد ارتكاب الاثم.

وروى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: أفطرنا يوما من رمضان، في غيم، على عهد رسول الله ﷺ، ثم طلعت الشمس.[2]

---

[1] أخرجه عبد الرزاق في *المصنف* (كتاب الصيام، حديث رقم 7592)، والدارقطني في *سننه* (2/191)، والبيهقي في *السنن الكبرى* (4/218)، وإسناده صحيح كما قال ابن حجر في *فتح الباري* (4/199)، وصححه الألباني في *الإرواء* (حديث رقم 938)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الصوم، باب إذا أفطر في رمضان ثم طلعت الشمس، حديث رقم 1959)،
قال ابن تيمية: وهذا يدل على شيئين:
الأول: يدل على أنه لا يستحب مع الغيم التأخير إلى أن يتيقن الغروب، فإنهم لم يفعلوا ذلك، ولم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة – مع نبيهم – أعلم وأطوع لله ولرسوله، ممن جاء بعدهم.
والثاني: يدل على أنه لا يجب القضاء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لو أمرهم بالقضاء، لشاع ذلك كما نقل فطرهم فلما لم ينقل دل على أنه لم يأمرهم به.
وقال أيضا ـ رحمه الله: وهذا القول أصح الأقوال وأشبهها بأصول الشريعة ودلالة الكتاب والسنة، وهو قياس أصول أحمد وغيره، فإن الله رفع المؤاخذة عن الناسي والمخطئ، وهذا مخطئ وقد أباح الله

حكم طلاق الغضبان:

الغضبان غضبا عاديا يقع طلاقه، لأنه مدرك وفاهم، إنما الغضب الشديد الذي يصل معه الإنسان إلى أن يقول دون أن يدري أو أن يقصد أو أن يفعل أشياء لا تتصور لدرجة أن نقول له أنت قلت كذا وسببت كذا وعملت كذا فلا يتذكر شيئا، فمن اشتد غضبه جدا، فوقع في الطلاق دون أن ينوي ودون أن يقصد وربما لا يتذكر شيئا؛ لا يقع طلاقه، قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ **[البقرة: 227]**، والعزم إرادة الفعل وقصده ، فمن اشتد غضبه لم يرد ولم يقصد فلا يقع طلاقه، لكن لو أن رجلا عصبته زوجته وهو فاهم أنه ينطق بكلمة الطلاق وأنه يطلق زوجته نقول له هذا طلاق واقع.

إنما رجل خرجت منه كلمة الطلاق دون أن يقصدها أو ينويها ودون أن ترد على باله لا يقع طلاقه، وفي الحديث: **(لا طلاق ولا عتاق في إغلاق)**[1]
إغلاق أي أنه إذا اشتد الغضب يستغلق العقل فلا يدرك الأمور بشكل صحيح ولا يفكر في العواقب.
البعض سيقول: لم طلق زوجته ولم يطلق أمه مثلا طالما أنه لا يعي شيئا؟

هو في ساعة الغضب الشديد جدا، لكنه لم يفقد عقله كلية، أي نعم هو لم ينو ولم يقصد لكن هو ما وصل لدرجة الجنون الحقيقي بفقد عقله فلا يستطيع أن يميز أمه من زوجته، فهو أي نعم جرى على لسانه كلمة الطلاق لكن لم ينوها، وهذا الأمر ليس فتوى عامة إنما هو لبيان الحكم الشرعي.

ولما يسألني أحد أقول له: لا بد وأن أسمع منك ومن زوجتك لنتأكد أنك فعلا وصلت لمرحلة الإغلاق كما بالحديث السابق، بمعنى أنك لم تنو ولم تقصد، وهذه المرحلة يسمونها عدم التحكم أو السيطرة على الأفعال.

4- النية الصالحة لا تصحح العمل الفاسد:

هناك من يسرق ليتصدق، يسرق هذا عمل فاسد، طيب الصدقة؟ عمل طيب، نقول لك لا، **(إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا)**، إن الله لا يصلح عمل المفسدين.

الأكل والوطء حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، واستحب تأخير السحور ومن فعل ما ندب إليه وأبيح له لم يفرط، فهذا أولى بالعذر من الناسي. انتهى

[1] أخرجه سنن ابن ماجة (حديث رقم 2046)، ومحمد بن إسحاق البزار في مسنده (26360)، واللفظ أيضاً في سنن أبي داود (2193)، وصحّحه محمد ناصر الدين الألباني في "صحيح وضعيف سنن ابن ماجة".

يأكل الربا ليتصدق، يقول: وضعت فلوسي في البنك بحساب ادخاري، لكن الفوائد أخرجها في سبيل الله للأيتام للفقراء.

هناك فرق بين من يأخذ الفوائد للتخلص منها لأنه لم يكن يعرف، أو كان عاصيا وهداه الله وتاب، ومن وضع المال بصفة مستمرة ويأخذ فائدة ربوية وهو يعلم ثم يتصدق بها!!!

هذا مال خبيث لا يقبله الله عز وجل، ولا يغفر لك ذنب أكل الربا، قال تعالى: ﴿**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: 275]

قصة الأصمعي وسارق الرمانة:

رأى الأصمعي جارية تحمل رمانا فوق رأسها في وعاء، فتسلل إليها رجل فأخذ رمانة منها خلسة وهي لا تشعر.

قال الأصمعي فتبعته حتى مر الرجل بمسكين فأعطاه الرمانة!!
فقال له: عجبا لك سرقتها.. ظننتك جائعاً؟ أما أن تسرقها وتتصدق بها على مسكين؛ فهذا أعجب!!
فقال الرجل: كلا يا هذا.. أنا أتاجر مع ربي..
فرد الأصمعي مستنكرا تتاجر مع ربك كيف ذلك؟!
فقال الرجل: سرقتها فكتبت عليّ سيئة واحدة.. وتصدقت بها فكتبت لي عشر حسنات.. فبقي لي عند ربي تسع حسنات! فإذاً أنا أتاجر مع ربي!!!
فقال له الأصمعي رحمه الله: سرقتها فكتبت عليك سيئة، وتصدقت بها، فلن يقبلها الله منك ... لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ... فأنت كمن يغسل الثوب النجس بالبول!!!

وكم في زماننا من أمثال هذا الرجل يفتي لنفسه أو لغيره بدون علم، ويجادل بالباطل وهو يظن أنه على الحق، ويبرر ويدافع ليحلل لنفسه الحرام، أو يوهمها انه على صواب من أمره؛ عافانا الله وإياكم من اتباع الهوى.

5- نية المرء أبلغ من عمله:

نية المرء أبلغ من عمله قد تنوي فعل الشيء ولا تقوم به، وفي الحديث القدسي:

(إذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له بحسنة، فان عملها فاكتبوها له بعشر) [1]، فمن هم ولم يفعل، يجازى بالنية.

-مثلا لو أني قلت إن شاء الله غدا الاثنين سأنوي الصيام فهذه نية، فلما كنت في اليوم التالي أصابني عطش شديد أو تعبت او أجهدت في العمل، يكتب لك صيام يوم الاثنين تطوعا، ولو صمت يكتب لك صيام عشرة أيام.

-نويت قيام الليل قلت إن شاء الله أنام مبكرًا، واستيقظ على الساعة أربعة لأقيم الليل وضبطت المنبه فعلا وعندك عزم ونية على قيام الليل ثم شاء الله أن تغفل فلا تسمع للمنبه ولا تستيقظ إلا على أذان الفجر يكتب لك قيام ليلة.

-لو خرجت لإدراك صلاة العشاء في جماعة ففاتتك صلاة الجماعة، يكتب لك ثواب الجماعة، فنية المرء أبلغ من عمله.

وفي الحديث يقول النبي ﷺ: **(مَنْ تَوَضَّأَ فأحسنَ وُضُوءَهُ، ثم رَاحَ فوجدَ الناسَ قد صلَّوا، أعطاهُ اللهُ مِثلَ أجرِ من صلاها أو حضرها، لا ينقُصُ ذلك من أجورِهِم شيئًا).** [2]

- ومن نوى الشيء ثم لم يصل إليه أو لم يبلغه يكتب له أجر هذا العمل.

وفي غزوة تبوك **قال النبي ﷺ لأصحابه: (إنَّ بالمدينةِ أقوامًا ما سِرْتُم مسِيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم"، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينةِ؟ قال: "وهم بالمدينةِ؛ حبسهُمُ العُذْرُ)**[3]

أهم ما يستفاد من الحديث:

1. هذا الحديث أصل عظيم في تصحيح المقاصد، وبه تُوزن الأعمال عند الله.
2. العمل الواحد قد يختلف حكمه وثوابه باختلاف نية صاحبه.
3. النية في العبادات شرط للصحة، وفي العادات شرط لتحصيل الثواب.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب من همَّ بحسنة أو بسيئة، حديث رقم 6491)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة، حديث رقم 131)

(2) رواه أحمد برقم: (8947) واللفظ له، وأبو داود برقم: (564)، والنسائي برقم: (855)، والحاكم برقم: (754) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-. وصحح الألباني في صحيح الجامع برقم: (6163)، وصحيح سنن أبي داود برقم: (573).

(3) رواه البخاري برقم: (4423) واللفظ له من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-ومسلم برقم: (1911)، من حديث جابر -رضي الله عنه- ولفظه: "حبَسهُم المرض"، وفي لفظ له: "إلا شرَكوكم في الأجر"، وفي لفظ له أيضًا برقم: (1911): "إنَّ بالمدينة لَرِجَالًا". وفي لفظ للبخاري برقم: (2839): "إن أقوامًا بالمدينة خلفنا، ما سَلكنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهُم معنا فيه، حبَسهم العُذر".

4. لفظ **الأعمال** يشمل العبادات المحضة كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ويشمل أيضًا العادات والمباحات كالسعي والمعاش والطعام واللباس، والأعمال المعتبرة عند الله لا تكون إلا بالنية.
5. ينال العبد جزاءه بحسب قصده؛ فمن قصد الإخلاص أثيب، ومن قصد الرياء حُرم.
6. قد يعظم العمل الصغير بالإخلاص، وقد يصغر العمل الكبير أو يبطل بالرياء.
7. فهم الحديث يعالج وسوسة النية؛ فمن علم من نفسه أنه يعمل لله فلا يلتفت إلى وساوس الشيطان.
8. ثناء الناس على العمل الصالح لا يضر إذا كان أصل العمل خالصًا لله، بل قد يكون من عاجل بشرى المؤمن.
9. الرياء يبطل العمل؛ لأن الله تعالى غني عن الشرك، ومن عمل عملًا أشرك فيه غير الله تركه الله وشركه.
10. ذكر الهجرة في الحديث مثال لتأثير النية في الأعمال؛ فالعمل الظاهر واحد، لكن أجره يختلف بحسب الباعث والقصد.
11. الهجرة من مكة إلى المدينة كانت واجبة قبل الفتح لمن لا يستطيع إظهار دينه، ثم انتهى حكمها الخاص بعد فتح مكة.
12. السفر أو الانتقال من بلد إلى بلد لطلب الرزق أو الزواج أو الأمان أمر مباح في نفسه، وليس هو المذموم في الحديث.
13. لا يُشرع التلفظ بالنية في العبادات، والراجح أن النية محلها القلب، والتلفظ بها لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه.
14. التلبية في الحج والعمرة ليست تلفظًا بالنية، وإنما هي إعلان للنسك وإظهار لشعيرة الحج أو العمرة.

15. علاج وسواس النية هو الإعراض عنه وعدم الاستجابة له؛ لأن الاسترسال معه يفرح الشيطان ويوقع صاحبه في الحرج.
16. النية تؤثر في الأحكام؛ فالذبح لله غير الذبح لغير الله، والمال المعطى بنية الهدية غير المال المعطى بنية الزكاة.
17. القصد والإرادة معتبران في المؤاخذة؛ فمن قال كلمة كفر خطأ أو نسيانًا أو إكراهًا دون قصد لا يُحكم عليه بحكم المتعمد.
18. النية الصالحة لا تصحح العمل الفاسد؛ فلا يجوز أن يسرق الإنسان أو يتعامل بالربا بحجة أنه سيتصدق.
19. نية المرء قد تبلغه أجر العمل وإن عجز عنه بعذر، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة.
20. الإخلاص والرياء من أعمال القلوب، فلا يجوز اتهام الناس بالرياء ولا الجزم بإخلاصهم، بل نقول: نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدًا.
21. من نوى خيرًا كان جزاؤه خيرًا، ومن نوى رياءً أو شرًا عومل بنيته.
22. الحديث يربي المسلم على مراقبة قلبه، وتصحيح قصده، وتحويل عاداته إلى عبادات، والحذر من الرياء والوسوسة والعمل الفاسد.

****

الحديث الثاني

حديث جبريل عن الإسلام

والإيمان والإحسان

(2) حديث جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان

عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد؛ حتى جلس إلى النبي فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟

فقال رسول الله ﷺ: " الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا " قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: " أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره " قال: صدقت.

قال فأخبرني عن الإحسان؟ قال: " أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل "

قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: " أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان "

ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال: " يا عمر أتدري من السائل؟"

قلت الله ورسوله أعلم.

قال: " فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم "، رواه مسلم [1]

---

[1] الحديث بهذا اللفظ أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بقدر الله، حديث رقم 8)، وأخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم 50)

شرح الحديث

قوله: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد)

بينما كان أصحاب النبي ﷺ يوما جلوسا حوله إذ دخل عليهم رجل غريب ليس من أهل المدينة، وعمر بن الخطاب كان دقيق الملاحظة يعرف كل جالس من هو، والمدينة في حالة مواجهات عسكرية مع قريش والأعراب وغيرهم، فأي شخص يأتي من سفر بعيد سيبدو عليه من السفر غبرة أو عرق والملابس صفراء ومتسخة، وشعره أشعث لأن شعورهم طويلة فكانوا يلبدونها بالدهن، ومع السفر الطويل الشعور تهيش فيكون المسافر أشعث أغبر، فمن يأتي من سفر طويل، لا يلتفت إلى هيئته لطول سفره، وشعره لأنه لا يجد ما يسكنه به.

لكن هذا الرجل الذي طلع عليهم طلع عليهم في هيئة حضري بكلام بدوي، هيئة حضري أي رجل مقيم معهم في المدينة، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد منهم، فلو كان رجلا غريبا مسافرا لجاء يلبس ثيابا فيها العرق ويظهر على شعره أنه أشعث، فعمر يتعجب أنه لا يرى عليه أثر سفر ولا هو من أهل المدينة، وطبعا كون أن سيدنا عمر يقول: **(ولا يعرفه منا أحد)** معناه أنهم سألوا بعضهم.

ووصف عمر يبين لنا القدرة التحليلية للمعلومات عنده فاستطاع أن يحلل أن هذا الرجل عليه علامة استفهام كبيرة، لأنه ظهر بدون مقدمات وأنه لا يبدو عليه آثار السفر وأنه لا يعرفه أحدا من أهل المدينة.

(حتى جلس إلى النبي فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه)

جاء الرجل فجلس في مواجهة النبي ﷺ حتى أنه أسند ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ

(ركبتيه، فخذيه) الضمير هنا عائد على جبريل أم على النبي ﷺ؟

بعض العلماء قالوا: الضمير يعود على جبريل، وهذه هيئة المتعلم إنه وضع يده هكذا من باب الأدب والإنصات وليتعلم.

والبعض قال: وهذا هو الراجح أنه وضع يده على فخذي النبي من باب التعمية أكثر، إن هذه هيئة أو أسلوب الأعراب.

فوضع يده على فخذي النبي وفي رواية النسائي **(قال: حتى وضع يده على ركبتي النبي ﷺ)**

إذن المعنى: فأسند جبريل ركبتيه إلى ركبتي النبي ﷺ ووضع جبريل كفيه على فخذي النبي ﷺ

والصحابة تعلموا من الهدى الرباني أنهم إذا نادوا على رسول الله ﷺ لا يقولون: يا محمد إنما يقولون: يا رسول الله، ويا نبي الله.

أما جفاة الأعراب لأنهم يعيشون في الصحراء لم يكن عندهم هذه المدنية بمعنى التأدب والذوق ومناداة الناس بالألقاب، فهو معتاد على الغلظة في التعامل والخشونة، ولذلك في سورة الحجرات **قال تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: 4]**

لأنهم قعدوا يقولون يا محمد اخرج إلينا يا محمد اخرج إلينا، فرب العزة قال: **﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: 63]**، فالرسول ﷺ ليس كواحد منكم، فمن باب الأدب والتكريم لرسول الله ﷺ، لا تنادوه باسمه كما ينادي أحدكم صاحبه.

وقال: (يا محمد أخبرني عن الإسلام) جبريل عليه السلام مبالغة في التعمية أو إخفاء شخصيته قال) :**يا محمد أخبرني عن الإسلام** (لأنه لو قال يا رسول الله فمعناه أن أحد الطرفين يعرف الآخر.

هل النبي كان يعرف أنه جبريل؟

بعض العلماء قالوا نعم عرفه حينما جاءه بهذه الهيئة وأدرك ذلك، وبعضهم قالوا: عرفه فيما بعد، جبريل أخبره بأنه هو الذي أتاه.

قدرة الملائكة على التشكل بصورة بشرية:

وهذا يبين أن وجود الملائكة في الصورة البشرية لا يجعلنا نشك أبدا أنهم بشر، وهذه قدرة جعلها الله تعالى في الملائكة.

و **(الرسول ﷺ رأى جبريل على صورته وله ستمائة جناح قد سد الأفق)**[1]
الآن يأتي في صورة بشرية، كيف ذلك؟

هذا خارج نطاق قدرات إدراكنا العقلي، لكننا ندركه بالإيمان بالغيب ويقيننا أن هذا كله كائن بقدرة الله عز وجل.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: {لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}، حديث رقم 4857)، وأخرجه مسلم في صحيحه حديث رقم 176)

ولذلك في سورة مريم لما ظهر لها جبريل في خلوتها ظهر لها بشر سويا: **﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 17-19]**، بشرا سويا أي كامل الهيئة لا تشك أنه بشر، ليس كأفلام الخيال العلمي مخلوق بثلاثة عيون وخمسة أيادي، والعيون لامعة مدببة وكبيرة!! كلا، بشرا سويا كامل الهيئة والخلقة فلا تشك أنه بشر.

ولما جاءت رسل الله جبريل ومن معه من الملائكة إلى إبراهيم لم يشك أنهم بشر، فجاء بعجل سمين ذبحه وسوى اللحم وشواه وقدمه لهم، لم يشك إبراهيم أنهم بشر، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 69-70]**

وهذا معناه أن الملك إذا تحول إلى الصورة الآدمية لا يشك أحد في هذه الصورة أنه بشر مثله مثل البشر.

والملائكة إذا تمثلوا بصورة بشرية لا تراه إلا في أحسن هيئة وفي أحسن صورة ولا يخيفك، فالملائكة لا تخيف المؤمنين، والجن عندهم هذه القدرة أيضا، لكن الجن المؤمنين إذا ظهروا يظهرون في صورة حسنة، أما الشياطين فغالبا ما يتشكلون بصورة قبيحة سيئة كالكلاب السوداء، وكل هذا بقدرة الله عز وجل؛ فهو سبحانه الذي أقدرهم على ذلك.

إذن فهنا نلاحظ فطنة الفاروق عمر – رضي الله عنه- ودقة فهمه وتحليله، ونلاحظ أيضا تعمية جبريل على الناس، وقدرة الملائكة على التشكل بأشكال حسنة، وهذه إحدى الصور التي كان يأتي بها جبريل إلى النبي، فقد كان يأتيه مثل صلصلة الجرس وكان يلقي في روعه أي في قلبه الكلام، وكان يأتي في صورة رجل وأغلب ما كان يأتيه كان يأتيه في صورة صحابي اسمه دحية الكلبي رضي الله عنه، وكان حسن الهيئة حسن السمت فكان يأتي بصورته، هذه المرة جاء بهيئة غير معروفة، لكنها هيئة جميلة.

(قال يا محمد أخبرني عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه)

الإسلام: يفسر بالأعمال الظاهرة، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلاص من الشرك.

قال: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)

أي تشهد ألا معبود يستحق العبادة إلا الله؛ فالمعنى الكامل: لا معبود بحق إلا الله وحده، وهذا يتضمّن: التوحيد، والإخلاص، وترك الشرك، والانقياد لأوامر الله

وتشهد (أن محمدًا رسول الله) بتصديق النبي ﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

لماذا جعل النبي ﷺ (الشهادتين) أول ركن؟

جعل النبي ﷺ الشهادتين أول ركن من أركان الإسلام لأن الشرط الأساسي لدخول المرء في دين الإسلام: أن ينطق بالشهادتين، فبدونهما لا يُعد مسلماً، وهما الأساس الذي تُبنى عليه جميع الأعمال الأخرى.
فلا تُقبل العبادة إلا إذا كانت خالصة لله (بمقتضى الشهادة الأولى) وموافقة لسنة النبي ﷺ (بمقتضى الشهادة الثانية).
والأعمال الصالحة (مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج) لا تكون صحيحة ومقبولة إلا إذا صدرت عن شخص مؤمن موحد يقر بالشهادتين، ويلتزم بمقتضاهما؛ فالعقيدة الصحيحة هي الأساس الذي يُبنى عليه الإيمان والعمل.

وبعد أن عرفنا أن الشهادتين هما أساس الإسلام، تأتي الأركان الأربعة التالية لتشكل الإطار العملي للإسلام، وهي:

(وتقيم الصلاة) وهي خمس صلوات مفروضة يومياً في أوقات معلومة، والصلاة هي الصلة المباشرة بين العبد وربه، وهي أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة، وتركها جحوداً يُخرج من الملة عند جمهور العلماء.

(وتؤتي الزكاة) وهي حق معلوم ومقدر فرضه الله تعالى في المال إذا بلغ نصاباً معيناً وحال عليه الحول (عام هجري كامل)، ويُصرف هذا الحق لجهات محددة ذكرها الله في القرآن الكريم (كالفقراء والمساكين).

والزكاة فيها تطهير للمال والنفس: هي تطهير لمال الغني من الشوائب، وتطهير لنفسه من الشح والبخل، **قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103]**

(وتصوم رمضان) الصيام هو الامتناع عن الأكل والشرب والجماع وسائر المفطرات، من طلوع الفجر حتى غروب الشمس، بنية العبادة، في شهر رمضان المبارك.

والغاية الأساسية منه هي تحقيق التقوى، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]، فهو تدريب على مراقبة الله سراً وعلانية.

(وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا) الحج هو: قصد مكة المكرمة لأداء مناسك محددة (كالإحرام، والطواف، والسعي، والوقوف بعرفة) في وقت محدد (أشهر الحج)، مرة واحدة في العمر.

والاستطاعة شرط لوجوبه، وهي: القدرة المالية والبدنية وأمن الطريق

(قال فعجبنا له يسأله ويصدقه) نلاحظ أن الفاروق عمر يسجل ويراقب كل كلمة للرجل، وسبب تعجب عمر رضي الله عنه أنه من المعلوم أن السائل، إذا سأل فهو جاهل بالجواب، لكن إذا سأل وصدق بالجواب، فمعناه أن عنده معرفة بالإجابة، فهو سأل سؤال العالم وليس سؤال الجاهل، فجبريل يسأل النبي ﷺ والنبي يجيب فيقول له: صدقت.

قال: (فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال صدقت)

(فأخبرني عن الإيمان) الإيمان هو: التصديق بالقلب الذي يتبعه العمل، أو كما قال العلماء: القول باللسان، والتصديق بالجنان(بالقلب)، والعمل بالجوارح والأركان.

ولا يكون المرء مؤمنا إلا إذا كان مسلما، فيجتمع فيه عمل القلب – وهو الإيمان – وعمل الجوارح وهو الإسلام.

فالإسلام نطق باللسان، لكن الإيمان عمل قلبي لا يطلع عليه إلا الله.

ولو أن رجلا دخل الدين بنطق الشهادتين فاسمه مسلم، أما كلمة مؤمن فهذه درجة بعد ذلك، ولذلك في آية سورة الحجرات: **﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14]**

(لما) أداة تنفي حصول الفعل في الزمن الماضي، مع إمكان حدوثه في المستقبل، **(ولما يدخل الإيمان)** في الماضي لم يدخل الإيمان بعد، لكن ممكن حدوثه فيما بعد، أن يدخل الإيمان في قلوبكم في المستقبل.

ما الفرق بين الإسلام والإيمان؟

جبريل قال: أخبرني عن الإسلام ثم قال: أخبرني عن الإيمان، فما الفرق بينهما؟

الإسلام هو الانقياد الظاهري، بمعنى الاستسلام، من أسلم بمعنى انقاد لله، أي أني أقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، معناه أني صرت مسلما مطيعا لأوامر الله عز وجل، فأنا مسلم عندي دين يأمرني وينهاني، لكن الإسلام متعلق بالجوارح، فالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج، كلها عبادات، لكن ما في القلب هو الإيمان.

والظاهر لنا الإسلام، لأن الإسلام انقياد ظاهري بالجوارح، فلو أن رجلا أعلن إسلامه وفي باطنه الكفر أو منافق، تجري عليه أحكام الإسلام، لأن لنا الظاهر والله يتولى السرائر.

والدليل على ذلك: حديث أسامة بن زيد: قال بعثنا رسولُ اللهِ ﷺ إلى الحُرَقَةِ، فصبحنا القومَ على مياههم... فلحقتُ رجلاً فقال: لا إلهَ إلا اللهُ، فطعنتُه فقتلته. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ قال لي: أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قلتُ: يا رسول الله، إنما قالها تعوُّذاً. فقال: أفلا شققتَ عن قلبه؟ فما زال يكررها عليّ حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم.) [1]

الأركان الستة للإيمان:

1. **الإيمان بالله** :الاعتقاد الجازم بوجوده، ووحدانيته في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته.
2. **الإيمان بملائكته** :الاعتقاد بأن لله ملائكة مخلوقين من نور، عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة لا رجال، ولا نساء ولا أطفال ولا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، إنما يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لا ينقطعون عن عبادة الله عز وجل
3. **الإيمان بكتبه** :الاعتقاد بأن الله أنزل كتباً على رسله لهداية البشر، مثل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، والاعتقاد بأن القرآن هو آخرها وناسخها وحافظها.
4. **الإيمان برسله** :الاعتقاد بأن الله أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين لإقامة الحجة على خلقه، ومحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين.
5. **الإيمان باليوم الآخر :**يوم القيامة واسمه اليوم الآخر لأنه يوم لا ليل بعده، كل أيام الدنيا فيها نهار وليل نهار وليل، يوم القيامة هو يوم لا ليل بعده،

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، حديث رقم 96)

انتهت الدنيا، انتهى الليل، فسمي اليوم الآخر، وهو اليوم الذي يبعث الناس فيه بين يدي رب العالمين فيبعثهم من قبورهم ويسألهم عن أعمالهم، ويجازيهم عليها، فيجب الاعتقاد بكل ما أخبر الله به ورسوله مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر وعذابه ونعيمه، والبعث والحساب والجزاء والصراط، والميزان، والجنة، والنار.

6. **الإيمان بالقدر خيره وشره** :الاعتقاد بأن كل ما يقع في الكون من خير أو شر هو بتقدير الله، وعلمه، وإرادته، وكتابته.

لماذا قال الرسول ﷺ: بالقدر خيره وشره:

قال العلماء نؤمن أن الله هو الخالق المقدر لكل شيء خير كان أو شرا، لكن الشر لا ينسب إلى الله تأدبا، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ [الشعراء: 80]، لم يقل: **(وهو الذي يمرضني فهو يشفيني)**، إنما نسب المرض لنفسه رغم أن الذي يمرضك بقدره هو الله سبحانه وتعالى، والذي يفعل الخير والشر ويقدرهما جميعا هو الله سبحانه وتعالى، فإذا وقعت المصيبة أو وقع البلاء تؤمن به تقول: **(قدر الله وما شاء فعل)**

ويرى الإمام ابن القيم أن الشر الذي يُخلقه الله ليس شراً محضاً (خالصاً) مطلقاً من جميع الوجوه، فالشر قد يكون شراً بالنسبة للمخلوق المصاب به، لكنه خير وحكمة من جهة نسبته إلى الله تعالى وإرادته الكونية، ومن جهة ما يترتب عليه من نتائج ومصالح عامة، فمن الممكن أن يكون الأمر خيرا في أصله وشرا بالنسبة لما أضيف إليه، مثل المرض، هو شر بالنسبة للمريض، وبالنسبة للطبيب خير، فهذا عمله، وهو خير للصيدلي، وخير لصانع الدواء، ومن هنا قالت العرب مصائب قوم عند قوم فوائد.

نحتج بالقدر في المصائب وليس في المعائب:

قال العلماء: نحتج بالقدر في المصائب وليس في المعائب، من يحتج على الله بقدره في المعائب (أي فعل المعاصي) فهو كاذب على الله، فمن قتل شخصا ويحتج بأن هذا قدره أن يموت على يده فهو كاذب، وكذلك من يسرق، لماذا سرقت؟

فيقول هذا رزقي قدره الله لي في جيوب الناس، فلا يحتج بقدر الله على فعل المعصية، فلا يقل عصيت لأن الله قدر على هذه المعصية، لكن في المصائب تحمد الله وتقول: (قدر الله وما شاء فعل)

ما الفرق بين القضاء والقدر؟

هناك كلام طويل لأهل العلم في تعريفهما وذكر الفرق بينهما، وخلاصة الكلام أوضحه بمثال: لو أن قاضيا حكم حكما: أن يسجن فلان مثلا سنتين، هذا قضاء، **متى ينفذ فيه الحكم؟** إذا نفذ الحكم كان قدرا، من الممكن أن هذا الذي حكم عليه قضاء يعمل استئناف مثلا أو أن تظهر أدلة جديدة في القضية فيعاد التحقيق فيها، أو يموت، أو يعفو عنه الملك أو الرئيس أو يهرب فلا يستدلون عليه فلا ينفذ فيه الأمر فحصل قضاء لكن لم يقع القدر.

هذا بالنسبة للأمور الدنيوية، أما بالنسبة لله عز وجل فقد سبق في علم الله أن فلان سيولد في اليوم الفلاني، إن فلانا سيتزوج بفلانة، إن فلانا سينجب ذكرا أو أنثى أو عددا من الذكور والإناث، فهذا قضاء، قضاه الله.

ومن يقصر في الأخذ بالأسباب، ويقول ربنا مقدر عليّ الفشل، هذا كذب على الله، بل الفشل هو نتيجة تقصيرك في الأخذ بالأسباب.
والصحابة رضوان الله عليهم ورسول الله معهم، قال لهم رب العزة: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165]**

في غزوة أحد لما كان خمسون من الرماة يحمون ظهور المسلمين، وأوصاهم الرسول ألا يتركوا أماكنهم، فتركوا أماكنهم لما انتهت المعركة والغنائم كثيرة، فقام خالد بن الوليد وكان قائد سلاح الفرسان ومعه 200 فارس فاحتل هذا المكان فطوق المسلمين من الخلف وبقي عشرة من الخمسين فقتلهم، وأمطر المسلمين بالسهام والنبال فكانت مقتلة وانتكاسة كبيرة جدا.

فهؤلاء الكرام كان فيهم رسول الله ﷺ فلما قصروا في الأخذ بالأسباب لم يحابِ الله صحابة نبيه وهو فيهم ومعهم، لنتعلم.

وهذا معنى قول العلماء: **(نؤمن بالقدر ولا نحتج به)**

اجتماع الإسلام والإيمان وافتراقهما

إذا قرن الإسلام بالإيمان صارا شيئين، وإذا ذكر الإسلام وحده، أو الإيمان وحده صارا بمعنى واحد، ولهذا نظائر في اللغة العربية كثيرة.

ولهذا قال أهل السنة والجماعة: إن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا، أي إذا ذُكرا في سياق واحد فهما شيئان، وإذا ذُكر أحدهما دون الآخر فهما شيء واحد.

أمثلة للتوضيح:

-قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)** فيشمل الإيمان والإسلام.

-ومثل قوله – تعالى -: **(وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران :102]** أي مسلمون مؤمنون.

-ويدل على هذا أيضا أن النبي ﷺ عدد أعمالاً هي من الإسلام، وجعلها من الإيمان **فقال: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله" مع أنها من الإسلام، قال: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله". "وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"**، وإماطة الأذى عن الطريق من الإسلام؛ لأنها عمل، والأعمال جوارح **"والحياء شعبة من الإيمان"** [1]**، وهذا** في القلب.

إذن الإيمان والإسلام إذا افترقا فهما شيء واحد، وإن اجتمعا فهما شيئان.[2]

قال: (صدقت فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)

الإحسان على درجتين:

الأولى: (أن تعبد الله كأنك تراه)، والمقصود هنا أن تستحضر عظمة الله وقرب الله تعالى منك وجلاله وهيبته وعظمته، فعندما تقف في الصلاة تقف وأنت على يقين أن الله جلا في علاه يراك.

الرتبة الثانية في الإحسان: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) هنا مرحلة المراقبة، فاستشعر أن الله هو الذي يراني، يراني في صلاتي، يراني في خلوتي، يراني وأنا

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه)كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، حديث رقم (9)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم (35)

(2) إتماما للفائدة: قوله تعالى: (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) [الذاريات:35، 36] نلاحظ أنه عندما ذكر الإخراج قال: من المؤمنين، وفي التالية قال: المسلمين؟ ما سر التغاير؟ الآية موافقة لهذا المعنى في وصف أهل بيت لوط عليه السلام مرة بالإيمان ومرة أخرى بالإسلام. فالمراد بالإسلام هنا الإسلام الظاهر، والإيمان هو الإيمان القلبي الحقيقي، فلما وصف الله تعالى أهل البيت جميعاً وصفهم بالإسلام، وذلك لأن امرأة لوط عليه السلام من أهل بيته، وكانت مسلمة في الظاهر، كافرة في حقيقة الأمر، ولما وصف الله تعالى المخرجين الناجين وصفهم بالإيمان. (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) [الذاريات:35، 36] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "امرأة لوط كانت منافقةَ كافرةً في الباطن، وكانت مسلمة في الظاهر مع زوجها، ولهذا عُذِّبت بعذاب قومِها. فهذه حال المنافقين الذين كانوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستسلمين له فيَ الظاهر، وهم في الباطن غير مؤمنين" مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية(334-7)

قادر على فعل المعصية، يراني وأنا أستطيع أن أكذب فلا أكذب، وهذا هو معنى التقوى.
إذن فالعبد يترقى في ثلاث درجات: الدرجة الأولى: الإسلام ثم الثانية الإيمان ثم الدرجة الثالثة الإحسان.

قال: (فأخبرني عن الساعة) :كلمة الساعة هي جزء من الوقت لكن ليس المراد بها ما تعارفنا عليه أن الساعة ستون دقيقة والدقيقة ستون ثانية هذا تعريف حديث، لكن عند العرب الساعة هي جزء من الزمن، ولذلك الآية: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ **[الأعراف: 34]** أي أقل جزء من الزمن، فلا تأخير إذا جاء أجل الله.

وعندنا الحديث (من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر.)[1]

فليس المقصود أنها الساعة الزمنية (ستون دقيقة)، لأنك لو حسبت من الفجر للجمعة فمعناه إنك ستأتي في الساعة السادسة صباحا المسجد وهذا لم ينقل عن صحابة الرسول ﷺ بل هي ساعة أي جزء من الوقت مما اعتاد الناس الذهاب والرواح فيه إلى المساجد، ولم يثبت أن صحابة رسول الله كانوا يصلون الفجر، ويبقون بالمسجد إلى وقت الجمعة أو كانوا يبكرون جدا جدا فيأتون في الصباح الباكر لصلاة الجمعة لم يثبت هذا، إنما هي جزء من الوقت مما اعتاد الناس أن يأتوا فيه إلى الجمعة.

والقيامة اسمها الساعة لأنها الساعة المنتظرة المرتقبة التي تنتهي فيها الدنيا، ويقوم الناس فيها لرب العالمين، قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾ [الأحزاب: 63] فصار الاسم علما على هذا اليوم فيقال يوم الساعة وهكذا.

قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) أي أنا وأنت يا جبريل لا ندري، فوقت الساعة لا يعلمه أحد إلا الله كما قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا**

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه)كتاب الجمعة، باب فضل الغسل يوم الجمعة، حديث رقم (881)، ومسلم في صحيحه (كتاب الجمعة، باب فضل التهجير إلى الجمعة، حديث رقم (850)

تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187] سبحانه وتعالى، يظهرها وقت ما شاء.

قال: (فأخبرني عن أماراتها) جمع أمارة وهي العلامة، علامة الشيء أمارته أي علامته.

هنا ذكر النبي ﷺ علامتين من علامات الساعة:

العلامة الأولى: قال: (أن تلد الأمة ربها أو ربتها):

على اختلاف النطق في الروايتين، والأمة هي المملوكة، الذكر يقال له عبد، ويقابله في النساء الأمة، فهي المرأة المملوكة لسيد.

ومعنى ربها: سيدها، يقال: رب البيت معناها السيد المالك المتصرف المسؤول، وعبد المطلب قال: أما الإبل فأنا ربها وأما البيت فللبيت رب يحميه، ولذلك ليس من الحرمة استعمال لفظ الرب في الكلام لأنه من الألفاظ المشتركة.

والمعنى: أن العرب كانوا يستنكفون أن يتزوج السيد الشريف من الأمة، بل يتزوج حرة شريفة مثله، أما الأمة فتتزوج عبدا مثلها، جاء الإسلام وجعل من وسائل تحرير العبيد والإماء أن تعامل الأمة المملوكة معاملة الزوجة، فإذا أنجب منها صارت اسمها، أم ولد، أم ولد هنا ليس معناه ذكر فقط؛ إنما تشمل ذكر أو أنثى فصارت بمنزلة الزوجة.

بعد الفتوحات الإسلامية وهذا كان عرفا في القانون الدولي وقتها، أن السبايا غالبا من النساء والأطفال يباعون بيع العبيد، فبدلا من معاملة هؤلاء معاملة العبيد كان الرجل يعامل الأمة معاملة الزوجة، فيطؤها أو يجامعها وتحمل منه، وتكون أم ولد عنده، فوصل الأمر إلى أن ظهر ملوك أو خلفاء أو أمراء أمهاتهم في الأصل إماء، فولي العهد سيتولى الخلافة أو سيتولى الإمارة فيما بعد وهو ابنها، فولدت الأمة ربها، أي الملك الذي يحكم الجميع.

وهذا فيه إشارة إلى انتشار الإسلام، وأن العرب ستتنازل عن الشرط الذي كانوا يجعلونه في الزواج وهو أن الحر يتزوج بالحرة والحرة تتزوج بالحر، فالإسلام قال تعامل الأمة معاملة حسنة وتسمى ملك اليمين إلى آخره، وطبعا هذا الكلام حصل بعد زمن من وفاة النبي ﷺ وهذا من الإخبار عن الغيب.

العلامة الثانية: (وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة، يتطاولون في البنيان)

حفاة أي ليس في أقدامهم نعال، وعراة: مبالغة في التعبير عن الفقر أي أن الرجل منهم بالكاد عليه شيء يستر عورته المغلظة، فتقول عليه عاري، رعاة الشاة أو رعاء الشاء بالهمزة كلاهما صحيح.
رعاة جمع راع، والشاة جمع شاة، وهي واحدة الضأن، واحدة الضأن.
البدو الرحل الذين كانوا يرحلون خلف الماء والكلأ والعشب، الرسول أخبر أن هؤلاء الأعراب الذين هم شديدو الفقر، ضعيفو الحال سيعملون بنايات ضخمة، ويتطاولون في البنيان، وهذا حصل فعلا بعد البترول، فصار هؤلاء الذين كانوا يعيشون بدوا رحلا في الصحراء من ملاك البنايات الضخمة أصحاب الثروات الكبيرة هذا أمر مشاهد الآن.

سؤال: وهل يحرم أن نبني بنايات كبيرة (كناطحات السحاب)؟

كلا، الرسول قال: يتطاولون في البنيان أي أن هذا من علامات الساعة أن يكون التفاخر والتعالي في البنيان، إنما البنيان نفسه ليس حرام، والرسول بنى الحجرات وبنى المسجد، والصحابة بنوا بيوتهم فهذا ليس حرام، والبنايات الضخمة ليست حرام، بل صارت من ضروريات الحياة خاصة في المناطق الحيوية والمدن الكبرى والسياحية.

وليس كل علامة من علامات الساعة ذكرها الرسول حرام، أي أن الرسول ﷺ ذكر من علامات الساعة فشو التجارة، أي انتشارها، هل معنى هذا أن التجارة حرام؟ كلا، إنما ذكرها النبي ﷺ كعلامة من علامات الساعة.
ليس معنى أن الرسول ﷺ ذكر علامات وتحققت أن القيامة ستقوم الأسبوع القادم، إنما معناه قرب الوقوع – ﷺ وأخبر عن علاماتها حتى نعلم أنها حق، وأنها ستقع.

قال: (ثم انطلق فلبث مليا) انطلق هذا السائل لم يكن الصحابة يدرون شيئا عنه، **(فلبث مليا)** أي: بقيتُ مدةً بعد انصرافه، في رواية: ثلاثة أيام.

ثم قال لي الرسول: ﷺ (يا عمر أتدري من السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم)

حين تقول هذه الكلمة تقولها في الأمور الشرعية، الله ورسوله أعلم في الأمور الشرعية، لكن في أمور الدنيا الله أعلم فقط لأن الرسول لا يعلم الغيب إلا إذا أطلعه الله عليه، الله وحده هو الذي يعلم.

قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) جبريل جاء يعلمكم الدين بهذه الأسئلة الواضحة الجامعة، علمهم ما هو الإسلام وما هو الإيمان وما هو الإحسان.

وطريقة السؤال والجواب من أفضل وسائل التعليم، ومن فوائدها:

1. أنها توقظ انتباه المتعلم، لأن السؤال يجعل النفس تترقب الجواب.
2. أنها تثير حب المعرفة، فيكون المتعلم أكثر إقبالا على الفهم والحفظ.
3. أنها تعين على تثبيت المعلومة؛ لأن الجواب الذي يأتي بعد سؤال يكون أرسخ في الذهن.
4. أنها تكشف مقدار فهم المتعلم، فيعرف المعلم موضع النقص أو الإشكال.
5. أنها تجعل الدرس أكثر حيوية وتفاعلًا، بدل أن يكون إلقاء من طرف واحد.
6. أنها تربي المتعلم على حسن السؤال، وحسن ترتيب المسائل.

فوائد هذا الحديث:

1. هذا الحديث من أعظم الأحاديث الجامعة؛ لأنه جمع مراتب الدين، ويُطلَق عليه أُمُّ السُّنَّة؛ لاشتماله على جميع مراتب الدين، وهو من الأحاديث التي عليها مدار الدين.
2. وصف عمر رضي الله عنه للرجل الداخل عليهم يدل على مدى دقة ملاحظته وفطنته؛ إذ لاحظ أنه لا يعرفه أحد، ولا يظهر عليه أثر السفر مع كونه غريبًا.
3. تواضع النبي بجلوسه بين أصحابه وتركه لهذا الرجل بأن يضع يده على فخذه.
4. الملائكة لهم قدرة على التشكل في صورة بشرية بإذن الله، كما في هذا الحديث وأيضا كما تمثل جبريل لمريم عليها السلام بشرًا سويًّا.
5. الإيمان بالغيب يقتضي التسليم بما أخبر الله ورسوله به، ولو كان خارج حدود إدراك العقل البشري.

6. الإسلام يفسر بالأعمال الظاهرة، ومعناه الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلاص من الشرك.
7. الإيمان عند أهل السنة: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح، والأركان.
8. الإسلام يتعلق في الأصل بالظاهر، والإيمان يتعلق بالباطن، والله يتولى السرائر.
9. من أعلن الإسلام عومل بأحكام المسلمين، ولا يجوز تفتيش القلوب.
10. أركان الإيمان ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره، وشره.
11. الشر لا يُنسب إلى الله على وجه الأدب، مع الإيمان بأن كل شيء يقع بقدره وحكمته.
12. ما يراه الإنسان شرًا من وجه قد يكون فيه خير وحكمة من وجه آخر، فالله لا يخلق شرًا محضًا مجردًا عن الحكمة.
13. من قصّر في الأخذ بالأسباب ثم احتج بالقدر فقد أخطأ؛ لأن الشرع أمر بالأخذ بالأسباب مع الإيمان بالقدر.
14. الإحسان أعلى مراتب الدين، وهو أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.
15. الدين مراتب متكاملة؛ ظاهرها الإسلام، وباطنها الإيمان، وذروتها الإحسان، وكلها تقوم على التسليم لله ومراقبته والعمل بما شرع.
16. المسلم يترقى في مراتب الدين: الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان.
17. علم الساعة مختص بالله وحده، فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ما أطلعه الله عليه من علاماتها.

18.ذكر الشيء في علامات الساعة لا يعني أنه حرام؛ فقد تكون العلامة أمرًا مباحًا في نفسه، وإنما المقصود الإخبار بوقوعه.

19.لا يجوز الجزم بقرب قيام الساعة بمجرد تحقق بعض العلامات، بل الواجب الإيمان بأنها حق وأن علم وقتها عند الله.

20.قول :**الله ورسوله أعلم** يقال في الأمور الشرعية في حياة النبي ﷺ، أما بعد وفاته وفي أمور الغيب والدنيا فيقال: الله أعلم.

21.قوله ﷺ :"**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** "يدل على أن هذا الحديث خلاصة جامعة للدين كله.

22.من أساليب التعليم النافعة: التعليم بالسؤال والجواب؛ لأنه يثير الانتباه ويجعل النفوس أكثر إقبالا على تلقي العلم.

****

الحديث الثالث

حديث بني

الإسلام على خمس

(3) حديث بني الإسلام على خمس

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال:

سمعت النبي ﷺ يقول:

" بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان"[1]

الاختلاف في تقديم الحج على الصوم:

في الرواية التي معنا قدم الحج على صوم رمضان قال وحج البيت وصوم رمضان لكن في رواية للإمام مسلم **عن ابن عمر من طريق آخر أن عبد الله بن عمر قال وصوم رمضان وحج البيت، قال رجل والحج وصوم رمضان قال: لا، صيام رمضان والحج هكذا سمعتها من رسول الله ﷺ.**

وهذا معناه دقة الصحابة في نقل كلام رسول الله ﷺ، رغم أنك تقول الأول صوم رمضان أو الحج ما في مشكلة لكن الضبط والدقة.

وهذه الرواية التي معنا في الصحيحين العلماء قالوا: إن التقديم والتأخير من تصرف الرواة، لأن كلام رسول الله ﷺ ليس نصا كالقرآن الكريم، فقد يحدث تقديم أو تأخير مثلا في رواية عن رواية هذا حفظ وهذا نسي، وربما كان النبي ﷺ يكرر الكلام ليحفظ عنه في أكثر من مشهد في أكثر من موضع، والنبي ﷺ كان يخطب الجمعة ويلتقي بالصحابة، وعنده الأمور التي يستفتى فيها؛ فربما الكلام الواحد يتكرر بأكثر من وجه وربما يختلف حفظ الرواة من راو إلى راو آخر، وربما نجد الرواية بالمعنى التي ترجع إلى الضبط والحفظ والإتقان.

منزلة الحديث:

قال النووي: إنَّ هذا الحديث أصل عظيم في معرفة الدين وعليه اعتماده وقد جمع أركانه.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، حديث رقم 8)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، حديث رقم 16).

وقال ابن رجب – رحمه الله: والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان، ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان، وهو قائم لا ينتقض بنقض ذلك، بخلاف نقض هذه الدعائم الخمس، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعًا بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي المكي المدني، وأمه زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحي، أخت عثمان بن مظعون، أسلم بمكة قديمًا مع أبيه وهو صغير، وهاجر معه.

وكان من فقهاء الصحابة وزهَّادهم، ولا يصح قول من قال: إنه أسلم قبل أبيه وهاجر قبله، ولم يشهد بدرًا لصغر سنه، وعُرض على النبي ﷺ يوم أحد وهو ابن أربعة عشر عامًا فرده، ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمسة عشر فأجازه، لم يتخلف بعد عن النبي ﷺ.

وهو أحد العبادلة الأربعة، وثانيهم ابن عباس، وثالثهم عبد الله بن عمرو بن العاص، ورابعهم عبد الله بن الزبير، ومن كرمه أنه أتاه اثنان وعشرون ألف دينار في مجلس فلم يقم حتى فرقها، وعاش سبعًا وثمانين سنة، ومات سنة ثلاث وسبعين رضي الله عنه.

شرح الحديث

(بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ) الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص والبراءة من الشرك وأهله.

أي: فمن أتى بهذه الخمس فقد أتم إسلامه، كما أن البيت يتم بأركانه كذلك الإسلام يتم بأركانه، وهي خمس، وهذا بناء معنوي شبه بالحسي، ووجه الشبه أن البناء الحسي إذا انهدم بعض أركانه لم يتم، فكذلك البناء المعنوي.

الركن الأول: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدَاً رَسُوْلُ اللهِ

كلمة (شهادة) هل هي مرفوعة أم مضمومة؟

لو قلنا بني الإسلام على خمس، على حرف جر، وكلمة شهادة بدل من خمس، والبدل له حكم المبدل منه فتكون مجرورة وهكذا ما بعدها **(وَإِقَامِ، وَإِيْتَاءِ، وَحَجِّ، وَصَوْمِ)** كلها مجرورة لأنها بدل من خمس.

الوجه الثاني في الإعراب (شَهَادَةُ) مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، فهي جملة مستأنفة جديدة بني الإسلام على خمس ثم تبدأ الكلام: **أحدها: (شهادةُ أن لا إله إلا الله)** فإعرابها هنا على أنها خبر لمبتدأ محذوف دل عليه سياق الكلام.

ومثلها في الإعراب (وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان)

لماذا قدمت الشهادتان أولا؟

لأنها أصل الدين، فكل عمل لا يفيد شيئا ولا جزاء له عند الله سبحانه وتعالى إلا إذا نطق بالشهادتين.

معنى الشهادتين:

كلمة أشهد أو الشهادة بمعنى الحضور شهد أي حضر ، كما أنك تشهد معنا هذا الدرس بالمسجد، والشاهد الذي يشهد بما رأت عيناه، يشهد بكذا يحلف أنه رأى كذا، فالشهادة تأتي بمعنى الحضور وتأتي بمعنى أن تشهد بما رأيت، وتأتي بمعنى اليقين الجازم بالشيء ، **قال تعالى :** ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ **[ق: 37]** ، ليس المقصود هنا الشهيد في القتال؛ كلا **(وهو شهيد)** أي حاضر القلب يعي ويدرك ما يقول أو ما يسمع، وألقى السمع أصغى سمعه وهو شهيد يشهد يتيقن ويعرف ماذا يقال من آيات الله عز وجل.

فمعنى أشهد أن لا إله إلا الله: أنا أقر يقينا كمن رأى وعاين بعينه أنه لا إله إلا الله، فأنا حينما تتلى علي آيات القرآن الكريم، أعلم يقينا أن الله هو الذي يقول، فرب العالمين يقول: **(يا أيها الذين آمنوا)** أعلم يقينا أن الذي ينادي هو الله، وحينما أقرأ ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ **[النساء: 58]** أعلم يقينا أن الذي يأمر هو الله.

أشهد أن لا إله إلا الله، فأنا أوقن بها غير شاك، ولا متردد، قال **تعالى:** ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحجرات: 15]، فأنت تقول أشهد أن لا إله إلا الله يقين، جازم، لا جدال ولا مراء ولا شك فيه، وقولك: **(وأشهد أن محمدا رسول الله)** أقر إقرار المتيقن أنه رسول من عند الله عز وجل، جاء بالهدى ودين الحق صلوات ربي وتسليماته عليه.

وهناك تلازم بين الاثنين، من الذي قال لنا: قولوا: أشهد أن لا إله إلا الله؟
الجواب: محمد رسول الله.

فأنت إذا شهدت أن لا إله إلا الله يستلزم معها تبعا، وأشهد أن محمدا رسول الله.

وتعجب أن بعض الناس يسمون أنفسهم اسم جميل **جدا "القرآنيون"** لكن حقيقة الاسم كمرارة الحنظل قالوا: نأخذ بالقرآن ولا نأخذ بالسنة، لا إله إلا الله!!

إن الذي تلي القرآن هو رسول الله، فإذا آمنت به وأيقنت بصدقه فكيف صدقته في القرآن وكذبته في السنة؟ فهذه دعوى باطلة.

الركن الثاني: إقَامِ الصَّلاةِ

مكانة الصلاة من الدين:

فرض الله الصلاة بدون واسطة الوحي إشارة إلى عظيم منزلتها، وسموّ مكانتها في الدين، كيف لا وهي عماد الدين وأساس اليقين، ومنطلق التحرُّر من كل عبودية، إلا من العبودية لله وحده، والتخلص من كل ذلٍّ، إلا لربه وخالقه ورازقه.

وقد أكرم الله عزّ وجلّ عبده ونبيه محمدًا ﷺ بالعروج إليه، ليلة الإسراء والمعراج، وهناك عند سدرة المنتهى فرض عليه الصلاة وحيًا مباشرًا.

فالصلاة معراج المؤمن إلى ربه، ومدَدَ متصل بين الأرض والسماء، ففي الصلاة يعرج الإنسان بروحه، ويطوي فواصل البعد بينه وبين خالقه عزّ وجلّ، ولا يشعر بهذه الرحلة إلا من يكتمل خشوعه في صلاته، وبهذا يتحقق المعنى الحقيقي للصلاة وهي الصلة بين العبد وربه.

فمنزلة الصلاة من الإسلام، منزلة الرأس من الجسد، فهي عماده ودعامته، وركنه وشعيرته، وهي قُرَّةُ العين، وأُنْسُ النفس، وبهجة القلب، والصِّلَة بين العبد والرب.

وإن نداء الله أكبر المتكرر في اليوم يجعل المسلم على يقين أن ماعدا الله الكبير المتعال صغير، والوقوف تجاه القبلة وإشارة اليدين بطرح الدنيا كلها خلف الظهر، وتيمم وجهك وقلبك وجسدك إلى بيت الله سبحانه، حتى ولو كنت إمامًا فتأخذ المأمومين معك إلى الله ووجهك ووجوههم إلى الله وظهرك وظهورهم إلى الدنيا.

والرسول ﷺ في حديث معاذ قال: (ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه إلا أن رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)[1]

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث رقم 2616)، وأحمد في المسند (حديث رقم 22159)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في *صحيح الترمذي*)حديث رقم 2110).

ما معنى عموده الصلاة؟

الخيمة لها أربعة أوتاد، وفي الوسط عمود الخيمة اسمه الفسطاط، هذا الذي يرفع قبة الخيمة، فشبه الصلاة بعمود الخيمة فقال: إن الصلاة عمود الدين، فهي منار الإسلام، وهي علامة فارقة بين الإيمان والنفاق، لأن الرسول ﷺ بين أن من أثقل الصلوات على المنافقين صلاتي العشاء والفجر، فالمؤمن يحافظ على الصلاة وينشط إليها والمنافق، كما وصف الله: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142]**

معنى إقام الصلاة:

إقامة الصلاة بثلاثة أمور:

1- صلاتها في وقتها.

2- والمحافظة على أركانها.

3- الخشوع فيها.

فمن ضيعها فقد توعده الله بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59]

و(إضاعة الصلاة) تعني:

- **الترك الكلي للصلاة :** تركها تمامًا وعدم أدائها، أما من يصلي الصلاة في وقتها فقد قال الله عنهم: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: 9-11]**

- **التهاون بأركانها وواجباتها :** عدم القيام بالصلاة على الوجه الذي أمر الله به، كترك بعض أركانها أو واجباتها عمدًا، **والرسول ﷺ قال: (أسوأ الناس سرقة الذي يسرق في صلاته، قالوا كيف يسرق في الصلاة يا رسول الله؟ قال لا يتم الركوع ولا السجود)**[1]

- **فوات وقتها :** تأخير الصلاة عن وقتها المحدد وعدم أدائها في وقتها الشرعي .

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في *المسند* (حديث رقم 20158)، وأخرجه الحاكم في *المستدرك* (كتاب الصلاة، حديث رقم 872)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح *الترغيب والترهيب* (حديث رقم 524).

الخشوع في الصلاة:

ومن إقامة الصلاة الخشوع فيها، والخاشع إذا انصرف من صلاته وجد خفّة من نفسه، وأحس بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطا وراحة وروحا، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرّة عينه ونعيم روحه، وجنة قلبه، ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها، لا منها.

فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال النبي ﷺ: **(يا بلال أرحنا بالصلاة)** ولم يقل أرحنا منها.

وقال: (جعلت قرة عيني بالصلاة) فمن جُعلت قرّة عينه في الصلاة، كيف تقرّ عينه بدونها وكيف يطيق الصبر عنها؟

قد يقول قائل: لكن الخشوع صعب جدا؟

استعن بالله، لأن الخشوع في الصلاة يتوقف عليه الأجر والثواب، فلو أديت الأركان صحيحة صحت الصلاة، لكن إذا فاتك شيء من الخشوع أو أصابك شيء من عدم التركيز في الصلاة السرحان أو الانشغال أو كذا، الصلاة صحيحة لكن ينقص من أجرها، لكن لا يطلب منك أن تكرر الفاتحة وتكرر التشهد وتكرر الصلاة، فهذا يفتح على نفسك باب وسواس.

الركن الثالث إيتاء الزكاة

إيتاء: إعطاء، آتى الشيء: أعطى، والزكاة منها ما هو فرض أوجبه الله تعالى على المسلم الذي يبلغ ما له النصاب، ويمر عليه عام هجري كامل، ومنها ما هو تطوع أي مستحب.

والزكاة هي الصدقة والصدقة هي الزكاة لكن غلب في استعمالنا العرفي أن الزكاة هي الفريضة والصدقة هي التطوع، لكن جاء في القرآن تسمية الفريضة صدقة: **قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: 60]، وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103]**

وكلمة زكاة مشتقة من الفعل زكى: أي نما وزاد، لكن كيف يزيد المال بالزكاة؟ فلو أن معي ألف، طلعت منهم زكاة مئة، فأصبحوا الآن تسعمئة، أما لو أخرجت المال بالربا الألف سيزيدون مئة فيكون مالي ألف ومئة؟

والجواب عن ذلك سهل يسير : فقد وعد الله المتصدق بالخلف العاجل والبركة، ووعد المرابين بالمحق والنقص، **قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276] ، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: 39]، ومعنى الآية: أن ما أعطيتم من أموالكم قرضا بالربا، فهذا العمل لا يربو أي لا ينمو أو يزيد عند الله لكونه ممحوق البركة وفيه غضب من الله على آكله.

وقوله: {وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون} أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما في الصحيح: **(وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تصير التمرة أعظم من أحد)** [1]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: 39]

فالفعل زكى بمعنى النماء فالله تعالى وعد كل من يزكي بالنماء فاذا أنفقت فإن الله يمدك بالعون، وبالخلف وبالبركة بما لا تستطيع شراءه مثل الصحة والعافية والنجاح والتوفيق وهكذا، نسأل الله تعالى أن يرزقنا من فضله العظيم.

المعنى الثاني: زكى بمعنى طاب ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [الكهف: 19] فمعنى زكاه طيبه وطهره.

وهذا معنى الآية (تطهرهم وتزكيهم بها) فالزكاة فيها تطهير للنفس، لأن من يعطي الزكاة يتصف بصفات عديدة، يطهر نفسه من الأنانية، والكبر، وقسوة القلب، فهو متصف بالرحمة، ومتصف بالتواضع، ومتصف بالربانية لأنه يعامل الله، ينفق فينفق الله عليه، ويخرج حق الله فيخلف الله تعالى عليه، ومن يمنع الزكاة وصف بصفات عديدة، **قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 1-7]**

الركن الرابع صوم رمضان

والصوم معناه الإمساك من الفجر إلى المغرب عن الطعام والشراب وسائر المفطرات.

وكلمة رمضان مشتقة من الرمضاء والرمضاء من شدة حرارة الشمس تصبح الرمال كأنها تشبه الرماد، ملتهبة ساخنة حتى قالت العرب: والمستجير بعمر كالمستجير بالرمضاء من النار.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، حديث رقم 1410)، ومسلم في صحيحه)كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم 1014)

والظاهر أنهم لما سموا رمضان كان يأتي في وقت اشتداد الحر فسموه بهذا الاسم، وبقي على هذا الأساس.

والكلام عن رمضان وفقه الصيام فيه تفصيل في كتب الفقه.

الركن الخامس الحج

الحج من حج، أي قصد، لكنه القصد في الأمور العظيمة، قصد توجه إلى أمر عظيم، ثم غلب استعمالها على الحج.

والحج عبادة متميزة لأنه عبادة بدنية ومالية، الصلاة والصيام عبادتان بدنيتان والزكاة عبادة مالية، اما الحج فهو عبادة تجمع بين البدنية والمالية، لأن المؤمن يبذل فيها جهدا ببدنه، ويبذل فيها ماله لأنه يسافر ويرحل فيحتاج لنفقات، لذلك نرى الحج هو الفريضة التي ذكر الله فيها من استطاع إليه سبيلا، **قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]**

وفي رواية أخرى للحديث: (وحج البيت من استطاع إليه سبيلا) لأن كل إنسان قادر على أن يصلي أو يصوم، لكن ليس لكل إنسان أن يكون قادرا على أن يذهب إلى مكة، لذلك كان من رحمة الله سبحانه وتعالى أن جعله مرة واحدة في العمر؛ لأن الله سبحانه لا يريد أن يكلف عباده شططا ولا أن يرهقهم من أمرهم عسرا، يريد الله بهم اليسر ولا يريد بهم العسر وما جعل عليهم في الدين من حرج. فالتكليف في الإسلام بحسب الوسع.

فوائد هذا الحديث:

1. هذا الحديث أصل عظيم في معرفة الدين؛ لأنه جمع أركان الإسلام الخمسة.
2. ذكر العدد في أول الكلام من هدي النبي ﷺ؛ لما فيه مِن تحفيز السامع على استيعاب المعدود، وتشويقه لمعرفته، ومطالبة نفسه بتحصيله وضبطه، بحيث إنّه إذا فاته منه شيء، سعى في تحصيل ما نقصه منه.
3. فقد الشهادتين يزيل أصل الإسلام، بخلاف بعض خصال الإسلام الأخرى التي ينقص البنيان بفقدها ولا يزول أصله.
4. الإسلام معناه الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

5.من أتى بهذه الأركان الخمسة فقد أتم أصول إسلامه، كما يتم البيت بأركانه.
6.هناك تلازم بين الشهادتين؛ فمن آمن بأن القرآن من عند الله فقد عرف ذلك عن طريق رسول الله ﷺ، فلا يصح قبول القرآن وردّ السنة.
7.دعوى الاكتفاء بالقرآن وترك السنة دعوى باطلة؛ لأن الذي بلغ القرآن هو النبي ﷺ، فلا يُقبل تصديقه في القرآن وتكذيبه في السنة.
8.الصلاة لها منزلة عظيمة؛ إذ فُرضت بغير واسطة الوحي ليلة الإسراء والمعراج، وهذا يدل على عظم شأنها.
9.المال لا ينقص حقيقة بالزكاة؛ لأن الله وعد المتصدق بالخلف والبركة، ووعد المرابي بالمحق والنقص.
10.الزكاة تربي العبد على الرحمة والتواضع والربانية؛ لأنه يعامل الله وينفق ابتغاء وجهه، وتطهّر نفس الغني من الشح والأنانية والكبر وقسوة القلب.
11.الصوم هو الإمساك من الفجر إلى المغرب عن الطعام والشراب وسائر المفطرات بنية العبادة.
12.الحج عبادة جامعة بين البدن والمال؛ ففيه سفر ونفقة ومشقة وأعمال بدنية.
13.الحج لا يجب إلا مرة واحدة في العمر على المستطيع؛ لأن الله لا يكلف عباده ما يشق عليهم فوق طاقتهم.
14.خلاصة الحديث: الإسلام بنيان عظيم، أساسه الشهادتان، وعماده الصلاة، وطهارة ماله بالزكاة، وتزكية نفسه بالصيام، وكمال تعبده بالحج لمن استطاع إليه سبيلًا.

****

الحديث الرابع

حديث مراحل

خلق الإنسان

(4) مراحل خلق الإنسان

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فو الله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها "

رواه البخاري ومسلم.[1]

التعريف براوي الحديث

-عبد الله بن مسعود رضي الله عنه صحابي جليل من السابقين الأولين إلى الإسلام، يكنى **أبا عبد الرحمن**، وهو من قبيلة هذيل.

-أسلم قديمًا بمكة، وكان من أوائل من جهر بالقرآن عند الكعبة، فآذاه المشركون بسبب ذلك. لازم النبي ﷺ ملازمة شديدة، وكان صاحب نعليه وسواكه وطهوره، حتى عُرف بقربه من رسول الله ﷺ وحسن اتباعه له.

-**وكان رضي الله عنه من أعلم الصحابة بالقرآن**، وقال النبي ﷺ في فضله :**من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد.**[2]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر الملائكة، حديث رقم 3208)، ومسلم في صحيحه (كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله، حديث رقم 2643)

[2] أخرجه ابن ماجه في *سننه*، المقدمة، باب فضل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رقم 138، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه

وقال عن نفسه :(واللهِ الذي لا إلهَ غيرُه، ما أُنزلت سورةٌ من كتابِ الله إلا أنا أعلمُ أين أُنزلت، ولا أُنزلت آيةٌ من كتابِ الله إلا أنا أعلمُ فيمَ أُنزلت، ولو أعلمُ أحدًا أعلمَ مني بكتابِ الله تُبلِّغُه الإبلُ لركبتُ إليه)..[1]

-شهد بدرًا والمشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان من أهل الفقه والعلم والورع والزهد، وانتفع به أهل الكوفة انتفاعًا عظيمًا حين أرسله عمر رضي الله عنه إليهم معلمًا ومفتيًا.

-توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة تقريبًا في خلافة عثمان رضي الله عنه.

شرح الحديث

هذا الحديث من دلائل صدق النبي ﷺ ودلائل نبوته لأن فيه إخبار عن الغيب، فالنبي حينما يخبر عن مراحل خلق الجنين في بطن أمه بهذه الدقة أربعين يوما نطفة، ثم أربعين يوما علقة، ثم أربعين يوما مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، فهذا ولا شك وحي من الله عز وجل.

قال ابن مسعود: (حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق)

أي الصادق في جميع ما ينطق به، **(وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)** [النجم 3،4] **والمصدوق** الذي صدقه الله، وصدقه من سمعه من أهل الإيمان.

وإخبار النبي ﷺ عن هذه الدقة في مراحل خلق الجنين والتي عبر عنها القرآن في سورة المؤمنون وفي سورة الأنبياء وفي سورة غافر، ومثل ما ورد هنا في السنّة تحديد المدة الزمنية بأربعين يوما نطفة ثم أربعين يوما علقة ثم أربعين يوما مضغة، هذا كله إخبار عن غيب، وإعجاز يخبر عنه رب العالمين في كتابه، ويفصله نبينا ﷺ في سنته، وكله دليل على أن هذا الإسلام هو الدين الحق، فلم تكن البشرية زمن رسول الله يعرفون شيئا عن هذه التفاصيل الدقيقة، بل لم يهتد الأطباء لهذه التفاصيل إلا في القرن الثامن عشر، وهذا بالنسبة للتاريخ يعتبر وقت قريب جدا، ونحن بيننا وبين الرسول ﷺ أربعة عشر قرنا من الزمان فهذا من دلائل صدقه ونبوته ﷺ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم 5002. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما، رقم 2463.

ونتأمل هنا رحمة الله تعالى بالإنسان حينما خلقه في هذا الضعف الشديد، ثم يأذن الله تعالى بخروجه إلى الدنيا، ويقوى حينا فحين؛ حتى يكون إنسانا سويا كامل الخلقة قادرا على أن يعتمد على نفسه، والله سبحانه وتعالى بقدرته يقدر أن يقول للشيء كن فيكون.

لكن لماذا جعلها تسعة أشهر؟

قدر الله ان تكون مدة حمل المرأة تسعة أشهر للعديد من الحكم منها:

1- النمو السليم للجنين **:**تسمح مدة التسعة أشهر للجنين بتكوين أعضائه وأنظمته الحيوية بشكل كامل، مما يمنحه أفضل فرصة للبقاء على قيد الحياة خارج الرحم.
2- جعلها تسعة أشهر رفقا بالأم التي تحمل هذا الجنين، وتستشعر حركته في أحشائها، يوما بعد يوم حتى يمر الحمل فتشعر بحركته وتشعر بآلامه، فيتعلق قلبها به كثيرا، ومن أسعد لحظات المرأة حينما ترى الذي كان في أحشائها أمام عينيها مولودا بقدرة الله سبحانه وتعالى.

يقول: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِيْ بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِيْنَ يَوْماً نُطْفَةً)

كلمة نطفة: من نطف أي يصب به في الرحم، والمقصود به ماء الرجل الذي يصب به في رحم المرأة فيلتقي مع مائها وتلقح البويضة فيكون الحمل ويكون الجنين، وأصل كلمة النطفة في اللغة العربية تطلق على الصافي أو القليل.[1]

(ثُمَّ يَكُوْنُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ(أي: أربعون يوما أيضا، وسميت علقة لأنها تكون دم ثخين غير متجمد فيعلق بالرحم، **قال تعالى: (خلق الإنسان من علق) [العلق: 2]** فبعد أن تلقح البويضة من الحيوان المنوي من الرجل بعد أربعين يوما تتحول إلى دم ثخين أي فيه سُمك أو غلظة لكنه غير متجمد، وتعلق في الرحم.

(ثُمَّ يَكُوْنُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ) بعد ثمانين يوما يكون مضغة، فتتحول العلقة إلى مضغة، وسميت مضغة، وهذا تعبير دقيق عن شكل الجنين في هذه المرحلة، لأنه يشبه اللقمة الممضوغة، وكأن عليها أثر أسنان ممضوغة – سبحان الله-

(ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنفُخُ فِيْهِ الرُّوْحَ، وَيؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيْدٌ)

(1) وقد نسمع الإخوة اللبنانيين يقولون: (نتفة) وهذا تحريف لكلمة نطفة، فنتفة صغيرة يعني شيء قليل.

وهذا معناه أن الله وكل ملكا بعد أربعة أشهر يبدأ نفخ الروح ويكون الجنين إنسانا سويا أي نفخت فيه الروح، وتبدأ مراحل الاكتمال من الشهر الرابع إلى الشهر التاسع ليولد في اللحظة التي قدرها الله تعالى، **قال تعالى: (وما تحمله من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) [فصلت 47]**

حكم الإجهاض:

أولا/ الإجهاض قبل بلوغ الجنين 40 يوما:

أول أربعين يوما هو عبارة عن نطفة، والنطفة ناتجة عن تلقيح الحيوان المنوي للبويضة، فيظل أربعين يوم نطفة، وكثير من الفقهاء يقولون إنه يجوز الإجهاض في هذه الفترة.

وقالوا لأنه لم يتكون إنسان بعد، ولم يوجد فيه أصل الإنسان وهو الدم، فيجوز الإجهاض قياسا على العزل، والعزل طريقة لمنع الحمل قبل موانع الحمل الحديثة الموجودة، كان الرجل يجامع أهله، فإذا قارب الإنزال نزع فيجعل الإنزال خارج الرحم، هذه صورة كانت موجودة في زمن النبي ﷺ ولم ينه عنها.

فالمرأة لو توالى عليها الحمل والإرضاع فحملت مرة أخرى فيكون ضعف فوق ضعف، أو عندها شيء في القلب أو سكر، أو ارتفاع في الضغط، أو انخفاض في الضغط .... الخ كل هذا أجاز العلماء فيه الإجهاض، أما إذا لم يكن شيئا من ذلك واستطاعت الأم أن تكمل الحمل فلا يجوز لها الإجهاض، طبعا ليس من ضمن الأسباب أن الأولاد عددهم زاد، أو عندنا بنات ونخاف أن الخامس يكون بنت كذلك، ونحن نريده ذكر ... كلا هذا ليس من الأعذار.

ولو حصل الإجهاض في هذه الفترة يكون معصية وفعل حرام لكن لا يرقى إلى درجة الكبيرة بمعنى لا يكون مثل قتل النفس، طبعا ليس المقصود هنا أننا نجرأ الناس على الإجهاض إنما نذكر الحكم الشرعي، فإذا حدث الإجهاض دون مسوغ طبي ودون أن يكون هناك أي داع لهذا الإجهاض فهو معصية ينبغي لفاعلها أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى.

ثانيا /الإجهاض بعد 40 يوما:

بعد الأربعين يوما من الحمل، أصبحت النطفة علقة، وبعد الثمانين مضغة، فحرام نقترب من الجنين إلا إذا ثبت أن هناك تشوه مؤكد في الجنين، وثبت أن في إكمال

الحمل ضرر على صحة الأم أو مشقة بالغة أو أنها تشكو من مرض من الأمراض، فحينئذ يجوز لها الإجهاض.

ثالثا/الإجهاض بعد نفخ الروح في الجنين:

إذا نفخ فيه الروح (120 يوما) لا يجوز أن يحدث الإجهاض؛ إلا في حالة واحدة وهي أن يؤكد عدد من الأطباء الثقات أن إكمال الحمل فيه إهلاك للأم، ووفاتها، أو عندها في القلب مرض كذا ... أو عندها ورم ...الخ، فمعنى إكمال الحمل أي أننا نعرض حياتها للخطر أو ستموت، فالعلماء قالوا: يجوز في هذه الحالة الإجهاض لأن الحي أبقى من الميت.

وكذلك إذا تأكد الأطباء أن حركة الجنين توقفت في الرحم وأنه مات فلا معنى لبقائه في رحمها فيحدث الإجهاض بهذا الشكل.

حكم الجنين المشوه؟

هنا مسألة مهمة وهي أن التحاليل أو الأشعة أثبتت أن الجنين مشوه، وهذا يحصل غالبا في الشهر الخامس أو السادس الأطباء يقولون لك إن الجنين عنده توحد أو عنده تخلف عقلي .... قلبه فيه ثقب الرئة فيها كذا ... الخ

قال العلماء: لا يجوز المساس بالجنين بعد أن نفخ فيه الروح، والأطباء وأقوالهم ظنية وليست يقينية.

وأذكر أنه كان معنا أحد الإخوة من المصلين كان الجنين في الشهر الخامس، وبعد الأشعة قالوا لزوجته إن ابنك برئة واحدة ولن يعيش إلا قليلا وسيموت فلا بد من الإجهاض، فقلت له يا أخي بدلا من الأخذ بقول طبيب واحد استشر طبيبا واثنين، فإذا قال أغلب الأطباء: إنه يمكن إكمال الحمل، وأنه لن يحدث أي ضرر شديد على الأم، فأكمل الحمل، وبأمر الله سبحانه وتعالى يغير الله من حال إلى حال، وطلّع صدقة وعليك بالدعاء في قيام الليل وفي السجود، وإن شاء الله ربنا كريم.

والله قد جاءني بعدها وزوجته كانت في الشهر السابع بعدها بشهرين، وقال إنه لم يرجع إلى المستشفى وترك الأمر لله، ثم ذهب في الشهر التالي فكانت المفاجأة وجدوا أن الجنين مكتمل البنية والخلقة وما في أي مشاكل.

ومعنا أحد الإخوة أيضا عنده ثلاثة أولاد، قال لي: أنا زوجتي من النوع الذي يصاب بسكر الحمل، والأطباء قالوا له في المولود الأول: إن الولد سيولد عنده السكر وهذا خطر وسيكون مريضا من صغره ويحتاج دائما إلى العلاج وإلى

الرعاية وإلى العناية، ابنه الآن ما شاء الله عنده 19 سنة وأنا أعرفه معرفة شخصية، وعايش بصحة جيدة لا عنده سكر ولا عنده ملح ولا يشتكي من أي أمراض!!!
والعجيب أنهم قالوا نفس الكلام في ابنه الثاني، بل والثالث أيضا وكلهم بخير الآن وعافية.

وأنا لا أقصد التقليل من كلام الأطباء أو لا أحد يسمع للأطباء، لكن أقول إن كلامهم ظني وليس يقيني، وهم يحاولون تجنيب أنفسهم المسئولية القانونية فيفترضون أسوأ الاحتمالات، فالطبيب بشر يصيب ويخطئ.

وفي ناس أعرفهم معرفة شخصية لما عملوا الأشعة قالوا له: مبارك إن شاء الله الزوجة حامل في ذكر، وبمرور الوقت يطلع بنت، والعكس تماما يحصل، فكل هذه اجتهادات.

فأنا أقول: لو حصل هذا الأمر استشر طبيبا واثنين وهذا حقك الشخصي والشرعي والقانوني، ولا تأخذ بقول طبيب واحد.

فإذا تأكدنا أن الجنين مشوه وأنه فعلا سيكون عنده توحد أو عنده تخلف عقلي أو عنده نقص في جهاز كذا في عضو كذا، هذه إرادة الله، أنا لا دخل لي في ذلك هذا إرادة الله عز وجل، فربه الذي أذن بخلقه وولادته ووجوده في هذه الدنيا هو أعلم به سبحانه وتعالى.

رابعا/ ما الحكم لو حدث الإجهاض بقدر الله؟

إذا أسقطت المرأة بصورة طبيعية بقدر الله أسقطت الجنين قبل أربعة أشهر، فهذا لا يعتبر نفاسا، هذا خطأ تخطئ فيه كثير من النساء أي إذا أسقطت وهو نطفة أسقطت وهو علقة وهو مضغة، فهذا لا يعتبر دم نفاس، إنما يعتبر دم استحاضة، لأن النفاس هو الدم الذي يخرج عقب خروج نفس، بعد الثمانين ربنا خلق مضغة مخلقة يعني بانت فيها آثار خلقة، فإذا أسقط الجنين بعد ثمانين يوما ما بين الثمانين لمئة وعشرين، فيه آثار الخلقة مكونة فهذا يعتبر نفاسا، يعتبر إنسان.

إذا كانت المضغة غير مخلقة لم تتبين فيها أي شكل من أشكال الخلق، ما زالت مثل قطعة اللحم، فلا يعتبر نفاس وإنما هي استحاضة، وكلمة استحاضة معناها: الدم الذي ليس بحيض ولا نفاس، المرأة فيه تصلي وتصوم وتباشر حياتها بطبيعتها غير أنها مع توالي نزول الدم تتحفض، وتتوضأ لكل صلاة لأنها من أصحاب الضرورات.

إذا حدث وأسقط الجنين بعد أربعة أشهر أي بعد نفخ الروح تحت ظرف من الظروف، شاء الله تعالى، ما حكمه؟
عند الحنابلة قالوا: إنه نفس، يسمى سواء ذكرا أو بنتا، ويغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين.

وماذا نقول في صلاة الجنازة؟

ندعو لوالديه، بما ورد في الحديث أن نقول: **(اللهم اجعله سلفا وفرطا وذخرا لوالديه)** [1]ويدفن لأنه نفس.

(سَلَفًا) أي يكون هذا الطفل المتوفي سببًا للوالدين ليلحقا به في الجنة؛ كأنه يمضي قبلهم إلى الآخرة يمهّد لهم الطريق، ويكون سببًا في رفع درجتهم.

(فَرَطًا) الفَرَط هو: الذي يسبق أهله إلى الماء في الآبار فيهيّئ لهم المكان ويهيّئ الأحواض، والمعنى أن يكون الطفل المتوفي سابقًا لوالديه إلى الجنة ينتظرهم فيها.
(ذُخرًا) الذُّخر: الشيء الذي يُدَّخر لوقت الحاجة. أي: يكون سببًا في نجاتهم ورفعة درجاتهم في الجنة.

ما حكم الانتفاع بالأجنة المجهضة في التجارب العلمية والعلاجية؟

نزول الجنين قبل نفخ الروح-أي قبل تمام مئة وعشرين يومًا- لا تتضح فيها الصورة الإنسانية بشكل مكتمل، بل في بعض الأحيان لا يزيد عن كونه كتلة من الدم المتجمع لا تتجاوز السنتيمترات القليلة، وتكون أنسجتها غير متماسكة، فلا يتحمل التغسيل والتكفين؛ لاحتمال تهتكها بمجرد ملامستها، فلا تجري عليه في هذه الحالة جميع أحكام الميت من تغسيله وتكفينه ودفنه، وإنما يُكتفي فقط بستره ودفنه إن سمحت حالته بذلك.
ولما كان الحال كذلك، فإن دعت الحاجة إلى الانتفاع ببعض ما يشتمل عليه من أنسجة أو خلايا في التجارب العلمية التي يعود نفعُها على جنسِ الإنسان أو على بعضِ المرضى كالأبحاث المتعلقة بعلم الجينات أو الهندسة الوراثية، فلا مانع من ذلك شرعًا؛ تحقيقًا للمصلحة، ولانتفاء امتهان حرمة الإنسان التي هي مظنة المنع من ذلك، وهو ما يتوافق مع الأصول العامة ومقاصد الشرع الشريف؛ فإن **"الشَّرِيعَةَ وُضِعَتْ لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ عَنْهُمْ"**،

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجنائز، باب الصلاة على الطفل وطلب الشفاعة له من والديه، حديث رقم 1355)، ومسلم في صحيحه (كتاب الجنائز، باب ما يقال عند الصلاة على الطفل، حديث رقم 914)

إذن يجوز الانتفاع بالأجنة المجهضة لكن بشروط:

أولًا: أن يكون الإجهاض بسبب معتبر شرعًا، وألا يتعمد حصوله من أجل الانتفاعِ بالأجنة.

ثانيًا: أن يكون بموافقة الوالدين ورضا كليهما أو من يقوم مقامهما عند فقدهما.

ثالثًا: ألا توجد طريقة أخرى لتحقيق هذه الأغراض والمصالح المبتغاة إلا باستخدام هذه الأجنة المجهضة.

رابعًا: وجود هيئة متخصصة موثوقة تقوم بالإشراف على هذه الأغراض وإجراءات تنفيذها.

قول النبي :(ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنفُخُ فِيْهِ الرُّوْحَ)

وهذا كله بأمر الله سبحانه وتعالى، والروح سر من أسرار الله عز وجل أودعها الله فينا، قال تعالى: **(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)** [الإسراء: 85]

(وَيؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيْدٌ)

وهذه الكتابة المقصود منها إظهار ما سبق في علم الله عز وجل، لأن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الله الخلق كتب عنده في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء كما قال النبي ﷺ: **(إن الله كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)** [1] فسبق في علم الله كل شيء، فيظهر الملك ما سبق في علم الله في اللوح المحفوظ يكتب الرزق، رزقه وأجله ومتى سيموت وعمله الذي سيعمله، وهل هو من أهل الشقاء أم من أهل السعادة.

اعملوا فكل ميسر لما خلق له:

عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذات يوم جالسا وفي يده عود ينكت به، فرفع رأسه فقال: ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار، قالوا: يا رسول الله فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: لا، اعملوا،

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى، حديث رقم 2653)

فكل ميسر لما خلق له، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 5-7]) [1]

ومعنى سؤال الصحابة: هل نترك مشقة العمل، ونكل الأمور إلى ما قدر علينا؟ فكان جوابه ﷺ اعملوا فكل أحد ميسر لما خلق له، وهو يسير على من يسره الله، فمنعهم من ترك العمل، وأمرهم بالتزام ما يجب على العبد من العبودية، فجعل إحسان العمل والعبادة علامة على رضا الله عن العبد، فمن تيسر له العمل الصالح كان مأمولاً له الفوز، ومن تيسر له العمل الخبيث كان مخوفاً عليه الهلاك، وهذه أمارات من جهة العلم الظاهر، وليست بموجبات، فإن الله سبحانه طوى علم الغيب عن خلقه وحجبهم عن إدراكه ابتلاء لهم جميعا في هذه الحياة الدنيا.

إذن فأهل السعادة سيسيرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيسيرون لعمل أهل الشقاوة.

علم الله سابق، وليس سائق:

أي من تمام علمه سبحانه أن يعلم كل شيء، لكنه لم يجبر أحدا على فعل شيء، فقد سبق في علم الله أن أبا لهب سيعيش كافرا ويموت كافر، وأنزل قرآنا يتلى **(تبت يدا أبي لهب وتب)**، وأخبر أنه هو وامرأته سيصلى نارا ذات لهب، فهل أجبر أبو لهب على الكفر؟ ألم يكن بوسعه أن ينطق بالشهادتين؟

نعم كان بوسعه ذلك لكنه لم يفعلها، ومات على الكفر، فسبق في علم الله عز وجل أن أبا لهب سيعيش كافرا ويموت كافرا، لكن الله تعالى لم يجبر أبا لهب على الكفر.

والله تعالى تعبدنا بالأخذ بالأسباب، فما يقع من قدر الله دون اختيار منك فلن تحاسب عليه، وما كان لك فيه اختيار فأنت محاسب ومجزي به، فإذا سلبت منك القدرة والاختيار هنا يأتي قول الله تعالى: **(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)** [البقرة 286] أمثلة على ذلك:

- لو أن إنسانا تعود أن يشرب بعد الوضوء، فشرب على عادته أول يوم في رمضان عند الظهر؟ صيامه صحيح لماذا؟ لأنه لم يتعمد أن يأكل أو يشرب.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: فأما من أعطى واتقى، حديث رقم 4949)، ومسلم في صحيحه (كتاب القدر، حديث رقم 2647)

- ولو أن رجلا منعوه من الحركة وصبوا في فمه الماء رغما عنه، ما حكم صيامه؟ صيامه صحيح.
- ولو أن رجلا أكرهوه على طلاق زوجته، هل هي طالق؟ كلا، لم يقع الطلاق.
- ولو أن رجلا أجبروه على الكفر، مثل عمار بن ياسر، فإيمانه صحيح.

والرسول ﷺ قال له وكيف قلبك؟ قال مطمئن بالإيمان، قال إن عادوا لمثلها فعد وفيه نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106][1]
فالشيء الذي أنت مكره عليه، الذي سلبت منك الإرادة فيه لن تجازى ولن تعاقب عليه، أما ما كان لك فيه اختيار فهنا يكون عليك كما قال تعالى: **(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) أي:** لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر.

وسيدنا عمر لما وقع طاعون في الشام، وأراد أنه يرجع لم يدخل الشام لأن الطاعون مرض معد، فبعض الصحابة قالوا: أتفر من قدر الله؟ قال نفر من قدر الله إلى قدر الله.[2]
يقول فيلسوف الإسلام محمد إقبال: المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله وقدره والمؤمن القوي يعتقد أنه هو قضاء الله الذي لا يُرد، وقدره الذي لا يُغلب! فيغير الله تعالى به، ويصلح الله تعالى به، ويحرك الله تعالى به خير كثيرا، ويمنع الله به شرا كثيرا.

إنما المستكين والمستسلم فهو يقول: أقام العباد فيما أراد، ودع الملك للمالك، ودع الخلق للخالق، وخليل في حالك، وعش نملة تأكل سكر، وامش تحت الحيط وجنب الحيط إلى آخر هذه الكلمات السلبية.

هل الإنسان مسير أم مخير؟

ورحم الله الشيخ محمد الغزالي لما سأله أحد الشباب هل الإنسان مسير أم مخير؟ فقال أما الإنسان في الشرق فهو مسير، وأما في الغرب فإنه مخير، لأنهم علموا أن

---

[1] أخرجه الطبراني في *المعجم الكبير* (حديث رقم 486)، وابن أبي شيبة في *المصنف* (كتاب الإكراه، حديث رقم 37074)، والبيهقي في *السنن الكبرى* (كتاب النكاح، حديث رقم 14841)، وصححه ابن حجر في *الفتح* وقال الألباني: إسناده حسن كما في *السلسلة الصحيحة* (حديث رقم 2061).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الطب، باب ما ذكر في الطاعون، حديث رقم 5729)، ومسلم في صحيحه (كتاب السلام، باب الطاعون، حديث رقم 2219)

لهم عقولا فاستعملوها) الغربيون عرفوا أن عندهم عقل فاستعملوه، إنما نحن فقد عطلنا عقولنا.

قوله: (فو الله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)

الكتاب: اللوح المحفوظ.

في رواية عند البخاري عن سهل ابن سعد رضي الله عنه جملة توضح المعنى قال: **(يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس)**، فيما يبدو للناس معناها أنه منافق مراء.

وكان في زمن النبي ﷺ رجل اسمه قزمان في غزوة أحد، قزمان قتل أربعة من حملة اللواء، اللواء: هو راية الجيش، فكان شجاعا، ولما ذكروا بأسه وقوته في القتال أمام رسول الله قال: هو في النار!!!

فلما سألوه وذكروا له ما كان من أمره، قال ما قاتلت إلا عن أحسابي أي عن قبيلتي، فما كان منه إلا أنه في الليل اشتدت عليه جراحه فركز الرمح في الأرض ثم نزل عليه بصدره، فقتل نفسه، فلما رآه الصحابة وقد انتحر قالوا: صدق رسول الله ﷺ[1]

وكما في قصة سلمان الفارسي التي يحكي فيها قصة إسلامه يقول: (.... حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة. قال فجئته فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل. فدخلت معه ، قال فكان رجل سوء ، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، قال وأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئا . قالوا : وما علمك بذلك ؟ قال قلت : أنا أدلكم على كنزه . قالوا : فدلنا عليه . قال فأريتهم موضعه ، قال فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا ، قال فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبدا . فصلبوه ثم رجموه بالحجارة...)

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المغازي، باب غزوة أحد، حديث رقم 4043)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم 1903)

إذن معنى **(فيما يبدو للناس)** فيما يظهر لهم، الناس تقول إنه رجل صالح أنه كذا وفي ناس شياطين، يخدعون الناس من مظهرهم وبكلامهم وبطريقتهم، فربنا تبارك وتعالى يفضحه بسوء خاتمته، نسأل الله العفو والعافية.

ولا يعقل أن الله الكريم سيقضي على رجل أمضي حياته كلها على طاعة وعلى استقامة ثم يأذن الله تعالى بعد ذلك بانقلاب حاله قبل وفاته مباشرة، ويقع في سوء الخاتمة.

ولذلك ابن كثير له عبارة رائعة يقول فيها نقلا عن قتادة: **(إذا عَاشَ الرَّجُلُ عَلَى شَيْءٍ ماتَ عَلَيْهِ، وَإذا ماتَ عَلَيْهِ بُعِثَ عَلَيْهِ)**[1]

فحسن وسوء الخاتمة ناتج عن رجل عاش حياته عاصيا لله، أو ظاهره الصلاح وباطنه الفساد، كما قال الله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]**

ونرى هذا في بعضهم إذا تكلموا أثروا فيك: قال الله، وقال رسول الله وينفعل، ويحمر وجهه، ثم بعد ذلك تجده سائر في ركاب الظالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله يصفق لهم ويبارك خطواتهم، وأعمالهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولذلك ابتلى الله تعالى هؤلاء بسوء الخاتمة عند الوفاة بأن يقبضوا على سوء حال وعلى سوء عمل، فيبين للناس عدم صدقهم.

والعكس بالعكس لو أن واحدا أمضى حياته في طاعة الله عز وجل فيأذن الله تعالى بأنه يموت فيموت يوم يموت على طاعة الله.

الإمام الصنعاني أحد علماء الحديث له كتاب مشهور في الفقه اسمه سبل السلام لما حضرته الوفاة وحضر حوله إخوانه وتلامذته قال لهم: ذكروني بحديث تلقين المحتضر **لا إله إلا الله،** فسكتوا أدبا مع شيخهم فقال لهم:
حدثنا فلان حدثنا فلان أن رسول الله ﷺ قال: **(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله)** وشهق شهقة الموت ثم مات لم يكمل الحديث وتمام الحديث **(دخل الجنة)** [2]

فمات على التحديث بحديث رسول الله وكان آخر ما حدث به هذا الحديث، سبحان الله العظيم.

---

(1) تفسير ابن كثير، سورة الأنعام، الآية 110 طبعة دار طيبة، جـ 3 صـ 214

[2] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الجنائز، باب فيمن يُلقَّن، حديث رقم 3116)، والترمذي في سننه (كتاب الجنائز، باب ما جاء فيمن يُلقّن عند الموت، حديث رقم 976)، وابن ماجه (كتاب الجنائز، حديث رقم 3794)، وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في *صحيح أبي داود* (حديث رقم 3116).

الشيخ عبد الحميد كشك:

الشيخ عبد الحميد كشك رحمة الله سمعته في إحدى الخطب يقول: أسأل الله تعالى أن يحييني ساجدا وأن يقبضني إليه ساجدا وأن يحشرني ساجدا، وقد منع الشيخ في آخر حياته من الخطابة وحيل بينه وبين المساجد والجمهور، ويوم وفاته اغتسل للجمعة ولبس ثوبه الأبيض ثم وقف يصلي صلاة الضحى قبل أن ينزل إلى المسجد فسجد سجدة لم يقم منها، كانت آخر ما فعل الشيخ كما تمنى، مات ساجدا ويبعث يوم القيامة ساجدا، – سبحان الله!!

عاش مؤذنا ومات مؤذنا:

واذكر أن أحد الشباب ذكر هذه القصة حصلت في مدينة المنصورة، والده كان يؤذن حسبة لله، وكان المسجد بجانب البيت فكان يفتح المسجد ويؤذن حسبة لله سبحانه وتعالى، في آخر حياته أصيب عافاكم الله بجلطة، منعته من الحركة فما كان يستطيع أن يذهب إلى المسجد، فكان يستعين بابنه حتى في الذهاب للحمام ليتوضأ ويصلي، يقول وفي آخر حياته نادى والدي علي يا فلان تعال لأتوضأ، قال لكن يا والدي ليس وقت الصلاة الآن، قال له ما لك شأن، أنا أريد أن أتوضأ، وبعد أن ساعده ليتوضأ وقف على السرير، يقول ووالدي ما كان يستطيع أن يقف إلا إذا اتكئ علي ، لكنه بعد الوضوء وقف على السرير هكذا كما كان يقف وأخذ يؤذن الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، حتى إذا بلغ آخر الآذان فلما قال : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ... فاضت روحه معها إلى الله، فاضت روحه إلى الله... عاش مؤذنا ومات وهو يؤذن، ليبعث إن شاء الله يوم القيامة مع المؤذنين الذين يدعون إلى الصلاة.

والقصص في هذا الجانب كثيرة، فالمؤمن يعمل بطاعة الله ويستقيم على طاعته فيختم له بالخير، أما المرائي والمنافق والمسرف على نفسه وأصحاب المعاصي والذنوب والكبائر، فهؤلاء يفضحهم الله عند وفاتهم بسوء الخاتمة.

تاب ثم انتكس:

ذكر الدكتور خالد حنفي[1] – حفظه الله- هذه القصة الطريفة عن أحد الإخوة قال: إن مجموعة كانوا راكبين في طائرة، متجهين إلى القاهرة من ألمانيا إلى القاهرة الكابتن أعلن في الميكروفون الداخلي عن مشاكل في أحد أجنحة الطائرة وربما هذا الخلل يؤدي إلى سقوط الطائرة، فرجاء اجلسوا في أماكنكم واربطوا الأحزمة ، يقول فإذا بالشخص الذي كان بجانبي أخذ يبكي وانهار، وامسك بيده وقال بالله عليك، بالله عليك لو ربنا كتب لك النجاة أنا واكل ميراث ولاد أخي، هم لهم بيت كذا

(1) عميد الكلية الأوروبية للعلوم الإنسانية والاجتماعية في ألمانيا، ونائب رئيس المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، ورئيس مجلس الأئمة والعلماء في ألمانيا.

وعمارة كذا وظل يصف له، وقل لهم أن يسامحوني، عمكم مات وهو يسلم عليكم، والرجل صار وكأنه أبو بكر الصديق في هذه اللحظة ، المهم بعد عشر دقائق الكابتن أعلن مرة ثانية : السادة الركاب تم إصلاح الخلل والطائرة تسير بخير وما في أي مشاكل، فجأة لقيته يقول لي بحدة: أسمع لا تروح ولا تيجي إنس كل ما قلته لك!!!لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بالله نسأل الله العافية.

إذن معنى الحديث :(وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع) كلمة ذراع هنا للتقريب إشارة إلى القرب.

(فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينه ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)

فمن أقدار الله تعالى أن يأذن لرجل بالهداية قبل أن يموت مباشرة.

وقد حدث في غزوة أحد أن رجلا اسمه الأصيرم عمرو بن ثابت، جاء إلى النبي ﷺ ونطق بالشهادتين بين يدي المعركة، ثم انغمس في القتال فلقي الله شهيدا، فقال النبي ﷺ **من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة لم يسجد لله سجدة فلينظر إلى هذا الرجل)**[1]

قصة لشاب مع الدكتور صلاح سلطان:

وسمعت من الدكتور صلاح سلطان[2] هذه القصة التي حدثت له عندما كان يعمل إماما في أحد المركز الإسلامية بأمريكا، فقد كان في درس من دروس السيرة فجف حلقه مع طول الحديث والكلام وفكر أن يطلب ماء ليشرب لكنه استحى يقول: استحييت أن أشير لأحد الإخوة يأتيني بالماء لأشرب، فإذا بي أرى شابا لأول مرة يدخل علينا، وجلس أمامي، وبعد قليل قام من نفسه وملأ كوبا من الماء ووضعه بين يديه، فدعوت له قائلا: له سقاك الله من الكوثر.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، حديث رقم 190)

(2) الدكتور صلاح الدين عبد الحليم سلطان عالم وداعية وأستاذ في الشريعة الإسلامية، وُلد سنة 1959م بمحافظة المنوفية في مصر، وتخرّج في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة 1981م، ثم حصل على درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية، وأكمل دراساته العليا في الفقه وأصوله. عمل بالتدريس الجامعي، وتولى عددًا من المسؤوليات العلمية والدعوية في مصر والولايات المتحدة والبحرين، وشارك في تأسيس وإدارة مؤسسات تعليمية وإسلامية، كما كانت له مشاركات في عدد من المجامع والهيئات الشرعية. عُرف باهتمامه بالفقه المعاصر، وفقه الأسرة، والدعوة، والتربية، وله مؤلفات وبحوث ومحاضرات متعددة في العلوم الشرعية والقضايا الإسلامية المعاصرة.

وشرب الماء وأكمل الدرس وصلى معنا العشاء.

قال: وكان عندي موعدا بعد الصلاة مباشرة، فدخل عليّ هذا الشاب، وقال أنا محتاج أتكلم معك، قلت: أنا آسف، عندي موعد والناس ينتظرونني ولا بد أن أتحرك الآن.
قال له: أنا موضوعي لا يتأجل، أنا أحتاج خمس دقائق فقط، أنا من بلد عربي وأتيت هنا للدراسة، لكني انحرفت عن الطريق نهائيا، وما تركت معصية ترد ببالك إلا وفعلتها، من شرب مخدرات لكذا وكذا كل شيء، وأنا الآن دخلت المسجد تائبا إلى الله، فهل يقبلني؟ هل يقبلني الله عز وجل؟ بعد كل ما عملته؟

قال فذكرته بالله وبسعة رحمته وبالآية: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: 53]، وقصة قاتل التسعة والتسعين نفسا... وكل الآيات والأحاديث في التوبة، حتى بكى وندم وأكد أنه تائب إلى الله، وأوصيته بأن يلازم العبادة والصلاة والصحبة الصالحة والمسجد والدروس وودعته وذهبت إلى موعدي.

بعد عشرين دقيقة وجدت الهاتف يرن، فأغلقته فرن مرة ثانية وثالثة ورابعة، فقلت ربما في شيء مهم وطارئ، فأجبت المتصل فإذا بهم يتصلون من أحد المستشفيات القريبة من المكان، أنت فلان؟ أي نعم أنا فلان.
قالوا: عندنا شاب اسمه كذا أتعرفه؟
قال: نعم أعرفه كان معي من حوالي عشرين دقيقة، قالوا هو عامل حادث الآن على الطريق كان يقود سيارته فانقلبت شاحنة كبيرة من الطريق الموازي فوقعت على سيارته فأصابته بإصابات بالغة، وهو في حالة خطرة الآن ويطلبك بالاسم.
يقول: فركبت سيارتي سريعا حتى بلغت المستشفى، وفعلا وجدته في لحظاته الأخيرة، فنظر إليّ وتكلم بصعوبة بالغة قائلا: يا دكتور صلاح أتظن أن الله سيقبلني؟
قال له: نعم سيقبلك، لقد جئت إليه تائبا.
قال: والفرض الوحيد الذي صليته العشاء؟
قال له سيقبلك، بفضله ورحمته.
قال له: تشهد لي عند الله؟
قال له: أشهد لك عند الله.
يقول: فلقنته الشهادتين ثم فاضت روحه إلى الله سبحانه وتعالى.

فسبحان الله نفس كلام النبي ﷺ، هذا الشاب أدرك الجنة قبل الوفاة بعشرين دقيقة، وكان من الممكن ان يكمل بقية حياته هكذا، لكن شاء الله قبل أن يموت بساعة أو قل

نصف ساعة جاء إلى المسجد ويلتقي بالدكتور صلاح ويشاء الله تعالى أنه يتوب ثم يلقى الله عز وجل وهو على طاعة، **فهذا مصداق الحديث: (فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة)** فيختم له بالخير فيدخلها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الجنة وما قرب إليهم قول وعمل، وأن يعيذنا من النار وما قرب إلى من قول وعمل، اللهم أمين.

فوائد الحديث:

1. الإعجاز العلمي في السنة النبوية من وسائل الدعوة إلى الله خاصة مع غير المسلمين.
2. الحديث من دلائل نبوة النبي ﷺ؛ لأنه أخبر عن مراحل خلق الجنين في بطن أمه بدقة لا تُعرف إلا بوحي من الله.
3. خلق الإنسان يبدأ من ضعف شديد، ثم يتدرج بقدرة الله حتى يصير إنسانًا سويًا كامل الخلقة.
4. جعل مدة الحمل تسعة أشهر فيه حكمة ورحمة؛ لاكتمال نمو الجنين، ولتعلق قلب الأم بولدها شيئًا فشيئًا.
5. كتابة الملك لما يكون للإنسان هي إظهار لما سبق في علم الله، وليس إكراها للعبد على فعله.
6. علم الله سابق بكل شيء، لكنه ليس سائقًا للعبد إلى المعصية جبرًا؛ فالله علم ما سيختاره العبد، ولم يجبره على اختياره.
7. المسلم مأمور بالأخذ بالأسباب، ولا يصح أن يحتج بالقدر على الكسل أو التقصير.
8. القدر لا يحتج به في المعاصي، وإنما يستسلم له العبد في المصائب التي لا اختيار له فيها.

9.سوء الخاتمة لا يكون عادةً لمن عاش على صدق واستقامة، وإنما يُخشى على من كان ظاهره الصلاح وباطنه الفساد أو عاش مصرًّا على المعصية.

10.من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه؛ ولذلك ينبغي ملازمة الطاعة والاستقامة.

11.حسن الخاتمة من أعظم نعم الله، وهي ثمرة الصدق والاستقامة والعيش على الطاعة.

12.لا ينبغي الاغترار بالعمل الظاهر؛ فرب عامل ظاهره الصلاح يفضحه الله بسوء خاتمته إن كان فاسد الباطن.

13.كما لا ينبغي اليأس من رحمة الله؛ فقد يهدي الله عبدًا قبل موته بلحظات فيختم له بخير.

14.الخوف من سوء الخاتمة لا ينبغي أن يقود إلى اليأس، بل إلى الصدق والمجاهدة وحسن العمل.

15.والرجاء في حسن الخاتمة لا ينبغي أن يقود إلى الأمن من مكر الله، بل إلى دوام التوبة والاستقامة.

16.من فقه الحديث أن القلوب بين يدي الله، والخواتيم بيده، ولذلك كان الصالحون يكثرون من سؤال الثبات.

17.خلاصة الحديث: على العبد أن يجمع بين الإيمان بالقدر، والعمل الصالح، والخوف من سوء الخاتمة، والرجاء في رحمة الله، وسؤال الله الثبات حتى الممات.

****

الحديث الخامس

النهي عن

الابتداع في الدين

(5) النهي عن الابتداع في الدين

عَنْ أُمِّ المُؤمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللهِ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ: (مَنْ أَحْدَثَ فِيْ أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية لمسلم (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)[1]

التعريف براوية الحديث

-عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما هي أم المؤمنين، الصدّيقة بنت الصدّيق، زوج النبي ﷺ وأحب نسائه إليه بعد خديجة رضي الله عنها، وأمها أم رومان بنت عامر.

-نشأت رضي الله عنها في بيت إيمان وصدق؛ فأبوها أبو بكر الصديق رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ وخليفته الأول.

- تزوجها النبي ﷺ، وكانت من أفقه نساء الأمة وأعلمهن بالقرآن والسنة والفقه واللغة والشعر وأيام العرب، حتى كان كبار الصحابة يرجعون إليها في مسائل العلم والفتوى.

-وقد روت عن النبي ﷺ علمًا كثيرًا، وكانت من أكثر الصحابة رواية للحديث، وروى عنها عدد كبير من الصحابة والتابعين، وكانت رضي الله عنها عابدة، فقيهة، كريمة، زاهدة، كثيرة الصدقة.

-وامتازت بقوة الفهم، ودقة الحفظ، وجرأة السؤال في طلب العلم، وحسن البيان.

-ومن فضائلها أن الله تعالى برأها من فوق سبع سماوات في حادثة الإفك، وأنزل في شأنها قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة.

-توفيت رضي الله عنها سنة سبع وخمسين أو ثمان وخمسين للهجرة على المشهور، ودُفنت بالبقيع رضي الله عنها وأرضاها.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم 2697)، ومسلم في صحيحه (كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور، حديث رقم 1718)، وقال النووي: هذا حديث عظيم يعدّ أصلاً من أصول الإسلام في ردّ كل بدعة ومحدثة.

وقوله: (عَنْ أُمِّ المُؤمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللهِ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) الإمام النووي كان حريصا أن يذكر كنية ولقب من يروي عنه من الصحابة، فقوله: **(عن أم المؤمنين)** هذا لقب لجميع زوجات رسول الله ﷺ، والأمومة هنا أمومة تكريم وتشريف وليست أمومة محرمية، أمهات المؤمنين نساء أجانب على رجال الأمة لكن التلقيب بأم المؤمنين هذا لقب فيه تشريف وتكريم لهن جميعا، فهن أمهات للمؤمنين والمؤمنات، ولم يذكر بقية اللقب من باب أن المخاطب يدرك ذلك، فإذا كانت أما للمؤمنين فمن باب أولى أنها أم للمؤمنات.

ووصفهن بهذا اللقب المقصود منه أنه كما يحرم على الإنسان أن يتزوج بأمه فإنه يحرم على المؤمنين التزوج بزوجات رسول الله ﷺ بعد وفاته كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: 53]

(أُمِّ عَبْدِ اللهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) وتكنيتها بأم عبد الله ليس معناه أنها كان لها ولد اسمه عبد الله والبعض يذكر أنها كان لها سقط نزل ولم يكتمل الحمل فيه، وسموه بعبد الله...، وهذا هذا لم يرد من دليل صحيح، لكن كما هي عادة العرب يكنون ببعض الكنى وإن لم يكن للمكني ابن بهذا الاسم كأبي بكر ليس من أبنائه أحد اسمه بكر، لكنه تكنى بها، ونفس الحال كأبي هريرة رضوان الله عليهم أجمعين.

فكنيتها أم عبد الله تكريما لها، وقيل إن هذا فيه تكنية باسم ابن أختها أسماء بنت أبي بكر: عبد الله بن الزبير بن العوام، وكانت تحبه وتقربه، وقيل تكنت بها لأن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن.

شرح الحديث

(مَنْ أَحْدَثَ فِيْ أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) من أحدث في أمرنا هذا، لفظة **(من)** أداة شرط، من فعل كذا فالأمر كذا، كما قال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾ **[الزلزلة: 7]**
ومن عجائب لفظة (من) أنها تصلح للمذكر والمؤنث وللمفرد والمثنى والجمع، فتقول جاءني من أكرمته ومن أكرمتها ومن أكرمتهما ومن أكرمتهم ومن أكرمتهن،

ولذلك (فمن يعمل مثقال ذرة) لا تحتمل شخصا إنما تحتمل كل من يعمل، ونفس الكلام (من أحدث في أمرنا) لا تحتمل شخصا واحدا إنما تحتمل كل من أحدث في الدين ما ليس منه.

(أحدث) بمعنى أوجد شيئا لم يكن، ولذلك نقول هذا حادث، أمر لم يحدث من قبل، ومنه كلمة الحديث، لأنه كلام قيل الآن، وليس قديما.

(في أمرنا) ما المقصود بالأمر هنا؟ الأمر هو الإسلام، والنسبة هنا إلى رسول الله ولجماعة المسلمين تفيد أنه أمر مستحدث في الدين، أما الأمر المستحدث في الدنيا فلا علاقة له بهذا الحكم، كما سنفصل إن شاء الله.

(ما ليس منه) ما لم يشرعه الله ولا رسوله، أي أحدث شيئا ليس في دين الله.

(فهو رد) مردود عليه، وإن صدر منه تقربا إلى الله عز وجل لأنه أحدثه وليس من الدين فلا أجر ولا ثواب له فيه، فهو مبتدع.

ما الفرق بين الرواية في الصحيحين: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد) والحديث الثاني في رواية مسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)؟

قال العلماء إن (من أحدث) تفيد من أنشأ البدعة، وأحدثها.

أما الحديث في رواية مسلم فمعناها من تابعه عليها، فكلاهما مردود عليهما العمل.

يقول ابن رجب رحمة الله عليه: (وهذا الحديث أصلٌ عظيمٌ من أُصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أن حديث: "الأعمال بالنيَّات" ميزان للأعمال في باطِنها، فكما أن كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلُّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله، فهو مردود على عامله، وكلُّ مَنْ أحدثَ في الدِّين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس مِنَ الدِّين في شيء.)[1]

إذن فالأصل أن تعبد الله وحده لا شريك له، لا رياء ولا نفاق، ولا شرك مخلصا لله، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة: 5]
وتعبد الله كما شرع الله لا كما تهوى ولا كما يرى فلان، الدين ليس أهواء، الدين اتباع، ألا نعبد إلا الله وأن نعبد الله بما شرع الله.

فالعمل الذي تعمله الظاهر أمامنا هل موافق للشرع أم مخالف للشرع؟
فهذا الحديث يضبطه، والحديث الثاني بضبط الباطن، إنما الأعمال بالنيات، هل عملك لله ولا للرياء والسمعة؟

ما هي السنة وما هي البدعة؟

السنة هي الطريقة المسلوكة المحمودة وفي الإطلاق يغلب إطلاقها على سنة رسول الله صلى الله عليه وهي: **ما نقل إلينا عنه ﷺ من كل قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة من الصفات.**

---

[1] «جامع العلوم والحكم» (1/ 176 ت الأرناؤوط)

والسنة يقابلها البدعة وهي: طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه. [1]

الإسلام دين الوسطية، والله تعالى قال: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ **[البقرة: 143]** مثال: لو معنا عصا فالوسط هو الدين، من جنح إلى أقصى اليمين اسمه غلو، ولذلك في تعبير الإعلاميين يقولون: اليمين المتطرف، ومن حاد عن الوسط إلى أقصى اليسار ففعله يسمى تفريط، والوسط في كل شيء محمود، لأن الوسط هو الاتباع، أما الغلو فهو الابتداع.

ما الفرق بين الاثنين؟

المغالي في الدين هو الذي شدد في الأحكام وفي الاحتياط وفي الورع وافترض ما لم يفترض، وشرع ما لم يشرع، وحرم ما أحله الله، حجته أنه بذلك يتمسك بالدين أكثر، وطبعا هذا ليس عن علم، وإنما عن جهل، فهذا الذي غالى، وتشدد فرط وضيع، وهذا ما نهانا النبي عنه وحذرنا منه فقال: **(إيّاكم والغلوّ في الدِّين، فإنما أهلكَ من كان قبلكم الغلوّ في الدين)**[2]
وقال: (هلك المتنطعون، قالها ثلاثا) [3]

على النقيض من فرط، وضيع، وأصبح عنده تفريط، وتضييع لأوامر الدين، فكلا الأمرين غير مقبولين، أو غير محمودين، الوسطية هي التي فيها الخير.

المحدثات المنهي عنها في الدين وليس الدنيا:

المعنى اللغوي للبدعة: كل شيء حادث أو جديد فهو شيء مبتدع، وكثير من الأشياء حولنا في هذه الدنيا من المحدثات، وهي من المباحات فلا يتعبد لله عز وجل باستعمالها أو تركها.

فلا يأتي أحد ويقول :أنا سأركب الناقة والحصان والحمار كما ركبها رسول الله ﷺ، هذا ليس فيه اقتداء، لأن هذه أمور دنيوية مباحة، والإمام مالك إمام دار الهجرة رحمة الله عليه، كان من أدبه أنه كان لا يركب أي دابة في المدينة، يقول أنا لا أركب دابة تطأ بحافرها على تربة وارت جسد رسول الله ﷺ، هذا أدبه، رحمة الله

---

[1] وهذا تعريف الإمام الشاطبي في الاعتصام ص 37

[2] أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، حديث رقم (3029، وأحمد في المسند (حديث رقم (2803، والنسائي في الكبرى)حديث رقم (3057) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه حديث رقم «.(3029)

(3) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، حديث رقم (2670) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال النووي :المتنطعون هم المتعمِّقون المغالون المتشدّدون في الأقوال والأفعال.

عليه، لكنه ليس فيه سنة، ولو كان فيه سنة لفعلها من هو خير منه أبو بكر وعمر والصحابة الكرام الكبار، وما زال الناس يركبون الدواب بالمدينة من غير نكير، ولكن هذا أدب رآه الإمام مالكا رحمة الله عليه ، ولم يفعله أحد من العلماء المعاصرين له، ولا من أتى بعده.

فليس من التدين ترك ركوب السيارة لأن النبي لم يركبها، وليس من التدين ترك الأكل بالملعقة لأن النبي لم يأكل بالملعقة، أو ترك الأكل على السفرة، أو ما شابه ذلك من هذه الأمور الدنيوية، هذه أمور تتطور بتطور عادات الناس، وأعرافهم، ووفقا للوسائل، والمقاصد، وتغير الزمان والمكان.

ولذلك وضع العلماء قاعدة ألا وهي:

الابتداع في الدنيا، والاتباع في الدين

نعمل فنبدع، ونتقدم في كافة المجالات الصناعية وغيرها، ويكون عندنا علماء وطلبة مبدعين، وجامعات ومراكز بحثية، وهذا من أهم مميزات الحضارة الإسلامية، فقد كان المسلمون مبدعين في شتى التخصصات، وكان الملوك والأمراء والأغنياء والوجهاء في أوروبا في عصور الظلام، يرسلون بأبنائهم ليتلقوا العلم من علماء المسلمين، وكان النبلاء في أوروبا إذا جلس أحدهم يفتخر أن عنده معرفة ببعض الكلمات العربية.

تطور الوسائل:

هناك أمر مهم يجب فهمه في موضوع البدعة وهو ما سماه الفقهاء: الوسائل والمقاصد. مثلا:

إذا أردت الأذان وأن يسمع صوتك أكبر عدد من الناس مذكرا لهم بوقت الصلاة؛ ما هي الوسيلة لذلك؟

الوسيلة بدأت بالمئذنة، والمئذنة ليست سنة، ولم يكن المسجد النبوي له مئذنة، لكنها أحدثت فيما بعد لأن بلالا رضي الله عنه كان إذا أراد أن يؤذن ارتقى سطح منزل، ويؤذن حتى يبلغ صوته أعلى مدى، ثم بعد ذلك كان اختراع المئذنة وصارت المئذنة من علامات العمارة الإسلامية، وسمة معروفة، فيؤذن المؤذن، ويسمع صوته لأهل المدينة كلها، أو لأهل الحي كلهم، ثم تطورت الوسيلة بظهور مكبرات الصوت، الميكروفونات.

نفس الكلام في المنبر، بعض الناس يقول: السنة ثلاث درجات في المنبر، فإذا زاد عن ثلاث فهو خلاف منبر رسول الله، فهذا بدعة!! وهذا عدم فهم صحيح للمقصد الشرعي من المنبر، كلمة نبر ارتفع، ومنه النبر في التجويد، وهو ارتفاع الصوت

عند النطق بحرف، فسبب المنبر أن يكون الخطيب ظاهرا لجميع الناس الذين ينظرون إليه، لا يضر إن كان درجة أو درجتين، أو منصة، فهذا ليس مقصودا لذاته، المقصود أن يستطيع كل من في المسجد أن ينظر للخطيب فإذا رآه وسمع صوته كان ذلك أبلغ في العظة والتذكرة.

فهذه وسائل لها أحكام المقاصد، المقصد أو الغاية مشروعة وهي تبليغ الآذان، فمن هنا تنوعت الوسائل، فالوسائل ليست توقيفية لا يجوز تغييرها إنما هي تتغير بتغير الزمان والمكان.

طباعة المصحف الشريف:

مثال آخر حتى نفهم معنى كلمة البدعة في زمن النبي ﷺ كان القرآن يكتب في الأوراق ، والأوراق كانت نادرة بل كانت معدومة، فكانوا يكتبون على جلود الحيوانات ويكتبون على عسف النخيل (جريد النخل) ويكتبون على العظام العريضة الرقيقة يسمونها اللخاف، هذه وسائل الكتابة، مع تطور وسائل الطباعة والكتابة صار عندنا المصحف الورقي ثم الالكتروني الآن وأصبح القرآن تطبيقا على الهاتف، أو على الأجهزة الذكية فيه جميع القراءات، وفيه أصوات القراء، وفيه تكرار الآية، وفيه تفسير الآية، وفيه ترجمة معاني الآيات ، فهل يتعبد لله بأن نقرأ القرآن مكتوبا على جلد أو عظم أو لوح خشب أبدا هذا غير مطلوب.

وبعض المصلين قال لي: لو تكلم الإخوة، لأنهم هجروا المصاحف في المسجد ويقرأون القرآن من الهواتف، فقلت له هذا قرآن وهذا قرآن، سواء كان المصحف ورقيا أو كان المصحف إلكترونيا، هو كلام الله عز وجل الذي هنا كلام الله والذي في المصحف هو كلام الله، كونك أنت تستريح لهذا أو ذاك هذه مسألة شخصية، فهذا من باب تطور الوسائل، لكن الأصل الذي نتعبد به لله تلاوة القرآن وحفظ القرآن ومدارسة القرآن إلى آخره.

وأرجو أن تكون هذه المفاهيم واضحة، لأن بعض الناس عند تطور الوسائل يجمد، وأي تطور في الوسيلة يسميه بدعة، لا هذا غير صحيح، الوسيلة متغيرة.
البدعة المحرمة إحداث شيء ليس له أصل في الدين.

من أحدث شيئا ليس له أصل في الدين:

المقصود بالبدعة المحرمة من أحدث شيئا ليس له أصل في الدين، أما من أحدث شيئا له أصل في الدين فهذا لا يعتبر بدعة.

مثلا لو قلنا: إن شاء الله عز وجل سنقوم بدرس في أحكام التجويد كل يوم بعد صلاة العشاء، هل هذه بدعة هذه ليست بدعة، لأنها تندرج تحت الأصل العام وهو

مدارسة القرآن، وتعلم القرآن وأحكام القرآن، والقراءة الصحيحة للقرآن، ولا نعتقد أن ليوم الجمعة مساء بعد العشاء له مزية عن غيره، أو له فضيلة عن غيره، وكذلك الدروس يومي السبت والأحد لأنهما يومي إجازة نهاية الأسبوع، هل في تخصيص يومي السبت والأحد بالدروس فيه بدعة؟

كلا ليس فيه بدعة، لأنه يندرج تحت الأصل العام للشريعة من تعلم العلم والفقه في الدين والشريعة.

هل ختم القرآن الكريم في رمضان في صلاة التراويح والتهجد هل فيه سنة؟

ليس فيه سنة تتبع، ولم يرد عن الرسول ﷺ أنه ختم القرآن في صلاة التراويح والتهجد في رمضان، الوارد أنه كان يكثر من تلاوة القرآن، وكان جبريل يعارضه القرآن، لكن هذا يندرج تحت الأصل العام: وهو استحباب تلاوة القرآن خاصة في رمضان، فختم القرآن ليلة السابع والعشرين أو ليلة التاسع والعشرين هذا من العمل الصالح الذي توافقت عليه الأمة.

كسوة الكعبة وغسل الكعبة مرتين:

هل ورد فيها شيء عن رسول الله ﷺ؟ كلا لم يرد عن الرسول ﷺ فيها شيئا، لكنها تندرج تحت الأصل العام في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ **[الحج: 32]**

جمع القرآن في مصحف واحد:

ومثل هذا جمع القرآن في مصحف واحد لما كثر القتل في القراء، وأشار عمر على أبي بكر بهذا الأمر، وخاف أبو بكر، وقال كيف أفعل ما لم يفعله رسول الله؟ فما زال به حتى اقتنع ووافق فجمع القرآن لأول مرة في مصحف واحد.

وعثمان رضي الله عنه لما اختلف الصحابة والتابعون على قراءة القرآن لأن القرآن نزل أولا على سبعة أحرف، فقيدهم بحرف قريش، وأمسك ببقية المصاحف فأحرقها، لأنه رأى أن هذا بابا سيفتح فتنة وشرا على المسلمين، والأحرف السبعة غير القراءات السبعة المعروفة المتواترة لكن الأحرف السبعة لم يرد عندنا تفصيل في معناها لكن مما ذكره الإمام القرطبي أنهم كان ينطقون كلمة التابوت : التابوت والتابوه فهذا مما وسع الله على عباده في أول الأمر، والنبي صلى الله اقرأ أصحابه بهذه الكيفية، وفي عهد عثمان قالوا بأي لسان نكتبها التابوه أم التابوت؟ قال: اكتبوها بلسان قريش فكتبوها التابوت، قال تعالى : ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ **[البقرة: 248]**

فهذا الفعل من عثمان رضي الله عنه يندرج تحت الفهم الوارد عن الكتاب والسنة صيانة وحفظا للشريعة.

صلاة التراويح في جماعة:

لما دخل عمر المسجد فوجد الناس يصلون أوزاعا متفرقين كل مجموعة معها أمام يصلي التراويح، فقال: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل... فجمعهم على أُبيّ بن كعب.[1]

ما الذي منع رسول الله ﷺ من ذلك؟

منعه أنه خاف أن تفرض عليهم، وقد انقطع الوحي بوفاة الرسول ﷺ.
فجمع عمر الصحابة على أبي بن كعب، فكان إمام الرجال، وكان إمام النساء خباب رضي الله عنهم أجمعون.

فلما رأى الناس يصلون ماذا قال عمر؟ قال نعمت البدعة هذه!!

وهذا الفعل ليس بدعة بمعناه الشرعي أبدا، هذا الفعل بدعة بمعناه اللغوي، أنه استحدث هذه الطريقة لجمع مسلمين على إمام واحد.

لكن هل لهذه الفعلة أصل في الشريعة؟

نعم لها أصل وهو أن رسول الله ﷺ صلى واقتدى الناس بصلاته، لأن الشيعة يقولون إن صلاة التراويح من اختراع عمر، ولذا فإن الشيعة لا يصلون التراويح في رمضان.

عدد ركعات التراويح:

الرسول ﷺ كان يصلي قيام الليل في رمضان أحد عشر ركعة.[2]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان، حديث رقم – 2010 من طريق عبد الرحمن بن عبد قال: خرجتُ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلةً في رمضان إلى المسجد... فجمع الناس على أُبيّ بن كعب، فلما خرج عليهم وهم يُصلّون بصلاة قارئهم، قال عمر: نعمت البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون (يريد آخر الليل)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل، حديث رقم (1147)، ومسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي ﷺ، حديث رقم: (738)من حديث عائشة رضي الله عنها قالت:(ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلّي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلّي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلّي ثلاثًا.)

وفي عهد عمر صلوا عشرين ركعة وكانوا يوترون بثلاث. [1]

فهم فهموا أن قيام الليل ليس له عدد، فقالوا بدلا من إطالة القراءة نقصر القراءة ونزود الركعات، ففهم الصحابة أن قيام الليل بابه مفتوح فكانوا يصلون بثلاث وعشرين ركعة.

وأهل المدينة في عهد عمر بن عبد العزيز لما كان أمير المدينة، قالوا إن أهل مكة بين كل أربع ركعات يطوفون بالبيت سبعة أشواط، فنحن نبدل كل طواف بأربع ركعات، فكانوا يصلون تسعا وثلاثين ركعة، ويوترون بثلاث[2].
والظاهر أن الليل كان بالشتاء، كمْ ركعة صلوا؟ واحد وأربعون ركعة.

فعل الصحابة هذا يبرهن على بطلان من قال إن الزيادة على أحد عشر ركعة بدعة، أنت بذلك ترمي عمر، وصحابة رسول الله والتابعين وتابعيهم، بأنهم كانوا مبتدعة، والحرم المكي إلى الآن لا زالوا يصلون ثلاث وعشرين ركعة في رمضان.

الاختلاف في الأمور الفرعية الفقهية ليس بدعة:

مثلا في مذهب الإمام الشافعي الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم مع الفاتحة، بقية المذاهب منهم من يرى الإسرار، ومنهم من يرى الترك، المذهب المالكي يقول: لا يجهر بها إلا في التطوع، وفي الفريضة قالوا لا حتى لا يعتقد أنها آية من الفاتحة، لأن الإمام مالك مذهبه أنها ليست أية من الفاتحة.

لو أن رجلا كان على مذهب الإمام أحمد أنه يسر بها، فإذا سمع الإمام يجهر بها يقول هذا مبتدع، فهذا خطأ كبير، فلا يقال فيما اختلف فيه بدعة.
وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: (صليتُ خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بـ*الحمد لله رب العالمين*) [3]
وحديث (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي) [4] **ولم يقل: (بسم الله الرحمن الرحيم)**

---

[1] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الصلاة، باب ما اختار الناس من قيام رمضان، أثر رقم (7762)بإسناد صحيح عن السائب بن يزيد قال: كانوا يقومون في زمن عمر بن الخطاب في رمضان بعشرين ركعة)

[2] أخرجه مالك في الموطأ (كتاب صلاة الليل، باب ما جاء في قيام رمضان)، أثر رقم (248)ونصّه : وبلغ مالكًا أن أهل المدينة كانوا يقومون في رمضان بتسع وثلاثين ركعة، يوترون منها بثلاث، وذلك أن أهل مكة كانوا يطوفون بالبيت بين كل أربع ركعات، فَجعل أهل المدينة مكان كل طواف أربع ركعات.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الصلاة، باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة) حديث رقم (399)

[4] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة) حديث رقم (395)

الإمام الشافعي يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وقال: إن معنى الحديث **(صليت خلف رسول الله وأبي بكر وعمر فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد)** قال إن هذا اسم لسورة الفاتحة، لأن رسول الله وصحابته كانوا يسمون السور بأوائلها أو بفواتحها، فيقال سورة الحمد لله رب العالمين، سورة هل أتى على الإنسان، قل هو الله أحد ... وهكذا، فكانوا يسمون السور بأوائلها، وليس المقصود أنه كان يفتتح بقوله تعالى: **(الحمد لله رب العالمين)**

حديث أن الرسول ﷺ (كان إذا فرغ من الدعاء مسح وجهه بيديه، رجاء بركتها)[1] هذا الحديث ورد بسند ضعيف، فالبعض يرى أن هذا من بدع الدعاء، لكن بعض العلماء استحبه من باب العمل بالحديث الضعيف في الفضائل، فلا يقال عمن مسح وجهه بيديه إنه مبتدع.

الصحابي إمام مسجد قباء:

وكان إمام مسجد قباء كلثوم بن الهدم -رضي الله عنه- إذا قرأ الفاتحة افتتح بسورة قل هو الله أحد، ثم يفتتح القراءة بسورة أخرى، والقصة رواها أنس بن مالك رضي الله عنه :أن رجلًا من الأنصار كان يؤمهم في مسجد قباء، فكان إذا افتتح سورة يقرأ لهم بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، فكره ذلك أصحابه، وقالوا:
إنك تقرأ بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بسورة أخرى؟ إما أن تقرأ بها وحدها، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى.
فلما أبى وتمادى، واعتبره الناس من أقرئهم، رفعوا أمره للنبي ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: سلوه: ما يحمله على ذلك؟
فقال الرجل: إني أحبها، لأنها صفة الرحمن.
فقال النبي ﷺ: أخبرُوه أن الله يُحبه.[2]

ما المستنبط من هذا الحديث؟ أن هذا الصحابي فعل ما لم يكن رسول الله يفعله، لكن هل رد رسول الله فعل الرجل؟ كلا، بل أقره وأخبره أن حبه لسورة قل هو الله أحد سبب من أسباب دخوله للجنة، إذاً لماذا تركه النبي وأقره؟

---

(1) أخرجه الترمذي في *سننه*)) كتاب الدعوات، حديث رقم (3386)وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه،
وفي سنده ضعف بسبب :سعيد بن بشير وحماد بن عيسى الجهني.
(2) أخرجه البخاري في صحيحه)كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله، حديث رقم (774)، وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الإخلاص، حديث رقم (813) وفي رواية الترمذي حديث رقم (2901)قال ﷺ: (حبّك إياها أدخلك الجنة)

لأن هذا يندرج تحت الأصل العام وهو: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ **[المزمل: 20]**

ولو أن رجلا يحب سورة من القرآن، كسورة يس أو الرحمن، أو تبارك، فيقرأ بها كثيرا، لا بأس، لكن ليس معنى هذا أنه يهجر القرآن كله.

قصة بلال عندما سمع الرسول دف عليه بين يديه في الجنة:

في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال حدثني بأرجي عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة، قال ما عملت عملًا أرجى عندي أني لم أتطهر طهورًا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي .)[1]

وهذه هي سنة الوضوء، وقد وافقه النبي عليها.

وخُبيب بن عدي رضي الله عنه لما أراد المشركون قتله قال لهم: دعوني أُصلّي ركعتين، فتركوه، فصلى ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولْتُهما . ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: فكان خُبيب هو أول من سنّ ركعتين عند القتل.[2]

وهذا كله يندرج تحت الأصل العام وهو استحباب التطوع واستحباب صلاة النفل ما لم يكن الوقت وقت كراهة.

الإنكار فيما يخالف الدين:

1- لما رأى النبي زوجته جويرية تصوم يوم الجمعة، منفردا ماذا قال لها؟ قال لها أصمت أمس؟ هل صمت الخميس قالت لا، قال: تصومين غدا؟ قالت لا، قال إذن فأفطري.[3]

فرغم أن الصيام مستحب، وصيام التطوع من أحب القربات إلى الله، لكنه نهى عن إفراد يوم الجمعة بالصوم، فنهاها، ولم يشجعها.

2- في صحيح البخاري: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟!

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الوضوء، باب فضل من بات على وضوء، حديث رقم :(1149) وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل بلال، حديث رقم (2458)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، حديث رقم (3045)

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الصوم، باب صوم يوم الجمعة، حديث رقم (1986)وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الصيام، باب النهي عن صوم يوم الجمعة مفردًا، حديث رقم .(1143)

قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.[1]

فسمى غلوهم رغبة عن السنة ونهاهم عنه ﷺ.

3 -النعمان بن بشير جاء أبوه إلى النبي ﷺ فقال له إني نحلت ابني هذا غلاما فقال له أكل ولدك له نحلة مثل هذا قال لا قال فارددده [وفي رواية] ألكل ولدك نحلة مثل هذا قال لا قال أتحب أن يكون الكل في البر سواء قال نعم قال فسو بينهم في العطية وفي رواية أشهد على هذا غيري وفي رواية إني لا أشهد على جور.) [2]
فلم يرض النبي ﷺ، أن يخص ولد من الأولاد بالعطية دون بقية إخوته.

4- لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ قال ما هذا يا معاذ قال أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك فقال رسول الله ﷺ فلا تفعلوا فإني لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها.[3]

5- أبو بكرة -رضي الله عنه- دخل المسجد والنبي ﷺ راكع فركع دون الصف ثم دخل في الصف، فلما سلّم النبي ﷺ قال له: (زادك الله حرصا ولا تعد)[4]
6- تقول الربيع بنت معوذ رضي الله عنها: دخل عليّ رسول الله ﷺ صبيحة عرسي، وعندي جاريتان تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بدر، فذكرتا قولًا فيه: (وفينا نبي يعلم ما في غد)، فقال رسول الله ﷺ: (أما هذا فلا تقولاه، ما يعلم ما في غد إلا الله)[5]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم ((5063 وفي موضع آخر (كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، حديث رقم .(1979)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الهبات، باب الهبة للولد، حديث رقم (2586)وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، حديث رقم (1623)، وفي رواياته: «ألكلّ ولدِك نحلةٌ مثلُ هذا؟» قال: لا، قال :فارددده وفي رواية :فأشهد على هذا غيري، وفي رواية :إني لا أشهد على جور.

(3) أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة، حديث رقم (1853وأخرجه الترمذي في سننه (كتاب النكاح، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة، حديث رقم (1159)وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه أحمد في المسند (حديث رقم (21545من حديث معاذ رضي الله عنه، وفيه قوله ﷺ :(فلا تفعلوا، فإني لو كنتُ آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها)

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأذان، باب إذا ركع دون الصف، حديث رقم (783)

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب النكاح، باب ضرب الدف في العرس، حديث رقم (5147)

إذن ما يندرج تحت الأصل العام في الشريعة، لا نقول عليه بدعة، وما ورد فيه اختلاف فقهي ويحتمله الدليل لا نستطيع أن نقول عنه بدعة، أما ما خالف الشريعة وكان مستحدثا في الدين بنية القربة إلى الله أو فيه غلو أو فيه تشريع أو فيه تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فهذا نقول عنه هذا بدعة.

البدعة الحسنة والبدعة السيئة:

هذا التقسيم عند العلماء يغلب عليه المعنى اللغوي للبدعة، فلو قلت طباعة المصاحف مع وضع علامات للتفسير أو للقراءات، هذا شيء مبتدع، لا أقصد به مبتدعا حراما، إنما أعنى أنه شيء مستحدث، تطبيق آية وهو تطبيق مشهور جدا فيه تلاوة للقرآن بمختلف الأصوات وجميع القراءات وترجمة لمعاني القرآن وتفسير، وتضع أصبعك على الآية فيأتيك بعشرين تفسير، فيمكن أن نقول هذا شيء مبتدع أو بدعة حسنة، أنا أقصد أنه شيء فيه إبداع وفيه معنى نعمت البدعة كما قال سيدنا عمر.

مكبر الصوت هذا، ممكن نقول عليه نعمت البدعة هذه بدعة حسنة لأنه – سبحان الله هذه الأمور تسهل العبادة، أمور لتسهيل العبادة، وليس المقصود أنها بدعة بالمعنى الشرعي .

فالبدعة الحسنة بمعناها اللغوي ما كان شيء فيه إعانة على طاعة الله عز وجل، وبعض العلماء توسع وقال البدعة فيها الأحكام الخمسة: فعندنا بدعة واجبة وبدعة مستحبة وبدعة مكروهة وبدع مباحة وبدعة محرمة، وكل هذا يصب في المعنى اللغوي للبدعة، لكن المعنى المحرم الذي أتفق العلماء على تحريمه هو بدعة استحداث شيء في الدين يخالف الشريعة أو يحرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله.

حديث (من سن في الإسلام سنة حسنة):

معناه الاتباع في الدين وليس معناه الابتداع في الدين، والمقصود به من أحيا سنة ماتت، سن في الإسلام سنة حسنة أحيا سنة ماتت، كمن يعلم الناس الأذكار بعد الصلاة، قال يا جماعة الخير الرسول ﷺ علمنا بعد الصلاة نستغفر الله ثلاثا ونقول اللهم أنت السلام ومنك السلام وقراءة آية الكرسي والتسبيح كذا وكذا وبدأ يعلم الناس فأحيا الله به سنة فهذا سن سنة حسنة إما بفعله وإما بتذكيره للناس.

الناس تغفل عن صيام الثلاثة البيض، فيذكر الناس وتبعث رسالة غدا بداية الأيام البيض، فيحيي الله تعالى به سنة.

سنة الأضحية، عندنا في مصر كان الناس يعظمون شيخا في بلد اسمها طنطا اسمه السيد البدوي، فتعلف البهيمة طوال العام ثم تذبح في المولد، ولا يعرف الناس الأضحية، تجار البهائم لما كان أحدهم يبيع بهيمة يقول لك: هذا عجل ولا عجل السيد كان يقصد السيد البدوي، فهجر الناس السنة وقاموا بعمل البدعة، فلما يجيء واحد يحيي السنة ويعلم الناس أن الذبح لغير الله لا يجوز وأنه ليس هناك مكان للذبح ولا زمان إلا ما حدده الشرع بالأضحية، فهذا سن في الإسلام سنة حسنة.

البدعة الحقيقية:

هي التي لا دليل عليها من الأصل، مثلا واحد قال لك نحن نصلي في ليلة النصف من شعبان ست ركعات، ركعتين بنية سعة الرزق، وركعتين بنية الشفاء من المرض، وركعتين بنية حسن الخاتمة أو الغنى، وصلاة أخرى مئة ركعة يسمونها صلاة الرغائب برجب هذه ليس فيها سنة تتبع.

البدعة الإضافية:

هي التي يكون الدليل عليها من جهة الأصل موجودا، أما البدعة فتكون في الكيفية، مثل قول الرسول: **(إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن ثم صلوا علي)** فهذه سنة فالمؤذن يقول لا إله إلا الله وينتهي أذانه، والسامع ينتهي من لا إله إلا الله ويقول: اللهم صلِّ على محمد وعلي أل محمد، فيقوم بعض المؤذنين بالزيادة في الأذان فيقول: الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله، يا حبيب الله يا جد الحسنين، يا كحيل العينين...

فالأصل استحباب الصلاة على النبي بعد الأذان للمؤذن والسامع، لكن الكيفية فيها ابتداع.

تقسيم البدعة إلى البدعة العادية والبدعة التعبدية:

البدعة العادية هي المباحة في أمور الدنيا، هذا الابتداع في الدنيا، والبدعة التعبدية المتعلقة بالعبادة.

البدعة الفعلية والبدعة التركية:

البدعة الفعلية: فعل ما لم يشرع في الدين تقربا إلى الله، مثل الرهبانية، قال تعالى عن النصارى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾ **[الحديد: 27]**، **فالراهب** لا يتزوج ولا يتملك ولا يعيش حياة طيبة وإنما يعيش حياة خشنة، وهذا كله من اختراعهم لم يشرعه الله ولم يأذن لهم به فابتدعوه واخترعوه وأسسوه على أنه دين يتعبدون لله تعالى به.

ومن البدع من ينقطع عن الزواج، ويرى أن ذلك تقربا إلى الله، وفي الحديث: (فمن **رغب عن سنته فليس مني.)** [1]

فالبدعة الفعلية: أن يفعل شيئا تقربا إلى الله وهو بدعة ليس له أصل في الدين.

والبدعة التركية: أن يترك شيء مما شرعه الله على أساس أن تركه قربة إلى الله، مثل من يحرم على نفسه أكل شيء، فيحرم على نفسه اللحم، يقول: أنا زهدا في الدنيا لا آكل اللحم، فهذه بدعة تركية.

الخلاصة في هذا الحديث:

الرسول ﷺ يقول إن من استحدث شيئا في الدين لم يكن في دين الله عز ولا يندرج تحت أصل عام في الشريعة، بل هو فيه إضافة للدين، فهذا مردود عليه، فمن صلى العشاء خمس ركعات كمن صلى العشاء ثلاث ركعات، الاثنان صلاتهما باطلة، إنما نصلي العشاء أربع ركعات، لا تزيد ولا تنقص.

إذن العبادة لا تُقبل بالنية الحسنة وحدها، بل لا بد أن تكون مشروعة في أصلها وكيفيتها وعددها ووقتها، فلا يزاد في الدين ولا ينقص منه.

فوائد الحديث:

1. **هذا الحديث أصل عظيم في ضبط العبادات** :فكل عبادة لا توافق أمر الله ورسوله ﷺ فهي مردودة، ولو قصد صاحبها التقرب إلى الله.
2. **قبول العمل يقوم على أمرين** :الإخلاص لله في الباطن، والمتابعة للنبي ﷺ في الظاهر؛ فحديث «إنما الأعمال بالنيات» يضبط الباطن، وحديث «من أحدث...» يضبط الظاهر.
3. **البدعة المحرمة هي ما أُحدث في الدين وليس له أصل شرعي**، أما أمور الدنيا والوسائل الحديثة فلا تدخل في النهي.
4. **القاعدة الجامعة** :الابتداع في أمور الدنيا محمود إذا نفع الناس، أما الدين فالأصل فيه الاتباع لا الاختراع.

---

[1] سبق تخريجه.

5. **تطور الوسائل ليس بدعة شرعية،** مثل المآذن ومكبرات الصوت وطباعة المصحف والتطبيقات القرآنية؛ لأنها وسائل تخدم مقاصد مشروعة.
6. **ما كان له أصل عام في الشريعة لا يسمى بدعة محرمة،** مثل دروس العلم، تعليم التجويد، ختم القرآن في رمضان، وكسوة الكعبة؛ لأنها داخلة تحت أصول شرعية معتبرة.
7. **الاختلاف الفقهي المعتبر لا يجوز أن يوصف بالبدعة،** مثل الجهر بالبسملة أو الإسرار بها، لأن المسألة فيها اجتهاد ودليل.
8. **النبي ﷺ أنكر ما خالف الشرع ولو كان ظاهره عبادة،** مثل إفراد الجمعة بالصيام، أو الغلو في قيام الليل والصيام وترك الزواج.
9. **الغلو في الدين مذموم مثل التفريط؛** فالإسلام وسط بين التشدد الزائد والتضييع، والاتباع هو طريق السلامة.
10. **البدعة الحسنة عند بعض العلماء تُحمل غالبًا على المعنى اللغوي،** أي شيء جديد يعين على الطاعة، لا أنه عبادة مخترعة تخالف الشرع.
11. **حديث «من سن في الإسلام سنة حسنة» معناه إحياء سنة مهجورة لا اختراع عبادة جديدة.**
12. **من صور البدع الحقيقية** :الصلوات المخترعة بأعداد وهيئات ونيات مخصوصة لا دليل عليها، مثل صلاة الرغائب أو صلوات مخصوصة في ليلة النصف من شعبان.
13. **البدعة قد تكون فعلية أو تركية** :فالفعلية أن يتقرب الإنسان بفعل لم يشرعه الله، والتركية أن يترك شيئًا مباحًا أو مشروعًا معتقدًا أن تركه عبادة.
14. تجري البدعة في الأمور التعبدية التي يتقرب بها إلى الله، أما العادات التي لا تشوبها عبادة والأمور الدنيوية فلا مدخل لها في باب البدعة ولذلك يجوز

الانتفاع في كل ما يحقق مصلحة دينية أو دنيوية من الصناعات، والأصل في العبادات الحظر إلا ما دل الشرع على فعله والأصل في العادات الحل إلا ما دل الشرع على منعه.

15. هناك فرق ظاهر بين البدعة والمصلحة المرسلة، فالبدعة تكون في الأمور التعبدية ويقصد بها التقرب إلى الله وليس لها أصل في الشرع لا في جنسها ولا في عينها، أما المصلحة المرسلة فتكون في الوسائل ولا يقصد التعبد بها وقد دل الشرع على اعتبار جنسها وليس فيها مخالفة للشرع ومنافاة لمقاصده كاتخاذ عمر رضي الله عنه الديوان وجمع عثمان رضي الله عنه القرآن وبناء المسلمين المدارس والأربطة ونحو ذلك مما ظهرت مصلحته ودعت الحاجة إليه ولم يقم مقتضاه في زمن النبي ﷺ ولم يكن يقصد به التعبد.

16. جنس البدعة أشد من جنس المعصية لأن العاصي يعمل الذنب لشهوة من غير اعتقاد وهو في قرارة نفسه يعلم أنه مخالف للشرع ودائما يحدث نفسه بالتوبة، أما المبتدع فيعمل البدعة عن اعتقاد أنها من الدين ويتقرب إلى الله بذلك ولا يزداد إلا إصرارا على بدعته كما قال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**﴾ **[فاطر: 8] وقال سفيان الثوري "البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدع لا يتاب منها"**

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم إلى ما يحبه ويرضاه

وأن يرزقنا الفهم عن الله ورسوله

اللهم آمين

****

الحديث السادس

الحلال بيّن

والحرام بيّن

(6)الحلال بيّن والحرام بيّن

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) رواه البخاري ومسلم.[1]

مقدمة قبل شرح الحديث

هذا الحديث يبين فيه النبي ﷺ قضية من القضايا التي تهمنا جميعا خاصة في زماننا الذي اختلطت فيه الأمور، وصارت الأمور فوضى في التوجيه، والكلام، والفتاوى، وصار الدين عرضة لكل من أراد أن يتكلم بعلم أو بغير علم.

وقد وضع الإسلام جملة من المبادئ التشريعية، جعلها الركائز التي يقوم عليها الحلال والحرام، نتدارسها في السطور التالية: [2]

(1)الأصل في الأشياء الإباحة:

أول مبدأ قرره الإسلام :أن الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع، هو الحل والإباحة، ولا حرام إلا ما ورد نص صحيح صريح من الشارع بتحريمه، فإذا لم يكن النص صحيحا -كبعض الأحاديث الضعيفة- أو لم يكن صريحا في الدلالة على الحرمة، بقي الأمر على أصل الإباحة.

وقد استدل علماء الإسلام على أن الأصل في الأشياء والمنافع الإباحة، بآيات القرآن الواضحة من مثل قوله تعالى: **(هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا)** [سورة البقرة: 29] **(وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعا منه)** [سورة الجاثية:13]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52)ومسلم في صحيحه (كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (1599)

(2) انظر كتاب الحلال والحرام للدكتور يوسف القرضاوي من ص (2 إلى ص 38)

وقوله: (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) [سورة لقمان:20.]
وما كان الله سبحانه ليخلق هذه الأشياء ويسخرها للإنسان ويمن عليه بها، ثم يحرمه منها بتحريمها عليه، وكيف وقد خلقها له، وسخرها له، وأنعم بها عليه؟

ومن هنا ضاقت دائرة المحرمات في شريعة الإسلام، واتسعت دائرة الحلال؛ وذلك لأن النصوص الصحيحة الصريحة التي جاءت بالتحريم قليلة جدا، وما لم يجيء نص بحله أو حرمته، فهو باق على أصل الإباحة، وفي دائرة العفو الإلهي.

وفي هذا ورد الحديث: **(ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام. وما سكت عنه فهو عفو. فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا، وتلا (وما كان ربك نسيا) [سورة مريم:64])**[1]

وعن سلمان الفارسي: سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال: "الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا لكم" [2]
فلم يشأ عليه السلام أن يجيب السائلين عن هذه الجزئيات، بل أحالهم على قاعدة يرجعون إليها في معرفة الحلال والحرام، ويكفي أن يعرفوا ما حرم الله، فيكون كل ما عداه حلالا طيبا.

(2) التحليل والتحريم حق الله وحده

المبدأ الثاني: أن الإسلام حدد السلطة التي تملك التحليل والتحريم فانتزعها من أيدي الخلق، وجعلها من حق الرب تعالى وحده، فلا يملك هذا الحق أحبار أو رهبان، ولا ملوك أو سلاطين، ومن فعل ذلك منهم فقد تجاوز حده واعتدى على حق الربوبية في التشريع للخلق، ومن رضي بعملهم هذا واتبعه فقد جعلهم شركاء لله واعتبر اتباعه هذا شركا **(أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) [سورة الشورى:21.]**

وقد نعى القرآن على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين وضعوا سلطة التحليل والتحريم في أيدي أحبارهم ورهبانهم، فقال تعالى في سورة التوبة: **(اتخذوا**

---

[1] أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب العلم، حديث رقم (2) وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم .(1731)
[2] أخرجه الترمذي في سننه كتاب الأطعمة، باب ما جاء في أكل الجبن والسمن والفِراء، حديث رقم ((1726وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي حديث رقم (1726).

أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا، لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون) [سورة التوبة:31]

وقد جاء عدي بن حاتم إلى النبي -وكان قد دان بالنصرانية قبل الإسلام- فلما سمع النبي هذه الآية، قال: يا رسول الله! إنهم لم يعبدوهم. فقال: (بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم)[1]

وفي رواية أن النبي ﷺ قال تفسيرا لهذه الآية: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه)[2]

كما نعى على المشركين الذين حرموا وحللوا بغير إذن من الله؛ قال تعالى: **(قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا، قل الله أذن لكم أن على الله تفترون) [سورة يونس:59.]**

إذن الله وحده هو صاحب الحق في أن يحل ويحرم، في كتابه أو على لسان رسوله وأن مهمتهم لا تعدوا بيان حكم الله فيما أحل وما حرم، وليست مهمتهم التشريع الديني للناس فيما يجوز لهم، وما لا يجوز.

(3) التحريم يتبع الخبث والضرر

جعل التحليل والتحريم لعلل معقولة، راجعة لمصلحة البشر أنفسهم، فلم يحل سبحانه لعباده من هذه الأمة إلا طيبا، ولم يحرم إلا خبيثا، وكان عنوان الرسالة المحمدية عند أهل الكتاب -كما ذكر القرآن- أنهم :**(يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)** [سورة الأعراف:157]

وبذلك أصبح معروفا في الإسلام أن التحريم يتبع الخبث والضرر، قال تعالى: **(يسألونك ماذا أحل لهم؟ قل: أحل لكم الطيبات)** [سورة المائدة:4.]

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب التفسير، باب ومن سورة التوبة، حديث رقم 3095) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، أنه لما سمع النبي ﷺ قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال عدي: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم، فقال النبي ﷺ: (بلى، إنهم كانوا يحلّون لهم الحرام فيستحلّونه، ويحرّمون لهم الحلال فيحرّمونه، فتلك عبادتهم إياهم). وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (حديث رقم 3095).

(2) أخرجه أحمد في المسند (حديث رقم 19381) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وفيه قوله ﷺ: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه) وحسنه الألباني في غاية المرام (حديث رقم 17).

وليس من اللازم أن يكون المسلم على علم تفصيلي بالخبث أو الضرر الذي حرم الله من أجله شيئا من الأشياء، فقد يخفي عليه ما يظهر لغيره، وقد لا ينكشف خبث الشيء في عصره، ويتجلى في عصر لاحق، وعلى المؤمن أن يقول دائما: **(سمعنا وأطعنا)** .

ألا ترى أن الله حرم لحم الخنزير، فلم يفهم المسلم من علة لتحريمه غير أنه مستقذر، ثم تقدم الزمن فكشف العلم فيه من الديدان والجراثيم القتالة ما فيه؟ ولو لم يكشف العلم شيئا في الخنزير، أو كشف ما هو أكثر من ذلك فإن المسلم سيظل على عقيدته بأنه (رجس)

(4) في الحلال ما يغني عن الحرام

ومن محاسن الإسلام ومما جاء به من تيسير على الناس أنه ما حرم شيئا عليهم إلا عوضهم خيرا منه مما يسد مسده، ويغني عنه، كما بين ذلك ابن القيم رحمه الله:

- حرم عليهم الاستقسام بالأزلام وعوضهم عنه دعاء الاستخارة.
- وحرم عليهم الربا وعوضهم التجارة الرابحة.
- وحرم عليهم القمار، وأعاضهم عنه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام.
- وحرم عليهم الحرير، وأعاضهم عنه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن.
- وحرم عليهم الزنا واللواط، وأعاضهم عنهما بالزواج الحلال
- وحرم عليهم شرب المسكرات، وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن.
- وحرم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات.

وهكذا إذا تتبعنا أحكام الإسلام كلها، وجدنا أن الله جل شأنه لم يضيق على عباده في جانب إلا وسع عليهم في جانب آخر من جنسه، فإنه سبحانه لا يريد بعباده عنتا ولا عسرا ولا إرهاقا، بل يريد اليسر، والخير، والهداية، والرحمة.[1]

(5) ما أدى إلى الحرام فهو حرام

ومن المبادئ التي قررها الإسلام أنه إذا حرم شيئا حرم ما يفضي إليه من وسائل وسد الذرائع الموصلة إليه، فإذا حرم الزنا مثلا حرم كل مقدماته ودواعيه، من

---

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين (15/3)

تبرج جاهلي، وخلوة آثمة، واختلاط عابث، وصورة عارية، وأدب مكشوف، وغناء فاحش... الخ .

ومن هنا قرر الفقهاء هذه القاعدة: **(ما أدى إلى الحرام فهو حرام)**
ويشبه هذا ما قرره الإسلام من أن إثم الحرام لا يقتصر على فاعله المباشر وحده، بل يوسع الدائرة، فتشمل كل من شارك فيه بجهد مادي أو أدبي، كل يناله من الإثم على قدر مشاركته:

- ففي الخمر يلعن النبي عليه السلام شاربها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها .
- وفي الربا يلعن آكله ومؤكله معطي الربا وكاتبه وشاهديه.

وهكذا كل ما أعان على الحرام فهو حرام، وكل من أعان على محرم فهو شريك في الإثم.

(6) التحايل على الحرام حرام

وكما حرم الإسلام كل ما يفضي إلى المحرمات من وسائل ظاهرة، حرم التحايل على ارتكابها بالوسائل الخفية، والحيل الشيطانية.

ومن الحيل الآثمة تسمية الشيء بغير اسمه، وتغيير صورته مع بقاء حقيقته.
ومن غرائب عصرنا أن يسمى الرقص الخليع (فنا) والخمور (مشروبات روحية) والربا (فائدة)، وهكذا.

(7) النية الحسنة لا تبرر الحرام

الحرام حرام مهما حسنت نية فاعله، وشرف قصده، ومهما كان هدفه نبيلا، ولا يرضى الله أبدا أن يتخذ الحرام وسيلة إلى غاية محمودة، لأن الإسلام يحرص على شرف الغاية وطهر الوسيلة معا، ولا تقر شريعته بحال مبدأ **(الغاية تبرر الوسيلة)** بل توجب الوصول إلى الحق عن طريق الحق وحده.
فمن جمع مالا من ربا، أو سحت، أو لهو حرام، أو قمار، أو أي عمل محظور، ليبني به مسجدا أو يقيم مشروعا خيريا، لم يشفع له نبل مقصده، فيرفع عنه وزر الحرام، فإن الحرام في الإسلام لا يؤثر فيه المقاصد والنيات.

وهذا ما علمه لنا رسول الله حين قال: **(إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) سورة المؤمنون:51. وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم (سورة البقرة:172. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث**

أغبر (ساعيا للحج والعمرة ونحوهما (يمد يديه إلى السماء "يا رب يا رب" ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك.)[1]

(8) اتقاء الشبهات خشية الوقوع في الحرام

ومن رحمة الله تعالى بالناس أنه لم يدعهم في غمة من أمر الحلال والحرام، بل بين الحلال وفصل الحرام، كما قال تعالى: **(وقد فصل لكم ما حرم عليكم)** [سورة الأنعام:119]
فأما الحلال البين فلا حرج في فعله. وأما الحرام البين فلا رخصة في إتيانه -في حالة الاختيار.
وهناك منطقة بين الحلال البين والحرام البين، هي منطقة الشبهات التي يلتبس فيها أمر الحل بالحرمة على بعض الناس، إما لاشتباه الأدلة عليه، وإما للاشتباه في تطبيق النص على هذه الواقعة أو هذا الشيء بالذات.

وقد جعل الإسلام من الورع أن يتجنب المسلم هذه الشبهات، حتى لا يجره الوقوع فيها إلى مواقعة الحرام الصرف، وهو نوع من سد الذرائع الذي تحدثنا عنه، ثم هو كذلك لون من التربية البعيدة النظر، الخبيرة بحقيقة الحياة والإنسان.

(9) تحريم الحرام أمان للمجتمع كله:

ينظر البعض إلى مسألة الحلال والحرام نظرة ضيقة فيري أن الله حرم عليه السرقة، وحرم عليه القتل، وحرم عليه الزنا، ولو وسعت الدائرة لعلمت أن الله لم يحرم عليك وحدك القتل؛ بل حرم على جميع أهل الارض أن يقتلوك، ولم يحرم عليك أنت وحدك السرقة، بل حرم على جميع أهل الأرض أن يسرقوك، ولم يحرم عليك وحدك الزنا، إنما حرم على جميع الارض أهل الأرض أن ينالوا من عرضك من أمك، أو زوجتك، او أختك، أو ابنتك !!هذه هي النظرة الشاملة لقضية الحلال والحرام فهي ليست تضييق.

وبعض الناس أيضاً ينظر إلى مسألة الحلال والحرام على أنها مسألة شخصية أي أني لماذا لا أفعل كذا، والرقيب فيها هو الدين باستشعار المسلم مراقبة الله، أنت لا تفعل هذا لأن فيه ضرر على المجتمع، ربما فيه منفعة شخصية لكن النظرة العامة فيها ضرر على المجتمع.

مثلاً: أنا أقود السيارة بسرعة عالية لماذا؟ لأني تأخرت عن موعد!!

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم 1015)

أنت حينما تقود السيارة بسرعة عالية، قد تتسبب بوفاة إنسان وقتل نفس بريئة، أنت حريص على مصلحة شخصية، وهي ألا يفوتك الموعد، أو لا تتأخر عن عملك، لكن مصلحة المجتمع بسلامة الناس أعلى وأهم.

فالبعض ينظر إلى كثير من الأمور على المصلحة الشخصية، لكن لو نظرت نظرة أبعد وأكبر لرأيت أن المصلحة للمجتمع جميعاً بامتثال الجميع.

(10) التشدد في التحريم ليس منهج السلف:

أريد أن أقول في ختام هذا الكلام: يعتقد بعض الشباب أن الشيخ فلان على منهج السلف لأنه متشدد في الفتاوى، وهذا ليس صحيحا، العلماء قالوا: إن المبالغة في سد الذرائع كالمبالغة في فتحها، والحلال والحرام قضية فيها وضوح وقطعيات في الشرع، فاذا لم يتضح الأمر عند الفقيه المجتهد فليسعه ما وسع العلماء من قبله؛ الإمام أحمد كان يقول لا أحبه لا أستحسنه هذا الأمر أكرهه، وهكذا تورع أن يقول إن هذا حرام على سبيل القطع.

هناك أمور ظنية، وأمور تخضع للأعراف أو للرؤية الشخصية، لا ينبغي أن نحولها إلى دين فلما يأتي مثلا مجتهد أسهل ما عليه كلمة حرام!! نقول له ما قاله سفيان الثوري: **(التشديد يحسنه كل أحد إنما الرخصة من ثقة.)**

التشديد سهل وكلمة حرام ما أسهلها، لكن هناك مسائل اجتهادية، ووقائع أعيان وأمور جدت، الشافعي في مصر، غير شافعي العراق ، الأحوال تتغير، والفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان، وهذا التغيير ليس تمييع للدين ، كما يظن البعض إنما هو فقه للدليل وفقه للواقع الذي تسقط عليه الدليل، وعندنا مسائل في بلاد الغرب إذا سألت عليها عالما ببلد آخر قد يفتي فيها على وجهٍ غير صحيح لأنه فقه الدليل لكنه لم يفقه الواقع، وهذه مسألة مهمة جداً إسقاط الدليل على الواقع ؛ إنما فصل الدليل عن الواقع ، والفتوى العامة لكل الناس ، هذه مسألة تحتاج لمراجعة، ولاحظوا أن الأحكام القطعية لا مجال للاجتهاد فيها إنما الاجتهاد فيما جد من مسائل ووقائع فتحتاج الى ربطٍ بالشرع من خلال فهمٍ للدليل وفهمٍ للواقع؛ فالتشديد ليس هو منهج السلف، وليس كل من تشدد فهو سلفي ، ومن خالفه فهو مبتدع!!!

أيضاً تمييع الأمور، أن تجعل القطعيات واليقينيات في مرتبة الظنيات أو مرتبة الاجتهاد مثل قضية ميراث المرأة هذه لا تحتاج إلى تمييع هذا نص قطعي الثبوت في كتاب الله قطعي الدلالة.

التعريف براوي الحديث

- هو **النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي**، صحابي جليل، وأبوه **بشير بن سعد** من الصحابة، وأمه **عمرة بنت رواحة** أخت الصحابي عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم.
- وُلد النعمان رضي الله عنه في حياة النبي ﷺ، وكان من **صغار الصحابة**، وقيل: إنه أول مولود للأنصار بعد الهجرة.
- ومن أشهر الأحاديث التي ارتبطت باسمه أيضًا حديث العدل بين الأولاد في العطية، حين أراد أبوه أن يخصه بعطية دون إخوته، فقال النبي ﷺ:**"اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم"**.
- كان النعمان بن بشير رضي الله عنهما **خطيبًا فصيحًا**، وله مكانة بين الصحابة والتابعين، وتولى بعض الولايات في زمن معاوية رضي الله عنه وبعده.
- من أهم ما يميز سيرته أنه نشأ في بيت صحابي، وسمع من النبي ﷺ، وروى عنه العلم، فجمع بين شرف الصحبة وشرف الرواية.
- توفي رضي الله عنه سنة **64هـ**.

شرح الحديث

قوله: (إن الحلال بين) الحلال هو مالم يرد دليل بتحريمه، وبين أي ظاهر وواضح مثل أكلِ ما أباح الله من الطيبات من الزروع، والثمار، وبهيمةِ الأنعام، وشرب الأشربة الطيبة، ولباسِ ما يحتاج إليه من ملابس .... الخ.

(وإن الحرام بين) الحرام هو ما ثبت تحريمه بالكتاب، أو السنة، أو الإجماع، أو قياس مرجح لذلك، **مثلُ** أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير وشرب الخمر، ونكاح المحارم، ولباس الحرير للرجال...الخ.

(وبينهما أمور مشتبهات) ووردت مشتبهات، وهي ما ليس بواضح الحل أو الحرمة، أي لا يدري حكمها أهي حلالٌ أم حرام؟
وسبب الاشتباه فيها إما:

- الاشتباه في الدليل، هل صحّ عن النبي ﷺ أم لم يصحّ؟ وهذا عند الأصوليين يسمى تخريج المناط.
- وإما الاشتباه في انطباق الدليل على المسألة، هل يدل على هذا الحكم أو لا يدل؟ عند الأصوليين يسمى تحقيق المناط.

ما أسباب ورود الشبهة؟

1- **إما جهل بالحكم: فعلاجه العلم بسؤال أهل الذكر، كما علمنا الله سبحانه وتعالى.**

2- **وإما أن المسألة جديدة محل اجتهاد واخذ ورد بين أهل العلم، وعند اختلاف الفقهاء وخاصةً في المسائل الاجتهادية ينبغي علينا أن نقلد عالما نثق في علمه.**[1]

3- **من الأمور التي اختلط فيها الحلال بالحرام.**

(لا يعلمهن كثير من الناس) أي أن هذه المشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس؛ إما لقلة علمهم، وإما لقلة فهمهم، وإما لتقصيرهم في المعرفة.

قال ابن رجب الحنبلي: «وفي الجملة فما ترك الله ورسولُه حلالًا إلَّا مُبيَّنًا ولا حرامًا إلَّا مُبيَّنًا، لكن بعضَه كان أظهر بيانًا من بعض، فما ظهر بيانُه، واشتهرَ، وعُلِمَ من الدِّين بالضَّرورة من ذلك لم يبق فيه شكٌّ، ولا يُعذر أحدٌ بجهله في بلدٍ يظهر فيه الإسلام، وما كان بيانُه دونَ ذلك، فمنه ما اشتهر بين حملة الشريعة خاصة، فأجمع العلماء على حله أو حرمته، وقد يخفي على بعض من ليس منهم، ومنه ما لم يشتهر بين حملة الشريعة أيضًا، **فاختلفوا في تحليله وتحريمه وذلك لأسباب:**

منها أنه قد يكون النصُّ عليه خفيًا لم ينقله إلا قليلٌ من النَّاس، فلم يبلغ جميع حملة العلم.
ومنها أنه قد ينقل فيه نصان، أحدهما بالتحليل، والآخر بالتحريم، فيبلغ طائفةً أحدُ النصين دون الآخرين، فيتمسكون بما بلغهم، أو يبلغ النصان معًا من لم يبلغه التاريخ، فيقف لعدم معرفته بالناسخ.
ومنها ما ليس فيه نصٌّ صريحٌ، وإنَّما يُؤخذ من عموم أو مفهوم أو قياس، فتختلف أفهامُ العلماء في هذا كثيرًا.
ومنها ما يكون فيه أمر، أو نهي، فتختلفُ العلماء في حمل الأمر على الوجوب أو الندب، وفي حمل النهي على التَّحريم أو التنزيه، وأسبابُ الاختلاف أكثرُ مما ذكرنا.

---

(1) ومن الظواهر الطيبة في عصرنا "المجامع الفقهية"، وهذا لأن المسائل الاجتهادية الجديدة لا يفتي فيها عالم واحد إنما يفتي مجمع فقهي، فيه علماء الشريعة المختصون ويستدعون إليهم المتخصصين في المجالات المختلفة التي يبحثونها ويفتون فيها، فالأخذ بفتوى المجامع الفقهية في عصرنا أفضل من الأخذ بفتوى مجتهد واحد.

ومع هذا فلا بد في الأمة من عالم يُوافق قولُه الحقَّ، فيكون هو العالِم بهذا الحكم، وغيرُه يكون الأمر مشتبهًا عليه ولا يكون عالمًا بهذا، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يظهرُ أهلُ باطلها على أهلِ حقِّها، فلا يكونُ الحقُّ مهجورًا غير معمولٍ به في جميع الأمصار والأعصار، ولهذا قال رسول الله ﷺ في المشتبهات: "لا يَعْلَمُهُنَّ كثيرٌ من النَّاس" فدل على أن من النَّاس من يعلمها، وإنَّما هي مشتبهة على من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر، فهذا هو السبب المقتضي لاشتباه بعض الأشياء على كثير من العلماء.[1]

الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان:

الحكم الشرعي ثابت بالدليل لا يتغير، مثل: وجوب الصلاة، وتحريم الزنا، وتحريم الربا.

لكن الفتوى أي: تطبيق الحكم على واقع الناس قد تختلف بسبب تغيّر: الزمان/ المكان/ العُرف/ أحوال الناس/ ظروف الحياة/ المصالح والمفاسد

هنا ننتقل من الحكم إلى الفتوى ما الفارق بين الأمرين؟

الحكم نصٌ قطعيٌ في المسألة؛ **كقوله تعالى "وأحل الله البيع وحرم الربا " [البقرة:275]**؛ الفتوى تكون في بعض الحالات الخاصة، وقد حدث هذا في زمان نبينا ﷺ حينما أذن لعبد الرحمن بن عوف أن يلبس الحرير حينما أصيب بالجرب كان عنده مرض جلدي لا يستطيع أن يلبس أي ملابس فأذن له النبي بلبس الحرير والحرير حرامٌ على الرجال حلالٌ للنساء، لكن أفتى له رسول الله بأن ينتقل من الأصل الحرام إلى الجواز عند الضرورة الملجئة.

وقديماً قبل اختراع الأسنان البلاتين كان العلماء يفتون بجواز الأسنان من الذهب لأن الأسنان من معدن آخر غير الذهب والفضة كانت تحدث التهابات ونتن وصديد فكانت الفتوى باستعمال أسنان الذهب والفضة ليس ترفا ولا إسرافا إنما للضرورة الملجئة.

والآن قد صار في عصرنا بدائل صارت البدائل هي الأشيع وهي الأرخص من استعمال أسنان الذهب والفضة؛ فلم نعد في حاجة لهذه الفتوى لأنه لا ضرورة لها الآن.

فالتغير يقع في الفتوى لا في الحكم الشرعي نفسه؛ على سبيل المثال:

---

[1] «جامع العلوم والحكم» (1/ 196 ت الأرناؤوط)

ما حكم الحصول على جنسية أجنبية؟

علماء الجزائر زمن الاحتلال الفرنسي كانوا يفتون بكفر من يحصل على الجنسية الفرنسية، وأنه خائنٌ للوطن، وهذا كان ظرفا موجودا في واقع وتاريخ معين ومرحلة تاريخية معينة، وكان هذا بإجماع علماء الجزائر وقتها أما وقد صرنا إلى زماننا هذا فجواز السفر ما يعني إلا وسيلة من وسائل الانتقال من بلد على بلد، فلا يتعلق لا بخيانة وطن ولا برضا بمحتل ولا أي شيء من هذا القبيل.
إذن فالأمر اختلف لا يتعلق هنا بولاء وجيش وخدمة عسكرية وخيانة للوطن الأمر يتعلق بوثيقة للسفر والانتقال فالفتوى اختلفت.

مثال ثان / الزواج من الكتابية:

قال تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ [المائدة: 5] ومعنى الآية إباحة زواج المسلم من كتابية، لكن في وقتنا الحالي إذا حدث نزاع بينك وبين الزوجة الكتابية ما مصير الأولاد وما مصير دينهم؟

القوانين هنا (بكندا) على سبيل المثال تقرر أنه ليس من حق أحد الوالدين أن يفرض أو يعلم أبناءه أي دين حتى يصل إلى سن البلوغ، فلا يحق لك أن تأخذه للمسجد، ولا تأخذه الزوجة للكنيسة، ولا تعلمهم الصلاة ولا القرآن ولا تعلمه الزوجة أي شيء من تعاليم دينها.

هذا يسمونه في الفتوى فقه المآل (ما يصير إليه الأمر مستقبلا) إذن فمن أراد أن يتزوج بكتابية فليضع نصب عينيه هذه المسألة وهذا الواقع.

مثال آخر/ لماذا لحم الدجاج حلال والبقر حرام (بكندا)؟

الفتوى المعمول بها هنا بكندا وأمريكا أن لحم الدجاج كله حلال، وأن لحم الأبقار فيه شبهة التحريم كبيرة، فالبعض يخلط ويقول لماذا قلتم عن الدجاج حلال وعن لحم الأبقار حرام؟
لأن نسبة الوفاة في الدجاج واحد في الألف، وهذه نسبة لا تجعل الاتجاه للتحريم مطلقاً، لأنها لا تكاد تذكر، بالإضافة إلى أن القانون يفرض على المسالخ عزل الدجاجة التي ماتت قبل توزيعها للبيع.

أما بالنسبة للأبقار فالفتوى لا علاقة لها بالسؤال هل هي ذبيحة كتابي أم غير كتابي، لو فرضنا أن الذي يذبح مسلم ما هو الذي يدور هنا؟ الذي يحدث في المسالخ التي لا تعلق لافتة حلال يضربون العجل بالخرطوش في رأسه، هذه العملية كما يقول القائمين على هذه المسالخ (مكان الذبح) قد تؤدي إلى الوفاة بنسبة من أربعين

لستين بالمائة، أي من بين عشرة عجول أربعة إلى ستة تموت، وهذه نسبة كبيرة في التحريم، المسألة هنا ليست ذبيحة الكتابي حلال ولا حرام، ذبيحة الكتابي حلال بنص كتاب الله، إنما الكلام هنا على مسألة تفرعت منها، وهي كيفية الذبح، هل تذبح وهي فيها حياة؟ أم تذبح وقد ماتت بالفعل فتكون ميتة؟ هذا تحرير للأمر وتوضيح.

إذن لا يكفي أن أقول: قال الله **(وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌ لكم)** ثم أتغافل عن أن الذابح سواء كان مسلما أو كتابيا ذبحها وهي ميتة؛ فالحكم لن يختلف؛ لأن الميتة حرام لا يجوز أكلها.

عند اختلاط الحلال بالحرام فإن المسلم يلتزم الورع:

الورع معناه في اللغة الكف والانقباض عن الشيء.

وتعريفه عند علماء الشرع: الورع هو ترك الشبهات، وقال بعض العلماء: الورع هو قول النبي ﷺ **(دع ما يريبك الى ما لا يريبك)** [1]أي دع ما فيه ريبة ودع فيه شك إلى ما ليس فيه ريبةٌ ولا شك.

والورع المراد هنا هو أن تترك الشيء الذي لم تتضح الرؤية أو الحكم فيه حتى تتعرف على الأمر أحلال هو أم حرام؟ فإن لم تصل الى شيء فإن تركه من الورع.

والورع عن أكل الحرام وما فيه مظنة الحرام هذا هو الذي يدور حوله كلام العلماء.

ونرى في هذا نبينا المصطفي قائدنا وقدوتنا حينما أمسك حفيده الحسن بتمرة من تمر الصدقة، فقال له النبي ﷺ: بلغة الأطفال (كخ كخ) أنها لا تحل لنا أنها لا تحل لنا)[2]

وقال النَّبيُّ ﷺ: "إنِّي لأنقلب إلى أهلي فأجدُ التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقةً فألقيها" [3]

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في ترك الشبهات، حديث رقم 2518) وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (كتاب الأشربة، حديث رقم 5711) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك). وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لا تحل لنا الصدقة، حديث رقم 1491) وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على النبي صلى الله عليه وسلم وآله، حديث رقم 1069) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الحسن بن علي رضي الله عنهما أخذ تمرة من تمر الصدقة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (كخ كخ، أما علمت أنها لا تحل لنا؟)

(3) رواه البخاري كتاب اللقطة، باب: إذا وجد تمرة في الطريق. حديث رقم (232)، ومسلم كتاب الزكاة، باب: تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله. (1069) من حديث أبي هريرة.

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه، أن النَّبيَّ ﷺ أصابه أرقٌ من الليل، فقال له بعضُ نسائه: يا رسول الله أرقت الليلة. فقال: "إنِّي كنتُ أصبتُ تمرةً تحت جنبي، فأكلتُها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة، فخشيتُ أن تكون منه".[1]

وعن عبد الله بن يزيد عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: "لا يبلغُ العبدُ أن يكونَ من المتَّقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ به حذرًا مما به بأسٌ ".[2]

وهذا الصديق أبو بكرٍ رضي الله عنه لما جاءه غلامه بطعامٍ وكان قد اشتد جوعه فأكل، وكان من عادته أن يسأل عن الطعام ما مصدره فمن شدة جوعه أكل دون أن يسأل، فقال له الغلام: لم تسألني اليوم عن مصدر هذا الطعام قال :إنما شغلني الجوع فمن اين لك بهذا الطعام؟

قال: قوم كنت قد تكهنت لهم في الجاهلية فاعطوني حلوانا (مكافأة أو هدية) أي أنه كذب على بعض الناس أو غشهم أنه يعلم الغيب أو ينفع أو يضر ففعل لهم شيئاً مما يفعله بعض الدجالين والمدعين، فوافق ذلك قدر الله عز وجل فأعطوه حلواناً، وهذا الحلوان مال حرام لأن النبي ﷺ نهى عن حلوان الكاهن الذي يدعي علم الغيب ويعطى على ذلك مالا.

فجعل أبو بكر رضي الله عنه يتقيأ ما في بطنه رغم أنه ما كان يعلم أنه حرام، لكن حتى لا يكون الحرام مخالطاً بدمه ولحمه جعل يتقيأ، والنبي ﷺ **(كل لحمٍ نبت من سحت فالنار أولى به.)**[3] نسأل الله العافية.[4]

- ولما سأل عمر بن الخطاب الصحابة ما تقولون في الورع؟ فبعضهم قال: الورِع هو كثير الصلاة، كثير الصيام، كثير الصدقة، قال: الورع ترك الحرام.
- وقال بعض السلف: لأن أترك دانقاً [5]من حرام خيرٌ من سبعين حجةً نافلة.
- وقال الحسنُ: ما زالتِ التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام.

---

(1) رواه أحمد في "مسنده" 2/ 183 و193، وسنده حسن.
(2) رواه الترمذي (2451) وفي سنده ضعف
(3) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في أكل الحرام، حديث رقم 614) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (حديث رقم 614).
(4) رواها ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج 3، ص 154) ورواها ابن أبي الدنيا في الورع، وفيها أن غلامًا لأبي بكر رضي الله عنه جاءه بطعام فأكل منه، ثم قال الغلام: كنت تكهّنت في الجاهلية لقوم فأعطوني هذا الطعام، فأدخل أبو بكر يده في فمه فجعل يتقيأ ما في بطنه وقال: لو لم تخرج إلا مع روحي لأخرجتها.
(5) الدرهم ستة دوانق، كالجنية المصري مئة قرش، والدولار مئة سنت ... وهكذا.

- وقال الثوري: إنَّما سُموا المتقين لأنهم اتَّقَوْا ما لا يُتقى.
- وروي عن ابن عمر قال: إنِّي لأحبُّ أن أدعَ بيني وبين الحرام سترةً من الحلال لا أخرقها.
- وقال ميمون بن مهران: لا يسلم للرجل الحلالُ حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال.
- وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبينَ الحرام حاجزًا من الحلال، وحتى يدعَ الإثم وما تشابه منه.

ورع الكاذبين:

ومن عجائب زمننا الورع في ترك ما وسعه الله عز وجل، ثم بعد ذلك يقع فيما هو معلوم من الدين بالضرورة حرمته واشتهرت، فهناك من يذكرني بالمثل الذي ذكره ابن الجوزي حينما جاءه رجل يسأله عن أنه وقع على امرأةٍ في الحرام- زنى بها والعياذ بالله – وحملت ماذا يفعل في هذا الولد؟

يريد أن يتوب الى الله عز وجل، فقال الإمام: هلا عزلت عنها إذ ابتليت بهذا الامر؟
قال: يا إمام، ولكني بلغني أن العزل مكروه- العزل أن الرجل يجامع ولا تحمل المرأة منه بوسيلة او بنحو ذلك، فقال له: لكن بلغني أن العزل مكروه!!!.
قال: سبحان الله بلغك أن العزل مكروه ولم يبلغك أن الزنا حرام؟

- وهذا عبد الله بن عمر لما جاء رجل يسأله عن دم البعوض للمحرم، قال: من أين أنت؟ قال: من العراق. قال: تقتلون الحسين، وتأتي لتسأل عن دم البعوض؟!!!

- وسمع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه رجلاً ينادي في السوق من صاحب التمرة وجد التمر في الارض من صاحب التمرة؟ من صاحب التمرة؟ قال كلها يا صاحب الورع الباهت، أي أن الورع جاء في تمرة وأنت سبحان الله فيك ما فيك من العيوب.

الورع الكاذب كشف المرأة الخائنة والرجل السارق

عاد الرجل ذات مساء إلى بيته، فوجد زوجته جالسة عند النافذة وقد غلبتها الدموع. وقف أمامها قلقاً، ثم سألها عمّا يبكيها. مسحت دموعها بطرف ثوبها وقالت بصوت متهدّج:
إنّ العصافير التي تقف على الشجرة المطلة على نافذتنا تنظر إليّ وأنا أتنقّل في البيت بلباسي المعتاد دون حجاب، وأخشى أن أحاسب عند الله على هذا التقصير.

تأثر الرجل بكلماتها، واقترب منها يقبّل رأسها إعجاباً بعفّتها وخوفها من ربها، ثم حمل فأسا وخرج إلى الشجرة، فقطعها من أصلها ليصرف عن بيته كلّ سبب يوهم بالمعصية.
ومضت أيام قليلة، عاد خلالها مطمئناً إلى بيته وزوجته، حتى جاء يوم حضر فيه من عمله باكراً، فدخل منزله بخطوات هادئة، فإذا به يرى زوجته في أحضان رجل غريب.
ثبت مكانه لحظة، شعر بصدمة تخترق أعماقه، ثم أدرك أنّ ما رآه لا يحتمل تأويلاً.
لم يصرخ، ولم يبطش؛ فقد كان عاقلاً، كظَمَ غيظه، وطلّقها، ثم حمل ما بقي له وترك المدينة كلها خلف ظهره، رافضاً أن يعيش بين طرقٍ تذكّره بخيانتها.
انتقل إلى مدينة أخرى يبتغي نسيان ما كان. وفي يوم من الأيام، كان يتجوّل في سوقها، فسمع ضجّة وصياحاً. سأل أحد الواقفين: ما الذي يحدث؟
قال الرجل: خزينة الأمير سُرقت، والجنود يفتّشون كل من يُشتبه به.
وفيما هم يتحدّثون، مرّ رجل يخطو خطوات دقيقة جداً؛ يرفع قدمه ببطء، ينظر تحتها ملياً، ثم يضعها بحذر، ويمشي على رؤوس أصابعه كمن يطأ جمراً.
سأل الغريب أحد الواقفين: وما شأن هذا الرجل؟
قال: هذا شيخنا وزاهد المدينة، من شدة ورعه يمشي هكذا خشية أن يدعس نملة فيُكتب عليه ذنب.
تأمّله الغريب نظرة طويلة، وكأن شيئاً انكشف له. ثم قال بثبات: دلّوني على قصر الأمير... فقد وجدت السارق.
دخل على الأمير وقال له: أعلم مَن سرق خزانتك.
رفع الأمير رأسه باستغراب وقال: من؟
قال: الشيخ الذي تلقّبونه بالعابد الزاهد.
احمرّ وجه الأمير غضباً: أتتّهم رجلاً اشتهرت تقواه؟
قال بثقة: إن كنت كاذباً فاضرب عنقي.
أمر الأمير الجنود بتفتيش منزل الشيخ، وما هي إلا لحظات حتى عادوا بالأموال المسروقة قد خُبِّئت في بيته. أُحضر الشيخ فاعترف بالسرقة، فسأل الأمير الرجل مندهشاً: وكيف عرفت أنه السارق؟
قال: حين يُبالغ أحدهم في ادعاء الورع، فاعلم أن وراء المبالغة ظلّ جريمة يخفيها.

(فَمَنِ اِتَّقَى الشُّبُهَاتِ) أي تجنبها.

(فَقَدِ اِسْتَبْرَأَ لِدِيْنِهِ وَعِرْضِهِ) أي طلب البراءة لدينه بورعه لله، ويحفظ عرضه بين الناس، فلا يقعون فيه أو يسيئون الظن به.

والعرض: هو موضعُ المدح والذمّ من الإنسان، وما يحصل له بذكره بالجميل مدحُ، وبذكره بالقبيح قدحٌ، وقد يكون ذلك تارةً في نفس الإنسان، وتارةً في أهله، فمن اتَّقى الأمور المشتبهة واجتنبها، فقد حَصَّنَ عِرْضَهُ مِنَ الذم وسوء الظن الداخل على من لا يجتنبها، كما قال بعض السَّلف: من عرض نفسه للتُّهم، فلا يلومنَّ من أساء به الظنَّ.

(وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فَي الحَرَامِ) وَمَنْ وَقَعَ فَي الشُّبُهَاتِ بفعلها وَقَعَ في الحَرَامِ، وهذه الجملة تحتمل معنيين:

الأول: أن ممارسة المشتبهات حرام.

الثاني: أنه ذريعة إلى الوقوع في المحرم، وبالنظر في المثال الذي ضربه ﷺ يتضح لنا أن المعنى الثاني أصح.

قال ابن رجب: قسم الناس في الأمور المشتبهة إلى قسمين، وهذا إنَّما هو بالنسبة إلى من هي مشتبهة عليه، وهو من لا يعلمها، فأمَّا مَنْ كان عالمًا بها، واتَّبع ما دلَّه علمهُ عليها، فذلك قسمٌ ثالث، لم يذكره لظهور حكمه، فإنَّ هذا القسم أفضلُ الأقسام الثلاثةِ؛ لأنَّه عَلِمَ حكمَ الله في هذه الأمور المشتبهة على النَّاس، واتَّبع علمَه في ذلك.

وأما من لم يعلم حكم الله فيها، فهم قسمان:

أحدهما من يتقي هذه الشبهات، لاشتباهها عليه، فهذا قد استبرأ لدينه وعرضه.

الثاني: من يقع في الشبهات مع كونها مشتبهةً عنده، فأمَّا مَنْ أتى شيئًا مما يظنُّه الناس شبهةً، لعلمه بأنَّه حلال في نفس الأمر، فلا حَرَج عليه من الله في ذلك، لكن إذا خشيَ من طعن الناس عليه بذلك، كان تركُها حينئذ استبراءً لعرضه، فيكون حسنًا، وهذا كما قال النبيُّ ﷺ لمن رآه واقفًا مع صفية: إنَّها صفيَّةُ بنتُ حُيي". [1]

(كَالرَّاعِي يرعى حول الحمى) هذا مَثَلٌ ضربه النبيُّ ﷺ لمن وقع في الشُّبهات، وأنَّه يقرُب وقوعه في الحرام المحض، أي راعي الإبل أو البقر أو الغنم، يَرْعَى أي حول المكان المحمي، لأنه قد يُتخذ مكانٌ يُحمَى فلا يُرعَى فيه إما بحق أو بغير حق، والراعي حول هذه القطعة يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيْهِ أي يقرب أن يقع فيه، لأن البهائم إذا رأت هذه الأرض المحمية مخضرة مملوءة من العشب فسوف تدخل هذه القطعة المحمية، ويصعب منعها، كذلك المشتبهات إذا حام حولها العبد فإنه يصعب عليه أن يمنع نفسه عنها.

---

[1] «جامع العلوم والحكم» (1/ 203 ت الأرناؤوط)

وبهذا المثال يقرب أن معنى قوله مَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ أي أوشك أن يقع في الحرام، لأن المثال يوضح المعنى.

إذن المعنى اجعل بينك وبين ما حرم الله حاجز، حاجز يمنعك من الجرأة على الحرام؛ لا تكن جريئاً متساهلاً تقول هذا مكروه وهذا حرام سأستغفر منه وهذا وذاك فهذا سيهلكك.

(ألا وإن لكل ملك حمى) وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى أي كل ملك له حمى، ومسألة الحمى على نوعين:

1- إذا حماه لنفسه وبهائمه فهو حرام.

2- إذا حماه لدواب المسلمين كإبل الصدقة وإبل الجهاد فهو حلال، لأنه لم يختصه لنفسه.

(ألا وإن حمى الله محارمه) ألا وإن حمى الله محارم الله، فإياك أن تقربها، لأن محارم الله كالأرض المحمية للملك لا يدخلها أحد.

ما حكم معاملة من في ماله حلال وحرام مختلط؟

هذه المسألة فيها تفصيل عند العلماء:

الأولى :أن يكون الحرام أكثر ماله ويغلب عليه فهذا مكروه قال الإمام أحمد " ينبغي أن يتجنبه إلا أن يكون شيئا يسيرا أو شيئا لا يعرف ". أما إذا علم تحريم شيء بعينه فيحرم عليه تناوله إجماعا كما حكاه ابن عبد البر وغيره.

الثانية :أن يكون الحلال أكثر ماله ويغلب عليه فيجوز معاملته، والأكل من ماله بلا حرج، فقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال في جوائز السلطان " لا بأس بها ما يعطيكم من الحلال أكثر مما يعطيكم من الحرام " وكان النبي ﷺ وأصحابه يعاملون المشركين وأهل الكتاب مع علمهم بأنهم لا يجتنبون الحرام كله.

الثالثة :أن يشتبه الأمر فلا يعرف أيهما أكثر الحلال أم الحرام فهذا شبهة والورع تركه قال سفيان " لا يعجبني ذلك وتركه أعجب إليّ " وقال الزهري " لا بأس أن يأكل منه مالم يعرف في ماله حرام بعينه " ونص أحمد على جواز الأكل مما فيه شبهة ولا يعلم تحريمه.

صلاح القلب وفساده

(ألا وإن في الجسد مضغة) مضغة، أي قطعة لحم بقدر ما يمضغه الإنسان عند الأكل، وهي بمقدار الشيء الصغير.

(إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)

فيه إشارة إلى أنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارحه، واجتنابه للمحرَّمات واتِّقاءه للشُّبهات بحسب صلاحِ حركةِ قلبِه؛ فإن كان قلبُه سليمًا، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يُحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها، ونشأ عن ذلك اجتنابُ المحرَّماتِ كلها، وتوقي الشبهات حذرًا مِنَ الوقوعِ في المحرّمات.

وإن كان القلبُ فاسدًا، قدِ استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطلب ما يحبُّه، ولو كرهه الله، فسدت حركاتُ الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب، وقد مثل بعض العلماء هذا بالملك، إذا صلح صلُحت رعيته، وإذا فسد فسدت.

أهمية القلب:

الطريق إلى الله يقطع بالقلوب وليس بالأقدام، فكلما كان القلب سليما معافي كان سيره حثيثا قويا، وكلما كان مريضا ضعيفا كان سيره متقطعا أو منعدما.

والقلب جعله الله محل الوعي والإدراك، المخ مدير العمليات الفسيولوجية بالجسم، أما العقل فهو محل الوعي والإدراك، وكما رجح كثير من أهل العلم أن العقل محله القلب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ **[الحج: 46]**

فالقلب هو محل العقل الواعي ومحل الإدراك، والقلب فيه الخير والشر، وفيه الحب والبغض، وقد جعله الله محل المشاعر الإنسانية، ومنعقد الإرادة عند الفعل، ولذلك قال النبي ﷺ" **إنما الأعمال بالنيات ولكل أمرئ ما نوى** " ولو قرأنا في كل كتب الفقه عن النية وتفاصيلها نجد العلماء يقولون: والنية محلها القلب، فأي عمل بداية الأمر فيه تكون من القلب.

والإمام السيوطي رحمة الله عليه له كتاب اسمه " الأشباه والنظائر " بين أن مراتب الأعمال في القلب خمس هي:

"الهاجس، والخاطر، وحديث النفس، والهم، والعزم."

هذه المراتب تبين معنى قول النبي ﷺ: " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب."

ما معنى هذه المراتب الخمس؟

1- الهاجس:

الهاجس: الشيء أول ما يقع على القلب، فهو أمر جاء على البال ليس له مقدمات؛ قد يكون خيرا أوشرا، لكنه ألقي في القلب لإرادة فعل شيء، ولا يؤاخذ به إجماعًا، لأنه ليس من فعله، وإنما هو شيء ورد عليه لا قدرة له عليه.

2- الخاطر:

فإذا تردد في الصدر فهو " خاطر "، ولذلك نجد أن المفكرين والكتاب يعبرون عن كتاباتهم بالخواطر، خواطر: أي مجرد أفكار من هنا وهناك، أفكار تتردد في النفس فهو يترجمها لكتابات، وهذه الكتابات لأنها كتبت من ناحية إنسانية أو عاطفية بعيدة عن النواحي العلمية المعقدة بعض الشيء تجد صدى عند الكثير من الناس.

والهاجس والخاطر يهجمان على النفس بلا مقدمات ويزولا بلا مقدمات، أي أنها مجموعة أفكار تتردد على الذهن أو تتوارد على الذهن بخير أوشر، وهذه لا شيء فيها لا ثواب ولا عقاب، وهذه طبيعة في الإنسان أن يرد عليه هذه الأمور.

فإذا تردد الأمر ووجدت له صدى في النفس حينئذ تحول الخاطر إلى:

3- حديث النفس:

وهو ما يقع فيها من التردد هل يفعل أو لا؟ بمعنى أنك تأخذ الكلام أو الخاطرة وتبدأ تردد ماذا أفعل في كذا وكذا ... أي مثلا خطر ببالك أن تخرج صدقة فبعد أن يكون هاجسا شيء ألقي في قلبك يكون خاطرا يتردد في نفسك، ثم تحدث نفسك، وما المانع؟ هل أتصدق أم لا؟ بكم أتصدق؟ في أي مكان؟ لمن أعطي؟ حديث نفس.

وحديث النفس لا يؤاخذ عليه خيرا أو شرا لحديث النبي ﷺ **(إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَتَكَلَّمْ)** [1]

فإذا تطور الأمر ارتقى إلى:

4- الهم:

والهم هو نية فعل الشيء لكن بدرجة خمسين بالمئة ، أي عندك إرادة للفعل لكنها ليست إرادة محققة كاملة ، هم بالفعل لما أودع الله فينا من القدرة على فعل الخير أو

(1) أخرجه البخاري في *العتق*، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم 2528، ومسلم في *الإيمان*، باب إذا همّ العبد بحسنة، رقم: (127)

الشر كما قال جل وعلا : **(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)** [الشمس8/7] ، والإلهام هنا معناه هداية الفطرة أو الغريزة ، أي إنسان خلقه الله عنده قدرة على الخير والشر، على فعل الحسن والسيء ، وإلا انعدم التكليف ، ما في أحد يفعل الخير فقط ولا يرد الشر على باله ، أو يفعل الشر فقط ولا يرد الخير على باله ، لكن قد يغلب جانب على جانب ، والهم يثاب عليه العبد في كما ورد في الحديث القدسي **" إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة"** [1]

مثلا: غدا الاثنين هممت بالصيام، ولكن في اليوم التالي شعرت بعطش شديد، أو حدث مانع من الموانع فأفطرت، مجرد الهم لك أجر صيام يوم، فإذا صمت؟ يكتب لك بعشر.

هممت أن أقيم الليل قلت: إن شاء الله سأستيقظ قبل الفجر بنصف ساعة وأصلي قيام الليل، فغلبتك عيناك ونمت يكتب لك قيام ليلة كما قال النبي ﷺ قال: **" ما من عبد يحدث نفسه بقيام ساعة من الليل فينام عنها إلا كان نومه صدقة تصدق الله بها عليه وكتب له اجر ما نوى.[2]".**

فإذا هممت بسيئة وتركتها لله جل وعلا تكتب لك حسنة؛ كما في الحديث السابق: **(وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة)** لكن من تركها لانشغال أو غفلة أو أمر طارئ جاءه اتصال نحتاجك في العمل، فهنا هو هم بالسيئة وتركها لهذا السبب، فلا له ولا عليه.

هم يوسف وهم امرأة العزيز:

وهذا يجعلنا نعرج على قصة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: **(ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)** [يوسف/24]

الهم هنا معناه كما ذكرنا أن كل إنسان خلق وفيه القدرة على فعل الخير والشر ، ونبي الله يوسف بشر ليس ملك من الملائكة ، يرى أمامه امرأة ذات جمال ، وهي زوجة عزيز مصر ، تدعوه لنفسها ، وقالت: **" هيت لك "** أي إنسان في هذا الموقف يتحرك فيه داعي الشهوة ، كرجل عنده هذه الغريزة، ولكنه امتنع عن ذلك ؛ كما قال تعالى: **(ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)** [يوسف/24]

---

[1] أخرجه مسلم في *الإيمان*، باب إذا همّ العبد بحسنة، رقم ((131

[2] أخرجه ابن ماجه في *السنن*، كتاب *الصلاة*، باب فضل قيام الليل، رقم 1390، عن أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني.

وبرهان ربه كما رجح أهل العلم أن الله حفظه من أن يقع في هذه الفاحشة كما قال بعدها : **(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)** [يوسف/24]

ونقل في كتب التفسير أن يوسف عليه السلام لم يهم بها، ويقدر الآية هكذا **"لولا أن رأى برهان ربه لهم بها "** وهذا غير صحيح، لأن الابتلاء هنا أن يكون عندك القدرة على الفعل وتمتنع، وذكر العلماء أن الصبر ثلاثة أنواع: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على قضاء الله.
في الصبر على قضاء الله النفس ليس لها حيلة فيه، صبرت أم لم تصبر قضاء الله نفذ، يليه الصبر على الطاعة؛ أن تصبر على الصوم على الصلاة .... الخ

أشقّها وأصعبها الصبر عن المعصية، أن يكون في يدك المال وتمتنع أن تنفقه في حرام أو شهوة، شباب وتمنع نفسك بالعفة عن الوقوع في الزنا، ذا منصب وعندك قدرة وجاه وتمتنع عن أذى الناس وتقيم العدل، هذا هو أصعب أنواع الصبر.

يوسف عليه السلام شباب وهذه المرأة سيدته وهو غريب في بلد لا يعرفه فيها أحد، وفي مكان لا يراه أحد غير الله، لكنه امتنع عن ذلك، فهو هم بها كاستعداد فطري غريزي كأي رجل عنده ما عند الرجال من الرغبة والشهوة لكن الله تعالى حفظه، وصرف عنه السوء والفحشاء.

ولاحظوا أن درجة الهم بين امرأة العزيز ويوسف اختلفت ولذلك فصل بين الفعلين قال: **(ولقد همت به وهم بها)** [يوسف/24]، وبعدها قال **(واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب)** [يوسف/25] واستبقا بألف التثنية، لماذا قال: **"ولقد همت"** ولم يقل **" ولقد هما"** ببعضهما، وهنا قال: **"واستبقا "؟**
لأن فعل الاستباق واحد فجاء بألف الاثنين، فيوسف يجري هربا منها، لينجو بنفسه ودينه، وهي تجري وراءه تريد من باب الكبرياء أن تنال منه، لأنه تركها في هذا الموقف، وهي التي عرضت نفسها عليه، لكن لأن هم يوسف مختلف فصل بين الفعلين؛ فشتّان بين هم يوسف الصديق، وهم امرأة العزيز.

5- العزم:

والمقصود به الجزم بالفعل بدرجة 100% خلاص أنا نويت كذا، وبدأت أتوجه للقيام بهذا الفعل، فهذه يثيب الله عليها في الخير خيرا، وفي الشر شرا، فمن عزم على فعل أكيد وفعله كان له الأجر كاملا في الخير، ومن عزم على فعل شر ولم يفعله، هذا أيضا عليه الوزر كاملا.

هل هناك أدلة على هذا الأمر؟ نعم أدلة كثيرة منها:

الأول: قول الحق جل وعلا: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [النور/19]

يحبون الحب هنا ليس قولا باللسان ولا عملا بالجوارح ، لكنه مسألة قلبية ، هو يحب مسألة قلبية ، لكن لأنه أحب أن يرى فاحشة تنتشر وهتكا لأعراض المسلمين الأبرياء ، وسره ذلك توعد الله من يقع في هذا الفعل بأن لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ؛ فهذا لم ينطق بلسانه وقال فلان أو فلانة كذا ، ولم يفعل شيئا بجوارحه ، إنما أحب وفرح ، وهذه الآية جاءت في وسط الآيات التي تكلمت عن حادثة الإفك ، وكيف أن من المنافقين من دعم هذه الإشاعة وهذا الإفك عن الصديقة عائشة رضي الله عنها ، وروج لها ، ومنهم من فرح بها، فبين الله تعالى أن من يفرح بهتك الأعراض ويُسر بالنيل من أعراض المسلمين والمسلمات، رغم أن هذا عمل قلبي إلا أن له عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

الدليل الثاني في الخير قصة الخليل إبراهيم مع ولده قال: (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) [الصافات/102]

إبراهيم أخذ ولده وأمسك بالسكين كما وصف الله **(فلما أسلما وتله للجبين)** [الصافات/103] الآن عزم على الفعل بدأ التنفيذ **(وتله للجبين)** أي جعله على بطنه حتى يذبحه من الخلف لئلا يعاين الموت **(وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين)** [الصافات 104 /105] فأعطى الله الأجر كاملا لإبراهيم رغم أنه لم يذبح، لكنه عزم وأراد التنفيذ بدرجة مئة بالمئة.

الدليل الثالث بسورة القلم وهذه القصة كما ذكرها ابن عباس قصة رجل صالح كان عنده جنة أي بستان ممتلئ بالثمار والأشجار والخيرات و كان الرجل يجعل للفقراء نصيبا من هذه الجنة وثمارها ، لما مات الرجل اجتمع أولاده واتفقوا ألا يعطوا الفقراء شيئا وعزموا عزما أكيدا على أن يأخذوا الثمار مبكرا قبل أن يعلم الفقراء فيأتون إليهم ونقرأ الآيات في سورة القلم: **(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)** (القلم:17) أي: حلفوا ليقطعن ثمارها بعد نضجها واستوائها وقت الصباح ، قبل أن يخرج المساكين ، كي لا يشعروا بهم ، فلا يعطونهم منها ما كان أبوهم يتصدق به عليهم منها**{وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18)}:** أي ولا يقولون إن شاءَ الله، وقيل: المعنى ولا يستثنون منها حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم... لا حظوا ! هم عزموا عزما أكيدا على ذلك ، لكن لم يفعلوا فعاقبهم الله جل وعلا : **(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19))** الطائف كما قال العلماء صاعقة، أو نار أحرقتها فصارت أرضا سوداء لا شيء فيها**(فَأَصْبَحَتْ**

كَالصَّرِيمِ (20)) أَصبحت محترقة تشبه الليل في السواد... ثم يصور لنا القرآن مشهد استيقاظهم وهم ذاهبون للجنة لقطع الثمار مبكرا فلما أصبحوا **" فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23)"** أَي فاندفعوا مسرعين وهم يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والمسارّة متواصين قائلا بعضهم لبعض: لا يمكّن أَحد منكم اليوم مسكينا من دخول الجنة عليكم، **{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25)}:** أي على عزم وجد قادرين سنقطع الثمار ونأخذها ولا نترك شيئا للفقراء **" فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26)** لما رأوا الجنة وهي محترقة لا ثمر ولا شجر قالوا إِنَّا لَضَالُّونَ فلما بحثوا وتأكدوا قالوا : **" بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) "** فعاقبهم الله على عزمهم منع الزكاة عن الفقراء.

الدليل الرابع من السنة النبوية عن أبي بكرة قال النبي ـ ﷺ: "إذا التقى المسلمانِ بسيفَيْهما فالقاتل والمقتول في النار" قلت: يا رسول الله هذا القاتِل فما بالُ المقتول؟ قال: "إنّه كان حريصًا على قتل صاحبه" (1)

فالقاتل عرف ذنبه لكن المقتول ما جنايته؟ قال: **"إنّه كان حريصًا على قتل صاحبه"** لقد بلغ درجة العزم على أن يقتل أخاه حتى وإن كان هو المقتول، مجرد العزم جعله مساويا لخصمه في هذا الفعل، فلا يحل لمسلم أن يرفع السلاح في وجه أخيه، القاتل والمقتول في النار.

الدليل الخامس: حديث أبي كَبْشَةَ الأَنَّمَارِيُّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه قال: ما نقص مال عبد من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر.
وأحدثكم حديثا فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفر:

- **عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل"**
- **وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء"**
- **وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل.**

(1) أخرجه البخاري في *الحدود*، باب إذا التقى اثنان بسيفيهما، رقم 6873، ومسلم في *القتل والحدود*، باب إذا التقى اثنان بسيفيهما فالمقتول والقاتل في النار، رقم 1705.

- **وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء".**[1]

إذن ننتبه لهذا الأمر أن القلب فيه:
الهاجس، والخاطر، وحديث النفس، والهم، والعزم.

هذه الخمس مراحل قلبية ثم الجوارح هي المنفذة؛ فالقلب هو المدير المسؤول، ثم الجوارح منفذة لإرادة القلب.

ولذلك العلماء لا يتكلمون عن تزكية اليد، ولا تزكية القدم، ولا العين، ولا الأذن، إنما تزكية القلب نفسه وتطهيره، فالقلب هو محل مخاطبة الله عز وجل لعباده، هذا هو محل التطهير والتنقية، ولذلك قال الله عن الذين في قلوبهم مرض: **(أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم)** [المائدة/41] وقال في أهل **الإيمان (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه)** [المجادلة/22] وكتب لفظ معبر عن قوة الإيمان في القلب فما كتبه الله لا يمحى، وأمدهم الله بمدد من عنده وأيدهم بروح منه.

إذن فلينتبه كل واحد منا إلى قلبه بتطهيره، وحبه لطاعة الله، وبعده عن كل غذاء من مال حرام، أو شبهة، أو شهوة، وعن كل شيء يسخط الله سبحانه وتعالى.

وبهذا يتضح معنى قول النبي ﷺ: " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب."

أهم ما يستفاد من الحديث:

1. **هذا الحديث أصل عظيم في باب الحلال والحرام والورع**، خاصة في زمن اختلاط الفتاوى وكثرة الكلام في الدين بغير علم.
2. **الأصل في الأشياء الإباحة**، فلا يُحكم على شيء بالتحريم إلا بدليل صحيح صريح، وما لم يرد نص بتحريمه يبقى في دائرة الحلال والعفو.
3. **التحليل والتحريم حق لله وحده**، فلا يملك أحد أن يحلل أو يحرم من عند نفسه، وإنما وظيفة العلماء بيان حكم الله لا اختراع أحكام من أهوائهم.

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء أن الدنيا لأربعة نفر، رقم 2325، وقال عنه: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب النية، رقم 4228، وأحمد في مسند الشاميين (4/231)، والطبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وصحيح الترغيب والترهيب رقم 16.

4. **التحريم في الشريعة تابع للخبث والضرر**، فالله تعالى لا يحرم إلا ما فيه مفسدة أو خبث، علمنا وجه ذلك أو جهلناه.
5. **في الحلال غُنية عن الحرام**؛ فما حرّم الله شيئًا إلا عوّض العباد بما هو أنفع وأطهر، مثل تحريم الربا وتعويضه بالتجارة، وتحريم الزنا وتعويضه بالزواج.
6. **ما أدى إلى الحرام فهو حرام**، فالإسلام لا يحرم الفعل المحرم فقط، بل يحرم الطرق والوسائل المفضية إليه.
7. **التحايل على الحرام لا يجعله حلالًا**، فتغيير الأسماء لا يغير الحقائق؛ فالربا لا يصبح حلالًا بتسميته فائدة.
8. **النية الحسنة لا تبرر الحرام**، فلا يجوز فعل المحرم بحجة الوصول إلى مقصد طيب، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.
9. **تحريم الحرام حماية للفرد والمجتمع**، وليس تضييقًا على الإنسان؛ فكما حرم الله عليك الاعتداء على غيرك، حرم على الناس كلهم الاعتداء عليك.
10. **التشدد في إطلاق كلمة "حرام" ليس من منهج السلف**، فالمسائل الظنية والاجتهادية تحتاج علمًا وفقهًا بالواقع، لا مجرد التسرع في التحريم.
11. **الحلال البين هو ما لم يرد دليل بتحريمه**، والحرام البين هو ما ثبت تحريمه بالكتاب، أو السنة، أو الإجماع، أو القياس الصحيح.
12. **أسباب الشبهة ترجع غالبًا إلى الجهل بالحكم، أو كون المسألة جديدة محل اجتهاد، أو اختلاط الحلال بالحرام.**
13. **ليست كل مسألة مشتبهة في نفسها**، فقد تكون مشتبهة على بعض الناس فقط، ويعلم حكمها أهل العلم الراسخون.

14. **الحكم الشرعي ثابت، لكن الفتوى قد تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف، وأحوال الناس، والمصالح، والمفاسد.**
15. **فقه الواقع مهم جدًا في الفتوى**، فلا يكفي معرفة الدليل وحده دون فهم الواقع الذي يُنزَّل عليه الحكم.
16. **الورع هو ترك الشبهات وما يُخشى أن يجرّ إلى الحرام**، ومن معانيه: أن يترك المسلم ما يريبه إلى ما لا يريبه.
17. **من اتقى الشبهات حفظ دينه وعرضه**؛ حفظ دينه من الوقوع في الحرام، وحفظ عرضه من كلام الناس وسوء الظن.
18. **الوقوع في الشبهات طريق قريب إلى الوقوع في الحرام**، مثل الراعي الذي يرعى حول الحمى فيوشك أن تدخل ماشيته فيه.
19. **معاملة من اختلط ماله بالحلال والحرام لها تفصيل** :فإن غلب الحرام تجنّب، وإن غلب الحلال جازت المعاملة، وإن اشتبه الأمر فالورع تركه.
20. **صلاح الجوارح تابع لصلاح القلب**، فإذا صلح القلب ظهرت آثاره على الأعمال، وإذا فسد القلب انطلقت الجوارح إلى المعاصي والشبهات.
21. **القلب هو محل النية والإرادة والتزكية**، ولذلك كان صلاحه أساس صلاح الإنسان كله.
22. **خلاصة الحديث** :طريق النجاة أن يعرف المسلم الحلال والحرام، ويسأل أهل العلم عند الاشتباه، ويجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الورع، ويعتني بإصلاح قلبه لأنه ملك الجوارح.

****

الحديث السابع

الدين النصيحة

(7) الدين النصيحة

عَنْ أَبِيْ رُقَيَّةَ تَمِيْم بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: (الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: للهِ، ولكتابه، ولِرَسُوْلِهِ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ، وَعَامَّتِهِمْ) رواه مسلم.[1]

راوي الحديث:

- تميم الداري وكنيته أبو رقية، لأنه ليس له إلا ابنة وبها يكنى.
- وهو تميم بن أوس الداري نسبة إلى قرية في لبنان أو مدينة اسمها دارين، وقال بعض المؤرخين نسبة إلى جده اسمه الدار ابن هانئ.
- وتميم رضي الله عنه ممن تأخر إسلامهم أسلم سنة 9 هجرية.
- وله قصة التقى فيها بدابة اسمها الجساسة والتقى بالمسيح الدجال بعدها، والقصة مروية في صحيح مسلم ولها حديث طويل.
- وكان من قراء الصحابة ومن حفظة القرآن وكان من فقهائهم رضي الله عنهم، وله في صحيح مسلم هذا الحديث فقط وفي كتب السنن ثمانية عشر حديثا.
- سكن المدينة بعد إسلامه، ثم انتقل بعد ذلك إلى **الشام**، وكان له ارتباط بأرض فلسطين .
- توفي رضي الله عنه في خلافة عثمان رضي الله عنه أو بعدها، وقيل سنة **40 هـ**، رحمه الله ورضي عنه.

شرح الحديث

نلاحظ أن في كل الأحاديث التي مضت وهذا الحديث الذي معنا أن الإمام النووي رحمة الله عليه يختار الأحاديث بعناية وأن كل حديث منها يمثل قاعدة من قواعد الدين التي لا ينبغي للمسلم أن يجهلها.

(الدين النصيحة) كلمة الدين تأتي ولها عدة معان:

- الدين بمعنى الجزاء، (مالك يوم الدين)

(1) أخرجه الإمام مسلم في: كتاب الإيمان – باب: بيان أن الدين النصيحة حديث رقم.(55)

- والدين بمعنى النظام والقضاء كما في قوله تعالى: في قصة يوسف ﴿**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [يوسف: 76] أي في نظامه وقانونه.
- وكلمة الدين من دان يدين بمعنى يخضع ويستسلم، ومن هنا جاء بمعنى العقيدة، فمن يدين يعتقد ويخضع، سواء عقيدة صحيحة أو باطلة فكل أتباع اعتقاد بحق أو باطل، يسمى هذا المعتقد دينا.
- والمقصود في هذا الحديث من كلمة (**الدين**) دين الإسلام بما يحمله من شرائع وأحكام.

(الدين النصيحة) كلمة النصيحة وقع فيها بعض الخلل في الفهم، لأن كثيرا منا يفهمون أن النصيحة هي نصح المخطئ، ولذلك استشكل البعض هذا الحديث وقال: أنا أنصح مسلما لكن كيف أنصح الله؟

معنى كلمة النصيحة في الاستعمال اللغوي، غير الاستعمال العرفي؛ الاستعمال العرفي أن النصيحة هي نصح المخطئ، لكن النصيحة في أصلها واشتقاقها اللغوي تأتي بمعنى تصفية الشيء من الشوائب، يقولون في اللغة العربية نصحت العسل صفيته وخلصته من الشمع، ويقولون نصحت الثوب إذا رقعه وأزال ما به من فتق أو عيوب فالنصيحة لها معنيان:

المعنى الأول: تحري الإخلاص:

لأن النصيحة من النصح وهو الصفاء والتنقية من الشوائب فأنا ناصح أمين، مخلص فيما أقول وأمين فيما أدعوكم إليه، وعندنا في القرآن توبة نصوح أي خالصة من أي نفاق أو رياء أو تعلق بالذنب، لأن من شروط التوبة أن تكون نادما مقرا بالذنب عازما على عدم العودة إليه، فتسمى التوبة النصوح التي لا رياء ولا كذب ولا إصرار على الذنب فيها.

إذن فالمعنى الأول في كلمة النصيحة تحري الإخلاص قولا وعملا.

والمعنى الثاني: بذل الجهد في إصلاح المنصوح:

فإن رأيت عيبا في أخي فمن باب الأمانة ومن حقه عليّ ولأني أحب له ما أحب لنفسي أنصحه في الله، وعكس النصح الغش، فهذا بائع ناصح أمين، وهذا بائع غشاش يغش أو يدلس في بضاعته.

(الدين النصيحة) في اللغة العربية غالبا المبتدأ يأتي معرفة والخبر يأتي نكرة تقول الأرض واسعة، السماء صافية، هنا جاء المبتدأ والخبر الاثنان معرفين وكلاهما محلي بأل، **(الدين النصيحة)**، ما السبب في ذلك؟

قال العلماء: إذا جاء المبتدأ والخبر معرفين أفاد الحصر، كأن المعنى هنا ما الدين إلا النصيحة.
قد يسأل البعض ويقول ما الدين إلا النصيحة؟ لكن الدين فيه أبواب أخرى كثيرة؟ فالنصيحة باب من أبواب الدين؟

نقول لك إن هذا في اللغة العربية محمول على المبالغة في التعبير، كما قال النبي: **(الحج عرفة)** وهل الحج عرفة فقط؟ كلا الحج فيه إحرام وفيه سعي وطواف وكذا، فقول النبي الحج عرفة إشارة إلى أنه ركن الحج الأعظم.

وفي اللغة العربية يقولون: إن الحصر نوعان:

- **حصر حقيقي.**
- **وحصر إضافي.**

حصر حقيقي: بمعنى أنه ينفي ما عداه، إذا قلت لا إله إلا الله، هذا حصر حقيقي، لا معبود بحق إلا الله، فننفي عبادة نقصد بها أحدا غير الله، لا معبود لا مألوه بحق إلا الله.

الحصر الإضافي: (أي نسبي) وهو ما اختص المقصور عليه بحسب الإضافة إلى شيء معين لا مطلقا، مثال: لا كريم إلا زيد.
فإن الإطلاق لا يصح، إذ قد علم قطعا أن في الناس من هم كرماء غير زيد.
لكنك تقصد القصر في سياق معين، نحو: لا كريم في هذه القرية، أو المدينة أو نحو ذلك.
ومثل (الدين النصيحة) و(الحج عرفة) والقول المشهور **(الدين المعاملة)** [1]

فمعنى الدين النصيحة: أي عماد الدين النصيحة، أوما الدين إلا النصيحة.
وفي رواية سنن أبي داوود النبي ﷺ كررها ثلاثا: **(الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة)** وقد كررها لإثارة انتباه السامع.

(قلنا لمن يا رسول الله) من ننصح؟

---

[1] وهذا ليس بحديث، لكن المعنى له وجه من الصحة: أن معاملة الناس بالأمانة والصدق وجه من الأوجه التي يرضي المسلم بها ربه.

أولا/ النصيحة لله:

قال: (لله) وليس المقصود هنا ظاهر اللفظ، تنزه الله عن ذلك، الله تعالى لا يحتاج للنصيحة بمعنى أن فيه عيب فيصوب، جل الله في علاه، إنما كما ذكرنا النصيحة هي تخليصك للشيء من الشوائب؛ فمعنى النصيحة لله إخلاص التوحيد لله، فأنا أنصح لله أخلص العمل لله، فلا يتعلق بالعمل أي شائبة تؤثّر في صحته، فنفرده سبحانه بالعبادة **(إياك نعبد وإياك نستعين)**، والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وأنه موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص.

ومن النصح لله كما أن الله أنعم عليك بنعمة طاعته وحبه أن تحبب الخلق في الله، وأن تدلهم على الله، وأن تدعو من أشرك، ومن أعرض، ومن كفر ومن أنكر ومن ألحد تدعوه إلى الله سبحانه وتعالى

ويذكر أن نبي الله عيسى سئل من الناصح لله؟ فقال: من يقدم حق الله على حق الخلق.

ثانيا / النصح لكتاب الله:

(ولكتابه) هل الكتاب هنا القرآن أم جميع الكتب السابقة؟

المقصود القرآن وهذا هو التفسير الأغلب عند العلماء الذين شرحوا الحديث، ومنهم من قال: ويشمل الكتب السابقة ومن النصح أن نؤمن أنها كتب أنزلها الله عز وجل على رسله مثل التوراة والإنجيل والزبور، فتكون معنى كلمة كتابه اسم جنس مثل كلمة الإنسان تدل على جنس الإنسان وليس على شخص واحد، فمعنى الكتاب ليس كتابا واحد إنما جنس الكتب المنزلة.

كيف يكون النصح للقرآن؟

أن نؤمن أنه كلام الله عز وجل، التصديق به وبما فيه، ثم امتثال ما فيه من أوامر واجتناب ما فيه من نواهٍ

قال عبد الله بن مسعود: في قوله تعالى: (يا أيها الذين امنوا) قال إذا سمعت (يا أيها الذين امنوا) فارعها سمعك، فخيرا تؤمر به أو شرا تنهى عنه.[1]

ومن النصح لكتاب الله:

- أن نعرف كتاب الله ونعرف كيف نتلوه تلاوة صحيحة.
- حفظ آياته.

---

[1] أورده الطبري في *تفسيره* (1/165) بصيغة قريبة، عن ابن مسعود، من طرق صحيحة.

- تعليمه، لحديث **(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)** [1]،وقال: **(يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا")** [2]
- وجعل الله تعالى الشرف في كتابه لأنه كلام الله فهو يعلو على أي كلام، وكل ما اتصل بكتاب الله نال من شرف كلام الله عز وجل، وكل من أعان على كتاب الله عز وجل بالتلاوة الصحيحة وأحكام التجويد أو القراءات العشر، أو برمجة التطبيقات على الهواتف الذكية، فمن يقم بهذا العمل فهو من النصح لكتاب الله عز وجل.
- ومن النصح لكتاب الله الاهتمام بعلم القراءات والتفسير وعلوم القرآن ومعرفة المكي والمدني وأسباب النزول وهناك آيات الأحكام وفقه الدليل الشرعي والاستنباط.

وكل هذه الأمور من النصح لكتاب الله عز وجل، نسأل الله تعالى أن يشرفنا بشرف خدمة كتاب الله تلاوة وفهما وتدبرا وتعلما وتعليما وتفسيرا، اللهم آمين.

ثالثا/ النصح للرسول:

(ولرسوله ﷺ) كيف ننصح لرسول الله؟

- تنصح لرسول الله بالإيمان به، وطاعته، واليقين أنه ﷺ ما ينطق عن الهوى، وأن ما أمرنا به رسول الله وما نهانا عنه هو وحي يجب الالتزام به واتباعه، قال تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ [النساء: 80] و ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الحشر: 7]

- ومن النصح لرسول الله محبته، وتقديم محبته ﷺ فوق كل محبة؛ كما قال:**(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)**[3]

---

[1] صحيح البخاري :في كتاب فضائل القرآن، باب خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ، رقم.(5027)

[2] رواه أبو داوود في سننه في كتاب الوتر، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم.(1464) والترمذي : في كتاب فضائل القرآن، باب (الذي يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارتق)، رقم.(2914) وصححه الألباني في *صحيح سنن أبي داود* و*صحيح سنن الترمذي*.

[3] صحيح البخاري :في كتاب الإيمان، باب حُبُّ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم مِنْ الإِيمَانِ، رقم (15) وصحيح مسلم :في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم.(44)

- أن نقتدي به في سنته وهديه، قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]**، فكلما تعلق قلبك برسول الله ﷺ، تعلق قلبك بالشريعة وتعلق بالسنة.
- ومن النصح لرسول الله نشر أخلاقه في الناس، وتحبيب الناس فيه ﷺ.
- ومن النصح لرسول الله إحياء السنن المهجورة.
- ومن النصح لرسول الله معرفة سيرته، وأحواله وهديه وطريقته لأن هذا نشر لدين الله عز وجل، فالسنة كل ما نقل عن رسول الله من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة، فهذا من النصح لرسول الله.

رابعا النصح لأئمة المسلمين:

(ولأئمة المسلمين) كل من ولي من أمر المسلمين شيئا فهو إمام، الإمامة في الصلاة تسمى الإمامة الصغرى، ثم الإمامة العظمى وهي الحكم بين المسلمين نسمه الملك الرئيس الخليفة السلطان الأمير، كل هذه أسماء تختلف من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان، ثم كل مسؤولية هي من الإمامة مثل والي المدينة أو المحافظ أو العمدة ثم الوزير ورئيس الوزراء وهكذا... فكل من ولي مسئولية في المسلمين فهو إمام، فله منا النصح، فعندنا العلماء والأمراء.

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمة الله: (وأئمة المسلمين صنفان من الناس:

الأول: العلماء، والمراد بهم العلماء الربانيون الذين ورثوا النبي ﷺ علماً وعبادة وأخلاقاً ودعوة، وهؤلاء هم أولو الأمر حقيقة، لأن هؤلاء يباشرون العامة، ويباشرون الأمراء، ويبينون دين الله ويدعون إليه

الصنف الثاني: من أئمة المسلمين: الأمراء المنفذون لشريعة الله، ولهذا نقول: العلماء مبينون، والأمراء منفذون يجب عليهم أن ينفذوا شريعة الله عزّ وجل في أنفسهم وفي عباد الله)[1]

فالعالم مبلغ عن الله عز وجل، ثم الأمير منفذ ما فيه مصلحة البلاد والعباد.

وقد عرف العلماء مهمة الحاكم: بأنه هو الذي عليه حراسة الدين وسياسة الدنيا.[2]

---

[1] «شرح الأربعين النووية للعثيمين» (ص118)

[2] «الأحكام السلطانية للماوردي» (ص15): ونص كلامه «الإمامة: موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع»

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]

وأولي الأمر هنا فسرت بالعلماء وفسرت بالأمراء، ولا مانع من أن يكونا الاثنين، فالعالم يبلغ مرادا الله عز وجل، والعلماء ورثة الأنبياء، فيطاعون لأن في طاعتهم اتباع لمنهج الله ورسوله، والأمراء منفذون لهذا الأمر.

فإذا أمر أولوا الأمر سواء عالم، أو أمير، أو مسؤول بمعصية، أو بما يخالف الصواب هنا نقول له: أنت لست على صواب لأن الله لم يجعل الأمراء والعلماء ملائكة أو أنبياء معصومين إنما هم بشر يصيبون ويخطئون، وقد أبى الله تعالى أن يكون الكمال إلا لذاته سبحانه وتعالى، والعصمة لرسله، ثم بعد ذلك كل البشر يصيبون ويخطئون، لا يصح القول عن بشر أنه لا يخطئ أبدا كما زعمت الشيعة في أئمتهم.

ولذلك من النصيحة للأمراء طاعتهم فيما لا معصية فيه، وعدم طاعتهم في المعصية، وكنا نسمع من يظلم ويبرر ظلمه بأن يقول: أنا عبد المأمور، يعنى عندنا آمر، ومأمور وعبد للمأمور!! فهو من السفلة، آخر واحد في الرتبة.

فلا طاعة في معصية الله، **إنما الطاعة في المعروف** كما قال النبي ﷺ، وهذا الحديث له قصة وهي:

أن الرسول أرسل سرية من الجيش وهذه تكون في الغالب هدفها استخباراتي جمع معلومات، وأوصاهم الرسول بطاعة أميرهم (من أطاع أميره فقد أطاعني) وذات يوم غضب عليهم فنادى قائلا: أجمعوا لي حطبا، فجمعوا حطبا، قال أشعلوا فيه النار، أشعلوا النار، قال ألقوا بأنفسكم فيها!! فتوقفوا.
قال: ألم يأمركم رسول الله بطاعتي ألقوا بأنفسكم فيها، فجعلوا يلتفت بعضهم إلى بعض، فألهم الله أحدهم فقال لقد اتبعنا رسول الله فرارا من النار، فكيف نلقي بأنفسنا فيها، فهدأ غضبه وانتهت المسألة، فلما رجعوا ذكروا لرسول الله ﷺ ما حدث، قال لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف)[1]

(1) صحيح البخاري :في كتاب الأخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق، رقم (7257). وصحيح مسلم :في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، رقم.(1840) ونص الرواية عن علي رضي الله عنه: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ : اجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوا، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ يَأْمُرْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِطَاعَتِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَادْخُلُوهَا! فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا فَرَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ النَّارِ. فَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ. فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: "لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ"

إذن طاعة الأمراء أو كل من ولي أمر المسلمين طاعتهم فيما لا معصية فيه، ومن النصيحة أن ننصحهم وألا نغشهم وألا ننافقهم، والحاكم العادل يقرب المتخصصين والمستشارين منه، وينزل على آراء أهل التخصص، فعنده أعوان، وبطانة تعينه وتسدده، وترفع له الأمر على صورة وهيئة صحيحة.

ولذلك من الغش الذي عده رسول الله من علامات الساعة لما سأله رجل متى الساعة؟ قال إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال وكيف إضاعتها قال إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[1]

فإذا تولى المسؤولية غشاش أو منافق أو لص سنتحول من فساد الدولة إلى دولة الفساد، ومن فساد الإدارة إلى إدارة الفساد، نسأل الله عفوه وعافيته.

هل تجوز معارضة الحاكم؟

بعض الشباب يحدث عندهم خلط في المفاهيم، فالحاكم ليس إلها، وليس نصف إله، إنما هو بشر يصيب ويخطئ، ومن حق أي شخص من الناس أن يعارضه وأن يقول إن الحكومة أخطأت، لأن هذه مصلحة أمة.

ولما كان الخليفة عمر يقول: ماذا لو رأيتم في اعوجاجا؟ فقال أحدهم لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا، وهذه كلمة غليظة، فلما هم به بعض الجالسين قال عمر: لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها.

وهذا بشرط أن يكون المتكلم يتكلم بقصد الإصلاح، وليس بقصد الإفساد فلا ينشر إشاعات وأراجيف ويزلزل المجتمع؛ هذا طبعا يخالف شرع الله سبحانه وتعالى،

فإذا كان الحاكم بشر فمعنى ذلك أنه يصيب ويخطئ، ومن الممكن أن يكون المعارض أيضا على خطأ ويكون الحاكم على صواب، لأن الاجتهادات البشرية مما يحصل فيها تنازع في وجهات النظر واختلاف وتنوع في وجهات النظر.

وليست المعارضة مثل بعض الأنظمة الغربية؛ الحكومة تقول يمين المعارضة تقول شمال، القانون الفلاني كذا لا كذا، فالمعارضة من أجل المعارضة تضييع للوقت، إنما المعارضة البناءة أو النقد البناء الذي يصب في مصلحة المجتمع ككل هذا مقبول.

---

(1) صحيح البخاري :في كتاب العلم، باب من سُئل وهو قائم، رقم.(59) أيضًا في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم.(6496)

والحاكم إذا رأى من الناس أنهم متيقظون وأنه إذا حاد عن الصراط، أو مال عن الحق والعدل إلى الظلم والجور وقف له الناس؛ فلم يسكتوا على ظلمه هنا سيحسب الحاكم لكل قرار ألف حساب بما فيه مصلحة البلاد والعباد.

مشايخ السلطان والغش لأئمة المسلمين:

مصطلح **"مشايخ السلطان"** أو **"علماء السلطان"** يشير إلى **فئة من علماء الدين أو المشايخ الذين يسخّرون علمهم وفتاواهم لخدمة الحاكم أو السلطة القائمة،** ويقدمون التبرير والشرعية لأفعاله وقراراته، حتى لو كانت ظالمة أو مخالفة للشرع في نظر البعض.

السمات الأساسية لعلماء السلطان:

- **تأييد الحاكم :**يقدمون الدعم المطلق والمبالغ فيه للحاكم ويوالونه في كل تصرفاته، ويبررون كل أخطائه.
- **تطويع النصوص :**يعملون على تأويل أو تحريف الآيات والأحاديث النبوية لتناسب مصالح السلطة ورؤيتها السياسية.
- **تجنب الحق :**يتجنبون الحديث عن قضايا العدل، والشورى، ومحاسبة الحاكم على الظلم، أو أي قضايا تتعارض مع توجهات السلطة، ويتحدثون دائما عن وجوب طاعة أولي الأمر طاعة مطلقة وحرمة الخروج عليهم.
- **النفاق والكذب:** فهو يخلع على الحاكم كل الصفات التي هو عار عنها مثل العادل والملهم والحكيم والساهر على مصلحة الأمة.... الخ.
- **الطمع والخوف :**غالبًا ما يكون الدافع وراء هذا السلوك هو الطمع في المنافع الدنيوية (كالمال والمناصب) أو الخوف من بطش السلطان.

وحسبنا الله ونعم الوكيل في مشايخ السلطان الذين ضيعوا الدين، هذه العمم التي على رمم، وهذه اللحى التي طالت في الباطل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي المقابل علماء الأمة الصادقين:

وهؤلاء:

- يقولون كلمة الحق ولا يخشون في الله لومة لائم.
- يرفضون بيع علمهم لأجل الدنيا.
- يلتزمون بنصح الحاكم بالمعروف دون مداهنة أو خوف.
- يرون النصح لأئمة المسلمين بطاعتهم في المعروف، وعدم طاعتهم في المعصية.

- ويرون أن من النصح لهم إذا كان هناك ظلم أن يسعوا لرفع المظالم إليهم، وإذا كان هناك خطأ نبين هذا الخطأ، وإذا كان مفسدة يبينوا هذه المفسدة بالوسائل المتنوعة التي تختلف باختلاف كل زمان ومكان.

والوسائل تتغير بتغير الزمان والمكان، فلا يقبل الجمود على وسيلة بعينها قام بها الأولون، لأن الوسائل متغيرة لكن الغاية واحدة، وهي الإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو رفع الظلم عن المظلومين والقهر عن المقهورين، والأخذ على يد الظالم بأي وسيلة مشروعة مباحة، فالوسائل تتغير لكن الغاية واحدة وثابتة.

المعنى الثاني (أئمة المسلمين) هم العلماء:

قال شراح الحديث إن النصح لأئمة المسلمين العلماء تكون باحترامهم وتوقيرهم والأدب في مناقشتهم، وأن ننزل الناس منازلهم، ونعطي عالمنا قدره، لأنه يحمل كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فإذا أكرمت عالما تقيا نحسبه على خير فأنا لا أكرمه لشخصه، أو لجنسه، أو للونه، أو لطوله وعرضه إنما أنا أكرمت فيه كلام الله، وسنة رسول الله ﷺ، وهذا معنى قول النبي ﷺ **(ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويعطي لعالمنا حقه)** [1]

الأمر الثاني المساعدة في نشر علمهم بكافة الوسائل، سواء كانت المساعدة أن أنقل هذا الكلام عبر اليوتيوب، أو نشر هذا المقطع عبر الواتساب، أو الفيس بوك، أو طباعة الكتب، أو تنظيم المحاضرات بدعوة هؤلاء المشايخ إلى المساجد وإلى المجامع التي يجتمع فيها الناس، وعمل هذه اللقاءات كل هذا من النصح لأئمة المسلمين.

فإذا حدث وخالفت عالما فأنا أخالف ما قال، أو أخالف منهجه أو اجتهاده لكن لا يحل لي أن أطعن في نيته، أو أنقب عن قلبه؛ فالعالم ننكر قوله ولا نعاديه ولا نواليه إنما نوالي الحق ونعادي ما خالف الحق، لا تعرفوا الحق بالرجال وإنما أعرف الحق تعرف أهله، وليس عندنا إمام معصوم لا يخطئ.

والإمام الشافعي قال: إذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله فخذوا بقول رسول الله واضربوا بقولي عرض الحائط.

---

[1] رواه الإمام أحمد) 22704) وحسنه الألباني في "صحيح الجامع." :(5443) " وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط :إسناد مسند أحمد :ضعيف لكن له شاهد من حديث أبي أمامة يتقوى به."

والإمام مالك ابن أنس قال: كل الخلق يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر، ويشير إلى قبر النبي ﷺ.

الأمر الخامس: النصح لعامة المسلمين:

(وعامتهم) كل من عدا الأئمة يستحق منا النصح والنصح معناه أن تكون مخلصا له، قال تعالى: **(والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)**، فهذا أخي أحب له ما أحب لنفسي وأكره له ما أكره لنفسي، والنبي ﷺ قال: **(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)**[1] وتمام المعنى أن يكره لأخيه ما يكره لنفسه.

وهذا جرير ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه أرسل غلامه فاشترى له فرسا من السوق، بكم قال بثلاثمائة، قال إنها تستحق أكثر، فأخذ غلامه وذهب إلى البائع، قال بكم بعتها؟ بثلاثمائة، قال، بل يستحق أكثر، فزاده مئة أربعمائة، قال يستحق أكثر، خمسمائة، والراجل غير مصدق نفسه، فهذا أمر غير موجود بالأسواق ولا في التجارة، فما زال يستزيده حتى زاده إلى ثمانمائة، قال يا رجل بعته لغلامك بثلاثمائة وجئت تستزيدني إلى ثمانمائة قال إنه يستحق ذلك، لقد بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم)[2]
فالنصيحة للمسلمين أن أحب لهم ما أحب لنفسي، وأن أكره لهم ما أكره لنفسي.

ومن النصح تعليمهم ما يجهلون من أمور الدين، والنصيحة لا شك بآدابها، فالنصيحة من الصغير للكبير، غير النصيحة لصغير، النصيحة من عالم إلى جاهل غير النصيحة من شاب إلى شيخ كبير إلى آخره.

ما هي آداب النصيحة؟

1- إذا أردت أن تنصح أخلص النية لله، فنصحك لأخيك لله لا تعالٍ فيه ولا كبر ولا رياء.

---

(1) صحيح البخاري :في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (رقم: 13). وصحيح مسلم :في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (رقم: 45) .

(2) سنن الدارمي باب :في البيع والشراء (رقم الحديث: 2577) ونص الرواية: روى الدارمي عن يزيد بن الأصم قال: "اشترى جرير بن عبد الله فرساً بأربعمائة درهم، فقال لصاحب الفرس: فرسك خير من أربعمائة، أجعله خمسمائة، ثم قال: فرسك خير من خمسمائة، فما زال يزيده حتى بلغ ثمانمائة درهم، فقيل له في ذلك، فقال :إني بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم." وهذه القصة هي تطبيق عملي للعهد الذي قطعه جرير على نفسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: عندما قال : "بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم". صحيح البخاري (رقم: 57) وصحيح مسلم (رقم: 56).

2- اللين والرفق، قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: 159]، فهذا نبينا ﷺ، سيد ولد آدم -مع مكانته- لو كان غليظا لانفض الناس من حوله، فما بالك بك أنت هل ستقول وعلى الناس أن تسمع وتطيع، وكما قيل: الحق مر فلا تزده مرارة بغلظتك وسوء خلقك.

وكان الشيخ الشعراوي رحمه الله يقول: إن النصيحة مثل الدواء المر يغلفونه في كبسولة جيلاتينية، حتى تمررها من الحلق فلا تحس بمرارة الدواء، فيذوب الجيلاتين وينتفع الجسم بهذا الدواء... فالنصيحة مرة، غلفها بالسكر، غلفها بابتسامة، غلفها بالرفق، غلفها بإظهار العاطفة والحب.

قاعدة ثلاثة في واحد:

وكان الدكتور إبراهيم الفقي[1] - رحمه الله - يقول: في النصيحة استعمل قاعدة ثلاثة في واحد، اذكر ثلاثة محاسن وعيب واحد، اذكر ثلاث إيجابيات وسلبية واحدة، والرسول ﷺ علمنا هذا، لما كان ينصح يقول: **نعم الرجل عبد الله، لو كان يقيم من الليل.**[2] **ويقول لأبي بكرة لما ركع خلف الصف زادك الله حرصا ولا تعد.**[3]

3- الإسرار: فالنصيحة على الملأ فضيحة، وهذا في النصيحة الشخصية، وما فيه كلام للعامة يقال للعامة، وكل شيء يقدر بقدره.
4- ما على الرسول إلا البلاغ، ليس معنى نصحك أنه أمر واجب النفاذ، أنا أبلغ فقط، **رب العزة قال للنبي ﷺ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 22] وقال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾** [ق: 45]
5- ألا تفتش عن العيوب ولا تنقب عن النيات، فأنت غير مطالب أن تتجسس ولا مطالب أن تتبع العورات، ولا أن تحمل الكلام ما لا يحتمل أو تقول إنه كان يقصد من وراء الكلام كذا وكذا، احمل كلام أخيك وحال أخيك على أفضل المحامل، أحسن الظن به.
6- والنصيحة تكون بعلم، وليست عن جهل، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ **[يوسف: 108]**

---

(1) الدكتور إبراهيم الفقي (1950 - 2012) هو خبير مصري بارز في التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية، ومؤسس "المركز الكندي للتنمية البشرية". درّب مئات الآلاف حول العالم، وترك إرثاً غنياً من الكتب والمحاضرات التي تهدف لتطوير الذات.

(2) الحديث متفق عليه: رواه البخاري كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل. (1121 و1156)، ورواه مسلم (2479) بلفظ "لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ" في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عبد الله بن عمر.

(3) صحيح البخاري :كتاب الأذان، باب إذا ركع دون الصف. رقم الحديث (783) :صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب إدراك ما سبق به من صلاة الجماعة. رقم الحديث.(295)

7- المسائل المختلف فيها لا إنكار فيها، كما قال الإمام النووي: **(المختلف فيه لا إنكار فيه)** [1]، وهذه المسألة نعاني منها هنا لأن هناك مذاهب فقهية عديدة ومشارب ومدارس.

من فوائد هذا الحديث:

1. **هذا الحديث أصل عظيم من أصول الدين**، ولذلك اختاره الإمام النووي ضمن الأربعين؛ لأنه يمثل قاعدة جامعة لا ينبغي للمسلم أن يجهلها.
2. **كلمة الدين في الحديث يقصد بها دين الإسلام كله** بما فيه من عقائد وشرائع وأحكام، لا مجرد معنى الجزاء أو النظام.
3. **النصيحة لا تعني فقط نصح المخطئ**، بل معناها الأصلي: الإخلاص، وتصفية الشيء من الشوائب، وبذل الجهد في إصلاح المنصوح.
4. **قوله ﷺ: «الدين النصيحة» يدل على عظم منزلة النصيحة**، حتى كأن الدين كله قائم عليها، كما يقال: «الحج عرفة» أي أعظم أركانه.
5. **النصيحة لله معناها إخلاص التوحيد والعبادة له وحده**، وتنزيهه عن كل نقص، والإيمان بأسمائه وصفاته، وتقديم حق الله على حق الخلق.
6. **من النصح لله أن يحب المسلم الخير للخلق ويدعوهم إلى الله**، فيحبب الناس في ربهم ويدلهم على طريقه.
7. **النصيحة لكتاب الله تكون بالإيمان بأنه كلام الله**، والتصديق بما فيه، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

---

(1) «شرح النووي على مسلم» (2/ 23) ونص كلامه كاملا: «إنما يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه وذلك يختلف باختلاف الشيء فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه أما المختلف فيه فلا إنكار فيه لأن على أحد المذهبين كل مجتهد مصيب وهذا هو المختار عند كثيرين من المحققين أو أكثرهم»

8. **من النصح للقرآن تعلم تلاوته وحفظه وتعليمه وخدمة علومه**، كالتجويد، والقراءات، والتفسير، وأسباب النزول، وآيات الأحكام.
9. **النصيحة للرسول ﷺ تكون بالإيمان به وطاعته ومحبته**، وتقديم محبته على كل محبة، واتباع سنته وهديه.
10. **من النصح للنبي ﷺ نشر سيرته وأخلاقه بين الناس**، وتحبيب الخلق فيه، وإحياء سننه المهجورة.
11. **أئمة المسلمين يدخل فيهم العلماء والأمراء**؛ فالعلماء يبينون دين الله، والأمراء ينفذون ما فيه مصلحة البلاد والعباد.
12. **النصيحة للأمراء تكون بطاعتهم في المعروف لا في المعصية**، وبصدق النصح لهم دون غش أو نفاق أو تبرير للباطل.
13. **لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**، والطاعة الشرعية إنما تكون في المعروف.
14. **معارضة الحاكم أو نقده ليست ممنوعة بإطلاق**، بل تكون مشروعة إذا كانت بقصد الإصلاح، وبالوسائل التي تحقق المصلحة وتمنع الفتنة والإفساد.
15. **الغش لأئمة المسلمين يكون بتزيين الباطل لهم أو تبرير ظلمهم**، ومن أخطر صوره ما يسمى بعلماء السلطان الذين يسخرون العلم لخدمة الظلم والمصالح الدنيوية.
16. **العلماء الصادقون يقولون كلمة الحق ولا يبيعون علمهم للدنيا**، وينصحون الحاكم بالمعروف، ويسعون لرفع الظلم وبيان الخطأ بوسائل مشروعة.
17. **النصيحة للعلماء تكون بتوقيرهم واحترامهم والأدب معهم**، ونشر علمهم، مع عدم اعتقاد العصمة في أحد منهم.

18. **إذا خالفنا عالمًا في اجتهاده فلا يجوز الطعن في نيته أو قلبه،** بل يُرد القول المخالف بالدليل مع حفظ قدر العالم.
19. **النصيحة لعامة المسلمين تقوم على الإخلاص لهم ومحبة الخير لهم،** وأن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه.
20. **من النصح لعامة المسلمين تعليمهم ما يجهلون من أمور الدين،** لكن مع مراعاة حال المنصوح وسنه ومقامه وطريقة الخطاب المناسبة له.
21. **المسائل المختلف فيها لا يُنكر فيها،** بل تراعى فيها سعة الخلاف والمذاهب والاجتهادات المعتبرة.
22. **الخلاصة الجامعة** :الدين قائم على الإخلاص والنصح الصادق لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم.

****

الحديث الثامن

أمرت أن أقاتل

الناس حتى يشهدوا

(8) أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى) رواه البخاري ومسلم[1]

شرح الحديث

هذا الحديث من الأحاديث المهمة التي يجب فهمها بشكل صحيح، خاصة أن من يلقون الشبه من كارهي الإسلام يستدلون بهذا الحديث على أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأنه دين وحشية ودماء، فيأخذون هذا الحديث للتدليل على صحة ادعائهم.

وفي الاتجاه المعاكس يستدل به في هذه الأيام الدواعش ومن سار على نهجهم قديما على أن كل من خالفهم في المنهج والدين يؤخذ ويقتل.

(أمرت) من الذي أمر؟ **الله عز وجل**، والأمر حينما يكون من الله لنبيه ﷺ إنما هو أمر لنا، وليس من خصائصه ﷺ، فهو أمر مأمور به جميع المسلمين أن يكفوا أيديهم أثناء القتال عن كل من نطق بالشهادتين لأنه صار معصوم الدم.

(أمرت أن أقاتل الناس)، وكلمة الناس هنا ليس المقصود بها العالم أجمع، هذا لا يقول به أي عاقل، إنما هو لفظ عام أريد به خاص.

وحتى نفهم هذا الحديث بشكل جيد ينبغي أن نفهم شيئا وهو ما سبب الحرب في المقام الأول؟

حينما تعتدي دولة قوية على دولة أخرى فمن حق الدولة الأخرى أن ترد هذا الاعتداء، إذا سلبت الكرامة والعرض، وإذا سلبت الأرض، وإذا أزهقت الأرواح وسفكت الدماء، فمن حق أي دولة في العالم في التاريخ كله قديما وحديثا أن تسترد

(1) صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب "وجوب الإيمان بالله ورسوله :حديث رقم (25)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب "قِتالِ النَّاسِ حتَّى يقولوا لا إله إلا الله "حديث رقم (22)

كرامتها، وأن تقوم باسترداد ما سلب منها من أرض أو مال وكذلك التعويض عما حدث من سفك للدماء، فالإسلام لم يأت بشيء فريد أو عجيب، **قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [التوبة:** 36]

إذن هو ليس قتلا من أجل القتل، أو من باب التشهي لسفك الدماء، إنما هو مقابلة الاعتداء بالاعتداء، ومن يتربص ويريد أن ينال من الأرض أو العرض، فإنه لا بد وأن يكون أمامه قوة تردعه، هذا أمر معروف في التاريخ قديما وحديثا.

ما الفرق بين القتل والقتال؟

وحينما يتكلم المغرضون عن هذا الحديث يخلطون بين الفعلين: قتل وقاتل.

قتل: أي أن شخص جاء على أناس عزل لا سلاح لهم، ولا منعة لهم فقتلهم، هذا لا يفعله أي إنسان عاقل فضلا عن إنسان يدين بدين كدين الإسلام الذي عنده ما عنده من أخلاق الحروب، فالنبي ﷺ، لم يؤمر بقتل الناس، لكنهم يلبسون على الناس فيقولون: **(أمرت أن أقاتل الناس)** أي كل الناس يقتلون!! كلا توقف أنت جاهل باللغة العربية.

لكن قاتل في اللغة العربية على وزن فاعل، أي أن هناك مقاتلة من الطرفين، في حرب وقوات عسكرية وسجال بين الطرفين، وهذا مثل: حاور وجادل وخاصم، أي أن هناك حوار وأخذ ورد وتفاعل بين الطرفين.

إذن معنى (أمرت أن أقاتل الناس) أنه إذا حدثت حرب وقتال فالنبي ﷺ مأمور من ربه عز وجل أن يقاتل هؤلاء الذين يريدون مقاتلة المسلمين، وهذا أمر بدهي من باب الدفاع وليس العدوان، وأكرر إن هذا أمر معروف في أي أمة وفي أي دولة أن من يعتدي عليها لا بد وأن يقابل بقوة رادعة لهذا الأمر.

(حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)

معناه أنه إذا قام شخص فقتل من المسلمين من قتل واعتدى وسفك الدماء، ثم حدث القتال بيننا وبينهم، فبينما هم كذلك أعلن إسلامه، ماذا سيحدث هنا؟

من آمن لا يعاقب ولا يقاتل أو ولا يقتل بجرائمه التي فعلها قبل أن ينطق بالشهادتين، فهو معصوم الدم لا يقتل، ومعصوم المال لا يستباح ماله كغنيمة، إلا بحق الإسلام.

لماذا أخبر الرسول عن هذه الثلاثة فقط؟ ولم يخبر عن بقية أركان الإسلام؟

لأن من يدخل في الإسلام ينطق بالشهادتين، ثم عليه أن:

- يقيم الصلاة وأن يؤتي الزكاة باعتبار أن هذه من الشعائر الظاهرة التي يجب على المسلم أن يفعلها.
- ثم الصيام، وهو امتناع عن الطعام والشراب وهذا سر بين العبد وربه.
- ثم الحج، وهو أيضا مرتبط بالاستطاعة وهذا أمر لا يفرض فهو بين المسلم وربه هل يستطيع أم لا يستطيع؟

(فإن قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها.) وفي رواية ثانية: (بحق الإسلام) حق الإسلام المقصود به: إذا كان هناك جرائم ارتكبها كحد من حدود الله، أسلم ثم قتل نفسا بغير حق، هنا يقام عليه القصاص، أو إذا ارتكب أي جريمة عليها حد أو عقوبة من العقوبات، فإنه يعاقب كسائر المسلمين، والحدود التي بينها الله سبحانه وتعالى كحد الزنا أو السرقة هذا هو المقصود بحق الإسلام.

كيف يصبح معصوم الدم، وقد قتل مسلمين؟

لا شيء عليه الآن لأنه بإسلامه أصبح معصوم الدم، وعفا الله عنه فيما مضى قبل إسلامه، ولذلك النبي ﷺ في فتح مكة كان فيهم هؤلاء الذين سفكوا دماء المسلمين وفيهم من استحل الدماء والعرض والمال وعذبوا المسلمين، وفعلوا ما فعلوا، ولم يأخذهم النبي ﷺ لمحاسبتهم بأثر رجعي عما حدث.

فهذا مثلا أبو سفيان ألم يكن عدوا لله ورسوله قبل فتح مكة، وكان قائد المشركين في أكثر من معركة؟ خالد بن الوليد؟ عمرو بن العاص؟ أسماء كثيرة جدا كل هؤلاء بمجرد نطقهم للشهادتين أسلموا وأصبح كل شيء قبل الإسلام كعدمه.

عمرو بن العاص – رضي الله عنه- حكى قصة إسلامه فقال: (فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يمينك فلأبايعك فلما بسط يده إليّ ليبايعني قبضت يدي، فقال: ما لك يا عمرو؟ قال: أردت أن أشترط. قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يُغفَر لي. قال: أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما قبله.)[1]

فمعنى الحديث أن الرسول ﷺ أمر إذا حدث اعتداء على المسلمين أمر أن يقاتلهم فمن أسلم منهم صار معصوم الدم، لا يتعرض له.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب «كون الإسلام يهدم ما قبله رقم الحديث(121)

(وحسابهم على الله) أي نقبل ظاهرهم، والله يتولى سرائرهم، فلن يحاسب أحد على ما في باطنه، ولن يحاسب أحد على ما يغلب على ظننا، ولا يجوز أن نتهم أحدا أنه أسلم نفاقا، أو أسلم تعوذا حتى يتقي قوة المسلمين ويرد عن نفسه الأذى.

ماذا لو كان قائلها قالها تعوذا، اتقاء للقتال، فادعى كذبا ونفاقا الإسلام، هل يقبل منه ذلك؟

أي نعم يقبل، وهذا الذي حدث مع أسامة بن زيد رضي الله عنه حينما كان في سرية من المسلمين وحدثت مواجهة واعتداء بينهم وبين مجموعة أخرى من المشركين، والقصة في الصحيحين: عن **أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلا، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته. فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟»**
قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها مخافة السلاح.
قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت ذلك اليوم.
(وفي رواية أخرى في صحيح مسلم) قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان قاتلا، وإنما قالها مخافة السيف.
قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: قلت: يا رسول الله، استغفر لي. قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» فجعل لا يزيد على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» [1]

فهذا الحديث يدل على خلق من أخلاق الحرب في الإسلام وهو أننا رغم ما يحدث من أعدائنا من اعتداء وسفك للدماء؛ لكن من قال منهم **لا إله إلا الله** صار معصوم الدم لا يحاسب على آثامه التي فعلها قبل أن ينطق بالشهادتين، هذا هو المقصود.

وتأمل عظمة هذا الدين حينما يكون أمامنا مجرم حرب واعتدى على المسلمين وقتل وسفك الدماء، ثم نطق بالشهادتين صار معصوم الدم.

إذن معنى الحديث:

أمرت من الله عز وجل أن أقاتل المشركين الذين رفعوا السيف وقاتلونا، وأرادوا بذلك النيل من المسلمين ومن أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، فإذا حدثت المقاتلة بيننا وبين هؤلاء وقال أحدهم والحرب دائرة أو قالت جماعة منهم **نشهد أن لا إله إلا الله**

---

[1] مُتَّفَقٌ عليه، أخرجه مسلم (96)في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله.
والبخاري (4269)في كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة إلى الحرقات.

وأن محمدا رسول الله، وأعلنوا دخولهم في الإسلام صاروا معصومين الدم، ولا يحاسب أحدهم على أي جريمة حدثت منه قبل دخوله في هذا الدين.

فوائد من الحديث:

1. **هذا الحديث من الأحاديث التي تحتاج إلى فهم دقيق**؛ لأن بعض أعداء الإسلام يستدلون به زورًا على أن الإسلام انتشر بالسيف، وبعض الغلاة يستعملونه لتبرير سفك الدماء.
2. **قوله ﷺ: «أُمرت» معناه أن الآمر هو الله تعالى**، وما أمر الله به نبيه ﷺ في هذا الباب فهو تشريع للأمة، وليس مجرد أمر خاص بالنبي ﷺ.
3. **ليس المقصود بقوله: «أقاتل الناس» جميع البشر**، بل المقصود قوم مخصوصون ممن قاتلوا المسلمين واعتدوا عليهم؛ فهو عام أريد به خاص.
4. **الحديث لا يأمر بقتل الناس لمجرد كفرهم**، وإنما يتحدث عن حالة قتال قائمة بين المسلمين ومن يعتدي عليهم.
5. **الفرق بين "قتل" و"قاتل" مهم جدًا**؛ فالقتل قد يكون من طرف واحد، أما القتال فهو مفاعلة بين طرفين في حرب ومواجهة.
6. **النبي ﷺ لم يقل: "أُمرت أن أقتل الناس"**، بل قال» :**أقاتل الناس**«، وهذا يدل على وجود طرف مقاتل معتدٍ، لا أناس آمنين عُزّل.
7. **الإسلام يقرر حق الدفاع عن النفس والأرض والعرض**، وهذا حق تقره كل الأمم والدول قديمًا وحديثًا.
8. **من أعلن الإسلام أثناء القتال عُصم دمه وماله**، ولا يجوز الاستمرار في قتاله بعد نطقه بالشهادتين.
9. **ذكر الصلاة والزكاة لأنهما من الشعائر الظاهرة** التي يظهر بها التزام المسلم بدينه.

10. **لم يذكر الصيام والحج في الحديث** لأن الصيام عبادة خفية بين العبد وربه، والحج مرتبط بالاستطاعة.
11. **معنى "عصموا مني دماءهم وأموالهم"** أن من دخل في الإسلام لا يجوز قتله ولا أخذ ماله بغير حق.
12. **قوله: "إلا بحق الإسلام"** معناه أن المسلم إذا ارتكب جريمة موجبة لعقوبة شرعية، كقتل نفس بغير حق، فإنه يعاقب كغيره من المسلمين.
13. **الإسلام يهدم ما قبله،** فمن أسلم غُفر له ما كان قبل الإسلام من كفر وعداوة وجرائم متعلقة بحربه السابقة ضد المسلمين.
14. **قوله ﷺ: "وحسابهم على الله" قاعدة عظيمة،** معناها أننا نحكم بالظاهر، وأما السرائر والنيات فإلى الله تعالى.
15. **الحديث ردّ على الغلاة والمتطرفين** الذين يستبيحون دماء المخالفين ويزعمون أنهم يطبقون الشرع.
16. **الحديث أيضًا ردّ على المستشرقين والمغرضين** الذين يصورون الإسلام دين قتل وإكراه، مع أن معناه الصحيح متعلق بوقف القتال عند إعلان الإسلام.
17. **القتال في الإسلام مضبوط بضوابط شرعية وأخلاقية،** وليس فوضى ولا انتقامًا ولا قتلًا لمجرد المخالفة.
18. **الخلاصة الجامعة** :الحديث معناه أن المسلمين إذا قاتلوا من اعتدى عليهم، ثم أعلن المعتدي دخوله في الإسلام، وجب الكف عنه، وصار دمه وماله معصومين، ولا يُحاسب على ما كان قبل إسلامه، أما باطنه فحسابه على الله تعالى.

****

الحديث التاسع

ما نهيتكم عنه فاجتنبوه

(9)ما نهيتكم عنه فاجتنبوه

عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)

رواه البخاري ومسلم[1]

التعريف براوي الحديث

- هو الصحابي الجليل أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه، من قبيلة دوس من اليمن.
- اشتهر بكنيته أبي هريرة؛ لأنه كان يحمل بكمه هرة صغيرة أو يلاعبها، فغلبت عليه هذه الكنية حتى صار لا يُعرف إلا بها.
- أسلم رضي الله عنه على يد الصحابي الطفيل بن عمرو الدوسي، وقدم إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة.
- لازم النبي ﷺ ملازمة شديدة بعد إسلامه، وكان من أهل الصُّفّة، وهم فقراء الصحابة الذين كانوا يقيمون في مسجد النبي ﷺ ويتفرغون للعلم والعبادة.
- كان شديد الحرص على حفظ حديث رسول الله ﷺ، وقد دعا له النبي ﷺ بالحفظ، فكان من أكثر الصحابة حفظًا ورواية للحديث.
- يُعد أبو هريرة رضي الله عنه أكثر الصحابة رواية للحديث، مع أن صحبته للنبي ﷺ كانت نحو أربع سنوات؛ وذلك لشدة ملازمته للنبي ﷺ وتفرغه للعلم.
- روى عنه عدد كبير من الصحابة والتابعين، وانتشر علمه في الأمة، فكان من كبار رواة السنة النبوية.
- عُرف رضي الله عنه بالعبادة والورع، وكان كثير الذكر، محبًا للعلم، حريصًا على تعليم الناس حديث رسول الله ﷺ.
- تولى بعض الأعمال في زمن عمر ومعاوية رضي الله عنهما، ومنها ولاية البحرين مدة، كما كان له حضور في تعليم الناس وإفتائهم.
- توفي رضي الله عنه في المدينة سنة 57هـ على المشهور ودُفن بالبقيع.

---

(1) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .برقم (7288)ومسلم في كتاب الحج) باب فَرْضِ الْحَجِّ مَرَّةً فِي الْعُمْرِ) رقم (1337)

سبب ورود الحديث

أن الرسول ﷺ وقف يخطب يوما في أصحابه فقال: (يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا فقام رجل وقال: أكلّ عام يا رسول الله؟[1] ، فسكت النبي ﷺ فكرر أكل عام أكل عام؟ فأعاد السؤال ثلاثا.

فقال النبي: لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبِيَائِهِمْ فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[2]

(ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) ما هنا يسمونها أداة شرط بمعنى إذا نهيتكم عن شيء الجواب **(فاجتنبوه)**، والمقصود هنا كل ما نهى النبي ﷺ عنه سواء مبلغا عن الله في القرآن الكريم، أو مبلغا من خلال السنة، لأن القرآن الذي بلغنا إياه من؟ هو رسول الله ﷺ، وهذا الأمر حجة على هؤلاء الذين قالوا نأخذ بالقرآن ولا نأخذ بالسنة!!

من الذي أتاك بالقرآن؟ ومن الذي بلغك القرآن؟

الرسول ﷺ، إذن فكيف تقبل القرآن من رسول الله، ثم لا تقبل منه السنة وهي الوحي الثاني الذي قال الأول هو الذي قال الثاني، والذي صدق في الأول أعني القرآن يجب أن يصدق في الثاني أقصد السنة، لعموم قوله تعالى: **﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7]**

وهذا الذي قاله ابن مسعود للمرأة التي جاءته وقالت إني تصفحت كتاب الله ما بين دفتيه من أوله إلى آخره فلم أر فيها قولك لعن الله النامصة والمتنمصة قال لو تصفحتيه لوجدتيه في قول الله تعالى في سورة الحشر: **﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7]**[3]

إذن فكل ما ورد في القرآن الكريم **(ويل للمطففين)، (ولا تقربوا الزنا)** أو في السنة على لسان رسول الله ﷺ وصح سنده :حرم عليكم كذا، إن الله ينهى عن كذا... هذا كله فيه إفادة وجوب الترك، ويجب أن ننتهي عما نهانا عنه رسول الله ﷺ وعلماء

---

[1] في بعض الروايات أنه الأقرع بن حابس

[2] التخريج السابق في صحيح مسلم.

[3] أخرجه البخاري في الصحيح (كتاب اللباس، باب المتنمصات، حديث رقم (5931)، ومسلم في الصحيح (كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والنامصة والمتنمصة، حديث رقم (2125)

الأصول يقولون: **الفعل المحرم يقابله الواجب، والمكروه يقابله المندوب أو المستحب.**
كنهي الرسول ﷺ عن الشرب قائما فهذا نهي لا يفيد التحريم، والفقهاء يفهمون ذلك الحكم من دلالة النص وسياقه والقرائن أو الأدلة المحتفة به **(تحقيق مناط الدليل)**

عندما نجد حديث الرسول ﷺ أنه نهى عن الشرب قائما؛ ونعلم أنه شرب من زمزم قائما فهذا دلالة على أن أفضل الحالات وأولاها ألا تشرب قائما وفعله ﷺ دليل على أن الأمر خلاف الأولى، وليس دلالة على التحريم القطعي، وهذه مسألة كبيرة جدا مردها إلى علم الأصول حتى لا نتفرع في فروع ربما لا تصلح إلا للمتخصصين من دارسي العلم الشرعي.

(ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) بعض الذين يثيرون الشبهات بين الحين والآخر يقولون: إن الدلالة في تحريم الخمر ليست دلالة قطعية ويستدلون بالآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ **[المائدة: 90]** رغم أن كلمة فاجتنبوه أقوى في الدلالة لمن يفهم اللغة العربية من قوله فلا تشربوا الخمر لأن معنى فاجتنبوه أن يكون الشيء في جانب وأنت في جانب أنت بعيد عنه؛ فالإنسان عنده شهوات، ومن وقع في الشبهات، وتركها لله سبحانه وتعالى ثم رجع فاقترب منها يوشك أن يقع فيها ولذلك قال ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187]
فيأتي من يأتي من جهلة العصر الذين لا يعرفون شيئا عن اللغة العربية يقول **(فاجتنبوه)** أي جعل الشيء جانبه وشربه، وهذا تخريف وانحراف عما أجمعت عليه الأمة سلفا وخلفا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) وما حرم لذاته لا يباح إلا للضرورة وهذه القاعدة التي قعد لها العلماء: **(الضرورات تبيح المحظورات)** فقد يفعل المحرم لذاته للضرورة إذا أشرف الإنسان على الهلاك مثل أكل الميتة للمضطر، يأكل ما يسد به رمقه من الميتة.

ومثل ذلك أن النبي ﷺ رخص لعبد الرحمن بن عوف أن يلبس الحرير والحرير محرم على الرجال فأذن له النبي أن يلبسه لما أصابته الحكة وهو مرض الجرب المعروف، وهذا مرض يصيب الجلد، فرخص له أن يلبس الحرير لأنه أرفق به.

(وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) الأمر سواء ما قاله الله تعالى في القرآن أو ما قاله رسول الله في السنة.
فإذا كان الأمر أو الطلب الشرعي لهذا على سبيل الجزم فهو واجب.

وكلمة واجب وفرض المشهور عند علماء الأصول أن الاثنين بمعنى واحد خلافا للحنفية.
وإذا كان بغير إلزام صار مستحبا أو بعض الفقهاء يقول عنه مندوبا، ومصطلح المندوب والمستحب بمعنى واحد خلافا للمالكية.

(وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) قالوا إن الأمر من الله عز وجل بفعل الشيء دلالة على وجوب القيام به، فإذا أصاب الإنسان عجز عن الفعل فإن الله يخفف عنه.

والأصل في ذلك قول الحق جل وعلا **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]** فالله تعالى قال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]** الدلالة هنا دلالة لفظ كتب فإنه دال على الفرضية، فمن فقد شرط الاستطاعة والقدرة على الصيام بسبب المرض أو السفر يجوز له الإفطار قال تعالى: **﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184]**

بالنسبة للصلاة عندنا الوضوء فمن فقد الماء أو عجز عن استعمال الماء لمرض ونحو ذلك يتيمم.

ومن صلى يصلي قائما فإن عجز عن القيام صلى قاعدا فإن عجزا كما في حديث **عمران بن الحصين النبي قال: (صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)** [1]
وهنا قعد العلماء قاعدة **(المشقة تجلب التيسير)** بمعنى أن المشقة في التكليف الشرعي التي تخرجك من دائرة الاستطاعة يأتي التيسير أو الرخصة من الله سبحانه وتعالى.

قد توجد مشقة بالفعل لكنها مقدور عليها مثل الصيام في رمضان لا شك أن فيه مشقة لكن هل مشقة تحتمل أم لا؟ تحتمل للمسلم القادر الصحيح.

وصلاة الفجر فيها مشقة، ولكنها مشقة تحتمل، وهذا هو الذي سماه العلماء الصبر على الطاعة.

لكن إذا كانت المشقة لا تحتمل مثل مشقة المريض، ومشقة المسافر في الصيام ومشقة من أصابه مرض، فلم يستطع الصلاة قائما إلى غير ذلك من التفصيلات في أبواب الفقه المختلفة هنا نقول جاء التيسير من الله سبحانه وتعالى

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح (كتاب الجمعة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب، حديث رقم 1117)

لماذا قال النبي ﷺ في المنهيات فاجتنبوه وفي المأمورات قال فأتوا منه ما استطعتم؟

قال العلماء: لأن النهي عن فعل الشيء هو كف عن فعل الشيء هذا ليس أمرا بالتقسيط فمجرد الامتناع أنا لا أشرب الخمر نهائيا.
نهى عن السرقة فسرقة مليون مثل سرقة ألف؟ السرقة كلها حرام لكن لا شك أن هناك من يسرق ويكون في سرقته أصاب ذنبا عظيما.

والكبائر نفسها تتفاوت في عظمها وفي ضخامتها وعقوباتها في ذنب يدخل السجن شهرا وقد يرتكب شخص جريمة تدخله السجن سنين، وقد تصل العقوبة للإعدام أو السجن مدى الحياة، فكلهم فعل جريمة لكن العقوبة تختلف.

فالنهي هو طلب الكف بالترك لكل ما حرم الله ورسوله.

أما بالنسبة للفعل فإنه إيجاد الشيء وهذا يرجع إلى الاستطاعة فتختلف ما بين المسلم المكلف الصحيح والمعتل المريض وبين المقيم والمسافر وما بين الأمن والخائف إلى غير ذلك من هذه الأمور.

(ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) عندنا مسألة أصولية وهي: هل ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي؟ أم ارتكاب المناهي أعظم عند الله من ترك الأوامر؟
هذه مسألة في فقه الموازنات أيهم يقدم هل دفع المضار أولى من جلب المنافع أم جلب المنافع الأولى من دفع المضار؟

هل فعل الأمر الإلهي وتقديمه مثل: **(وأقيموا الصلاة)** يقدم على المنع عنه وشرب الخمر هذه مسألة فقه الدعوة وفقه الأصول والأولويات... والأمر فيها يطول والعلماء تكلموا في هذه المسألة لكني أحببت إضافتها من باب العلم.

والذي ترجح لدي بعد البحث أن فعل المأمور مقدم على ترك ما نهي عنه، فإذا أتى أحد للدخول في الإسلام فأول شيء ليدخل في الإسلام هو النطق بالشهادتين، ثم فعل المأمور، بعض الناس يضع حواجز كلا لا بد من ترك شرب الخمر ...يجب أن تلبسي الحجاب، كلا كلا ابدأ بالمأمورات الكبرى أول شيء إزالة الشرك أو الكفر بأن يتشهد ثم يقيم الصلاة فهي عماد الدين وهكذا.

وهذا ما قاله النبي لمعاذ: حين بعثه إلى اليمن: (إنك تأتي قوما أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم

أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[1]

(فإنما أهلك الذين من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)

إذا قال النبي ﷺ الذين من قبلكم يراد به على العموم الأمم سابقة، لكن أغلب مراد النبي في عدد من الأحاديث هو: أهل الكتاب اليهود والنصارى فقول النبي ﷺ أهلك الذين من قبلكم يقصد به أهل الكتاب من بني إسرائيل، مثل قصة البقرة في سورة البقرة حينما قتل قتيل من بني إسرائيل فسألوا نبي الله موسى فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾ **[البقرة: 67]** وكانوا بوسعهم أن يأتوا بأي بقرة فيذبحونها منفذين أمر الله عز وجل لكن وقعوا في الجدال العقيم الذي لا يثمر العمل والذي يكشف ما جهلوه في الأمر الإلهي وأنهم يشقون به على أنفسهم، وتلمح في القصة نوع من التمرد الخفي على أمر الله عز وجل ، فلو عمدوا لأي بقرة وجاؤوا بها وذبحت تنفيذا لأمر الله فقد نفذوا أمر الله،﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ**﴾ **[البقرة: 68]** ، لكن يا موسى أخبرنا ما لونها؟﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾ **[البقرة: 69]** زدنا تفصيلا لأن البقرة تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون فشقوا على أنفسهم ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ **[البقرة: 70-71]**

فلو فرضنا أن في بني إسرائيل مئة ألف بقرة لو جاءوا بواحدة منها لانتهى الموضوع فلما قال: **(لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك)** وسط لا كبيرة في السن ولا صغيرة صار من المئة ألف بقرة نفترض ألف بقرة فقط، فلما قال: إنها **(بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين)**، صار من الألف مئة بقرة مثلا، فلما قال: إنها بقرة لا ذلول لا تنقاد لأحد ولا تكون في الحرث مسلمة خالية من العيوب لا شية لا عيب فيها صار من المئة بقرة بقرة واحدة فقط يبحثون عنها بعينها فكان الأمر أصعب!!! لكن هم الذين شقوا على أنفسهم.

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح (كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء فترد في الفقراء، حديث رقم 1395)، و(كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله، حديث رقم 7372)، وأخرجه مسلم في الصحيح (كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم 19)

فكما قال النبي ﷺ: (إن الله فرض عليكم الحج فحجوا) لو أن المسلم حج مرة واحدة فقد أمر الله سبحانه وتعالى، ولو أراد الله الحج أكثر من مرة لقال فرض عليكم الحج مرتين فرض الحج ثلاثا خمسا مثلما بين في الصلاة ومثلما بين في الزكاة ومثل ما بين في صيام رمضان فهنا الأمر المطلق يبقى على إطلاقه دون تشقيق، فالعناد والمكابرة والجدال من أجل الجدال هذا الذي نهينا عنه.

هل يحرم كثرة السؤال؟

يحرم في عدة أحوال:

1- السؤال إذا كان من غير ضرورة ولا حاجة

فلا داعي له لأن هذا يشعر بالتعنت وعدم الاستجابة، **وفي الحديث (النبي ﷺ نهى عن كثرة السؤال وقيل وقال وإضاعة المال.)**[1]

وكان الإمام مالك رحمة الله عليه يقول: (المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل)[2]

وقال ابن وهب: (المراء في العلم يقسي القلوب ويورث الضغن)[3] أي العداوة والبغضاء بين الناس.

والصحابة رضوان الله عليهم أكثر بعضهم على الرسول ﷺ في المسألة لدرجة أن أحدهم وكان إذا حصل مشادة بينه وبين بعض الناس، وأرادوا أن يضايقونه ينسبونه لغير أبيه؛ فقال يا رسول الله من أبي؟
فغضب النبي وعرف الغضب في وجهه فقال أبوك حذافة، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرّ وجهه، فقام عمر فجثا على ركبتيه وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، حتى سكن غضبه.) [4]

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، حديث رقم 1477)، ومسلم في الصحيح (كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، حديث رقم 593)

(2) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (كتاب في آداب العالم، باب ذم المراء والجدال، أثر رقم 1251) من طريق عبد الرحمن بن مهدي قال: قال مالك بن أنس: المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم، وقد قال يذهب ولم يقل يذهبان؛ رغم أن المبتدأ مثنى (المراء والجدال) باعتبار أنهما يُعَدّان شيئًا واحدًا من حيث المعنى؛ أي: خُلُقٌ واحد مذموم يؤدّي إلى نفس النتيجة، فاستُعمل الفعل مفردا باعتبارهما بمنزلة *نوع واحد من الفعل* هو المراء المذموم.

(3) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (كتاب ذم المراء والجدال، أثر رقم 1255)

(4) أخرجه البخاري في الصحيح (كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم، حديث رقم 92) ومسلم في الصحيح (كتاب الفضائل، باب توقيره صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 2359)

فنهوا بعد ذلك عن المسألة فكان بعد ذلك لا يسأل النبي ﷺ أحد إلا الإعراب والنهي هنا كان للتعليم حتى لا يحدث هناك تكلف في المسألة والسؤال عما لا يفيد؛ فكان ذلك تأديبا للصحابة رضوان الله عليهم، وأيضا لعلهم في هذه الفترة كانت مرحلة لم يكونوا بحاجة للسؤال باعتبار أن الوحي ينزل، والرسول معهم، وهو يعلمهم، لكن قد يأتي الرجل من الأعراب فيسأل النبي ﷺ فكان النبي يجيبهم تأليفا لقلوبهم وليزودهم بالعلم النافع.

2- السؤال عن الغيبيات التي لم يرد فيها تفصيل:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] ما حقيقة الروح، وما طبيعة الروح هذه الأمور التي تخطر بالبال وهذا أمر لا تتسع لإدراكه عقول البشر، **(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)**

وحديث: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له) [1]
هذا الحديث يبين فضل العبادة في هذا الوقت وهو وقت التنزل الإلهي، وهو نزول يليق بجلاله بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تأويل؛ فنؤمن بالحديث كما قاله رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن وهب: كنا عند مالك، فسئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5] فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعا، فأمر به أن يُخرج. [2]

الاستواء معلوم: أي :معلوم المعنى في لغة العرب، وليس مجهولًا.
فالاستواء في اللغة يأتي بمعنى: علا، وارتفع، وصعد، واستقرّ، وكلها معانٍ تدل على العلو.

والكيف مجهول: أي :كيفية صفة الله غير معقولة للبشر ولا يمكن تصورها.
فنحن نعلم معنى الاستواء، لكن لا نعلم كيف استوى؛ لأن الله لا يشبه شيئًا، وصفاته لا تشبه صفات المخلوقين.

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح (كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، حديث رقم 1145) ومسلم في الصحيح (كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، حديث رقم 758)

[2] أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (باب الاستواء، أثر رقم 516)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (حديث رقم 664)، والذهبي في العلو (ص 103) وصححه الألباني في مختصر العلو (رقم 137).

والإيمان به واجب: أي :إثبات الصفة كما جاءت في القرآن واجب شرعًا، دون تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل؛ فالاستواء ثابت بنص القرآن، إذن يجب الإيمان به كما هو.

والسؤال عنه بدعة: السؤال عن الكيفية وليس السؤال عن المعنى؛ فالسؤال بـ (كيف استوى؟) بدعة؛ لأنه لم يُعرف عن الصحابة ولا السلف، ولأن الكيف مجهول أصلًا، فالنبي نزلت عليه هذه الآيات وآمن بها والصحابة سمعوها ووسعهم ذلك وآمنوا بها وكذلك نحن يسعنا ما وسع رسول الله وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين.

ثم قال: وما أراك إلا مبتدعا: هذا يدل على شدة الإمام مالك رحمه الله على من يسأل أسئلة تُفضي إلى الابتداع في العقيدة، خاصة في صفات الله تعالى.

فالرجل كان يسأل بـ (كيف استوى؟) والسؤال عن الكيف هو الذي حرمه السلف لأنه لا يعلمه إلا الله.

3- يحرم السؤال للاستهزاء:

بعض القنوات وبعض أصحاب المواقع المشبوهة من أعداء الإسلام والمنافقين لا يسألون للعلم ولرفع الجهل إنما يسألون للاستهزاء والتشكيك في الدين أو إحراج العلماء أو إثارة الشبهات بين الناس؛ فيطرحون الأسئلة بأسلوب ساخر، أو يعيدون شبهات قديمة أُجيب عنها مرارًا، أو يقتطعون إجابات ويحرّفونها ليظهر الدين بصورة متناقضة أو مضحكة.

والفرق بين السؤالين:

أن من يسأل للعلم: يقبل الحق إذا ظهر له

ومن يسأل للاستهزاء: لا يرضيه جواب، ولو جاءه ألف دليل.

4- السؤال عما لا ينبني عليه عمل والتكلف في هذه الأمور:

ويعجبني في هذا من المفسرين شيخنا الجليل إسماعيل بن كثير رحمة الله عليه لما يقول: وهذا مما لا ينبني عليه كثير عمل، وهذا مما ورد فيه إسرائيليات لا فائدة من ذكرها، فما ورد مجملا أراده الله كذلك أن يكون مجملا وما ورد مفصلا أراد الله أن يكون مفصلا.

فلا ينبغي السؤال عما لا ينبني عليه عمل؛ مثل: البحث في الشجرة التي نهي عنها آدم، والغفلة عن أن هذه الشجرة بغض النظر عن اسمها هي رمز لما حرمه الله على بني آدم، ومثل السؤال عن اسم ونوعية كلب أهل الكهف، ونوعية العصا التي كان يحملها موسى عليه السلام، فالعلماء قالوا: **علم لا ينفع كجهل لا يضر.**

وكثرة السؤال فيما لا يفيد يدل على فراغ قاتل، ومثل هذه الاسئلة قابلتها كثيرا بعض الناس كان يقول لو في خيط انقطع من لباس الإحرام هل فيها مشكلة سبحان الله !!وأحدهم كان يسأل عن حكم شرب المحرم للشاي بالنعناع والقهوة بالهيل لأن لهما رائحة عطرية!!!

وهذا يذكرنا بالرجل الذي دخل على الامام الشافعي وتروى عن أبي حنيفة ايضا فكان الامام الشافعي مع طلبته جالسا لفترة طويلة ورجله تألمه من طول الجلوس فقام ببسط رجله وهو وسط الطلبة ... فدخل رجل معمم له عمامة كبيرة وهيئة موقرة فالإمام الشافعي حياء قبض رجله وكان يتكلم عن غروب الشمس في يوم غيم في رمضان فقال له الرجل: فإذا ظهرت الشمس من بين السحاب بعد منتصف الليل؟ فقال الشافعي آن للشافعي أن يمد رجليه.
أي شمس هذه التي تطلع بعد منتصف الليل؟

وبعض الناس طبيعتهم الجدال يسأل من أجل الجدال وليس من أجل التعلم، مثل بني إسرائيل في قصة البقرة.

ذكرني بالقصة الطريفة أن رجلا أراد أن يذهب للصلاة فقال لابنه إذا جاء أي أحد يسأل عني فقل له: إن أبي ذهب إلى المسجد وكان الولد مجادلا فقال لأبيه: وإذا لم يأت أحد ماذا أفعل؟!!! لا حول ولا قوة الا بالله.

أما السؤال عما يحتاجه الإنسان من أمور دينه ودنياه طبعا فلا شك في جواز ذلك ولا شك أنه يقع تحت **قول النبي ﷺ (طلب العلم فريضة على كل مسلم)** [1]

وليس المقصود بالعلم هنا كل علوم الدنيا، ولا كل تفاصيل الشريعة، بل **قدرٌ محددٌ يلزم كل مسلم معرفته ليصح إيمانه وعبادته**.

ما هو العلم الذي يجب على كل مسلم معرفته؟

أ- **العلم بالله والتوحيد** :معنى لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتجنب الشرك، والرياء، والبدع.

(1) أخرجه ابن ماجه في السنن (كتاب السنة، باب فضل العلماء، حديث رقم 224)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (كتاب العلم، حديث رقم 1763)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (حديث رقم 184). وهذا هو النص الصحيح كلمة (ومسلمة) لم ترد في الحديث وكلمة مسلم تشمل الرجال والنساء على وجه العموم.

ب-العلم بما يلزم من العبادات التي يؤديها المسلم: فكل عبادة **يفعلها المسلم تجب عليه معرفة أحكامها قبل أن يفعلها**، مثال:

-أحكام الطهارة والصلاة (لأنهما لا يسقطان عن أحد).

-أحكام الصوم لمن سيدخل رمضان.

-أحكام الزكاة لمن عنده مال يزكّى.

-أحكام الحج لمن أراد الحج.

ج- العلم بما يحل ويحرم في حياته اليومية، مثل:

-الحلال والحرام في الكسب والمعاملات.

-أحكام الزواج والطلاق لمن يتعامل معها.

-أحكام الأطعمة، وآداب المسلم، والصدق، والأمانة .

الخلاصة: ما لا يسع المسلم جهلُه ممّا يصحّ به دينُه وعبادته ومعاملته.

قوله: (فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم)

كيف نضبط الفاء في كلمة (واختلافهم)؟

لو قلنا بالرفع واختلافُهم على أنبيائهم فالمعنى: أهلكهم اختلافهم يبقى أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم فتعرب فاعل وأهلكهم اختلافهم فالاختلاف فاعل مرفوع بالضمة.
الوجه الثاني من الإعراب: واختلافِهم بالكسر باعتبار حذف مضاف فإنما أهلكم الذين كانوا قبلكم كثرة سؤالهم وكثرة اختلافهم فهي مضاف إليه يجر بالكسرة فصح أن تقول: **(واختلافهم)** بضم الفاء، أو بالكسر.

والمقصود هنا أن ذلك يؤدي إلى الاختلاف وتفرق القلوب واشتعال العداوة بين المسلمين لأن هذا فيه حظ النفس وحظ الدنيا.

فوائد الحديث:

1. **النهي النبوي واجب الاتباع**، سواء جاء النهي في القرآن أو في السنة الصحيحة؛ لأن السنة وحي، والنبي ﷺ هو المبلّغ عن الله.
2. **دعوى الاكتفاء بالقرآن وترك السنة باطلة**؛ لأن الذي بلّغ القرآن هو الرسول ﷺ، ومن قَبِل بلاغه في القرآن لزمه قبول سنته الصحيحة.
3. **قوله: «فاجتنبوه» يدل على وجوب البعد التام عن المنهيات**، لا مجرد ترك الفعل المباشر؛ ولهذا جاءت في تحريم الخمر دلالة قوية على وجوب الابتعاد عنها وعن أسبابها.
4. **المحرم لذاته لا يباح إلا عند الضرورة**، مثل أكل الميتة لمن أشرف على الهلاك، أو الترخيص في لبس الحرير للرجل لضرورة مرضية.
5. **الأوامر الشرعية تأتي من القرآن والسنة**، فإن كان الأمر جازمًا فهو واجب، وإن لم يكن على وجه الإلزام فهو مستحب أو مندوب.
6. **فعل المأمورات مرتبط بالاستطاعة**، لقوله ﷺ: «فأتوا منه ما استطعتم»، ولقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾.
7. **الشريعة مبنية على اليسر ورفع الحرج**، فمن عجز عن استعمال الماء تيمم، ومن عجز عن القيام في الصلاة صلى قاعدًا، ومن عجز عن الصيام لمرض أو سفر أفطر وقضى.
8. **قاعدة: المشقة تجلب التيسير** تعني أن المشقة الخارجة عن القدرة تجلب الرخصة، أما المشقة المعتادة في العبادة فهي من الصبر على الطاعة.
9. **من أسباب هلاك الأمم السابقة كثرة السؤال والجدال مع الأنبياء**، كما وقع لبني إسرائيل في قصة البقرة، إذ شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.

10. **كثرة السؤال المذمومة هي السؤال بلا حاجة أو فائدة،** أو السؤال الذي يدل على التعنت والجدال لا على طلب العلم والعمل.
11. **يحرم السؤال بقصد الاستهزاء والتشكيك؛** لأن هذا ليس طلبًا للحق، بل إثارة للشبهات وإحراجًا للعلماء وتلبيسًا على الناس.
12. **السؤال النافع هو ما ينبني عليه عمل،** أما البحث في تفاصيل لا فائدة منها، كاسم كلب أهل الكهف أو نوع شجرة آدم، فهو من التكلف الذي لا ينفع.
13. **ليس كل سؤال مذمومًا؛** فالسؤال عما يحتاجه المسلم في دينه ودنياه مشروع، بل قد يكون واجبًا إذا توقف عليه صحة العبادة أو المعاملة.
14. **العلم الواجب على كل مسلم هو ما لا يسعه جهله،** مثل التوحيد، وأحكام الطهارة والصلاة، والصوم لمن دخل عليه رمضان، والزكاة لمن عنده مال، والحج لمن أراده.
15. **يدخل في العلم الواجب معرفة الحلال والحرام في الحياة اليومية،** كالكسب والمعاملات، والزواج والطلاق لمن احتاج، والأطعمة، والصدق والأمانة.
16. **كثرة السؤال والاختلاف تؤدي إلى تفرق القلوب واشتعال العداوة بين المسلمين،** خاصة إذا دخل فيها حظ النفس والمراء والجدال.
17. **الخلاصة الجامعة** :المسلم مأمور بترك المنهيات كلها، وفعل المأمورات قدر الاستطاعة، وتجنب كثرة السؤال المذموم، والاشتغال بما ينفعه في دينه ودنياه.

****

الحديث العاشر

إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ

لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا

(10) إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) (المؤمنون: الآية51)، وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) (البقرة: الآية172) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك) رواه مسلم.[1]

شرح الحديث

(إن الله تعالى طيب) كلمة طيب هنا اسم من أسماء الله جل وعلا، وهذا الاسم الله لم يرد في القرآن الكريم، وإنما ورد في السنة؛ كما في هذا الحديث الذي معنا.

ومعناه: المنزه عن النقائص الله طيب أي منزه عن النقص.

فالله جل وعلا ليس فيه نقص وليس فيه عيب وليس فيه آفة؛ فأي نقص أو أي عيب ينقص من كماله وقدره وجلاله جل وعلا الله منزه عنه، فهو طيب منزه عن النقائص.

والله تعالى طيب رزقه وافر وعطاؤه واسع، والله سبحانه وتعالى طيب لا يظلم مثقال ذرة، طيب يعد عباده بكل جميل وبكل حسن، والله تعالى طيب أعد دار الكرامة من فضله الجنة، وجعلها للطيبين من عباده.

(لا يقبل إلا طيبا) القبول هنا المقصود به الثواب، فالقبول يراد به لازمه مثل قولنا في الصلاة: **(سمع الله لمن حمده)** والله تعالى يسمع من يحمده ويسمع من لم يحمده، ويسمع من يؤمن به ويسمع من يكفر به، لكن ليس المقصود ظاهر اللفظ؛ إنما المقصود بـ **(سمع الله لمن حمده)** لازمه وهو: أن من يحمد الله تعالى في هذا الموطن عند الرفع من ركوع الصلاة فإن الله يثيبه على ذلك، كما تقول عندما يدعو لنا شخص: ربنا يسمع منك، فمعناه: يراد به لازمه أي لازم السمع الإيجاب.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم (1015)

فمعنى (لا يقبل إلا طيبا) المراد به لازمه وهو الثواب، فقبول العمل كناية عن الأجر والثواب، والرضا بالعمل.

ومن هذا الباب أيضا لا يقبل إلا طيبا، قالوا: بمدح فاعله يثني عليه بين الملائكة، ونفي القبول للعمل معناه أن العمل فيه نقص أو فيه خبث والعياذ بالله.

وفي الحديث قال النبي ﷺ: (ما تصدق أحد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه)[1] من كسب طيب أي من حلال، ولا يقبل الله إلا الطيب، الله لا يقبل الصدقة من مال حرام، إلا أخذها الرحمن بيمينه، نسأل الله أن يتقبل منا.

وكلمة (طيبا) هنا نكرة، ماذا تفيد؟ قال العلماء: المقصود لا يقبل إلا الكسب الطيب، فلا يقبل الكسب الحرام، وهذا في الصدقة والعطاء طبعا، أو أن الله تعالى طيب لا يقبل من الأعمال إلا العمل الخالي من الرياء والنفاق، فالعمل الطيب أي الذي قصد به وجه الله تعالى.
وإن كنت أرجح في هذا السياق أن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، المقصود به الكسب الحلال الطيب، لأن النبي ذكر بعد ذلك أن الله أمر المرسلين بما أمر به المؤمنين، وذكر الرجل الذي مأكله من حرام ومشربه من حرام فيراد به هنا في حال الإنفاق وفي حال العطاء لا يقبل الله تعالى من الصدقة إلا ما كان طيبا.

إذن من العلماء من يجعل قوله ﷺ: **(لا يقبل إلا طيبا)** في الأعمال وفي الأموال وفي النفقات وفي كل شيء، ومنهم من يخصصها بأن المقصود به الكسب الطيب الذي يكون منه الإنفاق الطيب الذي يقبله الله عز وجل.

وقوله: (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا) تمهيد لما سيأتي بعد، فالرسول ﷺ للتنبيه على خطورة أكل الحرام قدم بمقدمتين:

- إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، لا يقبل من عبده أن يأكل حراما أو أن يدعوه وهو يأكل حراما.
- أنه من أهمية هذا الأمر وعلو شأنه عند الله سبحانه وتعالى أمر به المرسلين في خطاب خاص وأمر به المؤمنين في خطاب عام، وليس المقصود أن الله جمع الأنبياء والمرسلين جميعا فكلمهم مرة واحدة إنما المقصود أن هذا أمر أكد الله عليه على ألسنة الرسل في كل الشرائع.

---

[1] أخرجه مسلم في الصحيح (كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، حديث رقم 1014) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) (المؤمنون: الآية51)، وقال: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) (البقرة: الآية172)

والمعنى: إذا أكلتم أو شربتم أو لبستم فليكن كسبكم من حلال، ومعنى: **(كلوا من الطيبات) أي** من كل ما أباحه الله لكم، ولذلك لا يجوز للمسلم أن يحرم ما طيبه الله له وأحله؛ فلا يأتي من يقول: أنا حرمت على نفسي أكل اللحم، أو أنا حرمت على نفسي أكل الفاكهة، أنا شخص نباتي، أنت حر، كل ما تشتهيه نفسك، لكن لا تحرم ما أحل الله للناس، في بعض الأطعمة أنا نفسي تعافها، فلما نفسي تعافها لأني لم أجدها في بيئة قومي أو طبيعة نفسي لا تتقبلها فلا شيء عليك، هذا أمر مفروغ منه، لكن لا أحرمه.

والرسول لما وضع على مائدته في المدينة الضب، لم يأكله، فلما قالوا يا رسول الله احرام هو؟ قال: (لا، ولكني لم أجده في بيئة قومي فنفسي تعافه.)[1]

وفي حديث أبي هريرة: (ما عاب رسول الله طعاما قط، إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه)[2]

فلا ينبغي أبدا أن يأتي شخص ويقول أنا حرمت على نفسي كذا، كلا، لا تحرم ما أحل الله لك، كل ما شئت مما أباحه الله واترك ما شئت، لكن لا تحرم، فنفرق بين من نفسه تشتهي طعاما مما أباحه الله أو نفسه لا تشتهيه، وشخص يحرم الحلال على نفسه، فالتحريم هذا أمر لا يجوز أبدا.

في سورة التحريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: 1-2]

وسبب نزولها أن الرسول ﷺ حرم على نفسه أن يأكل من العسل الذي يأتي من شجر اسمه العرفط، لأنه كان له له رائحة مميزة غير مرغوب فيها، والنبي لا يحب أن يكون له رائحة تؤذي، وجبريل كان يتنزل عليه بالوحي، فحرمه على نفسه.

(ثم ذكر النبي ﷺ الرجل أشعث أغبر) أخذ العلماء من هذا البيان النبوي آداب الدعاء:

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (كتاب الذبائح والصيد، باب أكل الضب، حديث رقم 5537)، ومسلم في الصحيح (كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة الضب، حديث رقم 1946) من حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري في الصحيح (كتاب الأطعمة، باب ما عاب النبي الطعام، حديث رقم 5409)، وأخرجه مسلم في الصحيح (كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، حديث رقم 2064)

(الرجل) ذكر الرجل كلمة هنا خرجت مخرج الغالب، وإلا فمن الممكن أن يكون الداعي امرأة، وفي أي لغة من اللغات الحية الآن إذا ذكرت النساء في الأمر فأنت لا تريد إلا النساء، فإذا ذكرت الأمر بضمير الذكور فأنت تريد الرجال والنساء، لكن يذكر الأمر بالرجال على سبيل التغليب، أي لو أني خصصت الكلام للنساء فهو للنساء فقط، أما إذا خصصته للرجال فهذا على سبيل التغليب للرجال والنساء، فالنبي لما قال: **(ورجلان تحابا في الله)**، هل معنى ذلك لو امرأة هل يجوز أن تحب أخت لها في الله؟

فكلمة الرجل هنا بمعنى الإنسان رجلا كان أو امرأة.

(**يطيل السفر)** وذكر السفر لأنه من أسباب إجابة الدعاء، لأنه اجتمع عليه وحشة السفر والغربة والمشقة، **وقد ورد هذا في الحديث أن النبي ﷺ قال: (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده.)**[1]

(أشعث أغبر) هيئة الرجل هنا أشعث أغبر، وكانوا في القديم الرجال يطيلون الشعور، وكان النبي ﷺ لا يحلق إلا في النسك، في الحج أو العمرة، فالطبيعي أن الشعر يكون طويلا، ومسدولا على الكتفين.

فهذا الرجل مع طول السفر لا يلتفت لحاله، لأن السفر كان في الصحراء ويمشون المسافات الطويلة في الحر وفي الشمس، يصبح الرجل أشعث أغبر، فالأشعث هو الذي تفرق شعره وصار منتشرا. **(أغبر)**غبرة السفر لمن يمشي في الصحراء معروفة، لأن فيها غبرة التراب والرمال فيظهر أثر ذلك على وجهه وملابسه.

ولذلك في حديث جبريل لما وصفه عمر وصفه قال: (رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرف أحد منا)
فهذا الرجل **(أشعث أغبر)** إشارة إلى أنه رث الهيئة يبدو على هيئته أنه منكسر، وليس المقصود لو أن هيئتي جميلة أن أغيرها على هيئة رثة؛ كلا المقصود أن هذا أمر غلب عليه بسبب سفره، فليس المقصود أن هذه حالة المسلم الدائمة أن يكون أشعث أخبر؛ كلا فالله جميل يحب الجمال، لكن من الممكن بدل الهيئة الرثة بسبب السفر أن يدعو المسلم بحال الانكسار والافتقار إلى الله في الدعاء، كما هو حال نبي الله زكريا، ﴿**ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ**

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الدعوات، باب ما جاء في دعوة المظلوم، حديث رقم 1905)، وأبو داود في سننه (كتاب الوتر، باب في الدعاء، حديث رقم 1536)، وابن ماجه في سننه (كتاب الدعاء، باب دعوة المظلوم، حديث رقم 3862)، وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (حديث رقم 3031).

الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: 2-4]
فالانكسار في الدعاء والافتقار إلى الله سبحانه وتعالى من أسباب إجابة الدعاء

(يمد يديه إلى السماء، يقول يا رب يا رب)، إذن السبب الأول من أسباب الإجابة أنه مسافر، السبب الثاني: أنه أشعث أغبر، أي أن هيئته رثة ومنكسر، الأمر الثالث: أنه يمد يديه إلى السماء.

وقد ورد عن النبي ﷺ عدة صور في رفع اليدين حال الدعاء:

1- الصورة الأشهر أن النبي ﷺ كان إذا دعا جعل بطون الأكف مما يلي وجهه وظهورهما مما يلي القبلة، يا رب أسألك كذا ....

2- وهذه كان النبي يفعلها في صلاة الاستسقاء، وهي عكس الأولى: أن يستقبل بوجهه ظهور الأكف ويدعو يا رب يا رب، وهذا كناية كما قال العلماء عن تغير الحال أن السماء أمسكت المطر والناس في أشد الحاجة، وكان النبي ﷺ يفعل هكذا من باب التفاؤل بتغير الحال.

3- الهيئة الثالثة أن يرفع بطون الأكف إلى السماء هكذا يا الله يا الله، وكان إذا أبلغ رفع يديه حتى يبدو بياض إبطيه، **(فرفع النبي يديه حتى بان بياض إبطيه ﷺ)** ومعنى ذلك أن النبي لم يكن عنده شعره تحت الإبط، فكان عنده بياض مميز تحت إبطيه ﷺ أو كان عنده شعر قليل.

4- أن يشير الإمام بأصبعه عند الدعاء يوم الجمعة على المنبر، والدليل ما جاء **عن عُمارة بن رُؤيبة رضي الله عنه أنه رأى بشر بن مروان على المنبر رافعًا يديه فقال: قبّح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا وأشار بإصبعه المسبِّحة.)**[1]

قال العلماء إشارة إلى علو الله جل جلاله أي أنه إذا دعا: اللهم اغفر لنا اللهم ارحمنا، يكره للإمام أنه يرفع يديه كما يرفعها بقية المؤمنين.

وهناك قول يتردد ببدعية رفع اليدين للمصلين يوم الجمعة في الدعاء، فيجب عندهم ألا ترفع الأيدي في الدعاء يوم الجمعة، وهذا قول لا دليل عليه، بل ومنهم من يستدل بالحديث السابق عن عمارة بن رؤيبة رغم أنه خاص بالإمام على المنبر.

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث رقم 874)

بل جاء ما يفيد بسنة ذلك في كل دعاء **لعموم قول النبي ﷺ: (إن الله تعالى حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه فيردهما، صفرا خائبتين)** [1]، صفرا أي خالية، وفيه حث على الدعاء وأن الداعي لن يرده الله خائبا خالي اليدين؛ بل سيكون مجبورا رابحا بفضل من الله تعالى.

هل يجوز الإطالة في الدعاء؟

لا بأس بالإطالة وأنت وحدك منفردا، أما في الجماعة فلا يشق الإمام على المصلين ، لأن بعض الأئمة في القنوت في التراويح أو في التهجد يطيل الدعاء قرابة نصف الساعة وقد تزيد لساعة ، ومن الناس من يؤلمه ظهره الناس ويتعب فعلا، فهذا ليس من السنة في شيء، لكن يجوز الإطالة في بعض الأوقات، في حد المعقول ، كما الليالي الوترية في نهاية رمضان ، الناس يطيب لها الدعاء في هذه الليالي وفي أوقات إجابة الدعاء، لكن لا يكن عادة الإمام الإطالة في الدعاء مع السجع والقافية والألحان والطرب ، ومع التجويد والإخفاء والغنة ، وهذا ليس من الدعاء في شيء.

فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ويحب من عباده الافتقار، ويحب من عباده الانكسار جل جلاله سبحانه وتعالى.

حكم رفع البصر إلى السماء في الدعاء

نص الشافعية على أن الأولى في الدعاء خارج الصلاة رفع البصر إلى السماء، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ولا يكره رفع بصره إلى السماء في الدعاء؛ لفعله ﷺ، وهو قول مالك والشافعي "[2]

وفي قصة شرب المقداد رضي الله عنه لشراب النبي ﷺ دون علمه وفيه: (ثم أتى المسجد فصلى ثم أتى شرابه فكشف عنه فلم يجد فيه شيئا فرفع رأسه إلى السماء، فقلت: الآن يدعو عليّ فأهلك. فقال: اللهم أطعم من أطعمني، وأسق من أسقاني) [3]

إذن يجوز للداعي أن يرفع يديه إلى السماء لأن السماء قبلة الداعي، **قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 144]** وهي مصعد الأعمال إلى الله سبحانه

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الوتر، باب رفع اليدين في الدعاء، حديث رقم 1488)، والترمذي في سننه (كتاب الدعوات، باب في رفع اليدين في الدعاء، حديث رقم 3556)، وابن ماجه في سننه (كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، حديث رقم 3865)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (حديث رقم 1754).

[2] "الفتاوى الكبرى" (338/5).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، حديث رقم 2055)

وتعالى، والله متصف بالعلو والكبرياء، فأنا حينما أدعو يتعلق قلبي بالله العلي الأعلى جل جلاله.

الصفة الرابعة يقول: (يا رب يا رب)

يلح على الله، فمعنى أن تقول يا رب: الرب هو المالك السيد المتصرف، فأنت تقول يا رب يا من خلقتني ورزقتني، أنت الذي تنعم وأنت الذي تعطي وأنت الذي ترزق.
لكن هذا الرجل مع وجود أربعة أسباب لإجابة الدعاء النبي ﷺ ذكر أمرا يمنع من الإجابة، قال:
(وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لذلك)

مطعمه أي ما يأكله من حرام، وما يشربه من حرام، وما يلبسه من حرام.

(وغذي بالحرام) هل يوجد فارق بين المطعم والغذاء؟
المطعم هو ما يأكله الإنسان بنفسه، أنا الذي أطعم نفسي، إنما غذي إشارة إلى صغره، أي أنه تربي عليه ... نشأ ونما على الحرام، وغذي فعل مبني للمجهول من الغذاء، أي نشأ والعياذ بالله من صغره على الحرام، فاللحم والدم اللي يجري في العروق نبت من حرام.

فهذا الرجل مطعمه حرام وملبسه حرام ومشربه حرام، والطعام الذي غذي به في صغره ونشأ ونما عليه حرام، نعوذ بالله!!!

(فأنّي يستجاب له) أنّى بمعنى كيف لكن فيها معنى الاستبعاد، كما في قول زكريا: **(يا مريم أنّى لك هذا)** فإجابته مستبعدة، لأن الحرام يجري في عروقه ودمه، وملابسه، مشربه من الحرام منبته والعياذ بالله من الحرام، فأنّي يستجاب له؟

فكأن النبي ﷺ أراد أن ينبه على خطورة أكل الحرام والكسب الحرام، فما أسهل هذا الكسب! وما أكثر من يتكسبون من الحرام بسهولة، هو كثير وسهل، لكن الحرام لا بركة فيه، الحرام وأكل الحرام فيه مقت الله، الحرام سبب لذهاب البركة وقسوة القلب، الحرام سبب لعقوق الأبناء، وفساد الزوجة، وقطع صلتك بالله سبحانه وتعالى.

ولذلك كان العلماء يقولون: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى.
لذلك لو أحببت أن تأمّن على أولادك أطعمهم من حلال، لا يهم ما يأكلون، ولا كم أكلوا، المهم أن يأكلوا حلالا طيب من عرق جبينك، نسأل الله أن يرزقنا الحلال الطيب، وأن يبارك لنا فيه، وأن يحرم علينا الحرام وأن يباعد بيننا وبينه كما باعد بين المشرق والمغرب.

بعض الناس يظن أنه إذا أخذ مال فيه شبهة أو حرمة فقد أخذ رزقه ويقول هذا رزقي ورزق عيالي، يا أخي أنت أخذت ما لا يحل لك فهو مال لا بركة فيه، والحرام إذا دخل على الحلال محق البركة منه، كما قال الشاعر في هذا المعنى:

جمع الحرام إلى الحلال ليكثره أخذ الحرام الحلال فبعثره

فالحرام أذهب البركة من الجميع، لا هو نفسه فيه بركة ولا الحلال الذي دخل عليه واختلط به فيه بركة، فمن أراد البركة فليكتسب من حلال وليطعم أولاده من حلال.

وقول النبي – ﷺ (فأني يستجاب له) استبعاد وليس استحالة، قالوا: والدليل على ذلك أن الله قد يستجيب لمن يدعوه في بعض الأحيان إنعاما منه وتفضلا، أو لحكمة بالغة يعلمها، كما استجاب الله لإبليس حينما قال: **﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 36-38]**

والمشركون رغم كفرهم بالله عز وجل ذكر الله تعالى أنهم لما أحيط بهم في البحر وهاجت بهم الأمواج وظنوا أنهم أحيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين، قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22]**

فالله تعالى استجاب لإبليس، والله تعالى يستجيب للمشركين ليعلموا أن آلهتهم العاجزة لا حول لها ولا قوة، فهم في عرض البحر ومع ارتفاع الأمواج لم يذكروا اللات ولا العزى، إنما ذكروا الله، ودعوا الله مخلصين له وحده، سبحانه وتعالى، فأنجاهم الله.

كيف تكون التوبة من المال الحرام؟

المال الحرام له صور وحالات متعددة، فقد يكون محرما لذاته أو لكسبه، والمحرم لكسبه قد يكون مأخوذا برضا مالكه أو دون رضاه، وقد يكون مكتسبه عالما بالتحريم، أو جاهلا، أو متأولا، ولكل صورة حكمها.

أولا: من اكتسب مالا (محرما لذاته):

المال المحرم لذاته يراد به (كل عين تعلق التحريم بذاتها)، كالخمر، والأصنام، والخنزير، ونحوها؛ فلا يرده إلى مالكه، ولا يأخذه، بل يجب عليه إتلافه، ولا يجوز له الانتفاع به بيعا، أو شراء، أو إهداء، أو اقتناء، أو غير ذلك.

ثانيا: من أخذ مال غيره بغير وجه حق دون رضاه وإذنه:

كالمال المسروق، والمغصوب، والمختلس من المال العام، والمأخوذ بالغش والخداع، والرشوة التي يدفعها صاحبها مضطرا ليحصل على حقه، ونحو ذلك: فهذا المال يجب رده إلى صاحبه، ولا تبرأ الذمة إلا بذلك، وإذا أنفقه أو تصرف فيه، فيبقى دينا في ذمته حتى يتمكن من رده لصاحبه.

ثالثا: من اكتسب مالا حراما بمعاملة محرمة:

لجهله بتحريم هذه المعاملة، أو اعتقاده جوازها بناء على فتوى من يثق به من أهل العلم؛ فهذا لا يلزمه شيء، بشرط أن يكف عن هذه المعاملة المحرمة متى علم تحريمها، لقول الله تعالى: ﴿**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ **[البقرة: 275]**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وما اكتسبه الرجل من الأموال بالمعاملات التي اختلفت فيها الأمة، وكان متأولا في ذلك ومعتقدا جوازه لاجتهاد، أو تقليد، أو تشبه ببعض أهل العلم، أو لأنه أفتاه بذلك بعضهم، ونحو ذلك؛ فهذه الأموال التي كسبوها وقبضوها ليس عليهم إخراجها، وإن تبين لهم بعد ذلك أنهم كانوا مخطئين في ذلك وأن الذي أفتاهم أخطأ... فالمسلم المتأول الذي يعتقد جواز ما فعله من المبايعات والمؤاجرات والمعاملات التي يفتي فيها بعض العلماء إذا أقبض بها أموال وتبين لأصحابها فيما بعد أن القول الصحيح تحريم ذلك: لم يحرم عليهم ما قبضوه بالتأويل)[1]

رابعا: من اكتسب مالا محرما مع علمه بالتحريم:

وقبضه بإذن مالكه ورضاه، كالمقبوض بالعقود الفاسدة ، وأجرة الوظائف المحرمة كالعمل في البنوك الربوية ، أو تقديم الخمر، أو ربح بالمتاجرة بالمحرمات ، أو أجرة الخدمات المحرمة كشهادة الزور وكتابة الربا ، أو المال المأخوذ رشوة لينال دافعها شيئا ليس من حقه ، أو اكتسبه عن طريق القمار والميسر واليانصيب والكهانة ، ونحو ذلك ... الخ فهذا المال المحرم لكسبه : لا يلزم رده إلى مالكه على أرجح قولي أهل العلم ، ويلزمه عند أكثر العلماء التخلص من هذا المال الحرام بالتصدق به على الفقراء والمساكين والمصالح العامة ونحوها ، ولو تصرف فيه بأي نوع من التصرفات فيبقى دينا في ذمته ، يلزمه متى قدر على ذلك أن يتصدق به .

---

[1] مجموع الفتاوى" (443/29).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومن أخذ عوضا عن عين محرمة، أو نفع استوفاه، مثل: أجرة حمال الخمر، وأجرة صانع الصليب، وأجرة البغي ونحو ذلك: فليتصدق بها، وليتب من ذلك العمل المحرم، وتكون صدقته بالعوض كفارة لما فعله؛ فإن هذا العوض لا يجوز الانتفاع به؛ لأنه عوض خبيث ولا يعاد إلى صاحبه؛ لأنه قد استوفي العوض، ويتصدق به، كما نص على ذلك من نص من العلماء، كما نص عليه الإمام أحمد في مثل حامل الخمر، ونص عليه أصحاب مالك وغيرهم)[1]
واختار ابن القيم رحمه الله أنه إن كان فقيرا، فله أن يأخذ من هذا المال بمقدار حاجته، فقال رحمه الله: (فطريق التخلص منه وتمام التوبة: بالصدقة به، فإن كان محتاجا إليه فله أن يأخذ قدر حاجته، ويتصدق بالباقي، فهذا حكم كل كسب خبيث لخبث عوضه، عينا كان أو منفعة.) [2]
ومال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قول آخر له إلى أن له أن ينتفع به ولا يلزمه أن يتصدق به، ما دام قد تاب. فقال: (وأما مع العلم بالتحريم فيحتاج إلى نظر، فإنه قد يقال: طرد هذا أن من اكتسب مالا من ثمن خمر مع علمه بالتحريم ، فله ما سلف، وكذلك كل من كسب مالا محرما، ثم تاب إذا كان برضا الدافع، ويلزم مثل ذلك في مهر البغي وحلوان الكاهن، وهذا ليس ببعيد عن أصول الشريعة، فإنها تفرق بين التائب وغير التائب كما في قوله: (**فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف)** ، **وقال تعالى : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)**
ومما يقوي هذا أن هذا المال لا يتلف بلا نزاع ، بل إما أن يتصدق به ، وإما أن يدفع إلى الزاني والشارب الذي أخذ منه مع كونه مصرّا ، وإما أن يجعل لهذا القابض التائب، فإذا دفعه إلى الزاني والشارب فلا يقوله من يتصور ما يقول، وإن كان من الفقهاء من يقوله، فإن في هذا فسادا مضاعفا... وأما الصدقة : فهي أوجه . لكن يقال: هذا التائب أحق به من غيره، ولا ريب إن كان هذا التائب فقيرا، فهو أحق به من غيره من الفقراء ، وبهذا أفتيت غير مرة ، وإن كان التائب فقيرا يأخذ منه قدر حاجته فإنه أحق به من غيره ، وهو إعانة له على التوبة ، وإن كلف إخراجه تضرر غاية الضرر ، ولم يتب ، ومن تدبر أصول الشرع علم أنه يتلطف بالناس في التوبة بكل طريق، وأيضا ، فلا مفسدة في أخذه ، فإن المال قد أخذه وخرج عن حكم صاحبه ، وعينه ليست محرمة ، وإنما حرم لكونه استعين به على محرم ، وهذا قد غفر بالتوبة ، فيحل له مع الفقر بلا ريب ، وأخذ ذلك له مع الغنى : وجه ، وفيه تيسير التوبة على من كسب مثل هذه الأموال... والله سبحانه يقول : **(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله)** ، ولم يقل فمن أسلم ، ولا من تبين له التحريم ، بل قال: **(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى)** ،

---

[1] مجموع الفتاوى" (142/22).
[2] زاد المعاد (691/5)

والموعظة تكون لمن علم التحريم أعظم مما تكون لمن لم يعلمه ، قال الله تعالى: **(يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين)**[1]

فوائد الحديث:

1. **اسم الله "الطيب" ثابت في السنة،** ومعناه أن الله تعالى منزه عن كل نقص وعيب وآفة، كامل في ذاته وصفاته وأفعاله.
2. **قوله ﷺ: "لا يقبل إلا طيبًا" يدل على أن الله لا يثيب ولا يرضى إلا العمل الطيب والكسب الطيب،** فلا يقبل صدقة من مال حرام، ولا عملًا شابه رياء أو خبث.
3. **الأكل من الطيبات يعني طلب الحلال في الطعام والشراب واللباس والكسب،** فلا يليق بالمؤمن أن يتقرب إلى الله وماله أو مطعمه من حرام.
4. **لا يجوز للإنسان أن يحرم على نفسه ما أحله الله،** لكن له أن يترك ما لا تشتهيه نفسه دون أن يعتقد تحريمه.
5. **من أسباب إجابة الدعاء السفر،** لأن المسافر يجتمع عليه الافتقار والغربة والمشقة، وقد ورد أن دعوة المسافر من الدعوات المستجابة.
6. **حال الانكسار والافتقار من آداب الدعاء،** فكون الرجل أشعث أغبر يدل على حاجته وضعفه وانكساره، لا أن المطلوب من المسلم أن يتكلف هيئة رثة.
7. **يجوز رفع البصر إلى السماء في الدعاء خارج الصلاة،** وقد نص بعض العلماء على جوازه؛ لأن السماء قبلة الداعي ومصعد الأعمال.
8. **تكرار قول "يا رب يا رب" من الإلحاح المحمود في الدعاء،** لأن العبد يستحضر ربوبية الله، وملكه، وتدبيره، ورحمته.

---

[1] *مجموع الفتاوى* 443/29

9. **اجتماع أسباب الإجابة لا ينفع مع وجود مانع عظيم كأكل الحرام؛** فالرجل جمع السفر والانكسار ورفع اليدين والإلحاح، ومع ذلك مُنع بسبب الحرام.
10. **الكسب الحرام يمحق البركة،** ولو كثر المال؛ فالحرام سبب لقسوة القلب، وذهاب البركة، وفساد الحال في النفس والأهل والولد.
11. **من أراد البركة في نفسه وأهله فليطعمهم من الحلال،** فالعبرة ليست بكثرة الطعام والمال، بل بكونه حلالًا طيبًا.
12. **الخلاصة الجامعة** :صلاح الدعاء والعمل مرتبط بطهارة المطعم والمشرب والكسب؛ فمن أراد قبول العمل وإجابة الدعاء وبركة الأهل والمال، فليتحرَّ الحلال وليتب من كل مال حرام.

****

الحديث الحادي عشر

دَعْ مَا يَرِيْبُكَ

إِلَى مَا لاَ يَرِيْبُكَ

(11) دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيْبُكَ

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الحَسَنِ بنِ عَلِيّ بنِ أَبِي طالبٍ سِبْطِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَيْحَانَتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَفِظْتَ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: (دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيْبُكَ) رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح[1]

التعريف بالراوي:

أبو محمد هي كنية الحسن، حفيد النبي ﷺ، والحسن هو أول مولود لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو زوج فاطمة بنت النبي ﷺ فرزق بالحسن، وأول ما أسماه سماه حربا، قال النبي – ﷺ أروني ابني، ما أسميتموه قال على سميته حربا، قال، بل هو حسن.[2]

فالحسن بن علي سبط رسول الله أي حفيده [3]، وريحانته، الريحانة نبات معروف بالرائحة الطيبة الجميلة، والمقصود أنه كان له مكانة كبيرة في قلب النبي ﷺ، وكما يقولون: إن أعز الولد ولد الولد أي الحفيد، فدائما له مكانة خاصة ويعطيه الجد الكثير من الحنان واللطف، وكان النبي من عادته وهذه سنة نبوية تبين مدى لطفه ورحمته ﷺ أنه يقرب أحفاده منه ويقبلهم ويشمهم، وهذا كله من الحنان واللطف

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في ترك الشبهات، حديث رقم 2518)، والنسائي في السنن الكبرى (كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، حديث رقم 5711)، وأحمد في المسند (مسند أهل البيت، حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.(2518)

(2) طبيعة الأسماء في البيئة العربية كانت قاسية، فنجد الأسماء الغليظة التي تتوافق مع هذه البيئة، ولما يكون اسما غليظا أو فيه قوة ففيه إرهاب للأعداء، وكانوا يحسنون أسماء عبيدهم، وكانوا يقولون: سمينا أبناءنا لأعدائنا وسمينا عبيدنا لنا، فالعبد اسمه هاني وسعيد وبلال، لكن أبناءهم كعب وصخر، ومرة وحرب وفهد، والرسول ﷺ كان من عادته أنه يتفاءل بالأسماء ولذا غير الكثير من الأسماء السيئة التي كانت في هذه البيئة القاسية، ولما رزق علي رضي الله عنه بالحسين قال ما أسميته؟ قال حربا، قال، بل هو حسين.

(3) السبط هو الحفيد فكلاهما في اللغة بمعنى واحد، أما القول بأن السبط ابن البنت والحفيد ابن الابن، هذا غير صحيح لأنه في اللغة العربية الاثنان بمعنى واحد، الأحفاد هم الأسباط والأسباط هم الأحفاد، وسيدنا يعقوب، له اثنا عشر ابنا، كلهم ذكور، ومنهم بنو إسرائيل، وهم الأسباط، فالأسباط هم الذرية اللي نتجت من أبناء يعقوب وهم أبناء أبنائه، فكلمة سبط وكلمة حفيد بمعنى واحد، وبعض العلماء قال الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وعند العجم يسمون الشعوب، فكان العرب لا يعرفون إلا القبائل، ثم في بني إسرائيل كانوا لا يعرفون إلا الأسباط.

الذي كان به ﷺ، فمعنى ريحانته يقصد به أنه كان يحبه حبا كثيرا ويقبله ويشمه كشمنا للريحان ذو الرائحة الطيبة، والمقصود هنا السعادة والفرحة التي في قلب النبي ﷺ، وكان يقول : اللهم إني أحبه فأحبه، وفي رواية اللهم أحب من يحبه، وكان يقول : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.[1]

والحسن له قصة شهيرة لما كان النبي يصلي وسجد فركب الحسن فوق ظهر جده النبي ﷺ وبقي الجد ساجدا وأطال السجود حتى ظن بعض الصحابة أن النبي أصابه مكروه، فرفع رأسه من السجود، فأبصر الحسن وقد اعتلى ظهر جده، فلما قال الصحابة: يا رسول الله ظننا أنه يوحى إليك، فقال إن ابني هذا ارتحلني فكرهت أن أعجله.

ومر أبو بكر الصديق بالحسن وكان يلعب مع الصبيان وكان معه علي بن أبي طالب، فقال له بأبي شبيها بالنبي ليس شبيها بعلي، فقد كان أشبه الخلق برسول الله ﷺ

وبعد مقتل والده بايع المسلمون الحسن بالخلافة، وبعد ستة أشهر من مبايعته رأى أن يجمع كلمة المسلمين على إمام واحد فبايع معاوية على الخلافة وتنازل عن الخلافة، وسمي هذا العام بعام الجماعة لأن المسلمين صار لهم إمام واحد، وبهذا حقق الحسن بشارة قالها النبي ﷺ قال: إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين.

روى الحسن عن النبي ﷺ13 حديث فقط، لأنه كان صغيرا، وتوفي النبي وكان عنده عشر سنين فقط، لكنه كان يعقل فعقل عن النبي هذا الحديث فهو يقول في هذا الحديث: حفظت من رسول الله... وتوفي سنة 50 هجرية ودفن بالبقيع.

شرح الحديث

هذا الحديث قاعدة من قواعد الدين، وأصل في الورع عن الأشياء التي فيها شبهة، فيقول – ﷺ:

(دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) يريبك بفتح الياء هذا هو الصحيح وهذا هو الأفصح في كلمة يريبك، بعض الروايات بضم الياء ما يريبك، كلا اللفظين وردا في لغة العرب لكن الأفصح والأشهر بفتح الياء.

---

[1] والجنة ليس فيها سادة ورؤساء ومرؤوسين إنما المقصود هنا المكانة والشرف، لأن كلمة السيد عند العرب لا تعني الرئيس أو الملك أو الكبير، السيد يعني الشريف في قومه، وفي بعض البلدان السيد هو من كان من آل بيت رسول الله ﷺ، هذا موجود إلى الآن في بعض البلاد وخصوصا في اليمن، لا يسمى بالسيد إلا من كان من آل بيت رسول الله ﷺ، فمعنى سيدا شباب أهل الجنة يعني لشرفهما ومكانتهما في الجنة بين الشباب والأهل، وإلا فإن كل أهل الجنة شباب.

(دع ما يريبك): من الريب وهو الشك، والشك ضد اليقين، أي: اترك ما يشك فيه إلى ما لا يشك فيه، والمراد أن ما اشتبه حاله على الإنسان فتردَّد بين كونه حلالًا أو حرامًا، فاللائق بحاله تركُه، والذهابُ إلى ما يعلم حاله ويعرف أنه حلال، سواء أكان في أمور الدنيا أم في أمور الآخرة، فالأحسن أن ترتاح منه، وأن تدعه؛ حتى لا يكون في نفسك قلق واضطراب فيما فعلتَ وأتيتَ، والله أعلم.

مسائل في الحديث:

المسألة الأولى: حقيقة الورع ترك كل ما يضر أو يخشى ذلك في الآخرة، فيشمل ترك الحرام وترك الشبهات المفضية إليه .
والورع منه ما هو واجب ومنه ما هو مستحب؛ فالورع الواجب ترك كل ما حرم الله من المناهي والمحظورات، والورع المستحب ترك الشبهات والوسائل الموصلة إلى الحرام.

والحاصل أن الورع انتقال العبد من الشك إلى اليقين، ومن الريبة والتردد إلى الثقة والاطمئنان، وهو عام في جميع أبواب الدين فيشمل العبادات والمعاملات والجنايات وغيرها وليس خاصا بباب الأموال كما يتوهمه بعضنا.

المسألة الثانية :سلوك الورع من العبد يحتاج إلى فقه عظيم في دلالات النصوص والأحوال، فليس من الورع ترك ما تكون المفسدة في تركه أعظم من فعله، وليس من الورع أن يترك العبد شيئا مشكوكا فيه فيترتب على تركه وقوعه في منكر متحقق في تحريمه.
فمن الناس من يتورع عن تعاطي بعض المكاسب المشتبه فيها مع حاجته الشديدة إليها لقوته أو عياله أو قضاء دينه، ثم يجد مشقة وعنتا في ذلك ويعوزه الحال ويحمله على وقوعه في أكل الحرام، وليس من الورع ترك الواجب تركا أعظم فسادا من فعله مع الشبهة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ، ويرى ذلك ورعا ، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور، ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ

علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع)[1]

ومن قلة الفقه في الورع أن يكون المرء ورعا شديدا في باب الأموال متساهلا في باب الدماء أو باب الأعراض أو العكس، ومنهم من يكون ورعا في الدنيا مضيعا للفرائض والواجبات.

المسألة الثالثة: في الحديث دلالة على إحدى القواعد الخمس الكبرى وهي **(أن اليقين لا يزول بالشك)** ، ومعناها إذا تعارض الشك مع اليقين أخذنا باليقين وقدمناه وطرحنا الشك، فإذا تيقن المكلف الطهارة ثم شك في الحدث بنى على اليقين وهو الطهارة، وإذا تيقن الحدث ثم شك في الطهارة بنى على اليقين وهو الحدث.

عن عبد الله المازني أنه (شُكي إلى النبي ﷺ: الرجل يخيل إليه: أنه يجد الشيء في الصلاة؟ قال: لا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا) [2]

ولمسلم (إذا وجد أحدكم في بطنه شيئا فأشكل عليه: أخرج منه شيء أم لا؟ فلا يخرجن من المسجد حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا)[3]
وكذلك إذا طرأ عليه الشك في سائر العبادات وعقود المعاملات والأنكحة استصحب الأصل وبني على اليقين وطرح الشك.

قاعدة ثانية: (إذا تعارض شك ويقين قدم اليقين)
يقول العلماء لو شك في عدد الغسلات في الوضوء أو عدد الركعات في الصلاة أو عدد السجدات أو في الطواف سبعة أشواط يبني على اليقين وهو الأقل، لأننا لو قلنا هذه الركعة الثالثة ولا الرابعة؟
لو قلنا الرابعة في احتمال خمسين لخمسين في المئة إن كانت الثالثة، فأنت بذلك صليت الصلاة ناقصة لكن لو صليت الرابعة فأنا يقينا صليت الرابعة وأسجد للسهو.

فارق مهم جدا بين الورع والوسوسة:

الشك أمر طارئ لا يتكرر يوميا أما الشك الدائم في الوضوء والصلاة والركعات لا لا أنت إنسان موسوس، هذا كله من الشيطان.

---

[1] مجموع *الفتاوى* المجلد العشرون، ص 48–49
[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الوضوء، باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، حديث رقم 137)، ومسلم في صحيحه كتاب الحيض، باب الدليل على أن من شك في الحدث لم يلزمه الوضوء، حديث رقم 361.
[3] أخرجه مسلم في صحيحه)كتاب الحيض، باب الدليل على أن من شك في الحدث لم يلزمه الوضوء، حديث رقم 361

فالشك أمر طارئ، قد يحدث مرة في عدة أشهر، لكن شخص يشك يوميا فهذا شك مرضي وهو الوسواس، وهذا الامر الشيطان يفتح به باب شر على الانسان، ولذلك لأن هذه المشكلة متفاقمة عند كثير من الناس، أقول: الشيطان لا ينصحك لتصحح صلاتك، هو ينصحك لتكره صلاتك، تتوضأ مرة واتنين وأربعة ... حتى قال لي أحدهم: توضأت سبع مرات، كلما رفعت رجلي أشك ربما خرج ريح، ارجع من الأول، وتكرر المشهد ست مرات وفي المرة السابعة حلفت والله لن أصلي!! فالشيطان يريد أن يكرهك في الصلاة، فتكره ساعة الصلاة وتقعد في الحمام ساعتين وتتوضأ في نصف ساعة، ثم تشك في الفاتحة وتشك في الركوع.

إذا الانسان لا يتكلف الورع في مسائل الوسوسة؛ لأن هذا ليس فيه ورع، هذا ورع كاذب وسوس لك الشيطان به بعد أن تزيى بزي الناصح الامين ليكرهك في الصلاة.
والفاروق عمر بن الخطاب كان يمشي معه رجل فوقع شيء من الميزاب عليه، فقال الرجل: يا صاحب الميزاب ماؤك طاهر ام نجس؟ قال عمر لا تخبره فانه متكلف

وعلي زين العابدين كان إذا أراد قضاء حاجته قال لابنه انتظرني بثياب نظيفة، فيجهز ابنه له ثيابا نظيفة فيغير كل ثيابه، لماذا؟ قال إن الذباب يقف على القذر (البراز) ثم يقف على ثيابه، فلما شق عليه ذلك قال يا بني ألم يكن يصيبهم ذلك؟ (يقصد الصحابة) ألا يسعنا ما وسعهم؟ فتركه.

وذهب رجل للإمام ابن عقيل الحنبلي وقال له إن الشيطان يوسوس لي أني طلقت زوجتي، (مصاب بوسواس الطلاق)، قال ألم تأتني بالأمس وطلقت زوجتك أمامي؟ قال كلا، قال بلى جئتني بالأمس وطلقت زوجتك، قال كلا والله العظيم ما حدث، قال فإن جاءك الشيطان يوسوس لك بذلك فأقسم له بالله العظيم كما أقسمت لي.

وقال بعض العلماء إن جاءك الشيطان في صلاتك فقال تطيلها رياء فزدها طولا.

موقف لرجل أصابه وسواس الرياء:

قال لي أحد الإخوة: أنا آتي عند باب المسجد، ثم ارجع البيت!! قلت له لماذا؟
قال: تأتيني وسوسة أني جئت من أجل أن يراني الناس، وهذا رياء، والرياء يحبط العمل!! فارجع إلى البيت، قلت له: يا أخي كل الناس جاءت تصلي في المسجد، كلنا مسلمون والحمد لله، جئنا نقيم الشعيرة، والأصل في الفرائض الإعلان، انما في التطوع ما في داعي تعرف الناس، صلاة التطوع، قيام الليل، صلاة الضحى، صيام الاثنين والخميس.

والوسوسة تصل ببعض الناس إلى أن يهلك نفسه ويتعب نفسه زمنا طويلا، وسوسة في العقيدة وسوسة في البيع والشراء، وفي الحسابات والارقام ووسوسة في العبادة. فموضوع الوسوسة لا علاقة له بالحديث **دع ما يريبك الى ما لا يريبك**، إنما الوسوسة من الشيطان ليصدك بها عن الصلاة وعن العبادة، ويبغضها اليك، فتصير ساعة الصلاة من أشد الساعات عليك للمشقة التي تصاحبها.

إذن (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) أي الأمر الذي فيه يقين، اثبت عليه، والأمر الذي فيه شك حاول أن تتأنى حتى تحكم عليه بوضوح، التأني وعدم العجلة من الأمور التي يحبها الله عز وجل.

وهذا ما قاله النبي لأشج عبد القيس قال: ان فيك خصلتان يحبهما الله، الحلم والأناة (من التأني والحكمة)[1]

المسألة الرابعة: إذا تعذر معرفة اليقين عمل المكلف بغلبة الظن وهو الظن الراجح بالقرائن ويطرح الشك لأنه اتقى الله ما استطاع وبذل ما وسعه.

وهذه القاعدة لها نظائر وصور في الشرع كالتحري في طهارة الماء والتحري في استقبال القبلة والتحري في عدد الركعات حال الشك والتحري في تمييز الثوب الطاهر والتحري في تعيين الفوائت والديون والزكوات والأيمان والنذور والحقوق الواجبة.

المسألة الخامسة: سلك بعض الفقهاء بناء على هذا الحديث وغيره مسلك الاحتياط في المسائل التي كثر النزاع فيها فإذا تردد الحكم في المسألة بين الإباحة والتحريم قالوا بالكراهة خروجا من الخلاف وأكثروا من تعليل الأحكام بذلك.

والتحقيق أن العمل بالاحتياط ليس دليلا شرعيا يبني عليه الأحكام ويوجب الكراهة لأن الكراهة حكم شرعي يفتقر إلى دليل من الكتاب والسنة وإنما يسوغ للفقيه أن يتوقف في المسألة، ويكف عن العمل بها إذا قويت عنده الشبهة، وتعارضت الأدلة ولم يقو عنده مرجح فحينها لا يلزم أحدا بقوله وإنما يوصيه به ويكون هذا من باب الورع واتقاء الشبهات.

ومن فهم هذا الأصل زال عنه كثير من الإشكالات الواقعة في كلام الأئمة واتضح له وجه تصرفات كثير من السلف الذين غلبهم الزهد والورع في كثير من المسائل.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب وفد عبد القيس، حديث رقم 12)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، حديث رقم 17

أما ما ثبت من الرخصة في السنة وليس لها معارض صحيح أو لم يكن عمل الأمة على خلافها فينبغي على الفقيه أن يعمل بها ولا يجتنبها لمخالفة إمامه أو غيره من العلماء لها فإنه ربما لم تبلغهم هذه الرخصة أو قام سبب آخر عندهم لتركها.
أما إن عارضها سنة أقوى منها أو عمل بها الشذوذ واشتهر عمل الأمة على خلافها تعين تركها والأخذ بعمل الأمة.

المسألة السادسة: الورع مراتب والناس يتفاضلون فيه كما يتفاضلون في الإيمان. ويكون تمام الورع مرضيا من الذين استقامت نفوسهم بفعل الواجبات وترك المحظورات أما من يغشى الكبائر ويجاهر بها ويفرط في بعض الواجبات ثم يسعى لترك الشبهات فهذا ورع كاذب مظلم مشكوك فيه.

وقد أنكر ابن عمر رضي الله عنه على من سأله عن دم البعوض من أهل العراق وقال يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين، **وسمعت رسول الله ﷺ يقول (هم ريحانتاي من الدنيا).**

وسأل رجل بشر بن الحارث عن رجل له زوجة وأمه تأمره بطلاقها فقال "إن كان بر أمه في كل شي ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فليفعل وان كان برها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل".

المسألة السابعة: كان السلف الصالح رحمهم الله يستعملون الورع فيما اشتبه عليهم حتى صار شعارا لهم في سلوكهم من أسهل الأمور عليهم، ومما ورد في ذلك :
عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: " تمام التقوى ترك بعض الحلال خوفا أن يكون حراما "

ويقول الفضيل بن عياض رحمه الله: " يزعم الناس أن الورع شديد، وما ورد عليّ أمران إلا أخذت بأشدهما، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك "

وعن أبي إسماعيل المؤدب قال: جاء رجل إلى العمري فقال: " عظني "، قال: فأخذ حصاة من الأرض فقال: زنة هذه من الورع يدخل قلبك، خير لك من صلاة أهل الأرض.

ومما ورد في سير من كانوا قبلنا، ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (اشترى رجل من رجل عقارا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: " خذ ذهبك مني؛ إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب "، وقال الذي له الأرض: " إنما بعتك الأرض وما فيها " فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: " ألكما ولد؟ " قال

أحدهما: " لي غلام "، وقال الآخر: " لي جارية "، قال: " أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدقا)[1]

ما يستفاد من هذا الحديث:

1. **هذا الحديث قاعدة عظيمة في الورع**، ومعناه ترك ما يوقع في الشك والقلق إلى ما يورث اليقين والطمأنينة.
2. **الريب هو الشك والتردد**، فإذا اشتبه على المسلم أمر بين الحلال والحرام، فالأولى أن يتركه إلى ما يعلم حِلَّه وسلامته.
3. **الورع الحقيقي هو ترك ما يضر في الآخرة أو يُخشى ضرره**، ويدخل فيه ترك الحرام وترك الشبهات الموصلة إليه.
4. **الورع ليس خاصًا بالأموال فقط**، بل يدخل في العبادات، والمعاملات، والجنايات، والأعراض، وسائر أبواب الدين.
5. **الورع يحتاج إلى فقه وبصيرة**، فليس من الورع ترك شيء يترتب على تركه مفسدة أعظم أو وقوع في حرام محقق.
6. **من الخطأ أن يكون الإنسان شديد الورع في باب ومتساهلًا في أبواب أعظم**، كمن يتورع في المال ويتساهل في الدماء أو الأعراض أو الفرائض.
7. **من القواعد المستفادة: اليقين لا يزول بالشك**، فمن تيقن الطهارة وشك في الحدث بقي على طهارته، ومن تيقن الحدث وشك في الطهارة بقي على حدثه.
8. **إذا تعارض الشك واليقين قُدّم اليقين**، ولذلك يبني المسلم في الصلاة والوضوء والطواف ونحوها على الأمر المتيقن.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب اللقطة، باب إذا وجد لقطة فليعرّفها)، ومسلم في صحيحه كتاب اللقطة، باب استحباب تعريف اللقطة سنة ثم التصدق بها لمن خاف عدم معرفتها.

9. **هناك فرق مهم بين الورع والوسوسة؛** فالشك الطارئ يعالج باليقين، أما الشك الدائم المتكرر فهو وسواس لا يُلتفت إليه.
10. **الوسوسة ليست ورعًا،** بل هو من الشيطان ليبغّض العبد في الصلاة والطهارة والعبادة.
11. **لا ينبغي التكلف في الأسئلة والاحتياطات المبالغ فيها،** كما أنكر عمر رضي الله عنه السؤال عن ماء الميزاب هل هو طاهر أو نجس.
12. **معنى الحديث ليس فتح باب الوسوسة،** بل الانتقال من الشك الحقيقي إلى اليقين، ومن التردد إلى الطمأنينة.
13. **الاحتياط ليس دليلًا شرعيًا مستقلًا يُلزم الناس،** وإنما هو مسلك شخصي عند قوة الشبهة أو تعارض الأدلة دون ترجيح واضح.
14. **الورع مراتب، والناس يتفاضلون فيه كما يتفاضلون في الإيمان،** ولا يكون الورع كاملًا إلا بعد المحافظة على الواجبات وترك المحرمات.
15. **من يترك الشبهات مع وقوعه في الكبائر أو تفريطه في الواجبات فهذا ورع كاذب،** لأن الورع يبدأ بترك الحرام وأداء الفرائض.
16. **الخلاصة الجامعة** :المسلم يترك ما يوقعه في الريبة إلى ما يطمئن إليه قلبه، مع الاعتماد على العلم واليقين، لا على الوسوسة والتكلف، ومع تقديم الواجبات وترك المحرمات قبل التوسع في دقائق الشبهات.

****

الحديث الثاني عشر

مِنْ حُسْنِ إسلام

المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ

(12) مِنْ حُسْنِ إسلام المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ:

(مِنْ حُسْنِ إسلام المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ) [1]

منزلة هذا الحديث

قال العلماء هذا الحديث أصل في تأديب النفوس وتهذيبها بعدم تضييع الأوقات فيما لا جدوى ولا فائدة منه، وطبيعة الإنسان أنه اجتماعي مرتبط بمن حوله، فقد يتساءل بدافع الفضول عن أشياء لا تفيده، معرفتها لا تنفعه ولا تضره، فعلمنا النبي ﷺ أن من مظاهر حسن الإسلام وكماله أن تترك ما لا يعنيك.

شرح الحديث

(من حسن إسلام المرء) من كمال إسلامه.

(تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيْهِ) ما لا يعنيه :ما لا يُهِمُّه، من العناية وهي الاهتمام بالشيء، عناه الامر احتاج اليه واهتم به وتعلق به، إذن فمن حسن إسلام المرء أن تكون أقواله وأفعاله فيما فيه فائدة، وما ليس فيه فائدة ولا احتياج ولا ينبني عليه عمل يتركه ولا يتكلفه.

وهذا يشمل كل ما لا يعنيك أي الشيء الزائد عن المطلوب، بأن أسأل شخص عن حاله وعن عمله وراتبه وبكم اشتريت هاتفك أو سيارتك، وماذا اكلت، وماذا شربت؟ كل هذا يدخل في باب الفضول أي الشيء الزائد عن الحد، ويشمل كل ما كان زائدا في الكلام، أو في الافعال أو في الاستماع، وفي كل ما لا ينبني عليه فائدة.

يقول تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ﴾ [طه: 131]: يقول الشيخ السعدي في التفسير «أي: لا تمد عينيك معجبا، ولا تكرر النظر مستحسنا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة - القوم الظالمون، ثم تذهب

---

[1] سنن الترمذي في كتاب الزهد باب ما جاء في ترك ما لا يعنيه حديث رقم 2318 وأخرجه سنن ابن ماجه في كتاب الفتن باب كف اللسان حديث رقم 3976 وقال الترمذي حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

سريعا، وتمضي جميعا، وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارا، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملا» [1]

ومفهوم المخالفة من الحديث أن من يتدخل في أمور غيره وفيما لا يعنيه فهذا من سوء إسلامه، فمن حسن الإسلام ترك ما لا يعنيك، ومن سوء الإسلام السؤال عما لا يعنيك،

وقال ابن القيم رحمه الله: (وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة، فقال: **(من حسن إسلام المرء: تركُه ما لا يعنيه)**، فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه كلمة شافية في الورع) [2]

وينبغي أن يُعلم أن الضابط الصحيح لترك ما لا يعني هو الشرع، لا مجرد الهوى والرأي، لذلك جعله النبي ﷺ أمارة على حسن إسلام المرء، فإن البعض يدع أمورا قد دلّت عليها الشريعة، بدعوى أنها تدخّل في شؤون الآخرين، فيعرض عن إسداء النصيحة للآخرين، ويترك ما أمره الله به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بحجة احترام الخصوصيات، وكل هذا مجانبة للشرع، وبعد عن هدى النبوة؛ فإنه ﷺ كان تاركا لما لا يعنيه، ومع ذلك كان ناصحا مرشدا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، عاملا بأمر الله في حلّه وترحاله.

وتكلم المسلم فيما لا يعنيه يؤدي إلى عواقب وخيمة منها:

1- أنه يتنافى مع حسن إسلام المرء :فالمسلم الحق هو الذي يترك ما لا يعنيه في القول والفعل؛ فذلك دليل على حسن إسلامه .

2- أنه يؤدي بالإنسان إلى التجسس والغيبة :فاهتمام المرء بما لا يعنيه يجعل من الفضل عنده حب التجسس على الناس وتتبع عوراتهم، بل إلى اغتيابهم، ولقد حذرنا الله تعالى من ذلك فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحجرات: 12]

وعن نافع عن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع فقال يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته

---

[1] «تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن» (ص516)

[2] مدارج السالكين.(2/ 22)

ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله، قال ونظر ابن عمر يوما إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: (ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك.)[1]

3- أنه يؤدي بالإنسان إلى قساوة القلب ووهن البدن وتعسير الرزق.

قال مالك ابن دينار: إذا رأيت قساوة في قلبك ووهنا في بدنك وحرمانا في رزقك فاعلم بأنك تكلمت بما لا يعنيك فكلام الشخص فيما لا يعنيه يقسى القلب ويوهن البدن ويعسر أسباب الرزق.

وعن الفُضَيْل بن عياض رضي الله عنه قال: مَنْ عَدّ كلامَه من عمله قلّ كلامُه فيما لا يعنيه.
وقال الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله لصاحبه الرَّبِيع: يا ربيعُ! لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلَّمتَ بالكلمة ملكتكَ ولم تملكها .

4- أنه يُسمع الإنسان ما لا يرضيه :وقال الناس قديما: " من تتدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه"

ولما ولي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وكانت أول خطبة خطبها ثم قال: أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن أحداً، ولا يعترض فيما لا يعنيه. فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله. [2]

5- يجعل المرء مبغضا من الناس ثقيلا العلاقات، ناس لا تحب من يدس أنفه في خصوصياتهم ، فيكون ثقيلا عليهم ، لا يتحملون مجالسته ، ولا ينصتون إلى حديثه، فينبغي عدم إيذاء الناس بالأسئلة الفضولية، لأن من الناس يهتم بخصوصيته، فإذا سألته فهو مخير بين أمرين، أما أن يغلظ عليك ويقول هذا ليس شأنك فأنت يصيبك في نفسك شيء وتحزن، أو أنه يكذب وهذا طبعا غير مراد، حتى قال العلماء إن من أسباب فتور العلاقات بين الناس وتنافرها هذه المسألة، وهذا الأمر موجود بكثرة عند النساء أكثر من الرجال للأسف،

---

[1] أخرجه سنن الترمذي في كتاب البر والصلة باب ما جاء في تعظيم المسلم حديث رقم 2032 وأخرجه سنن أبي داود في كتاب الأدب باب في الغيبة حديث رقم 4880 وقال الترمذي حديث حسن غريب وصححه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح أبي داود.
[2] الكامل في التاريخ 371/2.

فهذه المسائل تؤدي إلى الفتور في العلاقات ، لأن الناس تكره الشخصية الفضولية، فيبتعدون عنه حتى يصل الحال إلى ضعف العلاقات بين المسلمين.

6- فيه مضيعة للوقت فيما لا يفيد :فمن حسن إسلام المرء إعراضه عما لا منفعة له فيه دينا ولا دنيا، إعراضه عن ذلك تركه ما لا يعنيه، وهذا يجري في كل التصرفات في الكلام، لا تتكلم ولا تفعل إلا ما فيه خير ومنفعة، فالاشتغال بما لا يعني الإنسان، وما لا خير له فيه، وما لا مصلحة فيه، هو من الاشتغال بما لا يعنيه، فيه ضياع وقت.

وخلاصة القول:

الحديث فيه إرشاد لما فيه حفظ وقت الإنسان من الضياع، ودينه من الصوارف التي تصرفه عن المسارعة في الخيرات، والتزود من الصالحات، مما يعين العبد على تزكية النفس، وتربيتها على معاني الجد في العمل، نسأل الله تعالى أن يعيننا على حسن استغلال الأوقات، وأن يجنبنا فضول الملذات، إنه جواد كريم.

الفوائد من الحديث:

1. **هذا الحديث أصل عظيم في تهذيب النفس** وحفظ اللسان والوقت عن الفضول.
2. **حسن الإسلام لا يكون بكثرة الكلام والتدخل**، بل بكمال الأدب، وحفظ اللسان، والانشغال بما ينفع.
3. **ترك ما لا يعني يشمل القول والفعل والنظر والاستماع والتفكير**، وليس خاصًا بالكلام فقط.
4. **من الفضول المذموم** سؤال الناس عن خصوصياتهم: رواتبهم، مشترياتهم، طعامهم، حياتهم الخاصة، وما لا حاجة للسؤال عنه.
5. **الاشتغال بما لا يعني الإنسان يدل على نقص في حسن إسلامه**، لأن حسن الإسلام يدفع صاحبه إلى الجد والانتفاع بالوقت.
6. **الضابط في ترك ما لا يعني هو الشرع لا الهوى**؛ فلا يجوز ترك النصيحة أو الأمر بالمعروف بحجة أن ذلك "لا يعنيني".

7. **الكلام فيما لا يعني قد يجر إلى التجسس وتتبع العورات**، وهذا باب خطير نهى الله عنه.
8. **من تدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه**، ويجعل صاحبه ثقيلًا مبغوضًا عند الناس، لأن الناس تنفر ممن يقتحم خصوصياتها..
9. **الحديث يربي المسلم على الجد والعمل النافع**، لا على الفضول والثرثرة والتدخل في شؤون الآخرين.
10. **المسلم العاقل يسأل نفسه قبل الكلام أو السؤال** :هل هذا ينفع ديني أو دنياي؟ هل يترتب عليه عمل؟ هل فيه مصلحة؟
11. **ترك ما لا يعني من الورع**، لأنه يمنع الإنسان من أبواب الغيبة، والظن، والحسد، وتتبع العورات.
12. **الخلاصة الجامعة** :كمال إسلام المرء يظهر في انشغاله بما ينفعه، وتركه للفضول، وحفظه للسانه ووقته وقلبه، مع قيامه بما أوجب الله عليه من نصح وإصلاح وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

****

الحديث الثالث عشر

لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ

حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْه

(13) لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْه

عَنْ أَبِيْ حَمْزَة أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ خَادِمِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ عَن النبي ﷺ قَالَ: (لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) رواه البخاري ومسلم[1]

التعريف براوي الحديث

التعريف بأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ

- هو الصحابي الجليل **أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي** رضي الله عنه، ويُكنى **أبا حمزة**.
- وُلد بالمدينة، وكان من صغار الصحابة سنا، وأمه هي الصحابية الجليلة **أم سليم بنت ملحان** رضي الله عنها.
- اشتهر بلقب **خادم رسول الله ﷺ**؛ لأن أمه أم سليم جاءت به إلى النبي ﷺ وهو صغير، وقالت: يا رسول الله، هذا أنس يخدمك، فقبله النبي ﷺ.
- خدم أنس رضي الله عنه النبي ﷺ نحو **عشر سنوات**، منذ قدوم النبي ﷺ إلى المدينة حتى وفاته.
- كان أنس يقول عن حسن خلق النبي ﷺ معه: **خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟**[2]وهذا يدل على عظيم رحمة النبي ﷺ وحسن تعامله مع الصغار والخدم.
- كان أنس رضي الله عنه من **المكثرين من رواية الحديث**، لأنه لازم النبي ﷺ في بيته وسفره وحضره، فرأى من أحواله وأخلاقه وعبادته ما لم يره كثير من الناس.
- روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في العبادات، والأخلاق، والآداب، وصفة النبي ﷺ، ومعاملته لأهله وأصحابه.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم 13)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم 45)

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل، رقم 6038. ولفظه :(خدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنين، فما قال لي أُفٍّ، ولا لِمَ صنعتَ، ولا ألا صنعت(ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقًا، رقم 2309، بلفظ قريب منه.

- أخذ عنه العلم عدد كبير من التابعين، ومن أشهر من روى عنه :**الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وقتادة، وثابت البناني** رحمهم الله.
- ودعا له النبي ﷺ فقال:"**اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته**"[1]، فكان أنس رضي الله عنه من أكثر الصحابة مالًا وولدًا، وعاش عمرًا طويلًا.
- انتقل في آخر حياته إلى **البصرة**، وكان من آخر الصحابة موتًا بها، فصار مرجعًا لأهلها في حديث رسول الله ﷺ.
- توفي رضي الله عنه سنة **93هـ** على المشهور، وقد قارب أو جاوز المئة من عمره، ودُفن بالبصرة.

شرح الحديث

الحديث السابق كان عن حسن إسلام المرء، أما هذا الحديث فعن كمال الايمان، فعدم التدخل في شأن الاخرين والفضول من حسن الاسلام، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك هذا من كمال الايمان.

قول الرسول ﷺ: (لا يؤمن) هذا نفي لكمال الايمان، أي أنه لا يبلغ الدرجة الكاملة من صور الايمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وفي رواية ابن حبان توضيح لهذا المعنى :**(لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير)**[2].

فالمقصود من قوله ﷺ **(لا يؤمن)** المبالغة، والحث على هذا الفعل، فلن تبلغ أعلى درجات الايمان، حتى يفيض الحب من قلبك على إخوانك، بأن تحب لهم ما تحب لنفسك.

وطبيعة النفس البشرية حب الذات، وهذه غريزة فينا وليست عيبا فأنت تحب نفسك لتلبي احتياجاتها، من الطعام والشراب والملابس ...الخ.

لكن أنت لا تعيش في المجتمع وحدك أنت تعيش مع الناس، والحياة المادية الجافة من أكبر سلبياتها: تمجيد الأنا، وتضخيم الذات أو ورم الذات، (الأنانية)

ولهذا يجب أن تربي أولادك على أن يحب بعضهم بعضا، ولا يجوز لك أن تخص أحدهم بهدية دون الآخر، أو تعطي للذكر دون الأنثى، وكن كالمرأة الأعرابية لما سألوها أي أبنائك أحب اليك؟ قالت: هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب :دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله. ورقمه: " 6378"، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب :من فضائل أنس بن مالك ورقمه.2481 "

(2) أخرجه أحمد في المسند (مسند أنس بن مالك رضي الله عنه)، والترمذي في سننه (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم 2515)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

فكن مع أولادك كلهم على مسافة واحدة منهم، وربهم على العطاء، فالأخ يهادي أخاه، أو يشركه في اللعبة، وفي الحلوى.. الخ، فلا ينشأ الابن على أنه أناني، لا يعرف إلا ذاته، فإذا نشأ على العطاء كإنسان محب لغيره فإنه يكون بذلك مؤمنا حقا.

أسعد الناس في الدنيا:

والإسلام علمنا أن أسعد الناس في هذه الدنيا من يسعد غيره، حتى الأطباء النفسيين الآن يقولون إن من أسباب علاج الاكتئاب العمل الخدمي بزيارة المرضى والعناية بكبار السن أو عمل طعام للفقراء والمشردين.

فأنت إذا أسعدت نفسك فهذا أمر لا يتجاوزك، فإذا أسعدت خمسة، فسعادتك خمسة أضعاف، فإذا أسعدت عشرة فسعادتك عشرة أضعاف، وهكذا.

ولذلك في الغرب لما اكتشفوا هذا الأمر بدأوا يهتمون بالجوانب الانسانية كثيرا، لأن الغرب يدير دفته الرأسمالية والمادية وكل شيء لا بد له من سعر؟ فبدأوا يفكرون في هذا الموضوع، وبدأوا يمجدون المعاني الإنسانية، ويتحدثون عنها إعلاميا .

فأقول: جرب بنفسك أن تدخل ابتسامة على وجه الطفل، جرب أن تسعد جارك، صديقك، أخاك.... جرب هذا ستجد لها مردودا طيبا، لو قلت كلمة طيبة فيها تطييب خاطر لغريب أو حبيب أو بعيد، الكلمة الطيبة لها أثر نفسي كبير.

والرسول ﷺ قال: (أعظم الأعمال سرور تدخله على قلب مسلم) [1] أعظم الاعمال، تخيل! لم يقل أعظم الأعمال أن تصلي كذا وتصوم كذا وتقرأ القرآن كذا ... كلا

وقال :(أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجته أحب إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضىً يوم القيامة ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بلفظ (أحبُّ الأعمالِ إلى الله سرورٌ تُدخِلُه على مسلم)، وله شواهد يتقوّى بها، وقال المنذري :إسناده لا بأس به، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم 176.

الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام وأن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل.) [1]

بعض الناس عنده العكس، أعظم انجازاته أن يدخل الحزن على الناس، ما عنده غير أسوأ الأخبار، سبحان الله، يقول لك فلان مات... حصلت كارثة ... في مصيبة، يا أخي كن من المبشرين أنشر ما فيه منفعة للناس.

وتكره لأخيك ما تكره لنفسك:

مفهوم الموافقة في الحديث :أنه كما تحب لأخيك ما تحب لنفسك، أن تكره لأخيك ما تكره لنفسك.

أي إذا رأيت ضررا يعود على أخيك تحذره وتنصحه وتبين له، إذا رأيت شيئا سيؤذي الناس تحرص على معالجة هذا الأذى.

والرسول ﷺ قال: (بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك في الطريق، فأخَّره، فشكر الله له فغفر له) متفق عليه.[2]

لو أنك وجدت حفرة وقمت بإصلاحها رجاء أن تمنع الأذى عن غيرك أنت لك مكانة عند الله.

وفي الحديث يقول النبي ﷺ (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)،[3]
وقال: (صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد متكأ) [4]

ولنا في رسول الله ﷺ خير أسوة في حب الخير للغير، فهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يدّخر جهدا في نصح الآخرين، وإرشادهم إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة،

---

[1] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (مسند ابن عمر رضي الله عنهما)، والطبراني في المعجم الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقال المنذري :إسناده حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات، وحسَّنه الألباني بمجموع طرقه في صحيح الجامع (حديث رقم 176) وفي السلسلة الصحيحة.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المظالم، باب إماطة الأذى عن الطريق، حديث رقم 2472)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إماطة الأذى عن الطريق، حديث رقم 1914)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير والمعجم الأوسط من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ (صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السوء)، وأخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد، وتعقّبه الذهبي بأن فيه مقال، وقال المنذري :له طرق يشدّ بعضها بعضًا، وحسّنه الألباني بمجموع طرقه في صحيح الجامع (حديث رقم 3795).

[4] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ (صاحبُ المعروفِ لا يقعُ، وإن وقعَ وجدَ مُتَّكأً)، وقال الهيثمي :فيه ضعف، وقال المنذري :إسناده لا يخلو من مقال، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع، ومعناه صحيح تشهد له نصوص الشرع في فضل صنائع المعروف.

فقال لأبي ذر رضي الله عنه :(يا أبا ذر إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم.) [1]

وسلفنا الصالح رحمهم الله، حملوا على عواتقهم هذه الوصية النبويّة، وكانوا أمناء في أدائها على خير وجه، **فها هو ابن عباس رضي الله عنهما يقول: " إني لأمر على الآية من كتاب الله، فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم"** [2]

فالذي يقدر على هذه الخصلة ويقوى عليها المسلم الذي رزق سلامة الصدر وكان قلبه خاليا من الغل والغش والحسد، فمن كان كذلك سره ما سر أخاه وساءه ما ساء أخاه، أما من كان يحمل في قلبه الغل فإنه يمنع من هذا الخير لمنافاته لما في قلبه من السوء، فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير، أو يساويه فيه، لأنه يحب أن يمتاز عن الناس بفضائله وينفرد بها عنهم، والإيمان يقتضي خلاف ذلك، وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير غير أن ينقص منه شيء .

محبة الخير لغير المسلمين:

ويتسع معنى الحديث، ليشمل محبة الخير لغير المسلمين، فيحب لهم أن يمنّ الله عليهم بنعمة الإيمان، وأن ينقذهم الله من ظلمات الشرك والعصيان، ويدل على هذا **ما جاء في الحديث، قال ﷺ :(وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما)** [3]

فليس معنى الحديث منع من فعل المعروف مع غير المسلم، بل نفعل الخير للجميع، المسلم أو غير المسلم المسالم، فيجمعنا رباط الإنسانية.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: 8-9]

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم 1826)

(2) أخرجه الدارمي في سننه (كتاب فضائل القرآن، باب من بلّغ علماً)، وهو أثر مشهور ثابت عنه، يدل على كمال نصحه وحبه الخير للناس.

(3) أخرجه أحمد في المسند (مسند الشاميين من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه)، والطبراني في المعجم الكبير، قال المنذري :إسناده حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (حديث رقم 1207).

الطماطم الفاسدة قتلت ابنه:

حدثني رجل كان يعمل في قرية، اعتاد أهلها الزراعة داخل الصوبات ليؤمِّنوا الخضرة للناس طوال العام.
وفي صباحٍ يوم، لفت نظره مشهدٌ غير عادي.
رجلٌ في منتصف العمر، أمامه كميات كبيرة من الطماطم الناضجة، يمسك بخشبةٍ غليظة، ويهوي بها عليها واحدةً تلو الأخرى، حتى تتساقط مهروسة على الأرض.
توقف مشدوهاً... أمعقول هذا؟
اقترب منه وقال بلهجةٍ امتزج فيها الغضب بالدهشة: يا رجل، حرام عليك! إن لم تردها فدعها للفقراء والمساكين، لماذا تُفسد رزق الله؟
لم يرفع الرجل رأسه، وقال ببرودٍ بحسرة: خليك بحالك، أنت لا تعرف شيئًا.
ازداد استغرابه وألحّ عليه قائلا :كل هذه الكميات تفسدها؟ والله حرام عليك !!!
تنهّد الرجل متوجعا، وأسند الخشبة إلى الأرض، ثم قال بصوتٍ خافت كأنه يعترف بذنبٍ ثقيل:
أنا صاحب هذه الصوبة... وهذه الطماطم كنا نعالجها بمادة كيميائية، ليتغيّر لونها بسرعة إلى اللون الأحمر لتباع في أول الموسم بسعرٍ أعلى.
سكت قليلاً، ثم تابع وعيناه تلمعان بالدمع: لم نكن نعلم... أو كنا نتغافل... أن هذه المادة تُسبب السرطان.
خفض رأسه وقال: كنت أبيعها للناس... وأُدخلها إلى بيتي... حتى أصيب ابني بالسرطان منها.
لم نكتشف الحقيقة إلا متأخرًا، حين كان المرض قد انتشر في جسده، وتدهورت حالته فمات!!
هل فهمت الآن لم أقوم بإفساد الطماطم؟

فوائد الحديث:

1. **المقصود بقوله ﷺ: «لا يؤمن» نفي كمال الإيمان، لا نفي أصل الإيمان**؛ أي لا يبلغ المؤمن كمال الإيمان الواجب حتى يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه.
2. **الإيمان ليس عبادات فردية فقط**، بل يظهر أثره في القلب والسلوك والعلاقات الاجتماعية.
3. **محبة الإنسان لنفسه غريزة فطرية ليست مذمومة**، لكن الكمال أن يترقى المسلم من حب الخير لنفسه فقط إلى حب الخير لإخوانه.

4. **الإسلام يعالج الأنانية وتمجيد الذات،** ويُربي المسلم على العطاء، والمشاركة، والإحساس بالآخرين.
5. **ينبغي تربية الأبناء على محبة الخير لبعضهم،** وعدم تفضيل أحدهم بالعطايا بغير حق؛ لأن ذلك يزرع الحسد والأنانية.
6. **العدل بين الأولاد من وسائل غرس المحبة بينهم،** فلا يُخص ذكر دون أنثى، ولا ولد دون آخر إلا لمسوّغ معتبر.
7. **من علامات كمال الإيمان أن يفرح المسلم بنعمة أخيه كما يفرح بنعمة نفسه.**
8. **أسعد الناس من يسعد غيره؛** لأن إدخال السرور على الناس يعود على القلب بسعادة أوسع من السعادة الفردية.
9. **إدخال السرور على المسلم من أحب الأعمال إلى الله،** ويدخل فيه تفريج الكرب، وقضاء الدين، وإطعام الجائع، وقضاء الحوائج.
10. **النفع المتعدي أعظم أثرًا من النفع القاصر؛** فكلما اتسع نفع الإنسان للناس زادت بركة عمله وسعادته.
11. **كما تحب لأخيك الخير، يجب أن تكره له الشر والضرر؛** وهذا من مفهوم الحديث ومعناه الكامل.
12. **محبة الخير للغير تقتضي النصيحة الصادقة،** فإذا رأيت أخاك على ضرر أو طريق مؤذٍ، نصحته برفق وصدق.
13. **سلامة الصدر شرط مهم لتحقيق هذا الحديث؛** فمن امتلأ قلبه بالحسد والغل صعب عليه أن يحب الخير للناس.
14. **الحسد يناقض كمال الإيمان؛** لأن الحاسد يكره أن يساويه غيره في الخير أو يسبقه إليه.

15. **الإيمان يربي القلب على المشاركة لا الاحتكار**، فيحب المؤمن أن ينال الناس من الخير مثل ما نال، دون أن ينقص ذلك من رزقه شيئًا.
16. **محبة الخير لا تقتصر على المسلمين فقط من كل وجه**، بل يحب المسلم لغير المسلمين الهداية والإيمان والنجاة من الضلال.
17. **يجوز الإحسان إلى غير المسلم المسالم وبره والقسط معه**.
18. **المسلم يجمع بين الولاء لدينه والرحمة بالخلق**، فيحب الهداية للناس، ويحسن لمن لم يحاربه أو يظلمه.
19. **الخلاصة الجامعة** :كمال الإيمان أن يخرج المسلم من ضيق الأنانية إلى سعة الرحمة، فيحب الخير للناس، ويكره لهم الشر، وينصحهم، وينفعهم، ويكف أذاه عنهم، كما يحب ذلك كله لنفسه، ومن تمام الايمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وأن تكره لأخيك ما تكره لنفسك.

****

الحديث الرابع عشر

لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ

(14) لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ

عنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

(لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِيْ،

وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِيْنِهِ المُفَارِقُ للجمَاعَةِ) [1]

شرح الحديث

(لا يحل دم امرئ مسلم) لا يحل إشارة إلى حرمة النفس، وحرمة الاعتداء عليها، وهذا معنى الحديث الآخر الذي قاله النبي ﷺ، **(كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)** [2]

فمعنى لا يحل دم امرئ مسلم أي انه لا يكن استحلال قتل المسلم إلا بواحدة من هذه الثلاث، فالقتل هنا يكون عقوبة على جريمة فعلها هذا الشخص المحكوم عليه.

إلا بإحدى ثلاث:

الصنف الأول: (الثيب الزاني)

الصنف الثاني: (النفس بالنفس)

الصنف الثالث: (التارك لدينه المفارق للجماعة)

الصنف الأول (الثيب الزاني)

الثيب: تطلق على الشخص البالغ العاقل الذي سبق له الزواج، وتطلق على الرجل والمرأة، فيقال: رجل ثيب وامرأة ثيب، وإن كان الأشهر اطلاقها على النساء، ومعناها: من ثاب إذا رجع، لأن المرأة عندما تتزوج تذهب إلى بيت زوجها، فإذا طلقت عادت إلى بيت أبيها؛ فهي ثيب من ثابت أي: رجعت إلى بيت أبيها.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الديات، باب قول الله تعالى النفس بالنفس، حديث رقم 6878)، ومسلم في صحيحه (كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، حديث رقم 1676)

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، حديث رقم 2564) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)

وهذا الذي يسميه الفقهاء الزاني المحصن، لأن عندنا الزاني نوعان: إما محصن أو غير محصن؛ فالزاني غير المحصن الذي لم يسبق له الزواج هذا إذا وقع في الزنا بين الله حده بسورة النور فقال: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ **[النور: 2]**

أما الزاني المحصن فعقوبته الرجم حتى الموت، والحكمة من تشريع الرجم أن كل أعضاء الزاني قد استمتعت وتلذذت بالحرام، فجعلت العقوبة تطهيرا له بأن يعاقب البدن كله بهذا الرجم، وفيه معنى العظة والعبرة حتى لا يقع الناس في مثل هذا الذنب.

وثبوت حد الزنا، فيه كلام طويل في كتب الفقه، ومن الصعوبة أن يقام الحد بشهادة الشهود الأربعة فغالبا لن يقام إلا على **من اعترف وأقر بنفسه**؛ كما في حادثة ماعز وكما في حادثة المرأة الغامدية.

ففي الحديث عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال:" جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهرني.
فقال: ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه.
قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني.
فقال رسول الله ﷺ: ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه.
قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني.
فقال النبي ﷺ: مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله: فيم أطهرك؟، فقال: من الزنى.
فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: أشرب خمرا؟ فقام رجل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر، قال، فقال رسول الله ﷺ: أزنيت؟ فقال: نعم، فأمر به فرجم.
فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة.
قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز بن مالك، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال، فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم."
قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد، فقالت: يا رسول الله، طهرني، فقال: ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه.
فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك، قال: وما ذاك؟

قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: آنت؟ قالت: نعم.
فقال لها: حتى تضعي ما في بطنك، قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت.
قال: فأتى النبي ﷺ، فقال: قد وضعت الغامدية، فقال: إذا لا نرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من يرضعه، فقام رجل من الأنصار، فقال: إلى رضاعه يا نبي الله.
قال: فرجمها "[1]

الحالة الثانية: أن يشهد أربعة شهود من الرجال كل واحد يشهد أنه رأى حالة جماع بين رجل وامرأة في الحرام، وهذه شبه مستحيلة، وهناك قصة مشهورة في عهد سيدنا عمر لما اتهموا رجلا بالزنا فشهد ثلاثة وتردد الرابع، فلم يؤكد كلامه فأقام عمر بن الخطاب على الأربعة حد القذف.

والإسلام قبل أن يؤسس لهذه العقوبة فإنه شجع الحلال ويسر الزواج، وعندنا الأحاديث **كقوله ﷺ (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)** [2]

فرغب الإسلام في الزواج ويسر فيه، ورغب في العفة ورغب في الطهارة، وأعان على ذلك بما فرض من تشريعات، فمن تهيأ له جو العفة والزواج والإحصان وآثر إلا أن يخوض في مستنقع الرذيلة فإنه يقام عليه الحد.

الصنف الثاني: (النفس بالنفس)

فمن قتل يقتل كما هو معلوم، والله عز وجل قال: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ **[البقرة: 179]**
وكانت العرب تقول: القتل أنفي للقتل، فجاء القرآن ليقول: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾ كيف يكون في القصاص حياة؟

معناها أن من علم أنه إن قتل سيقتل ماذا سيفعل؟ سيفكر ألف مرة قبل أن يفعلها، وبالتالي سيبقي على حياته وحياة من يريد قتله، هذا أمر.

الأمر الثاني: يحدث في بعض البلاد أن القاتل إذا لم يقتل بجريمته يبقى ما يعرف بالثأر، وهذا كان موجودا إلى وقت قريب عندنا في جنوب مصر في الصعيد، فكان القاتل يسجن عشر سنين أو عشرين سنة ثم يخرج إلى الحياة ويبقى الثأر، بل إن العزاء لا يقام إلا إذا أخذوا بالثأر لهذا المقتول، فإذا أقيم الحد، وهو القصاص على

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث رقم 1691)
[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب النكاح، باب من استطاع الباءة فليتزوج، حديث رقم 5066)، ومسلم في صحيحه (كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، حديث رقم 1400)

القاتل فإننا بذلك نبقي على الحياة، حياة القاتل قبل أن يقتل، وحياة عائلته بعدم تعريض أفرادها للخطر.

وربما تعجبون معي عندما نقرأ قول الله تعالى :﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾ **[المائدة: 32]**

والمعنى: أن من استحل أن يقتل نفسا بريئة فكأنما استحل دماء أهل الأرض جميعا، ومن احترم حرمة النفس البشرية وراعى هذا الأمر فلم يقتل ولم يستحل الدم فكأنما أحيا الناس جميعا، فوجود القتل سبب لانتشار الفوضى واشتعال نار الحروب الأهلية، واحترام الحياة واحترام حرمة الغير بعدم الاعتداء عليه، هذا يبقي الناس على خير وعلي صلاح، فالقتل مفسدة واحترام النفس حياة للجميع.

ومن ثبت عليه تهمة قتل نفس بريئة بغير حق فإنه أمام إحدى ثلاث: إما القصاص فمن قتل يقتل وإما الدية يدفع دية لأهل القتيل ويرضون بها مائة ناقة ، أوما يساويها من المال، وإما العفو فيعفو أهل القاتل قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ **[البقرة: 178]**
وحذر الله من أن يكون العفو غدرا أي يعفو أمام الناس أو أمام القضاء وفي نيته الغدر فيقتل القاتل بعد أن يعلن العفو عنه أو قبوله الدية.

الصنف الثالث: (التارك لدينه المفارق للجماعة)

وأعداء الإسلام يتكلمون عن هذا الأمر من باب التشنيع على الإسلام وعلي شريعة الإسلام، فيقولون معلقين: وأين الحرية الدينية؟
النبي ﷺ قال: (التارك لدينه) ولم يسكت النبي ﷺ بل قال: (المفارق للجماعة)

ورب العالمين قال في محكم التنزيل: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ **[البقرة: 256]**
كما أنت على عقيدتك، لكن مع بقائك على عقيدتك لا تحارب المسلمين ولا تمنع الناس من الدخول في الإسلام، فلا إكراه في الكفر، ومن هنا كانت المواجهة بين الحق والباطل، وكانت المواجهات العسكرية بين المسلمين والمشركين، وكان هناك من ينضم لمعسكر الإسلام مثل قبيلة خزاعة مسلمين وغير مسلمين انضموا في حلف مع المسلمين، ومن كان يفارق الإسلام ويعلن ردته كان يفر إلى المشركين وهذا ما يعرف الآن باسم الخيانة العظمى، رجل ترك أمته ووطنه الذي يعيش فيه

وفر إلى أعداء هذا الوطن، بماذا نسمي هذا؟ هذا يعرف في كل قوانين العالم بالخيانة العظمى.

ماذا لو أن شخصا ترك دينه ولم يفارق الجماعة ولم يخن ولم يفر؟

هذا لا يقربه أحد كما سنفصل لكن رجلا ترك دينه، وخان أمته، وفر إلى عدوه فهو التارك لدينه، المفارق للجماعة، هاتوا في أي قانون من قوانين العالم عقوبة الخائن لأمته في حالة حرب، كيف تكون عقوبته؟ في أغلب قوانين العالم إن لم تكن الإعدام فإنها تكون بالسجن مدى الحياة.

كيف يكون تاركا لدينه؟

أي ارتد عن الدين، دخل الإسلام عن اقتناع، ثم ترك الدين بخلل في الاعتقاد، قال قول كفر أو فعل فعل كفر واعتقده.... قال أنا لست مؤمنا بلا إله إلا الله، أنا كافر بلا إله إلا الله، أنا عندي الآلهة 365 صنما كما كان المشركون يعبدون، أو استهزأ بالرسول – ﷺ أو القرآن، أو خرج من دائرة الدين كلها وقال أنا ملحد..... الخ.

فمن قال الكفر ولم يعتقده لا يحكم بردته، وعندنا حديث الرجل الذي ضلت راحلته وعليها زاده وطعامه نام نومة وقد أيقن بعدها بالموت، فلما استيقظ وجد الراحلة فوق رأسه، ماذا قال؟ قال اللهم أنت عبدي وأنا ربك، يقول النبي ﷺ أخطأ من شدة الفرح.
فهذا الرجل قال الكفر ولم ينوه ولم يقصده ولم يعتقده، واعتذر النبي ﷺ له قال أخطأ من شدة الفرح، فهذا لا يسمى كافرا.

وكذلك من أكره على الكفر؛ كقصة عمار بن ياسر، التي نزل فيها قوله تعالى :﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: 106]** فهذا لا يسمى كافرا.

أيضا قبل الحكم بكفره وما يترتب عليه تكلم العلماء عن موضوع إزالة الشبهة بأن يجلس العلماء مع هذا الشخص إن كان لديه شبهات فيوضحون له ما حدث عنده من لبس، أو سوء فهم.

مسألة :هل الردة جريمة سياسية تمثل في الخروج على نظام الدولة أم جريمة عقدية تدخل ضمن جرائم الحدود؟

أو بتعبير آخر :هل الردة حد من حدود الله فمن ارتد عن الاسلام يقتل؟ أم هي مسألة تعزيرية يعود تقديرها لولي الامر؟

أولا ما الفرق بين الأمرين؟

الخلاف دائر حول مسألتين:

- **هل الردة جريمة سياسية تمثل في الخروج عن نظام الدولة، ومن ثم يترك للإمام معالجتها بما يناسبها من التعازير أي الجرائم غير المنصوص على عقوبة معينة فيها؟**
- **أم هي جريمة عقدية تدخل ضمن جرائم الحدود التي هي حق الله فلا مناص للإمام من إقامة الحد فيها؟**

يرى فريق كبير من الفقهاء في العصر الحديث أن الردة جريمة لا علاقة لها بحرية العقيدة التي أقرها الإسلام وأنها مسألة سياسية قصد بها حياطة المسلمين، وحياطة تنظيمات الدولة الإسلامية من نيل أعدائها، وأن ما صدر من النبي ﷺ، في شأن الردة إنما هو باعتبار ولايته السياسية للمسلمين، وبذلك تكون عقوبة المرتد تعزيراً لا حداً (أي أنها غير مقدرة عقوبتها متروك تقديرها للإمام أو القاضي).

وأنها جريمة سياسية تقابل في الأنظمة الأخرى بجريمة الخروج بالقوة على نظام الدولة ومحاولة زعزعته وتعالج بما يناسب حجمها وخطرها.

وذهب إلى هذا القول كثير من المحدثين مثل الإمام محمد عبده، والشيخ عبد المتعال الصعيدي، وعبد الوهاب خلاف، وأبي زهرة والشيخ يوسف القرضاوي، والشيخ عبد العزيز شاويش، ومن رجال القانون الدستوري فتحي عثمان، ود. عبد الحميد متولي، ود. محمد سليم العوا.

ويستدلون على ذلك بأن النبي ﷺ قد عفا لدى دخوله مكة عن قوم ارتدوا وتوعدهم بالقتل منهم عبد الله بن أبي السرح الذي كان من كتبة الوحي، ثم ارتد فقبل فيه شفاعة عثمان رضي الله عنه بينما امتنع عن العفو عن آخرين مما له دلالة واضحة على أن الردة جريمة تعزيرية لأن الحدود لا تجوز فيها الشفاعة.

وبما ورد عن عمر بن الخطاب: "أن أنسًا عاد من" تستر" فقدم على عمر، فسأله: ما فعل الستة الرهط من بكر بن وائل، الذين ارتدوا عن الإسلام، فلحقوا بالمشركين؟ قال: يا أمير المؤمنين، قوم ارتدوا عن الإسلام، ولحقوا بالمشركين، قتلوا بالمعركة، فاسترجع عمر (أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون) قال أنس: وهل

كان سبيلهم إلا القتل؟ قال: نعم، كنت أعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا أودعتهم السجن" رواه عبد الرزاق والبيهقي في السنن، وسعيد بن منصور

ومعنى هذا الأثر: أن عمر لم ير عقوبة القتل لازمة للمرتد في كل حال، وأنها يمكن أن تسقط أو تؤجل، إذا قامت ضرورة لإسقاطها أو تأجيلها، والضرورة هنا: حالة الحرب، وقرب هؤلاء المرتدين من المشركين وخوف الفتنة عليهم، ولعل عمر قاس هذا على ما جاء عن النبي ﷺ في قوله: **" لا تقطع الأيدي في الغزو"**[1]، وذلك خشية أن تدرك السارق الحمية فيلحق بالعدو.

وهناك احتمال آخر: وهو أن يكون رأي" عمر" أن النبي ﷺ حين قال:**" من بدل دينه فاقتلوه"**[2] قالها بوصفه إمامًا للأمة، ورئيسًا للدولة، أي أن هذا قرار من قرارات السلطة التنفيذية، وعمل من أعمال السياسة الشرعية، وليس فتوى وتبليغًا عن الله، تلزم به الأمة في كل زمان ومكان وحال، فيكون قتل المرتد وكل من بدل دينه، من حق الإمام، ومن اختصاصه وصلاحية سلطته، فإذا أمر بذلك نفذ، وإلا فلا؛ على نحو ما قال الحنفية والمالكية في حديث **"من قتل قتيلاً فله سلبه"**[3] وما قال الحنفية في حديث: **(من أحيا أرضًا ميتة فهي له)**[4] [5]

أما الدكتور محمد سليم العوا: فيضيف لنا بعدًا أصوليًّا جديدًا في النظر لحديث ابن عباس، وهو أقوى حديث للاستدلال في قتل المرتد حدًّا؛ حيث رأى أن الأمر في قوله ـ ﷺ: **"فاقتلوه"** ليس للوجوب، وإنما هو للإباحة لوجود قرائن صارفة للأمر من الوجوب إلى الإباحة، ومن ثم تكون العقوبة تعزيرية موكولة إلى الإمام، ومن هذه القرائن:

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الحدود، باب في تأخير الحدود في الغزو، حديث رقم 4408) من حديث بسر بن سعيد عن بعض أصحاب النبي ﷺ بلفظ لا تُقطَعُ الأيدي في الغزو، وأخرجه أحمد في المسند، وقال النووي إسناده حسن، وصححه الألباني في إرواء الغليل (رقم 2473).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك دينه فاقتلوه، حديث رقم 3017)

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الخمس، باب من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه، حديث رقم 3142) ومسلم في صحيحه (كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم 1751)

(4) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في إحياء الموات، حديث رقم 3073)، والترمذي في سننه (كتاب الأحكام، باب ما جاء في إحياء الموات، حديث رقم 1378)، وابن ماجه في سننه (كتاب الرهون، باب من أحيا أرضًا ميتة فهي له، حديث رقم 2477)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه بلفظ «من أحيا أرضًا ميتة فهي له»، وقال الترمذي حديث حسن، وصححه الألباني في إرواء الغليل (رقم 2599).

(5) انظر كتاب: "الخصائص العامة للإسلام" الشيخ يوسف القرضاوي رحمه الله ص217

الأمر الأول: أن الأحاديث التي ورد فيها أن رسول الله ـ ﷺ ـ قتل مرتدًّا أو مرتدة أو أمر بأيهما أن يُقتل، كلها لا تصحُّ من حيث السند؛ ومن ثم فإنه لا يثبت أن رسول الله ـ ﷺ ـ عاقب على الردة بالقتل.

الأمر الثاني: **ما رواه البخاري ومسلم من أن "أعرابيًّا بايع رسول الله ـ ﷺ ـ فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فأتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا محمد أقلني بيعتي. فأبى ثم جاءه قال: يا محمد أقلني بيعتي؛ فأبى؛ فخرج الأعرابي، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: "إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها"**[1]

وقد ذكر الحافظ ابن حجر، والإمام النووي نقلاً عن القاضي عياض أن الأعرابي كان يطلب من رسول الله ـ ﷺ ـ إقالته من الإسلام، فهي حالة ردة ظاهرة، ومع ذلك لم يعاقب رسول الله ـ ﷺ ـ الرجل ولا أمر بعقابه، بل تركه يخرج من المدينة دون أن يعرض له أحد.

الأمر الثالث: **ما رواه البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: "كان رجل نصرانيًّا فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران. فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًّا، فكان يقول ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض..."**[2] الحديث، ففي هذا الحديث أن الرجل تنصر بعد أن أسلم وتعلم سورتي البقرة وآل عمران، ومع ذلك فلم يعاقبه النبي ـ ﷺ ـ على ردته.

الأمر الرابع: هو ما وردت حكايته في القرآن الكريم عن اليهود الذين كانوا يترددون بين الإسلام والكفر ليفتنوا المؤمنين عن دينهم ويردوهم عن الإسلام، قال تعالى: **"وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"** (آل عمران: 72).

وقد كانت هذه الردة الجماعية في المدينة والدولة الإسلامية قائمة، ورسول الله ـ ﷺ ـ حاكمها، ومع ذلك لم يُعاقب هؤلاء المرتدين الذين يرمون ـ بنص القرآن الكريم ـ إلى فتنة المؤمنين في دينهم وصدهم عنه.
وليس من اليسير علينا أن نسلم مع وجود هذه الوقائع المتعددة للردة، ومع عدم عقاب الرسول ـ ﷺ ـ للمرتدين في أي منها، بأن عقوبة المرتد هي القتل حدًّا؛ إذ من

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي خبثها، حديث رقم 1883)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب المدينة تنفي خبثها، حديث رقم 1382)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم 3617)

خصائص الحدود ـ كما قدمنا ـ وجوب تطبيقها كلما ثبت ارتكاب الجريمة الموجبة لها.[1]

فوائد هذا الحديث:

1. **الأصل في دم المسلم الحرمة والعصمة**، فلا يجوز الاعتداء عليه.
2. وجوب احترام دم المسلم وعصمته مادام أنه قد أظهر الإسلام فلا يحل لأحد أن يتعرض له بالقتل مهما فعل من الذنوب أو أخل بالواجبات أو ضيع من الحقوق إلا إذا فعل ما يوجب قتله بأحد هذه الثلاث الواردة بالحديث.
3. حرم الله الزنا لأن فيه فساد الأنساب، وحرم القتل لأن فيه فساد المجتمع، وحرم الردة والرجوع عن الإسلام لأن المرتد يخرج عن دائرة أمته التي ينتمي إليها وينضم إلى عدوها فيكون قد جمع بين الردة والخيانة العظمى.
4. الحث على التزام جماعة المسلمين وعدم مفارقتهم.
5. شرع الله الحدود لردع الجناة، ولحماية المجتمع ووقايته من الجرائم.
6. **اشتراط أربعة شهود في الزنا يجعل التثبت شديدًا جدًا**، ومن لم يكتمل نصاب شهادته قد يعاقب بحد القذف.
7. **الإسلام قبل أن يقرر العقوبة شجّع الحلال ويسّر الزواج والعفة**، فليس مقصوده العقاب، بل حماية المجتمع من الفاحشة بعد فتح أبواب الحلال.
8. من قتل نفسًا بريئة بغير حق استحق القصاص إذا ثبتت الجريمة بشروطها.
9. **إقامة القصاص تمنع دوامة الثأر والفوضى**، لأن ترك القاتل بلا قصاص قد يفتح باب الانتقام بين العائلات والقبائل.
10. **قتل النفس الواحدة بغير حق جريمة عظيمة**، ومن استحل دم إنسان بريء فكأنما استحل دماء الناس جميعًا.

---

[1] في أصول النظام الجنائي الإسلامي للدكتور محمد سليم العوا ص152

11. **أهل القتيل لهم ثلاثة خيارات عند ثبوت القتل العمد** :القصاص، أو قبول الدية، أو العفو، وهذا من رحمة الشريعة وتخفيفها.
12. **العفو لا يجوز أن يكون غدرًا**، فلا يصح أن يعلن أهل القتيل العفو أو قبول الدية ثم يقتلوا الجاني بعد ذلك.
13. **الشرع يفرق بين مجرد تغير الاعتقاد وبين الخيانة ومفارقة الجماعة في حالة صراع أو حرب**، ويقرب ذلك بما يسمى في القوانين الحديثة بالخيانة العظمى.
14. **من ترك دينه ولم يخن الجماعة ولم يحاربها فالمسألة محل تفصيل**، وليس لأفراد الناس التعرض له، بل الأمر مرده للقضاء والسلطة المختصة.
15. **الردة المقصودة تكون بقول أو فعل أو اعتقاد يخرج من الإسلام عن قصد واختيار**، كإنكار أصل التوحيد، أو الاستهزاء الصريح بالله، أو رسوله، أو القرآن.
16. **قبل الحكم على الشخص بالردة تُزال عنه الشبهة**، فيجلس معه أهل العلم لبيان ما وقع عنده من لبس أو سوء فهم.
17. **الخلاصة الجامعة** :الحديث يقرر عصمة دم المسلم، وأن الاستثناءات الثلاثة ليست فوضى للأفراد، بل أحكام قضائية منضبطة، مقصودها حماية الدين والنفس والمجتمع، مع التثبت الشديد، ورفع الشبهات، ومراعاة مقاصد الشريعة.

****

الحديث الخامس عشر

من كان يؤمن

بالله واليوم الآخر

(15) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) رواه البخاري ومسلم.

شرح الحديث

هذا الحديث النبي ﷺ يرشدنا فيه إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول/ حفظ اللسان.

الأمر الثاني/ إكرام الجار.

الأمر الثالث/ إكرام الضيف.

وقد علق النبي ﷺ هذه الثلاثة بقوله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) لماذا؟
قال العلماء: المقصود هنا كمال الإيمان بالله واليوم الآخر لأن هذه الأعمال من جملة الإيمان، وليس المقصود أن من تركها خرج من الإيمان.

وهذا يسميه العلماء من باب المبالغة في الدعوة لهذه الأفعال، كما أقول: مثلا أي طبيب في الدنيا لا يجهل أسباب كذا، أي مهندس في الدنيا لا ينبغي أن يجهل كذا، فهنا النبي ﷺ يقول أي مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا وكذا.

فكما تقول لابنك: إن كنت ابني فاسمع كلامي، فهل لو عصاك فليس ابنك؟ كلا، فالمقصود إن كنت ابني حقا، ابني البار ابني الصالح.

فهذا هو المقصود الحث أو التحريض على فعل هذه الثلاثة أشياء، والنبي ذكرها بصيغة المضارع

(من كان يؤمن) إشارة إلى أنها ليست أفعال يفعلها الإنسان وتنتهي إنما دوام فعلها.

(**واليوم الآخر**) سمي يوم القيامة باليوم الآخر لأنه لا ليل بعده، وأهل الجنة كيف ينامون؟ لا نوم في الجنة.

ولما سئل النبي ﷺ أينام اهل الجنة؟ قال: (لا النوم أخو الموت.)[1]

لماذا قال النبي (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) فذكر هذا الركن من أركان الإيمان ولم يذكر غيره؟

لأن اليوم الآخر مرتبط بالجزاء على الأعمال، لأن من كان يؤمن بالله فهو الأمر الناهي سبحانه وتعالى وهو المشرع، وكذلك يؤمن العبد بأن هناك يوم سيجازى العباد على أعمالهم خيرا أو شرا، فليفعل كذا وكذا وكذا.

الأمر الأول/ حفظ اللسان

(فليقل) فليقل اللام الساكنة للأمر كقوله تعالى: **(وليطوفوا)**، واللام المفتوحة تكون للتأكيد كقوله: **(لتدخلن)**، والمكسورة تكون للتعليل، كقوله: **(ولتبتغوا)** ولام الأمر الأصل فيها السكون ويجوز هنا فيها الكسر لأنها سبقها حرف الفاء، **(فليقل أو فليقل)**، بالسكون أو الكسر.

(فليقل خيرا أو ليصمت) أي قل كلاما تثاب عليه أو كلاما مباحا، فإذا تكلمت تكلم بخير، فإذا لم تجد خيرا فلا تنطق بالشر، كالغيبة والسب والكذب ...الخ.

وفي الحديث (رحم الله امرءا تكلم فغنم أو سكت فسلم) [2]فاعبد الله صامتا إن كان الخير في الصمت، واعبد الله متكلما إن كان الخير في الكلام.

ويقول الرسول ﷺ: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه".[3]

---

[1] رواه الترمذي في سننه كتاب صفة الجنة (باب ما جاء في صفة الجنة) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، ورواه كذلك الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان بأسانيد فيها ضعف، وقد ضعفه جماعة من أهل الحديث لاضطراب طرقه وانفراد بعض رواته، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، إلا أن الشيخ الألباني جمع طرقه وشواهده وحكم عليه بالصحة بمجموعها، فقال: صحيح، وصححه في صحيح الجامع الصغير (رقم 6807)، وذكره في السلسلة الصحيحة، وبيّن أن ضعف الإسناد المفرد ينجبر بتعدد الطرق.

[2] أخرجه مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه كذلك سنن الترمذي وقال: حديث حسن، ورواه المعجم الأوسط للطبراني بألفاظ متقاربة، وقال المنذري :إسناده حسن، وحسنه النووي في الأذكار، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (حديث رقم 3939)

[3] أخرجه الإمام أحمد في مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث رقم 13048، وأخرجه المعجم الكبير للطبراني حديث رقم 85، وأخرجه شعب الإيمان للبيهقي حديث رقم 6496، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم 5624، وذكره في السلسلة الصحيحة حديث رقم 284.

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: (من صمت نجا) [1]

من صمت أي: سكت عن الشر **نجا**: أي: فاز وظفر بكل خير، أو نجا من آفات الدارين.

ومن أقوال السلف:

- **وعن إبراهيم بن أدهم، قال: "كان يقال ليس شيء أشد على إبليس من العالم الحليم، إن تكلم تكلم بعلم وإن سكت سكت بحلم"**
- **وقال لقمان لابنه: "يا بني، إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك".**
- **وقال بعض السلف: "إذا جالست الجهال فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم؛ فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم"**
- **وسأل رجل حكيما فقال: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت، فقال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام.**
- **وأخذ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه بطرف لسانه وقال: (هذا الذي أوردني الموارد)**
- **وعن على رضي الله عنه قال: (بكثرة الصمت تكون الهيبة)**

ما الفرق بين الصمت والسكوت؟

الصمت أن تمتنع عن الكلام مع القدرة عليه، إنما السكوت هو عدم الكلام لا يوجد نية للكلام، عندما يسمع المسلمون الخطبة يوم الجمعة فإن هذا يسمى صمت، أي واحد منهم قادر أن يتكلم لكنه صامت لأنه يحب أن يسمع ويستفيد ويتعلم وهكذا، وهذه من دقائق اللغة لكن من الممكن استعمال كل منهما محل الآخر فيأتي الصمت بمعنى السكوت والسكوت بمعنى الصمت في كلام الناس.
فهنا التأكيد في لزوم الصمت فهذا أفضل من الثرثرة وفضول الكلام، وقول الخير أفضل من الصمت.

---

[1] أخرجه مسند الإمام أحمد في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم 6643، وأخرجه سنن الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، حديث رقم 2501، وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم 6365

إذن المعنى: من إذا أراد أن يتكلم؛ فإن كان ما يتكلم به خيرا محققا يثاب عليه فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح ؛ فعلى هذا يكون الكلام المباح مأمورا بتركه، مندوبا إلى الإمساك عنه؛ مخافة من انجراره إلى المحرم أو المكروه، وهذا يقع في العادة كثيرا أو غالبا، فالنبي ﷺ يرشدنا إلى قول الخير أو السكوت، ولو كان مباحا، والحكمة – والله أعلم – لأن الكلام في المباحات يجر إلى المنهيات، فأرشد ﷺ إلى أن ينظر الإنسان فيما يقوله، فإن كان خيرا تكلم به، وإن كان سوى ذلك أمسك، وبهذا ينال كمال الإيمان.

والعكس بالعكس، فإن كثيرا من الناس جره لسانه إلى كثير من المهالك، فاستعمله إما في التنازع والتخاصم، أو السب، أو الشتم، أو الكذب، أو الغيبة، أو النميمة، أو الشهادة بالزور، أو قول المنكر، أو الفحش، أو البذاءة، أو الاستهزاء والسخرية، أو الفرية أو نحو ذلك من الآفات، وإن سلم من أكثرها، فلن يسلم من الاسترسال في الكلام المباح وفضوله، الذي يفسد القلب، والله المستعان.

فالمؤمن الصادق هو الذي يعيش في حذر دائم من فلتات لسانه، فيجعل عمله كثيرا وكلامه قليلا، وذلك خير له، فكثير الكلام يندم على كثرة كلامه، ولن يندم صامت على صمته في الغالب؛ فالعمل يكثر أو يقل بمقدار كثرة الكلام أو قلته؛ فكثير الكلام قليل العمل، وقليل الكلام كثير العمل، ومن الحكم الطيبة: **"الكلام كالدواء؛ إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل".**

والصمت ينقسم إلى قسمين:

صمت محمود: أي أن تصمت عن كل ما حرم الله ونهى عنه، مثل الغيبة والنميمة والبذاءة وغيرها، وكذلك الصمت عن الكلام المباح الذي يؤدي بك إلى الكلام الباطل.

وصمت مذموم :كالصمت في المواطن التي يتطلب منك أن تتكلم فيها، مثل الأماكن التي ترى فيها المنكرات، وكذلك الصمت عن نشر الخير، وكتم العلم.

وقال الغزالي رحمه الله : فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان ، من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهي سباقة إلى اللسان ، لا تثقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان ، فيطلقه بما يحب ، ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غوامض العلم – كما سيأتي تفصيله – .ففي

الخوض خطر، وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته.
هذا ، مع ما فيه من جمع الهم ، ودوام الوقار ، والفراغ للفكر والذكر والعبادة ، والسلامة من تبعات القول في الدنيا، ومن حسابه في الآخرة، فقد قال الله تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) [1]

الأمر الثاني/ إكرام الجار

قال: (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره) ووردت في بعض الروايات (فليحسن إلى جاره)، ووردت (فلا يؤذي جاره)، فربما تعددت مواطن قول النبي ﷺ للحديث أو هو من رواية الحديث بالمعنى.

من هو الجار؟

الجار هو جار السكن، وورد في بعض الآثار أن كل أربعين دارا فهو جارك، والمقصود هنا الاقرب فالأقرب من أبناء المكان الواحد، أو الحي الواحد كما نقول، وقد حده عليُ رضي الله عنه بقوله: **(من سمع النداء فهو جار)**

ولعل الأرجح والله أعلم: أن من تعارف الناس على تسميته بالجار يسمى كذلك، وله حق الجوار أما الأحق بحقوق الجوار: فقد حدده لنا النبي ﷺ، في حديث عائشة رضي الله عنها – أنها قالت: **(قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك بابا)** [2]

الوصية بالجار:

وضع الإسلام نظاما فريدا للعلاقات والصلات الاجتماعية، فهي قائمة بالتراحم والتعاطف، والتكافل والتكاتف، وعلى التعاون على البر والتقوى، والتناهي عن الإثم والعدوان، ومن عظمة حق الجوار أوصى به الكريم سبحانه، وأنزله في كتابه العزيز، مقترنا بأوجب الواجبات وهو الأمر بعبادته وحده لا شريك له، فقال عز وجل: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا**﴾ [النساء: 36]
وقوله: ﴿والجار ذي القربى﴾ أي الذي بينك وبينه قرابة، **﴿والجار الجنب﴾** الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقوله: **﴿والصاحب بالجنب﴾** هو جليسك في الحضر، ورفيقك في السفر.

---

(1) إحياء علوم الدين.(3/ 111112)
(2) صحيح البخاري في كتاب الأدب، باب :إلى أقربهما بابًا، حديث رقم 6020

وقد وردت أحاديث كثيرة في شأن الجار نذكر بعضها:

1-عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" [1]

أي أن جبريل يقول للنبي ﷺ كثيرا ذكر أمتك بالإحسان إلى الجار، لدرجة أن النبي يقول من كثرة وصية جبريل بالإحسان إلى الجار ظننت أنه سينزل بوحي من الله أن الجار يرث في جاره.

2- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره". [2]

3-وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: (إن خليلي ﷺ أوصاني: إذا طبخت مرقا فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف) [3]

4-وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه) [4]

5-وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: (كيف لي أن أعلم إذا أحسنت وإذا أسأت؟ قال النبي ﷺ: إذا سمعت جيرانك يقولون: أن قد أحسنت فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت فقد أسأت) [5]

6-ولقد تعلم الصحابة رضي الله عنه من الرسول ﷺ حسن معاملة الجيران، فقد ذبحت شاة لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، فجعل يقول لغلامه: (أهديت لجارنا اليهودي؟ أهديت لجارنا اليهودي؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[6]

---

[1] صحيح البخاري في كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، حديث رقم 6014، وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم 2624

[2] أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار والصحبة، حديث رقم 1944، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وأخرجه مسند الإمام أحمد في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، حديث رقم 7039، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم 3267

[3] أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم 2625

[4] أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في كتاب الإيمان، حديث رقم 7304 وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم 5382

[5] أخرجه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حديث رقم 3600 وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم .271

[6] أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجار، حديث رقم 1943، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد للإمام البخاري، حديث رقم 105 وقال الألباني في تحقيقه صحيح.

7-ويقول النبي ﷺ: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه) [1]

8-وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: هي في النار، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار من الأقط أي بالقطع ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: هي في الجنة) [2]

9-**وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو جاره، فقال: اذهب فاصبر، فأتاه مرتين أو ثلاثا، فقال: اذهب فاطرح متاعك في الطريق، فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره، فجعل الناس يلعنونه أي: يلعنون ذلك الجار المؤذي فيقولون: فعل الله به وفعل وفعل، فجاء إليه جاره فقال له: ارجع لا ترى مني شيئا تكرهه)** [3]

ومما نقل عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: (يا بني، قد حملت الحجارة والحديد والحمل الثقيل، فلم أجد شيئا قط أثقل من جار السوء).

أنواع الجيران :دلت النصوص الشرعية على أن الجيران ثلاثة:

1- جار له ثلاثة حقوق: وهو الجار المسلم القريب ذو الرحم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة.

2- جار له حقان: وهو الجار المسلم، له حق الجوار، وحق الإسلام.

3- جار له حق واحد: وهو الجار الكافر، له حق الجوار فقط.

ما هو حق الجار؟

1-الإحسان إلى الجار بالقول والفعل.

---

[1] صحيح البخاري في كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم 6016، وأخرجه صحيح مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم إيذاء الجار، حديث رقم 46

[2] أخرجه الإمام أحمد في مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم 9675 وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير حديث رقم 330، وذكره في السلسلة الصحيحة حديث رقم .(190)

[3] أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في حق الجوار، حديث رقم 5153، والبخاري في الأدب المفرد، حديث رقم 111وصححه الألباني في تحقيقه، وحسنه في صحيح الجامع الصغير حديث رقم 624.

2-**تعهده بالهدية بين الحين والآخر:** فالهدية إلى الجار طريق إلى المحبة والألفة، وهي تأسر القلب وتملك الفؤاد؛ ولذلك جاءت الأحاديث مصرحة بذلك، منها ماورد **عن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ: (يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك)، وفي رواية: قال أبو ذر – رضي الله عنه: "إن خليلي أوصاني :إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، ثم انظر أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف"**[1]، فمن الإحسان أن تهدي إلى جيرانك ولو شيئا يسيرا؛ فقد أخرج البخاري ومسلم **عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: كان النبي – ﷺ– يقول: (يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فرسن شاة)**[2]، والمعنى: لا تحقرن أن تهدي إلى جارتها شيئا، ولو أنها تهدي إليها ما لا ينتفع به في الغالب"

3-**حل مشكلاته وقضاء مصالحه :كما في الحديث أن النبي – ﷺ– قال: (من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته)**[3]

4-**من حق جارك إذا استقرضك فأقرضه؛** فإذا قدر الله – عز وجل – أن تمر به ضائقة مالية، وأتى إليك ليستقرض منك مالا، فعليك أن تعطيه إن كان معك هذا المال، وعلى الجار أن ييسر على أخيه؛ ليييسر الله عليه، وفي الحديث أن النبي – ﷺ– قال: **(من يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه)**[4]

5-**أن تنصره ظالما أو مظلوما: لقول النبي – ﷺ–: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما)، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوما، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال: (تحجزه أو تمنعه من الظلم؛ فإن ذلك نصره)**[5]

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم 2625)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة، حديث رقم 2566)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب الحث على الهدية ولو بالقليل، حديث رقم 1030)

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم 2442)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم 2580)

(4) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل قضاء حوائج المسلمين، حديث رقم 2699)

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما، حديث رقم 2444)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، حديث رقم 2584) بنحوه.

6- **تعليمه العلم الشرعي**، ومصاحبته إلى المساجد ومجالس العلم، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

7-**زيارته في مرضه، والسؤال عن صحته**، والدعاء له بالشفاء والصبر.

8-**السير في جنازته عند موته**، وتقديم العزاء فيه، والمساهمة في إعداد طعام وتقديمه لأهله.

9- **دعوته إلى المناسبات، مثل:** الأعراس، وحفلات النجاح وغيرها، كذلك تلبية دعوته إلى مناسباته.

10-**ستر عيوبه، وعدم التكلم بها أمام الناس، وحفظ عرضه.**

11- **عدم رمي القاذورات أمام بيته، وإماطة الأذى عنه.**

12-**عدم إيذائه بتطاول البنيان عليه**، وعدم رفع الأصوات وإيذائه بها، مثل صوت الأغاني الصاخب.

هل تصح قصة الجار اليهودي للرسول؟

من القصص المشهورة قصة الجار اليهودي الذي كان النبي ﷺ يحسن إليه وكان يؤذي النبي ﷺ، ويضع القمامة والشوك في طريقه.
هذه القصة لا أصل لها في كتب السنة، ولم يذكرها أحد من أهل العلم، وإنما اشتهرت لدى الوعاظ والقصاص من غير أصل ولا إسناد، وفي متنها نكارة، إذ من المستبعد جدا أن يؤذي اليهودي النبي ﷺ في جواره له من غير اعتراض الصحابة ولا دفاعهم عن نبيهم عليه الصلاة والسلام.

أما الحديث الصحيح فهو: عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم!! فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، ﷺ. فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار). رواه البخاري

فأين هذا مما ذكر من أنه كان يؤذي النبي ﷺ؟!! ولا يمنع ذلك أن يكون هذا الغلام جارا للنبي ﷺ.

الأمر الثالث/ إكرام الضيف

قوله: (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) كان العرب قبل الإسلام يحرصون على مكارم الأخلاق، وكانوا يتسابقون إليها ويتفاخرون بها، ويعتبرون

فقدها منقصة وعارا على الرجل لا يكاد يفارقه، ثم جاء الإسلام، وبعث الله نبيه محمدا ﷺ ليتمم الأخلاق الحسنة التي كانت فيهم وتهذيبها، ومن هذه الأخلاق الحميدة: إكرام الضيف.

وفي السنة جملة من الأحاديث النبوية التي اعتنت بموضوع إكرام الضيف منها:

1- **أنه سبب لنيل التوفيق من الله وتجنب الخزي: ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن خديجة طمأنت النبي ﷺ وأقسمت ألا يخزيه الله أبدا لأجل اتصافه بمكارم الأخلاق، ومنها إكرام الضيف: فقد قالت له: " كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق "** [1]

وتقري الضيف: أي تهيئ له طعامه ونزله.

2-**أنه من أسباب دخول الجنة: فقد قال النبي ﷺ: " يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام "** [2]

3-**أن إكرام الضيف عمل محبوب إلى الله**: ويدل عليه ما جاء عن النبي ﷺ من تعجب الله سبحانه وتعالى من صنيع من أكرما ضيفيهما:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله ﷺ: " من يضم أو يضيف هذا؟ " فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: "ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما، فأنزل الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال رسول الله ﷺ: "من يضم أو يضيف هذا؟" فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني فقال: هيئي طعامك

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم 3) ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم 160)

[2] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في إطعام الطعام وإفشاء السلام، حديث رقم 2485)، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم 5342).

وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: " ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما، فأنزل الله: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} " [1]

قوله: (أصبحي سراجك) أي أوقديه، وقوله: **(فباتا طاويين)** أي بغير عشاء.

من آداب إكرام الضيف:

ورد في السنة عدد من الآداب والأحكام التي ينبغي مراعاتها عند إكرام الضيف، ومن هذه الآداب والأحكام:

1- أن حق الضيف في الضيافة ثلاثة أيام، فإن زاد عليها كانت من المضيف صدقة عليه، **فعن أبي شريح العدوي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته" قيل: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: "يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت "** [2]

قوله: (جائزته يوم وليلة) معناه: أنه يتكلف له إذا نزل به الضيف يوما وليلة فيتحفه ويزيده في البر على ما يحضره في سائر الأيام، وفي اليومين الأخيرين يقدم له ما حضر، فإذا مضى الثلاث فقد مضى حقه فإن زاد عليها استوجب به أجر الصدقة.

2- **ألا يتكلف المضيف لضيفه ما ليس عنده: فعن سلمان رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فدعا له بما كان عنده، فقال: " لولا أن رسول الله ﷺ نهانا، أو لولا أنا نهينا، أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلفنا لك "** [3]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المناقب، باب قول الله تعالى {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة}، حديث رقم 3798)، ومسلم في صحيحه (كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، حديث رقم 2054)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، حديث رقم 6018)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، حديث رقم 47)

[3] أخرجه البخاري في الأدب المفرد (باب ما لا يتكلف للضيف، حديث رقم 545) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

ومعنى الحديث أنه لا يجب عليه إكرام الضيف إلا بما عنده، فإذا لم يكن عنده فضل لم يلزمه شيء، وأما إذا آثر على نفسه فذلك مقام فضل وإحسان وليس بواجب ، وسبب كراهة السلف التكلف للضيف محمول على ما يشق على صاحب البيت مشقة ظاهرة؛ لأن ذلك يمنعه من السرور بالضيف فيضيق به وبحضوره، وربما ظهر عليه شيء من ذلك فيتأذى به الضيف، وليس من إكرام الضيف ما يقوم به بعض الناس من مظاهر الترف والسرف؛ تباهيا ومراءاة للناس، وطلبا للشهرة، سيما وأن كل الأحاديث تدل على أن إكرام الضيف عبادة يبتغى بها وجه الله، بل من مقتضيات الإيمان التي أمر بها الإسلام، فكيف تكون قربة تتحول إلى معصية بالسرف والمخيلة التي تتنافي مع مبدأ التعبد.

3-**أن يقوم على خدمة أضيافه بنفسه،** ويرحب به، ويبتسم في وجهه، ويؤنسه بالحديث ،المقصود بهذا الأدب أن يحرص المسلم إذا نزل به ضيف أن يتولى خدمته بنفسه قدر استطاعته فلا يوكِل الأمر كله لغيره لأن ذلك أبلغ في الإكرام وأقرب إلى إدخال السرور على قلب الضيف وفيه تواضع وحسن خلق ويستحب أن يستقبله بترحيب صادق وكلمات طيبة وأن يلقاه بوجه بشوش وابتسامة لأن حسن الاستقبال أحيانًا أعظم أثرًا من كثرة الطعام ثم يؤنسه بالحديث اللطيف البعيد عن الإحراج أو التكلف فيسأله عن حاله بما لا يثقله ويحدثه بما يطمئنه ويشعره أنه محل ترحيب لا ثِقل ولا كلفة .

من فوائد الحديث:

1. **الحديث جمع ثلاث خصال عظيمة من خصال كمال الإيمان** :حفظ اللسان، وإكرام الجار، وإكرام الضيف.
2. **ذكر اليوم الآخر لأن الإيمان به يذكّر العبد بالجزاء والحساب،** فيراقب كلامه ومعاملته للناس.
3. **حفظ اللسان من أعظم علامات الإيمان،** فالمؤمن لا يتكلم إلا بخير، أو يصمت عن الشر والفضول.
4. **استقامة اللسان مرتبطة باستقامة القلب والإيمان،** فلا يستقيم قلب العبد حتى يستقيم لسانه.

5. **الصمت المحمود عبادة إذا كان عن الشر أو عن كلام يجر إلى باطل،** وليس كل صمت محمودًا.
6. **الصمت المذموم هو السكوت في موضع يجب فيه الكلام،** مثل كتم العلم، أو السكوت عن المنكر عند القدرة والحكمة.
7. **الإسلام عظّم حق الجار وجعله ضمن منظومة الرحمة والتكافل الاجتماعي،** وقرنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين.
8. **كثرة وصية جبريل بالنبي ﷺ بالجار تدل على عظم حقه،** حتى ظن النبي ﷺ أن الجار سيجعل له نصيبًا في الميراث.
9. **خير الناس في الجوار من كان خيرًا لجاره،** فحسن الجوار معيار مهم في صلاح الإنسان وأخلاقه.
10. **لا يكتمل إيمان من يؤذي جاره،** ولو كان كثير الصلاة والصيام والصدقة؛ لأن أذى الجار خطر عظيم.
11. **إكرام الضيف من مكارم الأخلاق التي جاء الإسلام بتأكيدها وتهذيبها،** وهو من دلائل الإيمان بالله واليوم الآخر.
12. **إكرام الضيف لا يعني التكلف المرهق ولا السرف ولا المراءاة،** بل يكرمه الإنسان بما عنده، ومن آثر على نفسه فذلك فضل لا واجب.
13. **من تمام إكرام الضيف حسن الاستقبال وخدمته قدر الاستطاعة،** والترحيب به، والابتسام في وجهه، ومؤانسته بالحديث اللطيف.
14. **الخلاصة الجامعة** :كمال الإيمان يظهر في ضبط اللسان، وكف الأذى، والإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف بلا تكلف ولا رياء، فهذه أخلاق تحفظ الدين والمجتمع وتبني المحبة بين الناس.

****

الحديث السادس عشر

لا تغضب

(16)لا تغضب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: (لا تغضب).

رواه البخاري، وفي رواية لغير البخاري قال: (لا تغضب ولك الجنة)

وفي رواية الإمام أحمد في المسند: قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ، ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله) مسند أحمد[1]

شرح الحديث

ما المقصود بهذه الوصية؟

كان الصحابة يتميزون بحرصهم على الخير، فكانوا يسألون النبي ﷺ عن كل كبيرة وصغيرة، فكثر طلب الصحابة من النبي ﷺ أوصني، فكان النبي ﷺ يعطي لكل واحد وصية تناسبه، لان النبي ﷺ كان معلما وهاديا ومربيا صلوات ربي وتسليماته عليه، فكان يعطي لكل واحد وصية تفيده، وتعينه، فهذا الرجل لعله كان من أبرز صفاته السلبية الغضب، فالنبي قال له: **(لا تغضب)**، والمقصود هنا الغضب المذموم.

هل يوجد غضب محمود؟

أي نعم عندنا غضب محمود، وهو الذي يحمد فاعله، وهو الغضب الذي يكون لله، وكان النبي ﷺ إذا غضب لا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله، فهذا غضبه ﷺ، وهذا هو ما يستحق الغضب.

الغضب المباح:

أيضا عندنا الغضب المباح، لو شتمك شخص، فمن الطبيعي أن تغضب، لكن ليكن غضبا منضبطا، لأن الإنسان إذا اشتد غضبه وصل إلى مرحلة من مراحل الندم، وهذا هو الغضب المذموم، الذي نبه النبي ﷺ الرجل عليه.

فمعنى الوصية إذا غضبت فلا تغضب غضبا يدفعك إلى ارتكاب الحماقات التي لا تحمد عقباها، **ولذلك النبي ﷺ قال ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد من يملك**

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم 6116) وأخرجه أحمد في المسند (مسند أبي هريرة) بزيادة (لا تغضب ولك الجنة)، وجاء عند أحمد أيضًا من قول السائل (ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله)، وقال الحافظ ابن حجر إسناد الزيادة حسن، وصحح أصل الحديث الألباني في صحيح الجامع.

نفسه عند الغضب) [1]، والصرعة هي رياضة المصارعة، وكانت رياضة مشهورة قديما عند العرب؛ فالقوي الشديد هو من تستفزه زوجته ويصل لمرحلة الطلاق ويكظم غضبه، أو يحتد عليه زميله في العمل أو جاره يسبه، فمن حق هذا الشخص أن يغضب، لكن لا يصل به الغضب لمرحلة التهور والحماقة.

وقوله ﷺ: (لا تغضب) يشمل معنيين:

1- أن يتجنب المرء الوقوع في الغضب ابتداء أو يقلل منه وذلك بأن يعمل بالأسباب التي توجب حسن الخلق من الحلم والكرم والحياء والتواضع وكف الأذى والصفح والعفو والطلاقة وغير ذلك فإن المرء إذا تحلى بذلك لم يحصل منه الغضب عند وجود أسبابه.

2- ألا يعمل بمقتضى الغضب إذا وقع فيه، بل يجاهد نفسه على ترك ما يأمر به الغضب فإن الغضب إذا ملك الإنسان كان الآمر الناهي له، ولهذا قال الله عز وجل في وصفه: ﴿**وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ**﴾ [الأعراف: 154]
فإذا لم يطع المرء غضبه فيما يأمره به وسكن عنه الغضب كان كأنه لم يغضب كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**﴾ **[الشورى: 37]**

علاج سرعة الغضب

1- الاستعاذة بالله من الشيطان:

عن سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ، ورجلان يستبّان، فأحدهما احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه!! فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد) [2]

أوداجه (عرقين بجانبي الرقبة)

2- السكوت:

قال رسول الله ﷺ: (إذا غضب أحدكم فليسكت) [3]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم 6114)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث رقم 2609)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم 6115)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث رقم 2610)

(3) أخرجه أحمد في المسند (مسند الأنصار، حديث أبي ذر رضي الله عنه)، وأبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، حديث رقم 4782) بلفظ (إذا غضب أحدكم فليسكت)، وقال المنذري إسناده حسن، وحسنه النووي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم 693).

وذلك أن الغضبان يخرج عن طوره وشعوره غالباً فيتلفظ بكلمات قد يكون فيها كفر والعياذ بالله أو لعن أو طلاق يهدم بيته، أو سب وشتم – يجلب له عداوة الآخرين. فبالجملة: السكوت هو الحل لتلافي كل ذلك.

3- تغيير الهيئة التي هو عليها:

قال رسول الله ﷺ: (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع)[1]، ومن فوائد هذا التوجيه النبوي منع الغاضب من التصرفات الهوجاء، لأنه قد يضرب، أو يؤذي؛ بل قد يقتل، وربما أتلف مالاً ونحوه، لأن القائم متهيء للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيشبه أن يكون النبي ﷺ إنما أمره بالقعود والاضطجاع لئلا يبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد.

4- الوضوء:

عن عطية السعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :(إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[2] ، ومن الجهة الطبية يقول الأطباء: إن الغضب يصاحبه فوارن الدم، والماء يطفئ هذه الفورة ويكسر حدتها.

5-لا تغضب ولك الجنة:

فتذكر ما أعد الله للمتقين الذين يتجنبون أسباب الغضب ويجاهدون أنفسهم في كظمه ورده وهذا من أعظم ما يعين على إطفاء نار الغضب، ومما ورد من الأجر العظيم في ذلك قوله ﷺ: **(من كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة). وقال عليه الصلاة والسلام أيضا: (من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء)** [3]

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، حديث رقم 4782)، وأحمد في المسند (مسند أبي ذر الغفاري رضي الله عنه) وقال المنذري إسناده حسن، وحسنه النووي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم 694).

(2) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، حديث رقم 4784)، وأخرجه أحمد في المسند، وقال المنذري :إسناده حسن، وحسنه النووي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم 693).

[3] أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب كظم الغيظ من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه بلفظ (من كظم غيظًا ولو شاء أن يُمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضًا يوم القيامة)، وأخرجه أبو داود في سننه بلفظ مقارب (من كظم غيظًا وهو قادر على أن يُنْفِذَه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيّره من الحور

6-التأسي بهديه ﷺ في الغضب:

قالت عائشة رضي الله عنها: (ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها)[1]

وفي صحيح مسلم: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يُجاهد في سبيل الله)[2]

وكان ﷺ حليما مع أهله وخدمه؛ قال أنس رضي الله عنه: (خدمت النبي ﷺ عشر سنين، والله ما قال أف قط، ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا) [3]

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ (ما بين العنق والكتف) وقد أثرت بها حاشية البرد، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء) [4]

ومن التأسي بالنبي ﷺ أن نجعل غضبنا لله، وإذا انتهكت محارم الله، وهذا هو الغضب المحمود فقد غضب ﷺ لما أخبروه عن الإمام الذي يُنفر الناس من الصلاة بطول قراءته، وغضب لما رأى في بيت عائشة ستراً فيه تصاوير، وغضب لما كلمه أسامة في شأن المخزومية التي سرقت، وقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ وغضب لما سُئل عن أشياء كرهها، وغير ذلك؛ فكان غضبه ﷺ لله وفي الله.

7- معرفة أن كظم الغضب من علامات المتقين:

وهؤلاء الذين مدحهم الله في كتابه، وأثنى عليهم رسوله، ﷺ، وأعدت لهم جنات عرضها السماوات والأرض، ومن صفاتهم أنهم: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ**

ما شاء)، وقال المنذري إسناده حسن، وحسنه النووي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، حديث رقم 3560)، ومسلم في صحيحه (كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، حديث رقم 2327)

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، حديث رقم 2328)

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب حسن الخلق، حديث رقم 6038)، ومسلم في صحيحه (كتاب الفضائل، باب خُلُق النبي ﷺ، حديث رقم 2309)

[4] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، حديث رقم 3149)، ومسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة، حديث رقم 1057)

وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]

8- التذكر عند التذكير:

الغضب أمر من طبيعة النفس يتفاوت فيه الناس، وقد يكون من العسير على المرء ألا يغضب، لكن الصدّيقين إذا غضبوا فذكروا بالله ذكروا الله ووقفوا عند حدوده.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه فأذن له، فقال له: يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل (العطاء الكثير) ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه حتى همّ أن يوقع به، فقال الحر بن قيس، (وكان من جلساء عمر): يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال لنبيه، ﷺ: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل (1)

فهكذا يكون المسلم، وليس مثل ذلك الرجل الذي روى قصته سليمان بن صُرَد رضي الله عنه قال كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبّان، وأحدهما قد احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فقالوا له: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون.)(2)

قال العلماء: قوله (إني لست بمجنون) دليل على شدة الكِبر واتباع الهوى، لأن الغضب حالٌ من تزيين الشيطان، ومن ردّ النص في تلك الحال فقد حُرم الدواء، وفيه بيان أن من علامات الغضب المحرم ردّ الحق والتعالي على النصيحة، وأن الاستعاذة من الشيطان من أعظم أسباب زوال الغضب، لكن لا ينتفع بها إلا من سلِم قلبه وانقاد للحق.

9-معرفة مساوئ الغضب:

وهي كثيرة، مجملها الإضرار بالنفس والآخرين، فينطلق اللسان بالشتم والسب والفحش وتنطلق اليد بالبطش بغير حساب، وقد يصل الأمر إلى القتل.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف، باب قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، حديث رقم 4642)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم 6115)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم 2610).

وهذه قصة فيها عبرة:

عن علقمة بن وائل أن أباه رضي الله عنه حدّثه قال: إني لقاعد مع النبي ﷺ إذ جاء رجل يقود آخر بنسعة (حبل مضفور) فقال: يا رسول الله هذا قتل أخي. فقال رسول الله ﷺ، أقتلته؟ قال: نعم قتلته. قال: كيف قتلته؟ قال: كنت أنا وهو نختبط (نضرب الشجر ليسقط ورقه من أجل العلف) من شجرة، فسبني فأغضبني فضربته بالفأس على قرنه (جانب الرأس) فقتلته ... إلى آخر القصة) [1]

وقد يحصل أدنى من هذا فيكسر ويجرح، وكذلك قد يكسر الأواني ويحطم المتاع.
ومن أعظم الأمور السيئة التي تنتج عن الغضب وتسبب الويلات الاجتماعية وانفصام عرى الأسرة وتحطم كيانها، هو الطلاق، واسأل أكثر الذين يطلقون نساءهم كيف طلقوا ومتى، فسينبئونك: لقد كانت لحظة غضب، فينتج عن ذلك تشريد الأولاد، والندم والخيبة، والعيش المرّ، وكله بسبب الغضب.

ولو أنهم ذكروا الله ورجعوا إلى أنفسهم، وكظموا غيظهم واستعاذوا بالله من الشيطان ما وقع الذي وقع، ولكن مخالفة الشريعة لا تنتج إلا الخسارة.
وما يحدث من الأضرار الجسدية بسبب الغضب أمر عظيم كما يصف الأطباء كتجلّط الدم، وارتفاع الضغط، وزيادة ضربات القلب، وتسارع معدل التنفس، وهذا قد يؤدي إلى سكتة مميتة أو مرض السكري وغيره. نسأل الله العافية.

10- تأمل الغاضب نفسه لحظة الغضب:

لو قدر لغاضب أن ينظر إلى صورته في المرآة حين غضبه لكره نفسه ومنظره، فلو رأى تغير لونه وشدة رعدته، وارتجاف أطرافه، وتغير خلقته، وانقلاب سحنته، واحمرار وجهه، وجحوظ عينيه وأنه يتصرف مثل المجانين لأنف من نفسه، واشمأز من هيئته ومعلوم أن قبح الباطن أعظم من قبح الظاهر، فما أفرح الشيطان بشخص هذا حاله! نعوذ بالله من الشيطان والخذلان.

11- الدعاء:

القضاء، المؤمن دائماً يطلب من ربه أن يخلصه من الشرور والآفات والأخلاق الرديئة ، ويتعوذ بالله أن يتردى في هاوية الكفر أو الظلم بسبب الغضب ، وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام : **(اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الإخلاص في الرضا والغضب ، وأسألك القصد**

[1] رواه مسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات باب قود القاتل (حديث رقم 1681)

في الفقر والغنى وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرّة ولا فتنة مضلّة الله زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين)[1]

الوصية بالحلم والتأني:

النبي ﷺ قال للرجل: (لا تغضب) فكأنه يقول له: عليك بالحلم، عليك بالتأني، فالحلم خلق كريم وخلة محمودة وهو: ترك الغضب، وعدم الانفعال عند الخصومة، ولا يقوى عليه إلا من ملك نفسه وراقب الله في تصرفاته وهو صفة محبوبة إلى الله تعالى.

ولذلك قال رسول الله لأشج عبد القيس: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة) [2]

هل الغضبان يؤاخذ شرعا بآثار غضبه؟

أي نعم الغضبان يؤاخذ شرعا بما يصدر منه من أقوال وأفعال محرمة من سب ولعن ودعاء.

لحديث جابر أن رجلا كان يسير مع النبي ﷺ في بعض غزواته فلعن ناضحا له. فقال رسول الله ﷺ: (انزل عنه فلا تصحبنا بملعون لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم).[3]

ودلت النصوص على أن الغضبان مكلف حال غضبه تنفذ تصرفاته وتصح عقوده ما دام يعقل فيؤاخذ إذا صدر منه كفر، أو قتل نفس، أو إتلاف لمال، ويقع منه الطلاق، والعتاق، والظهار، واللعان، واليمين.

واختلف الفقهاء في وقوع طلاق الغضبان على أقوال، والصحيح أن طلاقه يقع إلا في حالة انغلاق عقله وشدة غضبه بحيث لا يعقل ما يصدر منه، لأن باب العلم

---

[1] أخرجه أحمد في المسند (ج 4 ص 264) والنسائي في كتاب السهو (حديث رقم 1305)، وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (ج 1 ص 524) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحكم عليه الألباني بالصحة في صحيح النسائي وفي السلسلة الصحيحة (حديث رقم 3421)

[2] صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله تعالى (حديث رقم 17)

[3] صحيح مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (حديث رقم 3009)

والقصد قد أغلق عليه كالمكره والطلاق إنما يقع من قاصد له عالم به، لحديث: **(لا طلاق ولا عتاق في إغلاق)** [1]

أما إذا كان غضبه خفيفا أو متوسطا بحيث يشعر ويعقل ما يتلفظ به من الطلاق وغيره فطلاقه نافذ.

ما يستفاد من الحديث:

1. **وصية النبي ﷺ: «لا تغضب» من جوامع كلمه**؛ لأنها تعالج أصلًا عظيمًا من أصول الشر، فالغضب إذا تُرك بلا ضبط جمع على صاحبه أبوابًا كثيرة من المعاصي والندم.
2. **النبي ﷺ كان يعطي كل سائل وصية تناسب حاله**، فلعله علم من حال هذا الرجل سرعة الغضب، فأوصاه بما يصلح قلبه وسلوكه.
3. **الغضب المحمود هو الغضب لله تعالى**، إذا انتهكت محارمه، كما كان النبي ﷺ لا يغضب لنفسه، وإنما يغضب إذا انتهكت حدود الله.
4. **الغضب المباح قد يقع عند الأذى الشخصي**، كمن يُشتم أو يُظلم، لكن الواجب أن يبقى منضبطًا لا يدفع إلى الحماقة أو العدوان.
5. **القوة الحقيقية ليست في الغلبة البدنية**، بل في ضبط النفس عند الغضب.
6. **قوله ﷺ: «لا تغضب» يشمل أمرين** :تقليل أسباب الغضب ابتداءً، وكف النفس عن العمل بمقتضى الغضب إذا وقع.
7. **من أسباب تقليل الغضب التحلي بالحلم والتواضع والحياء والصفح والعفو وكف الأذى**؛ فهذه الأخلاق تضيق مداخل الغضب.
8. **إذا وقع الغضب فلا يجوز أن يكون هو الآمر الناهي للإنسان**، بل يجاهد نفسه حتى لا يتكلم أو يفعل ما يندم عليه.

---

[1] سنن أبي داود في كتاب الطلاق باب في الإغلاق (حديث رقم 2193) وسنن ابن ماجه في كتاب الطلاق (حديث رقم 2046)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (حديث رقم 2040) وفي صحيح أبي داود.

9. **الاستعاذة بالله من الشيطان من أعظم علاجات الغضب؛** لأن الغضب من مداخل الشيطان، والاستعاذة تقطع أثره على القلب.
10. **من مساوئ الغضب أنه يطلق اللسان بالسب والفحش واللعن،** وقد يطلق اليد بالضرب والإتلاف، وربما وصل إلى القتل.
11. **الغضب من أكبر أسباب الطلاق وخراب البيوت،** فكثير من الناس يندمون بعد لحظة غضب أهلكت الأسرة وشتت الأولاد.
12. **الغضب يضر البدن كما يضر الدين،** فقد يسبب ارتفاع الضغط، وتسارع ضربات القلب، وتجلط الدم، وربما أدى إلى أمراض خطيرة.
13. **الحلم ليس ضعفًا،** بل هو قوة نفسية وإيمانية تجعل الإنسان يملك نفسه عند الاستفزاز والخصومة.
14. **الغضبان مؤاخذ شرعًا بما يصدر منه ما دام يعقل ما يقول ويفعل،** فلا يصح أن يجعل الغضب عذرًا لكل سب أو لعن أو اعتداء.
15. **تصرفات الغضبان من طلاق ويمين وظهار ونحوها تقع إذا كان مدركًا لما يقول،** أما إذا بلغ الغضب حد الإغلاق وزوال الإدراك فله حكم آخر عند أهل العلم.
16. **الغضب يجمع الشر كله،** كما فهم الصحابي من وصية النبي ﷺ، لأنه يفسد اللسان، والقلب، والعلاقات، والعبادات، والبيوت.
17. **الخلاصة الجامعة** :المسلم لا يُطلب منه ألا يشعر بالغضب أبدًا، بل أن يملك غضبه، ويستعيذ بالله، ويسكت، ويغير حاله، ويتوضأ، ويتذكر ثواب الحلم، حتى لا يتحول غضبه إلى معصية أو ظلم أو ندم.

****

الحديث السابع عشر

إن الله كتب

الإحسان على كل شيء

(17) إن الله كتب الإحسان على كل شيء

عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته) [1]

التعريف براوي الحديث

- هو الصحابي الجليل **شداد بن أوس بن ثابت الأنصاري الخزرجي** رضي الله عنه، ويُكنى **أبا يعلى**.
- أبوه **أوس بن ثابت** رضي الله عنه، وهو أخو شاعر الرسول ﷺ **حسان بن ثابت** رضي الله عنه، فيكون شداد ابن أخيه.
- أسلم رضي الله عنه في حياة النبي ﷺ، وكان من فضلاء الصحابة، عُرف بالعلم، والعبادة، والزهد، والحكمة.
- كان شديد الخشية لله، كثير البكاء، دائم المحاسبة لنفسه، حتى عُدَّ من كبار العُبَّاد والزهاد من الصحابة.
- نزل بعد وفاة النبي ﷺ في **بلاد الشام**، وسكن مدينة **بيت المقدس**، وكان من علمائها وعبادها.
- توفي رضي الله عنه في **بيت المقدس** سنة **58هـ**.

شرح الحديث

(إن الله كتب الإحسان على كل شيء) الكتابة الواردة في الشرع ضربان:

- **كتابة كونية قدرية وهي ما يقع قدرا لا محالة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21]**
- **كتابة شرعية دينية وهي ما أمر الله به وشرعه لعباده. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178] وقال تعالى: ﴿يَا**

---

[1] أخرجه مسلم في «صحيحه» في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، رقم(1955)

﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183] والمراد هنا الكتابة الشرعية.

إذن فمعنى **(إن الله كتب الإحسان على كل شيء)** أي: أوجب عليكم الإحسان في كل شيء، ولفظ الكتابة يقتضي الوجوب عند أكثر الفقهاء والأصوليين.

(الإحسان) الإحسان لغة بذل المنفعة والخير، واصطلاحا في عرف الشارع يطلق على أمرين:

(1)إيصال النفع إلى الآخرين.

(2)إتمام العبادة وإتقانها. فهو يشمل الإحسان في حق الله والإحسان في حق الخلق.

فالمحسن هو من أحسن في عمله وأحسن إلى غيره.

وقوله: (على كل شيء) تدل على العموم فيدخل في ذلك الإحسان في التعامل مع النفس، والتعامل مع من تحت يده ممن استرعاه الله، ويدخل فيه أيضا التعامل مع الناس، والتعامل مع البهائم والدواب، والتعامل مع غيرها مما يتعاطاه الإنسان أو يتصرف فيه بلون من التصرفات من الجمادات وغيرها.

والمراد الإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب: إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها من غير زيادة في التعذيب، فإنه إيلام لا حاجة إليه.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن صبر البهائم، وهو: أن تحبس البهيمة ثم تضرب بالنبل ونحوه حتى تموت.
ففي الحديث (عن أنس أن النبي ﷺ نهى أن تصبر البهائم)[1]
وعن ابن عمر: أنه مر بقوم نصبوا دجاجة يرمونها، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا .[2]
وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه نهى أن يتخذ شيء فيه الروح غرضا، والغرض: هو الذي يرمى فيه بالسهام.[3]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الذبائح والصيد، باب لا تُصبر البهائم ولا يُمثَّل بها، حديث رقم 5515)، ومسلم في صحيحه (كتاب الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم، حديث رقم 1958).
(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الذبائح والصيد، باب لا تُصبر البهائم ولا يُمثَّل بها، حديث رقم 5513)، ومسلم في صحيحه (كتاب الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم، حديث رقم 1956)
(3) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الذبائح والصيد، باب لا تُصبر البهائم ولا يُمثَّل بها، حديث رقم 5514)، ومسلم في صحيحه (كتاب الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم واتخاذها غرضًا، حديث رقم 1957)

(فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة) أي: أردتم قتل ما يجوز قتله، **و(القتلة)** بكسر القاف، وهي الهيئة والحالة، بأن تختاروا أسهل الطرق وأخفها إيلاما وأسرعها زهوقا.

(وإذا ذبحتم) ما يحل ذبحه من الحيوانات.

(فأحسنوا الذبحة) إحسان الذبح في البهائم: الرفق بها، فلا يصرعها، ولا يجرها من موضع إلى آخر، وإحداد الآلة، وتوجيهها إلى القبلة، والتسمية، والإجهاز، ونية التقرب إلى الله بذبحها، وإراحتها، وتركها إلى أن تبرد، وشكر الله حيث سخرها لنا ولم يسلطها علينا، ولا يذبحها بحضرة أخرى.

والقتلة والذبحة بالكسر، أي الهيئة، والمعنى: أحسنوا هيئة الذبح، وهيئة القتل.
والذبح والنحر يكون فيما يحل؛ أي: فيما يؤكل، ويكون النحر للإبل، والذبح فيما سواها، والنحر يكون في أسفل الرقبة مما يلي الصدر، والذبح يكون في أعلى الرقبة مما يلي الرأس، ولا بد في الذبح والنحر من قطع الودجين، وهما العرقان الغليظان اللذان يجري منهما الدم ويتوزع على بقية البدن؛ **لأن النبي ﷺ قال: (ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه، فكلوا)**[1]، ولا ينهر الدم إلا قطع الودجين، فالشرط في حل المذكى أو المنحور أن يقطع الودجان، أما الحلقوم الذي هو مجرى النفس، والمريء الذي هو مجرى الطعام، فقطعهما أكمل في الذبح والنحر، ولكن ليس ذلك بشرط.
وأما القتل فيكون فيما لا يحل أكله، فيما أمر بقتله، وفيما أبيح قتله، ومما أمر بقتله الفأر، وكذلك العقرب، وكذلك الحية، وكذلك الكلب العقور، فتقتل هذه الأشياء، وكذلك كل مؤذ فإنه يقتل.

وعند العلماء قاعدة تقول: ما آذى طبعا قتل شرعا، أي ما كان طبيعته الأذى فإنه يقتل شرعا، وما لم يؤذ طبعا ولكن صار منه أذية فلك قتله، لكن هذا الأخير مقيد، فلو آذاك النمل في البيت، وصار يحفر البيت ويفسده، فلك قتله وإن كان منهيا عنه في الأصل، لكن إذا آذاك فلك قتله، وكذلك غيره مما لا يؤذي طبعا ولكن تعرض منه الأذية، فاقتله إذا لم يندفع إلا بالقتل؛ فمثلا إذا أردت أن تقتل فأرة – وقتلها مستحب – فأحسن القتلة، اقتلها بما يزهق روحها حالا، ولا تؤذها، ومن أذيتها ما يفعله بعض الناس حيث يضع لها شيئا لاصقا تلتصق به، ثم يدعها تموت جوعا وعطشا، وهذا لا يجوز، فإذا وضعت هذا اللاصق، فلا بد أن تكرر مراجعته ومراقبته، حتى إذا وجدت شيئا لاصقا قتلته.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الذبائح والصيد، باب ما أنهر الدم وذُكر اسم الله عليه، حديث رقم 5503) ومسلم في صحيحه (كتاب الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر، حديث رقم 1968)

أما أن تترك هذا اللاصق يومين أو ثلاثة، وتقع فيه الفارة وتموت عطشا أو جوعا، فإنه يخشى عليك أن تدخل النار بذلك؛ لأن النبي ﷺ **قال: (دخلت النار امرأة في هرة حبستها حتى ماتت، لا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض)**[1]

(وليحد أحدكم) اللام هنا للأمر، ويحد: أي يجعلها حديدة سريعة القطع.

(شفرته) الشفرة: السكين، أي إذا أردت أن تذبح فاذبح بسكين مشحوذة؛ أي: مسنونة، بحيث يكون ذلك أقرب إلى القطع بدون ألم.

وعن ابن عمر، قال: (أمر رسول الله ﷺ بحد الشفار، وأن توارى عن البهائم، وقال: إذا ذبح أحدكم فليجهز أي: **فليسرع الذبح)**[2]

وعن أبي سعيد الخدري قال: مر رسول الله ﷺ برجل وهو يجر شاة بأذنها، فقال رسول الله ﷺ: دع أذنها وخذ بسالفتها والسالفة: مقدم العنق.[3]

وعن ابن سيرين أن عمر رأى رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له: ويلك قدها إلى الموت قودا جميلا.[4]

خروف يسرق السكين:

حكى أحد الأخوة هذه القصة التي حدثت في السعودية قال: كان هناك تاجر غنم وعنده طلب ذبح كمية من الأغنام ، فأمسك بالسكين وأخذ يذبحها واحد تلو الآخر وبينما هو يذبح جاءه أحد الزبائن يتكلم معه فوضع السكين، وأخذ معه في الكلام حتى انتهى من الحديث معه، فلما أراد أن يرجع ليباشر ذبح الخراف لم يجد السكين وأخذ يبحث عنه في كل مكان فقال له أحد الرعاة وكان قريبا منه إن أحد الخرفان أخذ السكين بفمه وألقى به في البئر فكذبه وقال مستحيل أن يفعل هذا الفعل خروف

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، حديث رقم 3318)، ومسلم في صحيحه (كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، حديث رقم 2242)

(2) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وحد الشفرة، حديث رقم 1955)

(3) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الضحايا، باب في الرفق بالذبيحة، حديث رقم 2841)، والبيهقي في السنن الكبرى (كتاب الضحايا، باب الرفق بالذبيحة)، وقال الألباني: حديث حسن صحيح، وصححه في صحيح أبي داود (رقم 2467).

(4) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (كتاب الصيد والذبائح، باب الرفق بالذبيحة، حديث رقم 8585) وإسناده صحيح إلى ابن سيرين، لكن ابن سيرين لم يدرك عمر، ومع هذا فإنه يذكر استئناسا..

وكانت البئر ليست عميقة فنزل الرجل بنفسه إلى البئر ليثبت كذب الراعي فإذا به يجد السكين فعلا في البئر!!!

(وليرح ذبيحته) هذا أمر زائد على شحذ الشفرة، وذلك بأن يقطع بقوة، يضع السكين على الرقبة ثم يجرها بقوة، حتى يكون ذلك أسرع من كونه يجرها مرتين أو ثلاثا، وبعض الناس يوفقه الله من مرة واحدة حتى يقطع الودجين والحلقوم والمريء؛ لأنه يأخذ السكين بقوة، وتكون السكين جيدة مشحوذة، فليسهل على الذبيحة أو المنحورة الموت.

الرحمة بالحيوان والرفق به:

وفي الحديث دلالة ظاهرة على مشروعية الرحمة بالحيوان والرفق به وأن ذلك سبب لدخول الجنة.

عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقفها فسقته فغفر لها به)[1]،

والموق بضم الميم هو الخف، فارسي معرب، ومعنى نزعت له بموقها أي استقت له بخفها

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: (أردفني (حملني) رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسر إليَّ حديثاً لا أخبر به أحداً أبدا، وكان رسول الله ﷺ أحب ما استتر به في حاجته هدف أو حائش نخل (مجموعة)، فدخل يوما حائطاً (بستانا) من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه.

قال بَهْز وعفان: فلما رأى النبيَّ ﷺ حَنَّ وذرفت عيناه، فمسح رسول الله لي الله عليه وسلم سَرَاته وذِفْراه (ظهره وأذنيه) فسكن، فقال :من صاحب الجمل؟

فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله.
فقال ﷺ :أما تتقى الله في هذه البهيمة التي ملككها الله، إنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه (تتعبه) [2]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم 3321)، ومسلم في صحيحه (كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم، حديث رقم 2245)

[2] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الجهاد، باب في حق البهيمة، حديث رقم 2549)، وأحمد في المسند (مسند عبد الله بن جعفر، حديث رقم 1754)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (رقم 2549) والمقصود بقول الراوي: "قال بهز وعفان" أن هذا اللفظ رواه الإمام أحمد عن شيخين من شيوخه، وهما: بَهْز بن أسد العَمِّي البصري من كبار رواة الحديث، وكان ثقةً ثبتًا، وروى عنه الإمام أحمد وغيره، وعَفّان بن مسلم الصَّفّار البصري من أئمة الحديث الثقات، وكان من شيوخ الإمام أحمد، وروى عنه أصحاب كتب السنة؛ فقول المصنف: قال بهز وعفان: فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت

وقد ورد وعيد شديد لمن عذب الحيوان أو تسبب في قتله؛ قال رسول الله ﷺ: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت)[1]

من فوائد هذا الحديث:

1. **الإحسان** يشمل جميع شؤون الحياة؛ **لقوله: «على كل شيء» وهذا يفيد العموم**، فيدخل فيه الإحسان مع النفس، والأهل، والناس، والحيوان، بل ومع كل ما يتصرف فيه الإنسان.
2. **الإحسان نوعان** :الإحسان في عبادة الله بإتقانها وإخلاصها، والإحسان إلى الخلق بإيصال الخير إليهم وكف الأذى عنهم.
3. **الإسلام دين رحمة حتى في مواضع القتل والذبح**، فلا يجيز التعذيب أو التمثيل (تشويه القتيل) أو إطالة الألم.
4. **قوله ﷺ: "فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة"** معناه اختيار الهيئة التي يكون فيها القتل أسرع وأبعد عن التعذيب.
5. **قوله ﷺ: "وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة"** يدل على وجوب الرفق بالحيوان عند الذبح.
6. **الحيوان المؤذي يجوز قتله إذا أذن الشرع بذلك**، لكن مع مراعاة الإحسان في كيفية قتله.
7. **الخلاصة الجامعة** :الإحسان خلق شامل في الإسلام، يجب أن يظهر في العبادة، والمعاملة، والقتل المشروع، والذبح، والرحمة بالحيوان، فلا يجوز تعذيب أي مخلوق بغير حق، بل يكون المسلم رحيمًا محسنًا في كل أحواله.

عيناه عناه أن بهز بن أسد وعفان بن مسلم اتفقا في روايتهما على هذا اللفظ أو ذكراه في سياق الحديث، وليس المقصود أنهما من الصحابة أو أنهما كانا حاضرين مع النبي ﷺ.

[1] سبق تخريجه

الحديث الثامن عشر

اتق الله

حيثما كنت

(18)اتق الله حيثما كنت

عن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.[1]

التعريف براويي الحديث

روى هذا الحديث اثنان من الصحابة أبو ذر ومعاذ – رضي الله عنهما فهل خطاب النبي ﷺ كان لكل واحد منهما واتفقت عبارات الوصية أي أن الرسول أوصى أبا ذر ثم أوصى معاذ؟ هذا ممكن، ومن الممكن أن الرسول أوصى أحدهما والآخر يسمع فكلاهما روى الحديث، وربما كان النبي ينصح رجلا ثالثا وسمعه الاثنان.

التعريف بأبي ذر الغفاري رضي الله عنه:

- هو الصحابي الجليل **أبو ذر جندب بن جنادة بن سفيان الغفاري** رضي الله عنه، من قبيلة **غفار**.
- يُعد من السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم في أوائل البعثة قبل الهجرة، وكان من أوائل من جهر بإسلامه في مكة رغم أذى قريش.
- عُرف رضي الله عنه بالصدق، والزهد، والورع، والشجاعة في قول الحق، حتى قال فيه النبي ﷺ :**"ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر"**[2]

---

(1) رواه الترمذي في *جامعه*، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس، برقم (1987)، وأحمد في *المسند* 5/153)، 158، 177، 228 من مسند أبي ذر، و 5/236ومن مسند معاذ بن جبل رضي الله عنه)، وقال الإمام الترمذي» :حديث حسن«، وصححه الحاكم في *المستدرك* (1/54)، ووافقه الذهبي، وحسنه النووي في *الأذكار*، وصححه الألباني في *صحيح سنن الترمذي* (1987)وفي *السلسلة الصحيحة* (رقم 1373).

(2) رواه الإمام الترمذي في جامعه، كتاب المناقب، باب مناقب أبي ذر رضي الله عنه، برقم (3801)، وابن ماجه في سننه، المقدمة، برقم (156)، وأحمد في المسند 5/163)، 170، 177(، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وقال الترمذي: "حديث حسن"، وصححه ابن حبان والحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه المنذري، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وصحيح سنن ابن ماجه والسلسلة الصحيحة.

- لازم النبي ﷺ، وروى عنه عددًا كبيرًا من الأحاديث في العقيدة، والعبادات، والأخلاق، والرقائق.
- كان شديد الحرص على نصح المسلمين، والدعوة إلى الزهد، والبعد عن التعلق بالدنيا.
- سكن الشام مدة، ثم انتقل إلى **الرَّبذة** بأمر الخليفة عثمان رضي الله عنه، وأقام فيها إلى آخر حياته.
- توفي رضي الله عنه سنة **32هـ** بالرَّبذة، ودُفن بها، وقد وافق موته ما أخبر به النبي ﷺ حين قال :**"يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده"**[1]

التعريف بمعاذ بن جبل رضي الله عنه:

- هو الصحابي الجليل **معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي** رضي الله عنه، ويُكنى **أبا عبد الرحمن**.
- أسلم وهو شاب، وشهد **بيعة العقبة الثانية**، ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ بعد بدر.
- كان من **أعلم الصحابة بالحلال والحرام**، وقد قال فيه النبي ﷺ :**"أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل"** [2]
- بعثه النبي ﷺ إلى **اليمن** قاضيًا ومعلّمًا وداعية، لما عُرف عنه من العلم، والفقه، والحكمة.
- كان من أكثر الصحابة عبادةً، وحسنًا للخلق، وحرصًا على تعليم الناس أمور دينهم.
- روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في العقيدة، والعبادات، والأخلاق، والدعوة.

---

[1] رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية، ومن طريقه ابن هشام في السيرة النبوية (4/181)، والبيهقي في دلائل النبوة (5/227)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (1/156)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفيه قول النبي ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده». وإسناده ضعيف؛ لأن في سنده بُريدة بن سفيان الأسلمي، وهو ضعيف، ضعفه ابن كثير في البداية والنهاية (5/18)، والألباني في ضعيف السيرة النبوية.

[2] رواه الترمذي في *جامعه*، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأُبيّ بن كعب وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، برقم (3790)، وابن ماجه في *سننه*، المقدمة، برقم (154)، وأحمد في *المسند* (رقم 12600)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الترمذي: "حديث حسن غريب"، وأخرجه ابن حبان في *صحيحه*، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند، وصححه الألباني في *صحيح سنن الترمذي* وصحيح *سنن ابن ماجه*.

- أخذ عنه العلم عدد من كبار الصحابة والتابعين، وانتفع بعلمه أهل الشام واليمن.
- أصيب بطاعون عمواس في بلاد الشام، وتوفي رضي الله عنه سنة **18هـ**، وعمره نحو **33أو 38 سنة**، وقيل غير ذلك.

شرح الحديث

هذا الحديث أصل عظيم جامع في باب الوصايا والإرشاد وقد أوصى فيه النبي ﷺ بثلاث وصايا:

الوصية الأولى :قال: "اتَّقِ اللهَ حيثما كُنتَ"

وتقوى الله هي فعل ما أمر الله، واجتناب ما حرم الله.
والتقوى وصية الله للأولين والآخرين من خلقه، قال تعالى} :﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]
والتقوى ليست كلمة تقال، أو شعاراً يرفع، وليست مظهرا يراه الناس، وليست عباءة جميلة ولا مسبحة طويلة ولا لحية كبيرة ولا عمامة عظيمة؛ إنما التقوى أمر قلبي لا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل، ولذلك قال النبي ﷺ: **التقوى ها هنا وأشار إلى صدره ثلاث مرات.**[1]

وحقيقة التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين من يخافه ويحذره وقاية تقيه منه فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين غضب الله وسخطه وقاية من الأقوال والأفعال تقيه من ذلك.

ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات وفعل المندوبات وترك المكروهات وذلك أعلى درجات التقوى.

قال طلق بن حبيب: (التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله).

وقال عمر بن عبد العزيز: (ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير).

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، حديث رقم 2564)

ومن تمام التقوى، أن يترك العبد ما لا بأس به، خشية أن يقع في الحرام، ويشهد لذلك قول النبي ﷺ :**(فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه)** [1]

وفي هذا المعنى يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: " تمام التقوى، أن يتقي اللهَ العبدُ، حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال، خشية أن يكون حراما، فيكون حجابا بينه وبين الحرام، فإن الله قد بيّن للعباد الذي يصيرهم إليه فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 6-8] [2]
فلا تحقرن شيئا من الخير أن تفعله، ولا شيئا من الشر أن تتقيه.

وقد جسد أبي بن كعب رضي الله عنه هذا المعنى لما سئل عن التقوى؟ فقال: " هل أخذت طريقا ذا شوك؟
قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟
قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى " [3]

وقد أخذ ابن المعتز رحمه الله هذا المعنى، وصاغه بأبيات بديعة من الشعر فقال:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة أن الجبال من الحصى

(اتق الله حيثما كنت) هذا تنبيه للمؤمن على ملازمة التقوى في كل أحواله ، انطلاقاً من استشعاره لمراقبة الله له في كل حركاته وسكناته ، وسره وجهره.

فمن خشي الله أمام الناس فحسب فليس بتقي، وقد قال تعالى في وصف عباده المؤمنين: **﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 33]**

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة). [4]

---

[1] سبق تخريجه.
[2] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (كتاب الزهد، باب في الورع، برقم 35568)، وأخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد (باب الورع، برقم 123)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (باب الورع وترك الشبهات، برقم 7233) من طريق أبي الدرداء رضي الله عنه، وإسناده حسن، وقد صححه جماعة من أهل العلم وحسنه الألباني في تعليقه على الزهد لابن المبارك.
[3] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (كتاب الإيمان، باب ما ذكر في التقوى، أثر رقم 37114)
[4] أخرجه النسائي في سننه (كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، حديث رقم 1305)

وقال بعض السلف لأصحابه: (زهدنا الله وإياكم في الحرام بزهد من قدر عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته).

وقال الشافعي: (أعز الأشياء ثلاثة الجود من قلة والورع في خلوة وكلمة الحق عند من يرجى ويخاف).

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ـــ خلوت، ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ـــ ولا أن ما يخفي عليه يغيب

وتقوى الله في السر علامة على كمال الإيمان وله تأثير عظيم في انشراح الصدر ونور الوجه وراحة البال وإلقاء الله لصاحبه الثناء والمحبة في قلوب المؤمنين.

قال ابن مسعود: (ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله ردائها علانية إن خيرا فخير وإن شرا فشر).

وقال سليمان التيمي: (إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته).

فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله فإن من فعل ذلك أصلح الله ما بينه وبين الناس وألقى محبته وثناءه على لسان الخلق وجعل له القبول في الأرض.

والشقي من أفسد ما بينه وبين الله ومن فعل ذلك أفسد الله ما بينه وبين الناس وألقى بغضه وذمه على لسان الخلق وجعل له الجفاء في الأرض.

المتقون يعصون الله فيتوبون:

وقد أخبر الله أن المتقين قد تقع منهم أحيانا الكبائر وهي الفواحش والصغائر وهي ظلم النفس لكنهم لا يصرون عليها، بل يذكرون الله عقب معصيتهم ويستغفرونه ويتوبون إليه وتوبتهم هي ترك الإصرار.

قال الله عز وجل في معرض الثناء عليهم: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]**

يعني ذكروا عظمته وشدة بطشه وعذابه فاستغفروا من ذنوبهم ولم يستمروا على فعل المعصية.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (أذنب عبد ذنبا فقال ربي إني عملت ذنبا فاغفر لي فقال الله علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب قد غفرت لعبدي ثم أذنب ذنبا آخر.. إلى أن قال في الرابعة فليعمل ما شاء).[1]

الوصية الثانية :"وأتْبِعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمْحُها"

أي: إذا عملتَ سيِّئةً فأتبعها بحَسَنةٍ، فإنَّ الحسنات يُذهِبْنَ السيِّئات، ومن الحسنات بعد السيئات أن تتوبَ إلى الله من السيئات فإنَّ التوبة من أفضل الحسنات، كما قال الله عزَّ وجلَّ :﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: من الآية 222]، وقال الله تعالى :﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: من الآية 31]

فالمتقي قد تعتريه الغفلة، فتقع منه المعصية، أو يحصل منه التفريط في الطاعة، وهذه هي طبيعة البشر المجبولة على الضعف، لكن المتقي يختلف عن غيره بأنه إذا تعثّرت به قدمه، بادر بالتوبة إلى ربه، والاستغفار من ذنبه، ولم يكتف بذلك، بل يتبع التوبة بالإكثار من الأعمال الصالحة، كما أمره ربه في قوله: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ **[هود: 114]**

عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فسكت النبي ﷺ حتى نزلت هذه الآية فدعاه فقرأها عليه فقال رجل هذه له خاصة قال، بل للناس عامة).[2]

وكذلك الأعمالُ الصَّالحةُ تكفِّرِ السيئات، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "الصَّلواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضان، مُكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجْتَنَبَ الكبائر"[3]

وقال: "العُمْرةُ إلى العُمْرةِ كفَّارةٌ لما بينهما"[4]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿يريدون ليطفئوا نور الله﴾، حديث رقم 7507)، وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت، حديث رقم 2758)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، باب ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾، حديث رقم 4687)، ومسلم في صحيحه (كتاب التوبة، باب قوله تعالى ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، حديث رقم 2763)، واللفظ لمسلم.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر، حديث رقم 233)

[4] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العمرة، باب فضل العمرة، حديث رقم 1773)، وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، حديث رقم 1349)

ما المراد بالحسنة في قوله: (أتبع الحسنة السيئة تمحها)؟

الحسنة في الحديث تشمل كل عمل صالح يكفر الخطايا والتوبة داخلة في ذلك.

الأعمال الصالحة المكفرة

للخطايا مكفرات دلت النصوص الشرعية على كثرتها وتنوعها ومن ذلك:

(1)الوضوء :

قال رسول الله ﷺ: (من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره)[1]

(2)الصلاة:

قال رسول الله ﷺ: (أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يبقى من درنه شيء قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهم الخطايا)[2]

(4) (3) المشي إلى الصلاة وانتظارها:

قال رسول الله ﷺ: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط).[3]

(5)الصوم :

قال رسول الله ﷺ: (من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه). متفق عليه.[4]

وقد ثبت أن صوم يوم عاشوراء وعرفة يكفران الذنوب في الماضي والحاضر.

(6)قيام رمضان:

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء، حديث رقم 244)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، حديث رقم 528)، ومسلم في صحيحه (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة لما بينهن، حديث رقم 667)، وهو حديث متفق عليه.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، حديث رقم 251).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان، حديث رقم 38)، ومسلم في صحيحه (كتاب الصيام، باب فضل صيام رمضان، حديث رقم 760).

قال رسول الله ﷺ: (من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه). متفق عليه.[1]

(7)العمرة : قال رسول الله ﷺ: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة). رواه مسلم.[2]

(8)الحج :

قال رسول الله ﷺ: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدنه أمه). متفق عليه.[3]

(9)الصدقة :

قال رسول الله ﷺ: (الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار). [4]

(10)الذكر :

قال رسول الله ﷺ: (من قال سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر). متفق عليه.[5]

(11)الصبر على المصائب :

قال رسول الله ﷺ: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه). [6]

هل الأعمال الصالحة تكفر الكبائر؟

هذه مسألة مهمة والبحث فيها واسع، وقد اتفق الفقهاء على أن صغائر الذنوب تكفر بالصلوات الخمس والصوم والحج وأداء الفرائض وأعمال البر، وهذا كله قبل

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان، حديث رقم 37)، ومسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان، حديث رقم 759).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العمرة، باب فضل العمرة، حديث رقم 1773)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة، حديث رقم 1349).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، حديث رقم 1521)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، حديث رقم 1350).

(4) أخرجه الترمذي في جامعه (كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، حديث رقم 614)، وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، حديث رقم 6405)، ومسلم في صحيحه (كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح، حديث رقم 2691).

(6) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، حديث رقم 5641)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، حديث رقم 2573).

الموت، فإن مات صاحب الكبيرة فمصيره إلى الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، فإن عذبه فبجرمه، وإن عفا عنه فهو أهل العفو وأهل المغفرة، وإن تاب قبل الموت وقبل حضوره ومعاينته وندم واعتقد ألا يعود واستغفر كان كمن لم يذنب.

ثم اختلف أهل العلم هل الأعمال الصالحة تكفر كبائر الذنوب التي لم يتب صاحبها منها؟ وذلك على ثلاثة أقوال كالآتي:

القول الأول: الأعمال الصالحة تكفر صغائر الذنوب، وأما الكبائر فلا تُكَفَّر بمجرد فعل الأعمال الصالحة، بل لا بد من التوبة بشروطها حتى تُكَفَّر، وإلى هذا ذهب أكثر أهل العلم.

واستدلوا بالآتي:

1- في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر "[1]

فهذا الحديث واضح الدلالة على أن الكبائر لا تكفرها هذه الفرائض، بل لابد من توبة نصوح.

2- عن عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله ".[2]

قال قتادة: "إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر وذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: "اجتنبوا الكبائر وسددوا وأبشروا ".

وقال القاضي عياض: هذا المذكور في الحديث من غفران الذنوب ما لم تؤت كبيرة هو مذهب أهل السنة وأن الكبائر إنما تكفرها التوبة أو رحمة الله تعالى وفضله والله أعلم.

وقال ابن العربي: "الخطايا المحكوم بمغفرتها هي الصغائر دون الكبائر لقول النبي ﷺ: " ما اجتنبت الكبائر"

3- إن الله أمر العباد بالتوبة، وجعل من لم يتب ظالماً، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض، والفرائض لا تؤدى إلا بنية وقصد، ولو كانت الكبائر تقع

---

[1] سبق تخريجه.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، حديث رقم 228)، وأخرجه أبو داود في سننه (كتاب الصلاة، باب المحافظة على الصلوات، حديث رقم 554)

مكفرة بالوضوء والصلاة وأداء بقية أركان الإسلام، لم يحتج إلى التوبة، وهذا باطل بالإجماع، فثبت أن الكبائر لا بد لها من التوبة.

4- يخشى أن يغتر بهذا القول جاهل فينهمك في الموبقات اتكالاً على أنها تكفرها الصلوات دون الندم والاستغفار والتوبة.

القول الثاني: الأعمال الصالحة تكفر الذنوب مطلقاً الصغائر والكبائر، وهو قول ابن المنذر وابن حزم، وجماعة من أهل العلم المتقدمين، ومن المتأخرين قال به الشيخ الألباني، واستدلوا بالآتي:

1- **قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: 114]**

قال الشوكاني: "إن الحسنات يذهبن السيئات، أي إن الحسنات على العموم ومن جملتها، بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم، وقيل المراد بالسيئات الصغائر، ومعنى يذهبن السيئات يكفرنها حتى كأنها لم تكن"[1]

وحمل الجمهور هذا المطلق على المقيد في الحديث الصحيح: **" الصلواتُ الخمسُ، والصلاةُ إلى الصلاةِ كفَّارةٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائر"**[2]

2- عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقي من درنه؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئاً. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا"[3]

قال الشيخ الألباني: " هذا الحصر ينافي الاستفهام التقريري في الحديث الذي قبله **"هل يبقى من درنه شيء؟ "** كما هو ظاهر، فإنه لا يمكن تفسيره على أن المراد به الدرن الصغير فلا يبقى منه شيء وأما الدرن الكبير فيبقى كله كما هو! فإن تفسير الحديث بهذا ضرب له في الصدر كما لا يخفي؛ فالذي يبدو لي والله أعلم أن الله تعالى زاد في تفضله على عباده فوعد المصلين منهم بأن يغفر لهم الذنوب جميعاً وفيها الكبائر بعد أن كانت المغفرة خاصة بالصغائر ولعله مما يؤيد هذا قوله تعالى: **﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾** [سورة النساء الآية 31.]

فإذا كانت الصغائر تكفر بمجرد اجتناب الكبائر فالفضل الإلهي يقتضي أن تكون للصلاة وغيرها من العبادات فضيلة أخرى تتميز بها على فضيلة اجتناب الكبائر

---

[1] تفسير فتح القدير 2/ 532.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر، حديث رقم 233)

[3] سبق تخريجه.

ولا يبدو أن ذلك يكون إلا بأن تكفر الكبائر والله تعالى أعلم؛ ولكن ينبغي على المصلين أن لا يغتروا فإن الفضيلة المذكورة لا شك أنه لا يستحقها إلا من أقام الصلاة وأتمها وأحسن أدائها "[1]

القول الثالث: الحسنات الكبيرة التي قوي فيها الإخلاص قد تكفر الكبائر، ولكن ليس ذلك بالأمر اللازم المطرد، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والحافظ ابن حجر العسقلاني .

واستدلوا بالآتي:

1-**قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.** [المائدة: 27]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " لا يجوز أن يراد بالآية إن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها، لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقياً، فإن كان قبول العمل مشروطاً بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له امتنع قبول التوبة. بخلاف ما إذا اشترط التقوى في العمل فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة وهو حين شروعه في التوبة منتقل من الشر إلى الخير لم يخلص من الذنب بل هو متق في حال تخلصه منه، وأيضاً فلو أتى الإنسان بأعمال البر وهو مصر على كبيرة ثم تاب لوجب أن تسقط سيئاته بالتوبة وتقبل منه تلك الحسنات وهو حين أتى بها كان فاسقاً، وأيضاً فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل وغصب وقذف وكذلك الذمي إذا أسلم قبل إسلامه مع بقاء مظالم العباد عليه، فلو كان العمل لا يقبل إلا ممن لا كبيرة عليه لم يصح إسلام الذمي حتى يتوب من الفواحش والمظالم، بل يكون مع إسلامه مخلداً وقد كان الناس مسلمين على عهد رسول الله ﷺ ولهم ذنوب معروفة وعليهم تبعات فيقبل إسلامهم ويتوبون إلى الله سبحانه من التبعات، ولا نعرف أحداً من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له لا يصح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب وكذلك سائر أعمال البر من الصلاة والزكاة ".[2]

2-عن بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ قال حدثني أبي عن جدي أنه سمع النبي ﷺ يقول "من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف "[3]

---

[1] صحيح الترغيب والترهيب ص140 – 141.

[2] راجع: كتاب الإيمان الأوسط لابن تيمية ص23، مجموع فتاوى ابن تيمية .(491 – 489 /7)

[3] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الوتر، باب الاستغفار، حديث رقم 1517)، وأخرجه الترمذي في جامعه (كتاب الدعوات، باب ما جاء في الاستغفار، حديث رقم 3577)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب الدعاء)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (حديث رقم 6397).

3-عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: " أتاني آت من ربي، فأخبرني أو قال: بشرني أنه: من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة " قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: "وإن زنى وإن سرق "[1]
فجاء التصريح في كثير من الأحاديث بأن المغفرة قد تكون مع الكبائر.

4-عن أبي أمامة، قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقمه علي، فسكت عنه رسول الله ﷺ، ثم أعاد فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقمه علي، فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف نبي الله ﷺ قال: أبو أمامة: فاتبع الرجل رسول الله ﷺ حين انصرف، واتبعت رسول الله ﷺ أنظر ما يرد على الرجل، فلحق الرجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقمه علي، قال أبو أمامة: فقال له رسول الله ﷺ: "أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟" قال: بلى، يا رسول الله قال: "ثم شهدت الصلاة معنا " فقال: نعم، يا رسول الله قال: فقال له رسول الله ﷺ: " فإن الله قد غفر لك حدك أو قال: ذنبك "[2]
فالله عز وجل أطلع نبيه على أن هذا الرجل قد غفر الله له كبيرته بسبب صلاته، وذلك لا يعني أن كل الكبائر من أي مرتكب لها تكفرها صلاتهم مع جماعة المسلمين، وإنما يمكن أن يقع ذلك لبعض العاصين غير هذا الرجل الوارد في الحديث.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: " يحتمل أن يختص ذلك بالمذكور، لإخبار النبي ﷺ أن الله قد كفر عنه حده بصلاته، فإن ذلك لا يعرف إلا بطريق الوحي، فلا يستمر الحكم في غيره إلا فيمن علم أنه مثله في ذلك، وقد انقطع علم ذلك بانقطاع الوحي بعد النبي ﷺ" [3]

وفي كلام ابن القيم رحمه الله ما يشير إلى أن الرجل إنما غفر الله له بسبب توبته الصادقة، فأخبره النبي ﷺ أن صلاته مع جماعة المسلمين كانت سبب مغفرة ذنبه لأنه صدق التوبة مع الله، وليس بسبب الصلاة المجردة.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله، حديث رقم 1237 و5827 بألفاظ متقاربة)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، حديث رقم 94)

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب التوبة، باب سقوط الحد بالتوبة والصلاة، حديث رقم 2764)

[3] فتح الباري " 12/ 134.

قال ابن القيم رحمه الله: " قالت طائفة: بل غفر الله له بتوبته، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعلى هذا فمن تاب من الذنب قبل القدرة عليه سقطت عنه حقوق الله تعالى كما تسقط عن المحارب، وهذا هو الصواب " [1]

5-عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها فغفر لها "، وفي رواية: " إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به " [2]

قال ابن تيمية: " فلا يقال في كل بغى سقت كلباً غفر لها، لأن هذه البغي قد حصل لها من الصدق والإخلاص والرحمة بخلق الله ما عادل إثم البغي وزاد عليه ما أوجب المغفرة، والمغفرة تحصل بما يحصل في القلب من الإيمان الذي يعلم الله وحده مقداره وصفته وهذا يفتح باب العمل ويجتهد به العبد أن يأتي بهذه الأعمال وأمثالها من موجبات الرحمة، وعزائم المغفرة، ويكون مع ذلك بين الخوف والرجاء "[3]

وقال أيضا" كذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له، قال الله تعالى: ﴿ **لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ** ﴾ [الحج :37] فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق ولم يضرب بعضه ببعض "[4]

الوصية الثالثة :"خالقِ النَّاسَ بخُلقٍ حَسَن"

الوصيَّتان الأُوْلى والثانية في مُعاملةِ الخالق، والثَّالثةُ في مُعامَلةِ الخَلْق، أنْ تُعاملهم بخُلقٍ حسنٍ تُحْمدُ عليه ولا تُذَمُّ فيه، وذلك بِطلاقةِ الوجهِ، وصِدقِ القول، وحُسْنِ المخاطبة، وغير ذلك من الأخلاق الحَسنَة.

---

[1] إعلام الموقعين 4/ 281 – 282.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم 3467)، ومسلم في صحيحه (كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، حديث رقم 2245)

[3] مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، ص261.

[4] منهاج السنة النبوية لا بن تيمية 6/ 135.

وقد جاءتِ النُّصوصُ الكثيرة في فضل الخُلق الحسن، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام: **"أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسَنُهم خُلُقًا"**[1]

وأخبر أن أولى الناس به صلي الله عليه وسلم وأقربهم منه منزلةً يوم القيامة أحسنهم أخلاقًا.[2]

فالأخلاق الحسنة مع كونها مسلكًا حسنًا في المجتمع ويكونُ صاحبُها محبوبًا إلى الناسِ فيها أجرٌ عظيمٌ ينالهُ الإنسانُ يوم القيامة.

وقد تكاثرت النصوص على فضل حسن الخلق والأمر به كما قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]

وجماع حسن الخلق بذل الندى وكف الأذى كما قال رسول الله ﷺ: **(البر حسن الخلق).** [3]

وقال ابن المبارك: (هو بسط الوجه وبذل المعروف وكف الأذى).

وقال الشعبي: (حسن الخلق البذل والعطية والبشر الحسن).

ولحسن الخلق أنواع كثيرة تعود إلى معناه منها:
التواضع والجود والحلم والأناة والرفق والوفاء والصدق والنصيحة وأداء الأمانة والستر والإصلاح والرحمة وبر الوالدين والصلة والشجاعة والإيثار والعفو، والبشر، وطيب الكلام، والعدل.
ولحسن الخلق فوائد جمة ومزايا عظيمة: دخول الجنة وتثقيل ميزان العبد وكمال الإيمان وقرب المجلس من رسول الله ﷺ يوم القيامة وبلوغ منزلة رفيعة في الدين وزيادة العمر وبسط الرزق وكشف الكرب واندفاع النقم وكسب محبة الخلق في الدنيا.

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب السنة، باب في حسن الخلق، حديث رقم 4682)، وأخرجه الترمذي في جامعه (كتاب الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان، حديث رقم 1162)، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.
(2) أخرجه الترمذي في جامعه (كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، حديث رقم 2018)، وأحمد في المسند، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.
(3) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم 2553)

وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا ما ترك خيرا إلا تمثل به وما ترك سوءا إلا هجره وكان قدوة حسنة في جميع أبواب الخير وخصال الإيمان.

كما قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).[1]

وقال أنس (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا) متفق عليه.[2]

وكان يتمثل أخلاق القرآن الفاضلة كما قالت عائشة واصفة خلق رسول الله ﷺ: (كان خلقه القرآن).[3]

وكان كلامه وألفاظه من أطيب الكلام كما قال عبد الله بن عمرو بن العاص: (لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا) [4]

وكان رفيقا بأهله وولده كما قال ﷺ: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي). [5]

بائع الخل وبائع العسل:

ومن طريف ما يروى أن اثنين من التجار كانا يبيعان في السوق، وكان أحدهما يبيع العسل لكن زبائنه قليلون جدا، وكان الآخر يبيع الخل وزبائنه كثيرون.... فاغتاظ لذلك بائع العسل فذهب إلى صاحبه بائع الخل وقال أنا أبيع العسل ولا يأتيني من الناس إلا قليل وأنت تبيع الخل والناس يكثرون عليك هل تستطيع تفسير هذا لي؟
قال له أنا أبيع الخل بلسان من عسل فكثر زبائني، أما أنت فتبيع العسل بلسان من خل فنفر الناس عنك!!!

---

[1] أخرجه مالك في الموطأ (كتاب حسن الخلق، حديث رقم 1614)، وأخرجه أحمد في المسند (مسند أبي هريرة)، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب حسن الخلق، حديث رقم 6035)، ومسلم في صحيحه (كتاب الفضائل، باب كان ﷺ أحسن الناس خلقًا، حديث رقم 2321).

[3] رواه مسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه، حديث رقم 746).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، حديث رقم 6033)، ومسلم في صحيحه (كتاب الفضائل، باب حيائه ﷺ وحسن عشرته، حديث رقم 2321).

[5] أخرجه الترمذي في جامعه (كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، حديث رقم 3895)، وابن ماجه في سننه (كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، حديث رقم 1977)، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

الفوائد من الحديث:

1. **الحديث من جوامع الوصايا النبوية**؛ لأنه جمع بين إصلاح علاقة العبد بربه، وإصلاحه لنفسه بعد الذنب، وإصلاح علاقته بالناس.
2. **حقيقة التقوى أن يجعل العبد بينه وبين غضب الله وقاية**، وذلك بطاعته واجتناب معصيته.
3. **أعلى مراتب التقوى تشمل أداء الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وفعل المستحبات، وترك المكروهات**.
4. **تمام التقوى أن يترك المسلم بعض المباحات خشية الوقوع في الحرام**، إذا قامت قرائن تدعو إلى الاحتياط.
5. **لا ينبغي احتقار شيء من الخير أو الشر**، فقد يكون العمل صغيرًا في نظر الإنسان، لكنه عظيم الأثر عند الله.
6. **قوله ﷺ: «حيثما كنت» يدل على ملازمة التقوى في السر والعلن، وفي كل مكان وحال**.
7. **المتقون ليسوا معصومين من الذنوب**، لكنهم إذا أذنبوا تذكروا الله، واستغفروا، ولم يصروا على المعصية.
8. **أفضل حسنة بعد السيئة هي التوبة الصادقة**، ثم الإكثار من الأعمال الصالحة.
9. **الحسنة في الحديث تشمل كل عمل صالح مشروع**، والتوبة داخلة فيها دخولًا أوليًا.
10. **اتفق العلماء على أن الأعمال الصالحة تكفر صغائر الذنوب**، أما الكبائر ففيها تفصيل وخلاف.

11. **الأعمال تتفاوت بقدر ما في القلوب من الإيمان والإخلاص،** فقد يكون العمل واحدًا، لكن يختلف أجره وأثره اختلافًا عظيمًا.
12. **لا يجوز للإنسان أن يغتر بعمل صالح واحد ويظن أنه قد ضمن المغفرة،** بل يعيش بين الخوف والرجاء، ويجتهد في التوبة.
13. **حسن الخلق يشمل طلاقة الوجه، وصدق القول، وحسن الخطاب، وكف الأذى، وبذل المعروف.**
14. **لحسن الخلق آثار عظيمة،** منها ثقل الميزان، ودخول الجنة، وكمال الإيمان، ومحبة الناس، وكشف الكرب.
15. **النبي ﷺ هو القدوة الكاملة في حسن الخلق،** فقد كان خلقه القرآن، ولم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، وكان خير الناس لأهله.
16. **الخلاصة الجامعة** :صلاح المسلم يقوم على ثلاثة أصول: أن يتقي الله في كل حال، وأن يعالج ذنبه بالتوبة والحسنات، وأن يعامل الناس بالأخلاق الحسنة.

****

الحديث التاسع عشر

احفظ الله يحفظك

(19) احفظ الله يحفظك

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال لي: (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك إن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

وفي رواية غير الترمذي (احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا.) [1]

التعريف براوي الحديث

- هو أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ.
- ويُلقَّب بـ حَبْر الأمة وترجمان القرآن؛ لسعة علمه وفقهه في تفسير كتاب الله.
- ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات.

---

[1] سنن الترمذي في (كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في حفظ الله تعالى، حديث رقم 2516)، وأخرجه مسند أحمد بن حنبل في (مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حديث رقم 2669 و2803)، وأخرجه المستدرك على الصحيحين لـ الحاكم النيسابوري (528/1)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم النيسابوري: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (حديث رقم 7957)، وأما الرواية الأخرى فهي في مسند أحمد بن حنبل (حديث رقم 2803)، وفي شعب الإيمان للبيهقي (حديث رقم 10194)، وقال الألباني: صحيح، كما في ظلال الجنة في تخريج السنة (حديث رقم 315)، وله شواهد تقويه.

- دعا له النبي ﷺ فقال :"اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل"، وفي رواية : "اللهم علِّمه الحكمة".
- كان من أكثر الصحابة علمًا بالتفسير والفقه والحديث، مع أنه كان صغير السن عند وفاة النبي ﷺ.
- روى عن النبي ﷺ 1660حديثًا تقريبًا، اتفق البخاري ومسلم على إخراج عدد كبير منها.
- أخذ العلم عن كبار الصحابة، ثم صار إمامًا يرجع إليه الناس في الفتوى والتفسير.
- توفي سنة 68هـ بالطائف، وعمره نحو 71سنة.

شرح الحديث

اصطفي الله تعالى هذه الأمة من بين سائر الأمم، ليكتب لها التمكين في الأرض، وهذا المستوى الرفيع لا يتحقق إلا بوجود تربية إيمانية جادة تؤهلها لمواجهة الصعوبات التي قد تعتريها، في سبيل نشر هذا الدين، وإقامة شرع الله في الأرض.

ومن هذا المنطلق، حرص النبي ﷺ على غرس العقيدة في النفوس المؤمنة، وأولى اهتماما خاصا للشباب، وفي الحديث الذي نتناوله، مثال حيّ على هذه التنشئة الإسلامية الفريدة، للأجيال المؤمنة في عهد النبوة، بما يحتويه هذا المثال على وصايا عظيمة، وقواعد مهمة، لا غنى للمسلم عنها.
وأولى الوصايا التي احتواها هذا الحديث، قوله ﷺ:

(احفظ الله يحفظك)

أي احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به وأذن فيه إلى ما نهى عنه، فمن فعل ذلك فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه، **قال عز وجل ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 32-33]**
وفسر الحفيظ هنا بالحافظ لأوامر الله وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها.

وقوله ﷺ(يحفظك) أي أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله فإن الجزاء من جنس العمل **كما قال تعالى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]، وقال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]

وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله:
قال الله عز وجل: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**﴾ **[الرعد: 11]**
قال ابن عباس رضي الله عنهما – هم الملائكة يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه.
وقال على – رضي الله عنه: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإن الأجل جنة حصينة. [1]
وقال ابن عمر قال لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهل ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي) [2]

ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله.

وكان محب الدين الطبري قد جاوز المئة سنة وهو ممتع بقوته وعقله فوثب يوما وثبة شديدة فعوتب في ذلك فقال هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر.

وعكس هذا يقول ابن الجوزي: وقد يهان الشيخ في كبره حتى ترحمه القلوب، ولا يدري أن ذلك لإهماله حق الله تعالى في شبابه، ورأى بعض السلف شيخا يسأل الناس فقال إن هذا ضعيف ضيع الله في صغره فضيعه الله في كبره.

---

[1] تفسير الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ (سورة الرعد: 11)) .ج 13 ص 463، طبعة دار هجر

[2] سنن أبي داود في (كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، حديث رقم 5074)، وأخرجه ابن ماجه في (كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، حديث رقم 3871)، وقال الألباني: حديث صحيح، كما في صحيح أبي داود (حديث رقم 5074) وصحيح ابن ماجه (حديث رقم 3871).

فمن حفظ الله حفظه الله من كل أذى كما قال بعض السلف: (من اتقى الله فقد حفظ نفسه ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه والله غنى عنه)[1]
وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته كما ورد **في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾** [الكهف: 82] أنهما حفظا بصلاح أبيهما

وقال سعيد بن المسيب لابنه لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك ثم تلا هذه الآية (وكان أبوهما صالحا).[2]

سفينة مولى النبي ﷺ مع الأسد:

ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى كما جرى لسفينة مولى النبي ﷺ عندما ركب سفينة في البحر، وفجأة انكسرت السفينة وتعلق رضي الله عنه في لوح السفينة التي تكسرت، فأخذت الأمواج اللوح وجعلت تدفعه إلى الشاطئ؛ حتى قذفه الموج على الشاطئ سالما.... فنظر حوله، فوجد نفسه في غابة بها أشجار كثيرة، وفجأة سمع صوتا رهيبا مخيفا، فالتفت فإذا بأسد متوحش قادم عليه يريده ..... فلجأ إلى الله تعالى، ثم أقبل سفينة إلى الأسد في شجاعة وثقة بالله وقال له: يا أبا الحارث (كنية الأسد عند العرب) أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ، فلما سمع الأسد ذلك منه هدأ وطأطأ رأسه وأصبح كالقط الوديع، ثم أقبل على سفينة رضي الله عنه يدفعه بمنكبه حتى أخرجه من الغابة كأنه يحرسه ويدله على الطريق، ثم التفت الأسد إلى سفينة رضي الله عنه وهمهم بصوت ضعيف كأنه يودعه.[3]

كرامة لعقبة بن نافع

وهذا عقبة بن نافع عندما قرر أن يؤسس مدينة القيروان بتونس لتكون قاعدة حربية للجيش، وانطبقت كل الشروط على منطقة أحراش مليئة بالوحوش والحيات، فقال له رجاله: "إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض (مستنقعات) لا ترام، ونحن نخاف

---

[1] ذكر هذه الآثار ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (الحديث التاسع عشر: احفظ الله يحفظك، ص 464–465، طبعة الرسالة.

[2] تفسير الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (سورة الكهف: 82) (ج 15 ص 398، طبعة دار هجر)

[3] مسند أحمد بن حنبل في (مسند أبي هريرة رضي الله عنه) (ج 2 ص 211، طبعة مؤسسة الرسالة) عن أبو هريرة رضي الله عنه أن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: «ركبت البحر فانكسرت السفينة، فخرجت على لوح من ألواحها حتى ألقتني إلى أجمة فيها أسد، فلما رآني الأسد أقبل إليّ، فقلت: يا أبا الحارث، أنا مولى رسول الله ﷺ، فطأطأ رأسه وجعل يدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة، ثم همهم كأنه يودعني»، وأخرجه المستدرك على الصحيحين لـ الحاكم النيسابوري (ج 3 ص 606) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (حديث رقم 304).

من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض" وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب الرسول ﷺ فجمعهم وقال: "إني داع فأمّنوا"، وبالفعل دعا الله عز وجل طويلاً والصحابة والناس يأمّنون.

ثم قال عقبة مخاطباً سكان الوادي: أيتها الحيّات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارتحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه".
فحدثت بعدها كرامة عجيبة حيث خرجت السباع من الأحراش تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه، والحيّات تحمل أولادها في مشهد لا يرى مثله في التاريخ، فحاول بعض الجنود قتل البعض منهم أي من الوحوش والحيات فنادى عقبة في الناس: "كفوا أيديكم عنهم حتى يرتحلوا عنا لقد عاهدناهم باسم الله؛ فكيف نخون عهد الله؟!!"[1]
وعكس هذا أن من ضيع الله ضيعه الله فضاع بين خلقه حتى يدخل عليه الضرر والأذى ممن كان يرجو نفعه من أهله وغيرهم كما قال بعض السلف إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق خادمي ودابتي.

النوع الثاني من الحفظ: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه:

فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ومن الشهوات المحرمة ويحفظ عليه دينه عند موته فيتوفاه على الإيمان.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه أمره أن يقول عند منامه (إن قبضت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[2]

وعن عمر أن النبي ﷺ علمه أن يقول: (اللهم احفظني بالإسلام قائما واحفظني بالإسلام قاعدا واحفظني بالإسلام راقدا ولا تطمع في عدوا ولا حاسدا) [3]

---

[1] ذكرها ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها (ص 276–277، طبعة دار الفكر) في خبر تأسيس القيروان، وذكر نحوها ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ج 1 ص 24)، وأوردها ابن الأثير في الكامل في التاريخ (ج 3 ص 18)، وذكرها النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب (ج 24 ص 32) بنحوها.

[2] صحيح البخاري في (كتاب الدعوات، باب إذا أوى إلى فراشه، حديث رقم 6320)، وأخرجه صحيح مسلم في (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم، حديث رقم 2714)

[3] صحيح ابن حبان في (كتاب الرقائق، باب الدعاء بالحفظ في الأحوال كلها، حديث رقم 961 – الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) وفي مسند أحمد بن حنبل (ج 1 ص 25)، وقال الألباني: إسناده ضعيف، كما في ضعيف الترغيب والترهيب (حديث رقم 600)، لوجود ضعف في بعض رواته، إلا أن معناه صحيح.

وفي الجملة فإن الله عز وجل يحفظ المؤمن الحافظ لحدود دينه ويحول بينه وبين ما يفسد عليه دينه بأنواع من الحفظ وقد لا يشعر العبد ببعضها وقد يكون كارها له كما **قال في حق يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]**

قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24] قال يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار.

وقال الحسن البصري: وقد ذكر أهل المعاصي هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم.

ومفهوم المخالفة: أن من ضيع أوامر الله ونواهيه وظلم ضيعه الله وأذله وأخزاه.

فما أهون العباد على الله، لو أضاعوا أمره:

عندما فتح المسلمون جزيرة قبرص بكى أبو الدرداء، فقيل له: تبكي في مثل هذا اليوم الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله!
فقال أبو الدرداء: بينما هذه الأمة قاهرة ظاهرة، إذ عصوا الله، فلقوا ما ترى، ما أهون العباد على الله إذا هم عصوه.
نعم ما أهونهم على الله، لو أضاعوا أمره!!...
فبينما هم في عزة وتمكين وقوة وجبروت صاروا إلى ما ترى!![1]

قوله: إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله

وهذا مقتبس من قوله تعالى: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]** فإن السؤال هو دعاؤه والرغبة إليه.

وفي الحديث عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: (الدعاء هو العبادة) [2]

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة في (كتاب الفتن، باب ما ذكر في ذلّ المعصية، ج 7 ص 126، طبعة الرشد) عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه بكى يوم فُتحت قبرص، فقيل له: تبكي في مثل هذا اليوم؟ فقال: «ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، إذ عصوا الله فصاروا إلى ما ترى»، وفي حلية الأولياء لـأبي نعيم الأصبهاني (ج 1 ص 220) بنحوه، وإسناده حسن إلى أبي الدرداء رضي الله عنه.

[2] سنن أبي داود في (كتاب الصلاة، باب الدعاء، حديث رقم 1479)، وأخرجه الترمذي في (كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، حديث رقم 2969) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي محمد ﷺ أنه قال: «الدعاء هو العبادة»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (حديث رقم 2969)، وأما حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ «الدعاء مخ

لماذا كان الدعاء هو العبادة؟

هذا كقوله الحج عرفة فأكبر مظهر من مظاهر العبادة الدعاء لماذا؟ لأن الدعاء فيه من التضرع إلى الله وإظهار الضعف والحاجة إليه أعظم ما يكون من العبد، فلذلك كان هو العبادة.

وكان الإمام أحمد يدعو قائلا: (اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك)
ودعاء المسألة يكون العبد فيه أخشع ما يكون وفِكْره حاضر، وكلما كان الفكر والقلب حاضرا في العبادة، كلما كان صاحبها أقرب إلى الله، فمن كان قلبه حاضرًا، كان دعاؤه مستجابًا.

أيضًا الدعاء هو العبادة لأن الدعاء ملازم للتوكل وللاستعانة، فإن التوكل هو اعتماد القلب على الله، والاستعانة هي اللجوء إليه طلباً للعون، والتعبير عن هذين الأمرين التوكل والاستعانة سيكون باللسان دعاءً وطلبًا، والتوكل مِن أعظم العبادات؛ لذلك كان الدعاء هو العبادة.
ومما نعلمه: أن الله من رحمته بعباده أن ينزل عليهم الحاجات، ويضيق عليهم أمور، من أجل أن يخرج منهم هذا الدعاء.

ولابد أن تتصور أن الداعي عندما يدعو الله، من المؤكد أنه يدعوه لمصلحة ومنفعة تلحقه في الدنيا أو الآخرة.

لذلك كان بعض السلف يقول: إنه تكون لي حاجة إلى الله فأدعوه فيفتح لي من لذيذ مناجاته ما أتمنى أن حاجتي لم تُقضَ!

لماذا؟ كأنه يخشى من انصراف قلبه عن هذه اللذة، يخشى أنه إن حُقّق له مراده يقع في قلبه برود تجاه الدعاء.

لذلك من فضل الله على العبد أن يورثه الله حاجة يلجأ بها إليه.

ومما يُشاهَد كثيرًا أنَّ عددا من الناس يجدون في قلوبهم ثِقَلًا عند الدعاء، وليس ذلك إلا من وسوسة الشيطان وتثبيطه؛ فلذلك ينبغي للعبد ألا يحصر قصده في الدعاء على مجرد تحصيل المطلوب، حتى لا يتسلط عليه هذا المعنى، بل يجمع قلبه على أن دعاءه عبادةٌ يتقرب بها إلى الله تعالى، وقربةٌ يقصد بها رضاه، فإن الدعاء من

العبادة» فأخرجه الترمذي (حديث رقم 3371)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (حديث رقم 3371)، وفي إسناده ضعف.

أعظم العبادات، بل هو خلاصة العبودية وروحها، إذ يجذب القلب إلى الله، ويُلجئ العبد إلى التذلل والخضوع والتضرع بين يديه.

وهذا هو المقصود الأعظم من الدعاء: دوام الافتقار والانكسار بين يدي الرب سبحانه؛ ولهذا السبب فإن الشيطان يثقل الدعاء على العبد ويكرهه، لما فيه من تحقيق العبودية، وهذا النوع من الدعاء الذي يمتلئ ذلًا وانكسارًا وافتقارًا أكمل وأعظم أثرًا من كثير من صور العبادات الأخرى.

ومما يُعين على نفع الدعاء وتأثيره: فهمُ العبد لما يدعو به، فإن الفهم يجمع القلب ويُحضره، فيكون الدعاء أبلغ وأقرب للإجابة، والله سبحانه يحب أن يُسأل، ويُرغَب إليه في الحاجات، ويُلحَّ عليه في الدعاء، ويغضب على من ترك سؤاله، مع أنه سبحانه قادرٌ على أن يُعطي الخلق جميعًا ما سألوه من غير أن ينقص ذلك من ملكه شيئًا، بخلاف المخلوق فإنه يكره أن يُسأل، ويحب ألا يُسأل، لعجزه وفقره وحاجته.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]

وجاء في الحديث عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال: " إن ربكم حييٌّ كريمٌ يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه، فيردّهما صفراً أو قال: خائبتين " [1]

وعن أبي هريرة مرفوعا (من لا يسأل الله يغضب عليه) [2]

وفي حديث آخر عن أنس بن مالك (يسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع)[3]

وشسع النعل: السير الذي يشد به
وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

الله يغضب إن تركت سؤاله ـــ وبني آدم حين تسأله يغضب

فلا تسألن بني آدم حاجة ـــوسل الذي أبوابه لا تحجب

---

[1] سنن الترمذي في (كتاب الدعوات، باب ما جاء في رفع اليدين، حديث رقم 3556) وقال الترمذي : حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه حديث رقم 3120.

[2] سنن الترمذي في (كتاب الدعوات، باب ما جاء في كراهية ترك الدعاء، حديث رقم 3373)، وقال الترمذي :حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي)حديث رقم 3373.

[3] سنن الترمذي (كتاب الدعوات، حديث رقم 3604)، وقال الترمذي :غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته حديث رقم 4937.

لم أطلب حوائج الدنيا ممن يملكها:

التقى الخليفة سليمان بن عبد الملك عند الكعبة بسالم بن عبد الله بن عمر وقد استغرق في صلاته وتسبيحه وركن بعدها إلى جدار وقد انشغل بذكر الله .... فقال له سليمان: سلني حاجة أقضها لك!
فلم يجب سالم... فكرر سليمان عليه القول..
فقال سالم: والله لأستحي أن أكون في بيت الله عز وجل ثم أسأل أحد غيره... !
فانتظر سليمان حتى خرجوا من الكعبة وكرر عليه قائلا: ها نحن قد خرجنا من المسجد فسلني حاجة أقضيها لك!
قال سالم: أمن حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟
استغرب سليمان وأخذته الدهشة وقال: بل من حوائج الدنيا يا سالم! فنظر إليه وابتسامة عريضة على شفتيه وقال: إنني لم أطلب حوائج الدنيا ممن يملكها، فكيف اطلبها ممن لا يملكها؟!!![1]

وهذه أبيات للفقيه الشافعي أبو بكر الشيرازي

قصدت باب الرجا والناس قد رقدوا ـــ وبت أشكوا إلى مولاي ما أجد

وقلت يا أملي في كل نائبة ـــ يا من إليه لكشف الضر اعتمد

اشكوا إليك أمورا أنت تعلمها ـــ مالي على حملها صبرا ولا جلد

وقد بسطت يدي بالذل مفتقرا ـــ إليك يا خير من مدت اليه يد

فلا تردنها يا رب خائبة ـــ فبحر جودك يروي كل من يرد

فوائد من وصف دعاء زكريا عليه السلام: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً} [مريم 3]

يقول ابن القيم رحمه الله – في كتاب بدائع الفوائد مختصرا:
وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانا لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء :لأبي نعيم الأصبهاني (الجزء الثاني، ص 192).

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات وإنما تخفض عندهم الأصوات ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى؛ فإذا كان يسمع الدعاء الخفي؛ فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوله بالنطق فقلبه سائل طالب مبتهل ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلا.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء فإن رفع الصوت يفرّقه ويشتّته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى.

سادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدا أنه دال على قرب صاحبه من الله وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا **بقوله: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً}** فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه وإنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك أخفي دعاءه ما أمكنه ولم يتأت له رفع الصوت به بل يراه غير مستحسن كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه وقد أشار النبي ﷺ هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر **فقال: "اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته"**[1]

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186] وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا: يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: {وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ}[2]، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء

---

[1] صحيح البخاري (حديث رقم 2992) وصحيح مسلم)حديث رقم 2704.(

[2] سنن الترمذي في (كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة البقرة، حديث رقم 2969) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا

لا للنداء الذي هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء وإنما يسأل مسألة القريب المناجي لا مسألة البعيد المنادي.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعا صوته فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات فإن الداعي إذا أخفي دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره.

تاسعها: إن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت ولا نعمة أعظم من هذه النعمة فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وألا يقصد إظهارها له، **وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: 5]** وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار فأصبح يقلب كفيه ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله وأن لا يطلعوا عليه أحدا ويتكتمون به غاية التكتم.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه فهو ذكر وزيادة كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب كما قال **النبي ﷺ: "أفضل الدعاء: الحمد لله"** [1]فسمى الحمد لله دعاء وهو ثناء محض لأن الحمد يتضمن الحب والثناء والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب فالحامد طالب لمحبوبه فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحا بالسؤال فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ـــ حياؤك إن شيمتك الحياء

سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وقال الترمذي :هذا حديث حسن غريب. وذكره ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (ج 1 ص 219)، وقال: في إسناده نظر.

[1] سنن الترمذي في (كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، حديث رقم 3383)، وقال الترمذي : حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (حديث رقم 3383)

إذا أثنى عليك المرء يوما ـــــ كفاه من تعرضه الثناء[1]

وإذا استعنت فاستعن بالله

الاستعانة: هي طلب العون من الله تعالى في أمور الدنيا والآخرة، والتبرؤ من الحول والقوة والتفويض إليه، كما قال الله تعالى: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) [هود:123].

والمعنى :وإذا استعنت أي أردت الاستعانة في الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة فاستعن بالله، فإنه المستعان، وعليه التكلان.

وقال الحافظ ابن رجب -رحمه الله :-وأما الاستعانة بالله -عز وجل- دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله -عز وجل-، فمن أعانه الله فهو المعان ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: **(لا حول ولا قوة إلا بالله)**؛ فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات، كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله -عز وجل-، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.[2]

وفي الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز)[3]

أي: لا تعتمد على الحرص فقط ولكن مع الحرص استعن بالله -سبحانه وتعالى-؛ لأنّه لا غنى لك عن الله، ومهما بذلْت من الأسباب فإنّها لا تنفع إلاّ بإذن الله -تعالى-، فلذلك جمع بين الأمرين: فعل السبب مع الاستعانة بالله -عزّ وجلّ.-واذا استعنت بالله سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك، وهو وحده الذي يستطيع أن يحول ضعفك الي قوة وَذُلك الي عز؛ فالاستعانة بالله علاج لغرور العبد وكبريائه، ويجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته، لأنك خُلقت ضعيفًا، قال تعالى: **(خُلق الإنسان ضعيفًا) [النساء: 28].**
ومعنى ضعيف: أي أنه لا يقوم بنفسه، يحتاج إلى الهواء ليتنفس، إلى الماء ليشرب، إلى الطعام ليتقوى، يحتاج دائمًا إلى معونة، يحتاج إلى مدد، يحتاج إلى من يساعده.

---

1 بدائع الفوائد ج 3 ص 6–10، طبعة الكتاب العربي باختصار يسير.
[2] جامع العلوم والحكم الحديث التاسع عشر، ص 459–461
[3] صحيح مسلم في (كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، حديث رقم 2664)

كثير من الناس يظن أنه طالما أن عنده القدرة على فعل شيء سيفعله وينسى أو يتغافل عن الاستعانة بالله، وأن أي شيء في هذا الكون لن يتم ولن يقع إلا بأمر الله وإرادته، **قال جل وعلا: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ)** [الإنسان: 30]. وفي الآية الأخرى: **(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ)** [الكهف: 23-24] "لشيء" هنا نكرة تفيد العموم، أي شيء كبير أو صغير، لا ينبغي أبدًا أن تظن أنك قادر وحدك على إنجازه إلا إذا شاء الله أن ينجز.
فمن الممكن أن يكون عندك القدرة على الفعل، وأدوات الفعل، ثم لا يتم الأمر، لماذا؟ لأن الله لم يشأ.

ودِيننا يعلمنا الارتباط الدائم بالله: وقول: أنا معتمد على نفسي، معتز بنفسي. أنا مبدع أنا عندي مواهب، كل هذا لا غبار عليه، لكن قل: مستعينًا بالله؛ لأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالله فعال لما يريد.

والنبي صلى الله عليه وسلم علمنا الاستعانة بالله مع وجود الأسباب ومع انعدام الأسباب، مع وجود القدرة ومع انعدام قدرة العبد، حتى قالوا: اطلب من الله المستحيل، أي ما يتصور عقلك أنه لن يتم؛ اطلبه من الله؛ لأن الأمور تجري بمقادير الله سبحانه وتعالى.

فالاستعانة بالله ثمرة من ثمرات العبودية الكاملة لله، وهي أن تعلن ضعفك وفقرك وحاجتك إلى الله سبحانه وتعالى في أمور الدنيا، وفي جلب ما ينفعك ودفع ما يضرك.

ومن العلماء من قال: تستعين بالله على ما لا تستطيع دفعه من المعصية.
لو أنك مفتون بمعصية من المعاصي، استعن بالله عليها، أن تسأل الله العافية، وأن يعينك على ترك هذه المعصية، وادع بهذا الدعاء: **"اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن"**

أنواع الاستعانة

والاستعانة تنقسم إلى قسمين:

- **قسم محمود.**
- **وقسم مذموم**

فالقسم المذموم: هو الاستعانة بالخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله: كإجابة الدعاء وكشف البلاء، والهداية، والإغناء، ونحو ذلك، فالله تعالى هو المتفرد بذلك الذي يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى، وهو القادر على إنزال النعم، وإزالة الضر من

غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد أحوال عباده، أو يعينه على قضاء حوائجهم، والأسباب التي بها يحصل ذلك هو خَلَقَها ويَسَّرها، فهو مُسبب الأسباب التي بها يحصل ذلك ولهذا فرض سبحانه على المصلي أن يقول في صلاته **(وإياك نستعين)**.

أما القسم الثاني المحمود: فهو الاستعانة بالله تعالى وحده، والتبرؤ من الحول والقوة، وتفويض الأمر إلى الله عز وجل.

التعلق بالأسباب:

والاستعانة بالله لا تعني إهمال الأخذ بالأسباب ولا التعلق بالأسباب على أنها الفاعلة إنما القلب يتعلق بالله والجوارح تعمل بالأسباب التي هيأها الله في الكون.
وبعض الناس تعلقت قلوبهم بالأسباب، وانصرفت عن مسبب الأسباب، ونسي هؤلاء قول الله تعالى في سورة الفاتحة **[وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ]**.

فمنهم من يتعلق قلبه ببعض الأشخاص فينافقهم أو يدافع عنهم بباطل، ومنهم من يتعلق قلبه بمكانته وسلطته ويظن أنها سبيله إلى العلو والمفاخرة بين أبناء جنسه، وهكذا دواليك، وقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن الأمر بيد الله أولاً وآخراً، وأن شؤون الخلق مدبرة تحت مشيئته وقوته وحكمته.

الوصية الثالثة

وهي قوله ﷺ :واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

يبين الرسول ﷺ في هذا الكلمات أن الأمة لو اجتمعت واتفقت كلها على نفع إنسان بشيء لم يستطيعوا نفعه إلا بشيء قد كتبه الله وقدره له، وإن وقع منهم نفع له فإنما هو من الله تعالى؛ لأنه هو الذي كتبه وقدره؛ فالرسول ﷺ لم يقل لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك، وإنما قال: **(لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك)**، فالناس ينفع بعضهم بعضاً، لكن كل هذا مما كتبه الله للإنسان، فالفضل فيه لله عز وجل أولاً، فهو الذي سخر لك من ينفعك، ويحسن إليك، ويزيل كربتك.
وكذلك لو اجتمعت الأمة على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، والإيمان بهذا يستلزم أن يكون الإنسان متعلقاً بربه، ومتكلاً عليه، لا يهتم بأحد؛ لأنه يعلم أنه لو اجتمع كل الخلق على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، وحينئذ يعلق رجاءه بالله، ويعتصم به، ولا يهمه الخلق، ولو

اجتمعوا عليه، فيجب أن يصل هذا الأمر عند كل مسلم درجة اليقين الذي لا شك فيه ، أنه لا يملك الضر والنفع أحد إلا الله ، وما الخلق إلا أسباب فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، **قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17]**

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه دبر كل صلاة مكتوبة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.) [1]

ومعنى (اللهم لا مانع لما أعطيت) أي ما قدر الله أن يحصل لك، سيحصل لك لا أحد يستطع أن يمنعه، فإذا قدر الله أنه يولد لك ولد أو أنك تتزوج فلانة، أو أنك ترزق مال، أو منـزل، لا أحد يستطيع منع ذلك أو رده، وهذا معنى قوله جل وعلا: **﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2]**

وأما قوله ﷺ (ولا معطي لما منعت)، معناه أن ما منعه ولم يقدره لك لا أحد يستطيع أن يوصله إليك، فإذا كان الله قدر أنه لا يولد لك لا أحد يستطيع أن يأتي لك بولد، وإذا كان الله قدر لك أنك تموت ما أحد يستطيع منع ذلك، وإذا قدر الله لك أنك تكون غنياً لا أحد يستطيع أن يمنعك وهذا معنى قوله جل وعلا: **(وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ)** فالآية بمعنى الحديث.

وأما قوله: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد) الجد الغنى، والسلطان، فلا ينفع ذا الغنى، والمال، والوظائف لا ينفعه غناه من الله جل وعلا، فلا يغنيه عن الله سبحانه وتعالى، من ذلك جده، وغناه، ووظائفه أي لا أحد يغنيه بدلاً من الله، إذا جاءه الجد وهو الموت ، بل ما أراده الله به نافذ، متى شاء ربه سلبه هذا كله **يقول سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]** فالعباد في أشد الفقر إلى ربهم وليس لهم غنى عنه سبحانه وتعالى أبداً، بل فقراء إليه وإن كان ملوكاً، وإن كانوا أغنياء وإن كانوا أصحاب ثروات طائلة، فهم فقراء إليه، ومتى شاء سلبهم ملكهم ومالهم في طرفة عين سبحانه وتعالى.

أهمية اليقين بالله:

إن الاعتقاد بتفرّد الله سبحانه بالضر والنفع والعطاء والمنع، وأن الخلق كلهم عاجزون عن إيصال نفع أو ضر غير مقدّر عند الله؛ إن الاعتقاد بذلك يحقق تمام التعلق بالله واللجأ إليه وسؤاله في كل حال، كما يورث أنفة واستغناء عن

---

[1] صحيح البخاري في (كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، حديث رقم 844)، وأخرجه مسلم في (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، حديث رقم 593)

الناس، وكلما أيقن العبد أن النفع والضر بيد الله وحده أوجب ذلك إفراده سبحانه بالطاعة والعبادة، وأن يقدم طاعة الله على طاعة الخلق جميعاً.

كما ورد في الأثر عن أبي سعيد الخدري: إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا ترده كراهة كاره "

وقال ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد": لا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه "[1]

ولأهمية اليقين فقد نبه الله نبيه ﷺ ألا يركن لأهل الشك ومن ليس لديهم اليقين الكامل بالله رب العالمين **قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]**
واليقين عده البعض الإيمان كله قال بعض السلف: الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله"

وقال ابن القيم: " اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان، وعليهما ينبني وبهما قوامه، وهما يُمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما تقوى الأعمال، وجميع منازل السائرين إنما تُفتتح بالمحبة واليقين، وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم. [2]

ولقد كان من دعاء النبي ﷺ كما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (اللهم قْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ ،وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصائب الدُّنْيَا ، اللهم أمتعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا ، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا ، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا ، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا ، وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا ، وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا ، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا.)[3]

وعن عامر بن عبد قيس رحمه الله، قال: «ثلاث آيات من كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلق:

---

[1] زاد المعاد في هدي خير العباد ج 4 ص 171
[2] مدارج السالكين 397/2
[3] سنن الترمذي في (كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء، حديث رقم 3502)

- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ (يونس: 107)
- ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: 6)
- ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (فاطر: 2)[1]

ثمرة اليقين:

والإيمان بهذا الأمر يزيل أمراضا كثيرة نشكو منها كالقلق والخوف من المستقبل والاضطرابات النفسية وهذه الأمراض كلها من مخلفات الحضارة المادية التي جعلت الإنسان مع ضعف إيمانه بالله يخاف من أي لحظة مقبلة فهو خائف من الغد، يتوقع دائما الكوارث والمصائب والبلايا، ولذا نرى في الغرب كل شيء وأي شيء يقومون بالتأمين عليه بالأموال الطائلة، وكل هذا بسبب القلق من اللحظة المقبلة!!

لكن يبقى السؤال هب أن إنسانا أمّن على حياته هل يحول ذلك بينه وبين الموت؟!! أو أمّن على صحته هل يحول ذلك بينه وبين المرض؟!! أبدا لا يرد ذلك شيئا من قضاء الله فهو الفعال لما يريد.

والمسلم يوقن أن هذا الكون ليس بفوضى لأن كل شيء عند الله بمقدار وبحكمة وبتقدير وتدبير، وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت لا تخفي عليه خافية ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فاليقين بذلك كله يحرر الإنسان من القلق والخوف؛ لأن الإنسان بطبيعته يخاف على نفسه وماله وعياله.

قال النبي ﷺ في وصف حال الإنسان **(أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة.)** [2]
أي: أصدق الأسماء التي تعبر عن الصفات المغروسة في البشر اسم حارث وهمام؛ لأن كل إنسان حارث، أي: أنه عامل أو كاسب، وكل إنسان همام، أي: كثير الهم والإرادة، فالإنسان مجبول على أن يقصد شيئاً ويريده، لكن ما يربط على القلوب بالسكينة هذا اليقين أن الذي يملك الضر والنفع هو الله.

اليقين عند الأنبياء

اليقين عند إبراهيم عليه السلام

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (ج 2 ص 87) في ترجمته، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (ج 3 ص 212) بنحوه

[2] سنن أبي داود في (كتاب الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح، حديث رقم 4950)، وقال الألباني: حديث حسن، كما في صحيح أبي داود (حديث رقم 4950).

وأنبياء الله علمونا هذا اليقين كما في قصة الخليل إبراهيم لما كسر الأصنام لقومه فحكموا عليه بالإعدام حرقا، فلجأوا إلى قوتهم وسلطانهم، لينصروا ما هم عليه من شرك وسفه وطغيان، فكادهم الله جل جلاله وأعلى كلمته، وأنجى عبده إبراهيم.
قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: 68-70].

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن، ثم ألقوا إبراهيم عليه السلام مقيدًا مكتوفًا في النار فقال: **حسبنا الله ونعم الوكيل.**

عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار. وقالها محمد حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 173-174] [1]

فأرادوا أن ينتصروا فخُذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتّضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغُلبوا، فكأن الله يريد أن يقول لهم إن آلهتكم عاجزة أن تنتقم لنفسها فضلا عن أنها عاجزة عن نصرتكم، وها أنتم أوقدتم النار، وألقيتم إبراهيم فيها فهل تملكون أمر النار؟!! أنتم لا تملكون شيئا لأن النار صارت بأمر الله بردا وسلاما على إبراهيم!!!فالظالم يظن أنه يقدر على كل شيء فيفعل في ظنه ما يشاء ولا يرعوي لكن الله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

اليقين عند هود عليه السلام

ولنتأمل موقف هود عليه السلام حينما هددوه بانتقام آلهتهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 53-56]

فهو يتحدى قومه قائلاً: اطلبوا لي الضرر كلكم بكل طريق تتمكنون بها مني، ثم لا تنظرون أي لا تمهلون فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه وتقديره، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم عليّ لم تقدروا على ذلك.

موسى وفرعون:

[1] صحيح البخاري في (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾، حديث رقم 4563)

وها هو كليم الله موسى عليه السلام يقول لأصحابه حينما أدركهم فرعون فوجدوا البحر من أمامهم والعدو من ورائهم : ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**﴾ **[الشعراء: 61-66]** ، فالبحر انشق ماؤه بطريق يابس وتجمد الماء على الجوانب ، ويعبر موسى وينجو ومن معه من بني إسرائيل ويهلك الله فرعون ومن معه .

النبي وصاحبه في الغار:

وهذا الحبيب محمد ﷺ يقول لصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهما في الغار وقد أحدقت بهما الإخطار " ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا " **قال سبحانه: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40]**

من يمنعك مني؟

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفلنا معه، فأدركتنا القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه، قال: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، ثلاثًا، ولم يعاقبه وجلس.
وفي رواية أخرى عند مسلم :قال له: من يمنعك مني؟ فقال: الله، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ فقال: كن خير آخذ، فقال: تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: لا، ولكن أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله.[1]

ودلالة هذه القصة على اليقين عند النبي ﷺ عظيمة جدًا، وهي من أوضح صور تحقيق التوكل الكامل على الله مع طمأنينة القلب، ويتجلى ذلك في عدة معانٍ عميقة:

---

[1] صحيح البخاري في كتاب الجهاد والسير (باب من علق سيفه بالشجر في السفر، حديث رقم 2910)، وصحيح مسلم في كتاب الفضائل (باب توكله ﷺ على الله، حديث رقم 843)

أولًا: قوله ﷺ: «الله» وهو أعزل أمام رجل يحمل سيفًا مسلولًا فوق رأسه يدل على يقين جازم لا يتزعزع بأن النفع والضر بيد الله وحده، فلم يلتفت إلى السبب الظاهر (السيف) بل إلى المسبب سبحانه، وهذا تحقيق **لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾** (الزمر: 36).

ثانيًا: لم يكن جوابه مجرد كلمة، بل حال قلب؛ لأنه لو كان في قلبه أدنى اضطراب لظهر ذلك، لكن ثباته وسكونه في أخطر لحظة دليل على أن اليقين عنده ﷺ ليس علمًا نظريًا، بل يقين قلبي لا شك فيه.

ثالثًا: تكراره «الله» ثلاثًا يدل على رسوخ هذا اليقين واستحضاره الكامل، كأن قلبه معلق بالله وحده لا يلتفت لغيره، وهذا هو أعلى درجات التوكل.

رابعًا: نتيجة هذا اليقين كانت مباشرة :سقوط السيف من يد الرجل دون سبب بشري ظاهر، وهذا يبيّن أن من صدق مع الله في التوكل كفاه الله، قال تعالى: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** (الطلاق: 3).

غزوة الأحزاب:

وفي شوال من السنة الخامسة من الهجرة النبوية المباركة وقع ابتلاء شديد على المسلمين إذ اجتمعت عليهم جموع المشركين مع غدر اليهود وتخذيل المنافقين وجاءوا بجيش قوامه عشرة ألاف، في واقعة سميت بغزوة الأحزاب، واجتمع عليهم الجوع الشديد، وبرد الشتاء، مع خوف العدو، **كما قال جابر رضي الله عنه: (إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدْية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا هذه كُدْية عرضت في الخندق فقال أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا)** [1]
وتتواصل المحن عليهم، ويعظم البلاء بهم ؛ إذ سرت في الناس شائعة أن اليهود داخل المدينة قد نقضوا عهد النبي ﷺ وأنهم سيحالفون المشركين على المسلمين، وأن الخطر قد أحاط بنساء المسلمين وذراريهم داخل حصون المدينة، وانضم إليها ظهور النفاق، وتخذيل المنافقين في أوساط المسلمين، وإضعاف معنوياتهم ببث الشائعات والأراجيف، وتخويفهم من قوة المشركين، مع الانسحاب من الجيش على ملأ من الناس، حتى قال قائل المنافقين: **(كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط)** إنها محنة عظيمة، وكرب شديد، لا يصمد أمامه إلا من كان قوي الإيمان واليقين، مع تثبيت الله تعالى وربطه على القلوب.

---

[1] صحيح البخاري في كتاب المغازي (باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، حديث رقم 4101)

ووصف القرآن العظيم هذا البلاء بأدق وصف وأبلغه، وأفصح عما أصاب المؤمنين من عظيم الشدة والكرب ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 10-13]

نعم زاغت الأبصار من شدة البلاء والكرب، وعند استحكام البلاء، وشدة الكرب يأتي الفرج من الله تعالى؛ إذ أرسل جنده على الكافرين، وخالف بينهم وبين اليهود فوقع الشر بينهم بخدعة نعيم بن مسعود رضي الله عنه الذي أسلم حينئذ وسعى بالوقيعة بين المشركين واليهود وهم لا يعلمون إسلامه، ورأى المنافقون ما يسوؤهم من بقاء الإسلام وأهله، وسلط الله الريح على الأحزاب فقلعت خيامهم وكفأت قدورهم، فعصرت الفتنة القلوب عصرا حتى لم يبق بها تعلق إلا بالله وأصاب المسلمون برد اليقين بالله لما رأوا نصر الله.

قال تعالى ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22]

اليقين والأخذ بالأسباب:

وليس معنى اليقين إهمال الأخذ بالأسباب؛ إنما نؤمن بهذا اليقين فيستعلي على آفة النفس البشرية من الخوف والقلق، أو استعجال الرزق بأكل الحرام، أو النفاق أو قول الزور والكذب، وهنا مسألة أود توضيحها:
التوكل المقصود منه التفويض والرضا؛ فليس معنى التوكل أن يعطيك الله ما تريد إنما الرضا بما يريد، فمع صدق التوكل تنكشف عين البصيرة فترى حسن اختيار الله لك، فالله سبحانه يفعل ما يراه خيرا لك لا ما تظنه أنت خير لك وذلك لأنه الحكيم وهذا معنى قولنا (حسبنا الله ونعم الوكيل) فالخير فيما يريد سبحانه لا فيما تريد أنت.

قوله: (واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك)

وقوله ﷺ في الرواية الثانية: (واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك)، هو توجيه إلى الإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره، فقوله: **(واعلم أن ما أخطأك)** أي من المقادير فلم يصل إليك، **(لم يكن)** مقدراً عليك **(ليصيبك)**؛ لأنه بان بكونه أخطأك أنه مقدر على غيرك، **(وما أصابك)** منها **(لم يكن)** مقدراً على غيرك **(ليخطئك)**، وإنما هو مقدر عليك؛ إذ لا يصيب الإنسان إلا ما قدر عليه،

ومعنى ذلك: أنه قد فرغ مما أصابك أو أخطأك من خير وشر، فما أصابك فإصابته لك محتومة لا يمكن أن يخطئك وما أخطأك فسلامتك منه محتومة، فلا يمكن أن يصيبك.

فلابد من الإيمان بأن كل ما يصيب العبد مما يضره وينفعه في دنياه فهو مقدر عليه، وأنه لا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يقدر عليه ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11]

أي أن من أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه.

روى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

يقول ابن دقيق العيد: هذا هو الإيمان بالقدر، والإيمان به واجب، خيره وشره، وإذا تيقن المؤمن هذا، فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به.

الرضا بما قضى الله:

فما أصابك هو مراد الله فيك فلا خطأ ولا خلل، ولا كما يقول البعض فلان محظوظ أو فلان منحوس، فنحن المسلمين لا نعتقد بما يسمى الحظ والنحس لأننا نؤمن أن كل شيء بقضاء الله وقدره فلا مغالبة في الرزق، أو الأجل، أو دفع ضر، أو جلب نفع، فكل شيء بإرادة الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (المُؤمِنُ القَويُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ، احرِصْ على ما يَنفَعُكَ، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجِزْ، وإن أصابَكَ شَيءٌ فلا تَقُلْ: لو أنّي فعَلتُ كان كَذا وكَذا، ولَكِن قُلْ: قدَرُ اللهِ وما شاءَ فعَلَ؛ فإنَّ لو تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ).[1]

وهذا الحديث من أعظم ما يبيّن حقيقة اليقين والتوكل، وتأمل كيف جمع بين أصول عظيمة:

في قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك» أمرٌ بالأخذ بالأسباب، والسعي، والعمل، وعدم التواكل، **ثم قال: «واستعن بالله»** فربط الأسباب بالله، فلا يعتمد القلب على نفسه ولا على الأسباب، بل على الله، وهذا هو **اليقين**.

---

[1] صحيح مسلم في كتاب القدر (باب في الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم 2664)

ثم قال: «ولا تعجز» نهي عن الاستسلام والكسل، لأن ضعف الهمة يناقض كمال التوكل، **ثم قال: «وإن أصابك شيء فلا تقل لو...»** وهذا مقام **الرضا والتسليم** بعد وقوع القضاء، لأن قول (لو) يفتح باب الندم والاعتراض، ويضعف اليقين.

ثم أرشد إلى القول الصحيح: **«قَدَرُ الله وما شاء فعل»** وهو أعظم كلمة تعالج القلب، لأنها تعيد العبد إلى حقيقة أن كل شيء بقدر الله.

وقال أبو الدرداء: إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به

وقال ابن مسعود إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا وجعل الهم والحزن في الشك والسخط

وقال عمر بن عبد العزيز أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر فمن وصل إلى هذه الدرجة كان عيشه كله في نعيم وسرور

وقال عبد الواحد بن زيد الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين.

وقال جعفر الصادق: (إن الله أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء، فما أراده بنا أخفاه عنا، وما أراده منا بيَّنه لنا، فما بالنا نَنْشغل بما أراده بنا ... عمَّا أراده منا؟!)

يقول ابن رجب الحنبلي : واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه ؛ فإن العبد إذا علم أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ؛علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع ؛ فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة ، وحفظ حدوده ؛ فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئا ، فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله أوجب له ذلك إفراده بالخوف ، والرجاء، والمحبة
والسؤال، والتضرع ، والدعاء ، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعا ، وأن يتقي سخطه ، ولو كان فيه سخط الخلق جميعا ، وإفراده بالاستعانة به والسؤال
له ، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء ، خلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيانه في الرخاء ودعاء من يرجون نفعه من دونه .
قال الله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ

أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38][1]

قوله: (رفعت الأقلام وجفت الصحف)

هذا التعبير كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد فإن الكتاب إذا فرغ من كتابه ورفعت الأقلام عنه وطال عهده فقد رفعت عنه الأقلام، وجفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها.

وقد دل الكتاب والسنن الصحيحة الكثيرة على مثل هذا المعنى قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22]

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)[2]

وعن جابر (أن رجلا قال يا رسول الله فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال: لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير. قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له)[3]

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: (إن أول ما خلق الله القلم ثم قال اكتب فكتب في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) [4]

وهذا يدل على أن ما في علم الله تعالى، أو ما أثبته سبحانه في أم الكتاب ثابت لا يتبدل ولا يتغير ولا ينسخ، وما وقع وما سيقع كله بعلمه تعالى وتقديره، وهذه الجملة من الحديث تأكيد لما سبق من الإيمان بالقدر، والتوكل على الله وحده، وألا يتخذ إلهاً سواه، فإذا تيقن المؤمن هذا فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به، ولهذا قال: **(رفعت الأقلام وجفت الصحف)** أي لا يكون خلاف ما ذكرت لك بنسخ ولا تبديل.

شرح الرواية الأخرى للحديث

---

[1] جامع العلوم والحكم1/484

[2] صحيح مسلم في كتاب القدر (باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، حديث رقم 2653)

[3] صحيح مسلم في كتاب القدر (حديث رقم 2647)

[4] سنن الترمذي في كتاب القدر (حديث رقم 2155)، وسنن أبي داود (حديث رقم 4700)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم 2017).

في رواية الإمام أحمد وغيره "احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك. وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً".

قوله ﷺ :(احفظ الله تجده تجاهك) وتنطق تجاهك بضم التاء وكسرها
معناه أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده، **كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]**
قال قتادة: من يتق الله يكن معه ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضل.
وكتب بعض السلف إلى أخ له أما بعد فإن كان الله معك فمن تخاف وإن كان عليك فمن ترجو.
وهذه المعية الخاصة هي المذكورة في قوله تعالى لموسى وهارون **(لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى)** [طه :46]
وقول موسى (كلا إن معي ربي سيهدين) [الشعراء: 62]

قوله ﷺ: "تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"

الرخاء ضد الشِّدّة، وحال الرخاء يشمل كل أحوال الإنسان الاعتيادية، أما الشدائد فهي عارضة وليست دائمة.

والمعنى :أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه فقد تعرف بذلك إلى الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة فعرفه ربه في الشدة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه.
وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه **(ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه)**
وفي رواية: (ولئن دعاني لأجيبنه)[1]
فالمسلم يلجأ إلى الله تعالى في أحواله كلها؛ في سرَّائه وضرَّائه، وشدَّته ورخائه، وصحته وسقمه، فلا يقتصر ذلك في حال الشدة فقط إذ أن ملازمةُ المسلم للطاعة

[1] صحيح البخاري في كتاب الرقاق (باب التواضع، حديث رقم 6502)

والدعاء حال الرخاءِ، ومواظبته على ذلك في حال السرَّاء سببٌ عظيمٌ لإجابة الدعاء عند الشدائد، والمصائب، والكُرَب، والبلاء.
وقد جاء في الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فلْيُكثِر الدعاءَ في الرخاء)[1]

وقد ذمَّ الله في مواطن كثيرة من كتابه العزيز من لا يلجأون إلى الله ولا يُخلصون الدِّين إلاَّ في حال شدَّتهم، أمَّا في حال رخائهم ويُسرهم وسرَّائهم، فإنَّهم يُعرضون وينسون ما كانوا عليه "
يقول الله تعالى :﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12] وقال :﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8]

فهي تدلُّ دلالة واضحة على ذمِّ مَن لا يعرف الله إلاَّ في حال ضرَّائه وشدَّته، أمَّا في حال رخائه فإنَّه يكون في صدود وإعراض ولَهوٍ وغفلة وعدم إقبال على الله تبارك وتعالى.

فالواجبَ على المسلم أن يُقبلَ على الله في أحواله كلِّها في اليُسرِ والعُسرِ، والرخاءِ والشدِّةِ، والغنى والفقرِ، والصحةِ والمرضِ، ومَن تعرَّف على الله في الرخاء عرفه الله في الشدَّة، فكان له معيناً، وحافظاً، ومؤيِّداً، وناصراً.

قال ابن رجب رحمه الله :"معرفة العبد لربه نوعان:

أحدُهما: المعرفةُ العامة، وهي معرفةُ الإقرار به والتَّصديق والإيمان، وهذه عامةٌ للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميلَ القلب إلى الله بالكلية، والانقطاعَ إليه، والأُنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكينُ أهلُ الدُّنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيبَ ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفةُ الله عز وجل".
وقال أحمدُ بنُ عاصم الأنطاكيُّ :"أحبُّ أنْ لا أموتَ حتّى أعرفَ مولاي".
ومعرفة الله أيضاً لعبده نوعان:

---

[1] سنن الترمذي في كتاب الدعوات (حديث رقم 3382)، وقال الترمذي: حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم 6290).

معرفة عامة وهي علمه سبحانه بعباده، واطِّلاعه على ما أسرُّوه وما أعلنوه، كما قال: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: 16] وقال، ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ [النجم: 32]

والثاني: معرفة خاصة: وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبَه إليه، وإجابةَ دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكى عن ربِّه **(ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، فلئن سألني، لأُعطِيَنَّهُ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه)** [1]

مقارنة بين يونس وهو في بطن الحوت وفرعون وهو يغرق:

إن معرفة الله والإيمان به وتعظيمه ليست شيئًا طارئًا يلجأ إليه الإنسان لينقذ نفسه من الهلكة، كما فعل عدو الله فرعون حينما أدركه الغرق، فلجأ إلى الله وقال: ﴿**آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (يونس: 90) فيجيبه الله :﴿**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾ **(يونس: 91–92)**

ومن الملفت للنظر أن كلمة ﴿**آلْآنَ**﴾ في قراءة حفص فيها مدٌّ لازم بمقدار ست حركات، كأن فيها توبيخًا: أفي هذا الوقت فقط تذكّرت أن لك إلهًا تؤمن به؟

أما سيدنا يونس عليه السلام، حينما ابتلعه الحوت: ﴿**فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ **(الأنبياء: 87)**

فلماذا قُبِلَت هذه الكلمة من يونس، ولم تُقبل من فرعون، مع أن كليهما قال كلمة التوحيد في الشدة؟

الجواب:

- أن فرعون لم يعرف الله قبل المحنة، فلم تنفعه عند المحنة.
- أما يونس عليه السلام، فقد عرف الله قبل المحنة، فلما جاءت المحنة نفعته هذه الكلمة.
- فرعون قال بكبر وغرور: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: 24)
- أما يونس، فنادى وهو مكظوم بالتوحيد والتوبة والخضوع.

---

[1] جامع العلوم والحكم473/1

- أن يونس قال: «**لا إله إلا أنت**»، فخاطب الله مباشرة، وكأنه حاضر بقلبه مع ربه.
- أما فرعون فقال: «**لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل**»، فجاء بصيغة الغائب، مما يدل على ضعف اليقين وعدم تحقق المعرفة.
- فقُبِلَت كلمة التوحيد من يونس لأنه كان من المسبّحين.
- ولم تُقبل من فرعون لأنه لم يكن كذلك.
- ففرعون قالها ليتخلص من الغرق، لا عن إيمان صادق سابق.

قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة:

قصّ النبي ﷺ خبر ثلاثة من بني إسرائيل آواهم المبيت إلى غار، فانحدرت عليهم صخرة عظيمة فأغلقت فم الغار، فأصبحوا في كرب شديد، لا يستطيعون الخروج، ولا يسمعهم أحد، ولا يقدرون على دفع الصخرة.
فلم يجدوا وسيلة للنجاة إلا أن يتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم في الرخاء.
فدعا الأول ببرّه لوالديه، إذ كان لا يقدم عليهما أحدًا، حتى إنه جاء يومًا بلبن فوجدهما نائمين، وأطفاله يبكون من الجوع عند قدميه، فلم يوقظهما، ولم يطعم أبناءه قبلهما، بل انتظر حتى استيقظا، ثم سقاهما، وقال :اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه.
ودعا الثاني بعفته وخوفه من الله، إذ تمكن من امرأة كان يحبها، فلما همّ بها قالت: «اتق الله»، فتركها لله، فقال :اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه..
ودعا الثالث بأمانته، إذ استأجر أجيرًا فلم يأخذ أجره، فاستثمره له حتى صار مالًا كثيرًا، فلما جاءه الأجير أعطاه كل المال، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فاستجاب الله لهم، وانفرجت الصخرة، وخرجوا يمشون. [1]

الله أكبر، صدق رسول الله ﷺ حين قال: (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)

قوله: (وأنَّ النصرَ مع الصبرِ)

[1] صحيح البخاري في كتاب الأدب، باب: برّ الوالدين، حديث رقم 5974، وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الدعاء والتوسل إلى الله بصالح الأعمال، حديث رقم 2743.

معناه عند أهل العلم أوسع من أن يكون خاصًّا بنصر الحرب فقط؛ بل يشمل النصر على العدو الظاهر، والنصر على العدو الباطن وهو النفس والهوى والشيطان، وقد نص ابن رجب على أن هذا يشمل «الجهادين»: جهاد العدو الظاهر وجهاد العدو الباطن، فمن صبر فيهما نُصِر وظفر، ومن جزع قُهر وصار أسيرًا لعدوه.

فالنصر من الله على أعداء الدين والدنيا إنما يكون مع الصبر على الطاعة وعن المعصية، فالصبر والنصر متلازمان، والثاني ثمرة الأول.
وقرر ابن القيم المعنى نفسه بعبارة قوية فقال إن الصبر والنصر) أخوان شقيقان)

وهذا المعنى يشهد له القرآن نصًا، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: 200]، **وقال سبحانه:** ﴿**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: 46]، وقال جل وعلا: ﴿**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: 90].

فالنصر ليس ثمرة الحماس المجرد، ولا كثرة العدد وحدها، ولا مجرد تمنِّي التمكين، بل هو ثمرة صبرٍ على أمر الله، وصبرٍ عن معصيته، وصبرٍ على أقداره المؤلمة، ولهذا كان نصر الله ليوسف عليه السلام بعد صبره، وكان موسى عليه السلام ومن معه بعد طول الابتلاء هم المنصورين، وكان نبينا ﷺ في مكة والمدينة يربّي أصحابه على الصبر قبل التمكين. ومعنى «مع» هنا معيةُ اقتران ووعد، أي أن النصر يسير في طريق الصابرين، لا أنه ينفصل عنهم .

وقوله ﷺ: «وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ»

«الكرب» هو الشدة التي تضيق بها النفس ويشتد معها الهم وتبلغ الحال مبلغ الضيق. فالنبي ﷺ لم يقل فقط إن الفرج يأتي بعد الكرب، بل قال: «مع الكرب»، ليغرس في القلب أن أبواب الفرج قد تُفتح في أثناء الشدة نفسها، وأن ساعات الانكشاف تبدأ من داخل لحظات الاختناق، لا بالضرورة بعد انتهائها بزمن طويل. فالفرج يحصل سريعًا فلا يدوم معه الكرب، وهذا معناه أن الواجب على من نزل به البلاء أن يصبر ويحتسب ويحسن الظن بربه.

وذكر ابن رجب أن من لطائف اقتران الفرج بالكرب أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى حصل للعبد اليأس من المخلوقين، فتعلق قلبه بالله وحده، وهذا من أعظم أسباب الفرج؛ لأن صدق الافتقار إلى الله من أقوى أبواب الإجابة والكشف .

فالمؤمن إذا ضاقت به الأسباب وتكسرت في يده الوسائل لا ينظر إلى انسداد الأبواب، بل ينظر إلى رب الأبواب .

وأما قوله ﷺ: «وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»

فهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5-6].

و«العسر» جاء معرفًا بالألف واللام في الموضعين، وقال «يسرًا» نكرة في الموضعين، وهذا معنى الأثر المشهور «**لن يغلب عسرٌ يسرين**»، لأن العسر المعرف هو واحد مكرّر، وأما اليسر المنكَّر فكل واحد منهما غير الآخر.
والقاعدة تقول: الاسم إذا تكرر معرفًا فالثاني هو الأول غالبًا، وإذا تكرر منكّرًا فالثاني غير الأول غالبًا، فصار في الآيتين عسر واحد ويسران .

لكن ينبغي أن يُفهم هذا الفهم على وجهه الصحيح؛ فليس المراد أن كل عسر يزول فورًا، ولا أن المؤمن لا يذوق ألمًا، بل المراد أن الله جعل في أثناء العسر ألطافًا خفية، ومع العسر فتحًا قريبًا أو لطفًا يهوّن البلاء أو ثوابًا يعظم به الأجر أو مخرجًا لم يكن محتسبًا. ولهذا قال العلماء إن «مع» هنا على بابها في الأصل، أي المصاحبة؛ لأن أوائل اليسر قد تبدأ قبل تمام انقضاء العسر، فكم من بلاء في ظاهره ضيق وفي باطنه تربية، وكم من محنة خرج منها صاحبها بإيمان أرسخ وقلب أصفي ودعاء أصدق وتعلقٍ بالله لم يكن عنده قبلها.

وخلاصة كلام العلماء في هذا الموضع أن الجمل الثلاث مرتبة ترتيبًا بديعًا.

- فـ «النصر مع الصبر» قاعدة العمل والمواجهة.
- و«الفرج مع الكرب» قاعدة الرجاء عند اشتداد البلاء.
- و «مع العسر يسرًا» قاعدة اليقين الدائم التي تمنع القنوط وترد القلب إلى حسن الظن بالله.

فكأن النبي ﷺ يقول للمؤمن: إذا طال الطريق فاصبر، وإذا اشتدت الشدة فانتظر الفرج، وإذا رأيت العسر مطبقًا من كل جهة فاعلم أن الله قد قرن به يسرًا لا ينفك عنه.

أهم ما يستفاد من الحديث:

1. حفظ حدود الله سبب لحفظ العبد؛ فمن حفظ أوامر الله ونواهيه حفظه الله في دنياه وآخرته .

2.الجزاء من جنس العمل قاعدة عظيمة، فمن حفظ الله حفظه، ومن ضيّعه ضيّعه الله .

3.حفظ الله يشمل الدين والدنيا، وأعظم الحفظ أن يحفظ العبد على الإيمان حتى الموت .

4.الحفظ الدنيوي يشمل البدن والأهل والمال، وقد يكون بطرق خفية لا يشعر بها العبد .

5. من أعظم الحفظ حفظ القلب من الانحراف، وذلك بالوقاية من الشبهات والشهوات .

6.صلاح العبد يمتد أثره لذريته، فيحفظ الله الأبناء بسبب صلاح الآباء .

7.الدعاء هو لبّ العبادة وروحها، لأنه يجمع الذل والخضوع والتعلق بالله .

8.يجب على المؤمن سؤال الله وحده، فلا يُسأل غيره فيما لا يقدر عليه إلا هو .

9.الاستعانة بالله في كل الأمور؛ فلا يتم عمل إلا بعون الله وتوفيقه .

10.الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، بل هو من كمال التوكل على الله .

11.التعلق بالأسباب خلل في العقيدة، لأن الأسباب لا تنفع إلا بإذن الله .

12.يجب أن يتعلق القلب بالله لا بالناس، فالناس أسباب والله هو المسبب .

13.الخلق لا يملكون نفعًا ولا ضرًا استقلالًا، وإنما ينفعون ويضرون بما قدّره الله .

14.الإيمان بالقدر يورث الطمأنينة، ويزيل الخوف من المستقبل والناس .

15.اليقين بالله يعطي قوة داخلية عظيمة تجعل العبد ثابتًا أمام الفتن .

16.اليقين يحرر القلب من القلق والاضطراب، لأنه يعلم أن الأمور بيد الله .

17.اليقين يمنع التذلل للمخلوقين؛ فيعيش العبد بعزة واستغناء .

18.النصر مرتبط بالصبر ارتباطًا وثيقًا، فلا يتحقق نصر بدون صبر طويل .

19.الصبر يشمل كل جوانب الحياة؛ صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى البلاء .

20.اشتداد البلاء علامة قرب الفرج، لأن الله يجعل بعد الضيق سعة .

21.العسر لا يأتي إلا ومعه يسر، فهما مقترنان لا ينفصلان .

22.الشدة تقطع التعلق بالمخلوقين، وتجعل القلب متعلقًا بالله وحده .

23.الدعاء في الرخاء سبب للإجابة في الشدة؛ فمن عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة .

24.الصبر واجب على كل مؤمن، أما الرضا فمستحب وهو درجة أعلى .

****

الحديث العشرون

إذا لم تستح

فاصنع ما شئت

(20) إذا لم تستح فاصنع ما شئت

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت" رواه البخاري.[2]

التعريف براوي الحديث

- هو أبو مسعود عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري.
- ويُنسب إلى بدر فيقال له البدري؛ لأنه سكن موضعًا يُسمى بدرًا، وقيل: لأنه شهد بدرًا الصغرى، وإن كان المشهور عند كثير من أهل العلم أنه لم يشهد بدرًا الكبرى.
- كان من كبار فقهاء الصحابة وعلمائهم، وعُرف بالحكمة والفقه.
- شهد مع النبي ﷺ عددًا من المشاهد بعد بدر، وروى عنه جماعة من كبار التابعين.
- روى عن النبي ﷺ 102حديثا.
- ولاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على الكوفة مدة من الزمن.
- توفي رضي الله عنه بالكوفة، وقيل: سنة 40هـ، وقيل بعدها بقليل.

شرح الحديث

قول النبي ﷺ: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى)

دليل على أن الجملة الواردة هي من مأثور كلام الأنبياء السابقين من غير تحديد نبي معين، وأنَّ الحَيَاء لم يزل أمره ثابتًا، منذ زمان النُّبوَّة الأولى، وأنه ما مِن نبيٍّ إلَّا وقد نَدَب قومه إلى الحَيَاء.

---

(1) عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري، من بني الحارث بن الخزرج، وهو مشهور بكنيته، ويعرف بأبي مسعود البدري؛ لأنه رضي الله عنه كان يسكن بدرا، وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: إنه لم يشهد بدرا، وهو قول إسحاق، وكان أحدث من شهد العقبة سناً، وشهد أحدا وما بعدها من المشاهد، مات أبو مسعود سنة أربعين، وقيل: إحدى أو اثنتين وأربعين.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء (باب حديث الغار، حديث رقم 3483)، وأخرجه أيضًا في كتاب الأدب (باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت، حديث رقم 6120)

هل الصواب (لم تستح) (بالياء) أم (لم تستح) بالحاء فقط مع حذف حرف العلة (الياء)؟

الفعل "استحيا"، مضارعه "يستحيي" بياءين، وعند جزم المضارع نحذف الياء الأخيرة فنقول: **"إذا لم تستح فاصنع ما شئت"**، واستعمل الفعل في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ [البقرة: 26]

واستعمل ماضيه **في الحديث الشريف في قوله ﷺ: "فقال: ارجع إلى ربك، فقلت: قد استحييت من ربي"**[1] ولم يقل "استحيت"، ويجوز تخفيفا أن نقول "استحى" و"يستحي"، فيكون المجزوم "لم يستح" على أنه فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة، وبكلا الفعلين جاء الحديث مرويا.

ما هو الحياء؟

الحياء في اللغة هو الحشمة، ضد الوقاحة، وهو مشتق من الحياة، ولذا قال بعض البلغاء: حياة الوجه بحيائه، كما أن حياة الغرس بمائه، وقالوا: أكمل الناس حياة أكملهم حياء.

وشرعا: هو صفة وخلق يكون في النفس، فيبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق كل ذي حق.
وقيل هو: تغيُّر وانكسار يعتري الإنسان مِن خوف ما يُعَاب به ويُذَمُّ، ومحلُّه الوجه.

قال ابن القيّم: (خُلق الحَيَاء مِن أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّة الإنسانيَّة، فمَن لا حياء فيه، فليس معه مِن الإنسانيَّة إلَّا اللَّحم والدَّم وصورتهما الظَّاهرة، كما أنَّه ليس معه مِن الخير شيء)[2]

ما الفرق بين الحياء والخجل؟

الخجل يعرّفه علماء النفس بأنه: ارتباك نتيجة موقف، كسؤال المعلم للطالب؛ فتجد الطالب يخجل ولا يستطيع عرض رأيه بوضوح، فالخجل ناتج عن جبن أو خوف؛ فالشخصية الخجولة شخصية ضعيفة.

أما الحياء فعكس ذلك تماما، لأن الحياء ناتج عن شخصية قوية، تستشعر قيمتها فهي كريمة تستعلي أن تفعل القبائح، ولهذا يُقَال: فلانٌ يستحي في هذا الحال أن

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الصلاة (باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، حديث رقم 349)، وفي كتاب أحاديث الأنبياء (باب المعراج، حديث رقم 3207)، ومسلم في كتاب الإيمان (باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات، حديث رقم 162)

[2] مفتاح دار السعادة.(1/277)

يفعل كذا، ولا يقال: يخجل أن يفعله في هذه الحال؛ لأنَّ هيئته لا تتغيَّر منه قبل أن يفعله، فالحياء حفاظ على المكانة والعزة ومكارم الاخلاق، فيمنع صاحبه من الدناءة والكذب وأكل الحرام ومن اللفظ البذيء.
والخَجَل ممَّا كان والحَيَاء ممَّا سيكون.

إذن الحياء محمود، أما الخجل فهو غير محمود.

الحياء نوعان من حيث المصدر:

الأول: حياء طبيعي يخلقه الله ويوجده في جبلة العبد بحيث ينشأ من الصغر متصفا بالحياء؛ فيجتنب القبيح، ويفعل الحسن بلا تكلف، وهو قليل في الناس، وصاحبه يحميه الله من الصبوة، والمعاصي منذ نعومة أظفاره؛ كحال نبينا محمد ﷺ، وهذا من أجمل الأخلاق، ولهذا قال النبي ﷺ: **(الحياء لا يأتي إلا بخير)**[1]
الثاني: حياء مكتسب وهو الذي يتخلق المرء به، ويكتسبه بالتعلم، والتربية، والمجاهدة، والمصابرة، والتفكر، ولم يكن الحياء من خلقه، وهذا حال كثير من الناس لم يعرفوا بالحياء في نشأتهم ثم تعرفوا عليه، وربوا أنفسهم، ودربوها على الحياء، ثم تخلقوا به، وهذا من خصال الإيمان.

وقد أوصى النبي ﷺ رجلا فقال: **(أُوصيكَ أنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كما تَسْتَحِي رجلًا من صالحي قومك)**[2]

قوله: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) ورد في تفسيرها قولان لأهل العلم:

القول الأول: أنه ليس على سبيل الأمر وإنما هو على سبيل الذم والنهي عنه.

ولهم وجهان في تفسير هذا القول:

الوجه الأول: أنه أمر بمعنى التهديد والوعيد وله نظائر في القرآن، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: 40]
والمعنى إذا لم يكن عندك حياء فاعمل ما شئت والله مجازيك على فعلتك.

الوجه الثاني: أنه أمر بمعنى الخبر

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب (باب الحياء، حديث رقم 6117)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان (باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضل الحياء وكونه من الإيمان، حديث رقم 37)

[2] أخرجه أحمد في الزهد (ص 41، رقم 248)، وقال أبو حاتم: سعيد بن يزيد لا صحبة له، وقال ابن رجب: ورويناه بإسناد فيه ضعف، وصححه الألباني في صحيح الجامع (2541) وفي السلسلة الصحيحة.(741)

والمعنى: من لم يكن عنده حياء فعل كل ما يستنكر، ومن كان عنده حياء منعه عن كل قبيح؛ كما جاء في الحديث: **(من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)**[1] أي فقد تبوأ مقعده، وهذا اختيار الإمام أحمد.
وكلا الوجهان جائزان في اللغة إلا أن الثاني هو الأقرب والأكثر استعمالا.

والقول الثاني: أن الحديث أمر على ظاهره يفعل المؤمن ما يشاء من قول وتصرف إذا كان لا يستحي من فعله عادة لا من الله ولا من خلقه فيفعله، ولا يضره كلام الناس إذا كان من أفعال الطاعات وجميل الأخلاق.

والقول الأول أصح في تفسر الحديث لأن المقصود التنفير والتحذير من ترك الحياء وبيان أثر ذلك في أخلاق المؤمن.

فضل الحياء:

والحياء من العبد ممدوح في كل حال، وفي كل أمر، وقد كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها؛ يعرف فرحه، وغضبه، واستبشاره، وكراهيته في وجهه الشريف، فلا يذم الحياء من العبد، ولو هضم حقه، وانتقصه الناس، ولذلك **ورد في الصحيحين: (أن النبي ﷺ مر على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء يقول إنك لتستحيي كأنه يقول قد أضر بك فقال رسول الله ﷺ دعه فإن الحياء من الإيمان)**[2]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستُّون- شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلَّا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطَّريق. والحياء شعبة مِن الإيمان) رواه مسلم[3]

معنى قوله :(الحَيَاء شعبة مِن الإيمان) أنَّ الحَيَاء يقطع صاحبه عن المعاصي ويحجزه عنها، فصار بذلك مِن الإيمان، وإنَّما أفرد صلَّى الله عليه وسلَّم هذه الخصلة مِن خصال الإيمان في هذا الحديث، وخصَّها بالذِّكر دون غيرها مِن باقي شعب الإيمان؛ لأنَّ الحَيَاء كالدَّاعي إلى باقي الشُّعب، فإنَّ صاحب الحَيَاء يخاف

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم (باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 107)، ومسلم في مقدمة صحيحه (باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 3)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان (باب الحياء من الإيمان، حديث رقم 24)، وفي كتاب الأدب (باب الحياء، حديث رقم 6118)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان (باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضل الحياء وكونه من الإيمان، حديث رقم 36)

(3) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان (باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، حديث رقم 35)

فضيحة الدُّنْيا والآخرة فيأتمر وينزجر، فلمَّا كان الحَيَاء كالسَّبب لفعل باقي الشُّعب؛ خُصَّ بالذِّكر ولم يذكر غيره معه.

وفي الصحيحين أيضا قول النبي ﷺ قال: (الحياء لا يأتي إلا بخير)[1]

معناه أنَّ مَن استحيا مِن النَّاس أن يروه يأتي الفجور ويرتكب المحارم، فذلك داعيةٌ له إلى أن يكون أشدَّ حياءً مِن ربِّه وخالقه، ومَن استحيا مِن ربِّه فإنَّ حياءه زاجرٌ له عن تضييع فرائضه وركوب معاصيه.

والحياء يدعو لكل خير وعاقبته حسنة في الدنيا والآخرة، لأنه يلزم صاحبه فعل كل ما هو جميل، ويصونه عن مقارفة كل قبيح، ومبعث هذا الحياء هو استشعار العبد لمراقبة الله له، ومطالعة الناس إليه، فيحمله ذلك على استقباح أن يصدر منه أي عمل يعلم منه أنه مكروه لخالقه ومولاه، ويبعثه على تحمّل مشقة التكاليف؛ ومن أجل ذلك جاء اقتران الحياء بالإيمان في غير ما موضع من النصوص الشرعية، في إشارة واضحة إلى عظم هذا الخلق وأهميته.

وإذا ترك العبد الحياء كله ذهب إيمانه وارتكب المحرمات وترك الفضائل لخلو قلبه من مهابة الله ومهابة الناس وإذا نقص حياؤه نقص إيمانه وبره بقدر ما نقص من حيائه والناس في هذا الباب مقل ومكثر.

صور الحياء

من صور الحياء المحمود:

1- الحياء من الله:

وذلك بالخوف منه ومراقبته، وفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه، وأن يستحي المؤمن أن يراه الله حيث نهاه، وهذا الحياء يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي والآثام؛ لأنه مرتبط بالله يراقبه في حله وترحاله.

2- الحياء من الملائكة:

المقصود بالحياء من الملائكة أن المؤمن إذا استحضر أن معه ملائكةً كرامًا كتب الله عليهم أن يلازموه، ويكتبوا أقواله وأعماله، فإنه يستحي أن يروه على حالٍ قبيحة، أو يسمعوا منه كلامًا فاحشًا، أو يكتبوا عليه ما يسوؤه يوم القيامة.

فهذه المرتبة من الحياء تنشأ من تعظيم ما عظّمه الله، لأن هؤلاء الملائكة عبادٌ مكرمون، كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ **[الانفطار: 10-12]** فإذا تذكّر العبد هذا المعنى صار أكثر محافظةً على ألفاظه،

---

[1] سبق تخريجه.

وأشدَّ احترازًا من القبائح، وأبعدَ عن التبذل وكشف العورات بغير حاجة، وأشدَّ مراقبةً لنفسه في خلوته وجلوتِه، وهذا النوع من الحياء يعين على تزكية النفس؛ لأن بعض الناس قد يضعف استحياؤه من الخلق إذا خلا، لكن إذا تذكر أن خلوته ليست خلوةً حقيقة، وأن الله مطلع عليه، وأن الملائكة تكتب عليه، قوي عنده الورع، وابتعد عن الذنوب الخفية؛ فالحياء من الملائكة مرتبة نافعة، لكن فوقها وأعظم منها الحياء من الله نفسه، لأن الملائكة إنما هم شهود وكتبة بأمره سبحانه.

3- الحياء من الناس:

وهو دليل على مروءة الإنسان؛ فالمؤمن يستحي أن يؤذي الآخرين سواء بلسانه أو بيده، فلا يقول القبيح ولا يتلفظ بالسوء، ولا يطعن أو يغتاب أو ينم، وكذلك يستحي من أن تنكشف عوراته فيطلع عليها الناس، ومن الحياء أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم ومراتبهم، فيؤتي كل ذي فضل فضله، فالابن يوقر أباه، والتلميذ يحترم المعلم، والصغير يتأدب مع الكبير. فلا يسوغ أن يرفع فوقهم صوته، ولا أن يجعل أمامهم خطوة.

ومن تمام الحياء أن يدع المرء ما يستهجنه الناس مما سكت عنه الشرع لأنه من المروءة؛ أي أن هناك أفعالًا قد لا تكون محرمة في أصل الشرع، لكن أهل الفضل والاستقامة يستقبحونها ويرونها من خوارم المروءة ونقص الأدب، فتركها يكون من كمال الحياء وحسن السمت، لا لأن الشرع نص على تحريمها، ولكن لأن المؤمن لا يطلب مجرد السلامة من الحرام فقط، بل يطلب أيضًا كمال الأدب وجمال الهيئة وحسن الذكر بين الناس.

فمثلًا قد يفعل الإنسان أمرًا مباحًا، لكن طريقته فيه فيها ابتذال أو إسفاف أو سقوط هيبة، فيتركه حياءً وصيانةً لنفسه.

فهذا داخل في المروءة، وهي حفظ النفس عما يشينها عند أهل الدين والعقل، لكن هذا مقيد بقيد مهم، وهو أن يكون الشيء مما يستهجنه أهل الفضل والاستقامة، لا أهواء الناس الفاسدة؛ لأن بعض الناس قد يستهجنون الطاعة نفسها أو يستغربون التمسك بالدين، فهذا لا يُلتفت إليه.

4- تجنب مواطن الشبهات:

ومن الحياء من الناس أن يتجنب المرء المواطن التي يستحيا منها؛ أي أن صاحب الحياء لا يكتفي بترك القبيح نفسه، بل يبتعد أيضًا عن الأماكن والأحوال والملابسات التي تجر عليه التهمة أو تعرضه لمواضع الريبة أو تجعله في صورة غير لائقة، لأن الحياء الحقيقي يجعل الإنسان حذرًا من كل ما يجرح عرضه أو

يضعه في موضع يعتذر منه، فمثلًا لا يكثر من الجلوس في أماكن اللهو، والاختلاط المشبوه، ولا يدخل في تصرفات قد تُفهم فهمًا سيئًا، ولا يعرّض نفسه لمواطن الشبهة ثم يقول: أنا لم أفعل حرامًا، بل من كمال حيائه أن يصون نفسه قبل الوقوع في التهمة، **كما قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه-: إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره ولو كان عندك اعتذاره.**

وقال الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء

5- حياء المرأة المسلمة:

قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25]، وهذه الآية تتحدَّث عن حياء الابنة، حين جاءت إلى موسى عليه السَّلام تدعوه إلى أبيها ليجزيه على صنيعه، فجاءت إليه تمشي على استحياء، وتأمل قوله تعالى: **{تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ}** وكأن الحياء قد تمكن منها، وتمكنت منه، وهو تعبير قرآني يصور حالة المرأة وما هي عليه من أدب جم، وخلق فاضل، وسمت كريم، وأعظم ما في خلق المرأة حياؤها، وهكذا تكون المرأة المسلمة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنت أدخل بيتي، الذي دُفِنَ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي، فأضع ثوبي، فأقول إنَّما هو زوجي وأبي، فلمَّا دُفِنَ عمر معهم، فو الله ما دخلت إلَّا وأنا مَشْدُودَةٌ عليَّ ثيابي؛ حَيَاءً مِن عمر) [1]

وحجاب المسلمة وحياؤها من أعظم ما تتحلى به، وله أثر عظيم في صلاح أقوالها وأفعالها وتصرفاتها، وإذا تسلحت به خفضت صوتها، ولم تزاحم الرجال حياء من الله، وغلب عليها الستر والعفاف، وربما تركت شيئا من مصالحها من الحياء، كحال نساء السلف المتعففات العابدات.

---

[1] أخرجه أحمد في المسند (25660)، والحاكم في المستدرك (4402) واللفظ لهما باختلاف يسير، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (40/9): «رجاله رجال الصحيح»، وذكره الألباني في هداية الرواة (1712) وقال: «صحيح»، وقال في تعليقه: "وهو كما قال؛ فإن له شواهد".

وإذا تركت المرأة الحياء فسد طبعها، وقل سترها، وبرزت للرجال، وظهرت مساوئها، وتشبهت بالرجل؛ كحال كثير من نساء الزمان اللاتي يكثرن من مخالطة الرجال، ويظهرن زينتهن للأجانب، ولا يتحرجن عن كل ما يخدش الحياء، وقوة المرأة، وعزها، وجمالها في التحلي بالحياء، وضعف المرأة، وذلها، وقبحها في ترك الحياء؛ لا كما يظنه السفهاء وأهل الفتنة.

ومن صور الحياء المذموم:

1- **الحياء في طلب العلم:**

إذا تعلق الحياء بأمر ديني، يمنع الحياء من السؤال فيه أو عرضه في تعليم أو دعوة، فإن مما ينبغي حينها، رفع الحرج، ومدافعة هذا الحياء الذي يمنع من التحصيل العلمي أو الدعوة إلى الله سواء عند الرجال أو النساء.

وعن أم سليم رضي الله عنها (جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا رأت الماء. فغطت أم سلمة -تعني وجهها- وقالت: يا رسول الله وتحتلم المرأة؟! قال: نعم، تربت يمينك، فيم يشبهها ولدها) [1]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين)[2]

وعن مجاهد، قال: (إن هذا العلم لا يتعلمه مستح ولا متكبر)

2- **الحياء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

والبعض يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بحجة الحياء من الناس؛ وهذا قصور في الفهم، وخطأ في التصوّر؛ لأن الحياء لا يأتي إلا بخير، **قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: 53]**، بل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سمة من سمات هذه الأمة، كما قال عز وجل: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]**

والنبي ﷺ على شدة حيائه، كان إذا كره شيئا عُرف ذلك في وجهه، ولم يمنعه الحياء من بيان الحق، وكثيرا ما كان يغضب غضبا شديدا إذا انتُهكت محارم الله، ولم

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم (باب الحياء في العلم، حديث رقم 130)، وفي كتاب الغسل (باب إذا احتلمت المرأة، حديث رقم 282)، ومسلم في صحيحه في كتاب الحيض (باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، حديث رقم 313 و314)

[2] صحيح مسلم في كتاب الحيض (باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم)، حديث رقم 332

يخرجه ذلك عن وصف الحياء، ويتبين ذلك في موقفه مع أسامة بن زيد رضي الله عنهما، حينما أراد أن يشفع في حد من الحدود، فلم يمنعه حياؤه صلى الله عليه وسلم من أن يقول لأسامة في غضب: **أتشفع في حد من حدود الله؟! ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)** [1]

عمر والمرأة

وخطب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – مرة فعرض لغلاء المهور، فقالت له امرأة: أيعطينا الله، وتمنعنا يا عمر؟ الم يقل الله عز وجل: **{وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا}** [النساء: 20] فلم يمنعها الحياء أن تدافع عن حق نسائها، ولم يمنع عمر أن يقول معتذرا: كل الناس أفقه منك يا عمر

من مظاهر قلة الحياء

1- المجاهرة بالذنوب والمعاصي وعدم الخوف من الله:

في الصحيحين عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول «كل أمتي معافي إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»، وهو حديث صحيح متفق عليه.» [2]

2- التلفظ بالألفاظ البذيئة والسيئة التي تجرح الآخرين:

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه – أو ودعه الناس – اتقاء فحشه». [3]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحدود (باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رُفع إلى السلطان، حديث رقم 6788)، وفي كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (باب مناقب أسامة بن زيد رضي الله عنهما، حديث رقم 3733)، ومسلم في صحيحه في كتاب الحدود (باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، حديث رقم 1688)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب (باب ستر المؤمن على نفسه، حديث رقم 6069)، ومسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق (باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، حديث رقم 2990)، وقد جاء في بعض الروايات بلفظ «المجانة» بدل «المجاهرة»، والمحفوظ في الصحيحين هو لفظ "المجاهرين" و"المجاهرة"

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب (باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، حديث رقم 6032، ومسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب (باب مداراة من يتقى فحشه، حديث رقم 2591)

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء». [1]

وعن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ««إياكم والظلم، فإن الظلم هو ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش؛ فإن الله لا يحب الفاحش والمتفحش، وإياكم والشح؛ فإن الشح دعا من كان قبلكم؛ فسفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[2]

3- كلام الرجل مع غيره بالأسرار الزوجية والأمور الخاصة التي تحصل بينه وبين زوجته:

فمن قلة الحياء إفشاء ما يجري بين الزوجين حال الوقاع، فإن إفشاء ما يقع بين الرجل وزوجته حال الجماع أو ما يتصل بذلك حرام منهي عنه:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرها) [3]

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الرجال فقال: «هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه وألقى عليه ستره واستتر بستر الله؟

قالوا: نعم، قال: ثم يجلس بعد ذلك فيقول فعلت كذا، فعلت كذا؟

قال: فسكتوا، قال: فأقبل على النساء، فقال: هل منكن من تحدث؟ فسكتن، فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليراها ويسمع كلامها فقالت: يا رسول الله إنهم ليتحدثون، وإنهن ليتحدثن!!

فقال: هل تدرون ما مثل ذلك؟ فقال: إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانا في السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه) [4]

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه في كتاب البر والصلة (باب ما جاء في اللعنة، حديث رقم 1977)، وأحمد في المسند (حديث رقم 3839 وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه ابن حبان، وصحح إسناده جماعة من أهل العلم كالعراقي، فهو حديث حسن صحيح بمجموع طرقه.

[2] أخرجه أحمد في المسند، وابن حبان في صحيحه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب برقم2217

[3] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب النكاح (باب تحريم إفشاء سر المرأة، حديث رقم 1437)

[4] أخرجه أبو داود في سننه (2174) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه حديث «هل منكم الرجل إذا أتى أهله...» وصححه الألباني، وضعفه آخرون، فهو مختلف فيه.

4- كشف العورات وعدم سترها.

عن بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده، قال: قلت: يا نبي الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»، قلت: يا رسول الله إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «إن استطعت ألا يراها أحد فلا ترينها»، قال: قلت: يا نبي الله إذا كان أحدنا خاليا؟ قال: «فالله أحق أن يستحيا منه من الناس» [1]

5- إيذاء الناس؛ في دينهم وفي طرقاتهم:

كرمي الزبالة في الطرقات، أو التبول والتغوط في الطرقات وأماكن جلوس الناس في المتنزهات، **في صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال «اتقوا اللعانين». قالوا وما اللعانان يا رسول الله قال «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»**[2]

خطورة ترك الحياء:

لما ترك كثير من الناس الحياء وفضائل الأخلاق صاروا لا يبالون من ارتكاب قبائح الأمور والمجاهرة بها في المجتمع وانتشر في كثير من المجتمعات المسلمة إظهار الفواحش والمنكرات، وقل الناصح، والمغير من قبل المسؤولين وولاة الأمر، وهذا سببه ضعف الإيمان، والافتتان بحب الدنيا، وطول الأمل، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: **(من قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه).**

وقد كان المسلمون يغلب عليهم الحياء، ويستترون بالمعاصي تحت رحمة الله وعفوه، وكان الحياء يظهر في مجالسهم، وطرقاتهم، وأسواقهم، ولذلك ينبغي على الأولياء أن يربوا أهلهم، وأولادهم على الحياء، وينبغي على العالم، والمعلم مراعاة ذلك في تلاميذه.

الفوائد من الحديث:

1-عظم مكانة خُلُق الحياء، وأنه خُلُق اتفقت الشرائع على مدحه .

---

[1] أخرجه أبو داود في كتاب الحمام (باب ما جاء في التعري، حديث رقم 4017)، والترمذي في كتاب الأدب (باب ما جاء في حفظ العورة، حديث رقم 2794) وقال: «هذا حديث حسن»، وحسّن إسناده جماعة من أهل العلم، وقال ابن باز: لا بأس به، فسنده حسن.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة (باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال، حديث رقم 269)

2-أن الحياء حاجز يمنع العبد من الوقوع في القبيح، فإذا ذهب الحياء تجرأ الإنسان على المعاصي والمنكرات .

3-أن الحياء يحمل صاحبه على فعل الحسن وترك القبيح، فهو دافع إيجابي للطاعة، وزاجر عن المعصية .

4-أن الحياء من شعب الإيمان، ولذلك كلما قوي حياء العبد قوي إيمانه .

5-أن الحياء لا يمنع من طلب العلم، ولا من السؤال عما يحتاج إليه المسلم في دينه .

6-أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو السكوت عن الحق، ليس من الحياء، بل هو ضعف وجبن .

7-أن الضابط في الحسن والقبح هو الشرع، لا مجرد أعراف الناس وأهوائهم .

8-أن الحياء من الله أعظم أنواع الحياء، وهو الذي يحمل العبد على مراقبة ربه وترك ما يكرهه سبحانه .

9-أن الحياء من الناس إذا كان منضبطًا بالشرع فهو من المروءة ومكارم الأخلاق .

10-أن من تمام الحياء اجتناب المواطن المشبوهة والأحوال التي يستحيى منها .

11-أن الحياء كله خير، وعاقبته خير في الدنيا والآخرة، لأنه يجمع لصاحبه محاسن الأخلاق ويصونه عن الدناءات .

12-أن فقد الحياء من أسباب فساد المجتمعات، وظهور الفواحش، والمجاهرة بالمنكرات .

13-أن تربية الأولاد والأهل على الحياء من الواجبات التربوية المهمة .

14-أن الحياء له أثر عظيم في صلاح المرأة وعفافها وسترها، وأن تركه من أسباب الانحراف والفساد .

الحديث الحادي والعشرون

قل آمنت

بالله ثم استقم

(21) قل آمنت بالله ثم استقم

عن أبي عمرو سفيان بن عبد الله الثقفي، رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك، قال: (قل آمنت بالله، ثم استقم)

رواه مسلم[1]

التعريف براوي الحديث

- هو سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفي، من صحابة رسول الله ﷺ، ينتمي إلى قبيلة ثقيف التي كانت تسكن الطائف.
- أسلم رضي الله عنه، وصحب النبي ﷺ، وروى عنه عددًا من الأحاديث.
- عُرف بالصدق وحسن الاتباع، وكان من الصحابة الذين نقلوا للأمة الوصايا الجامعة من رسول الله ﷺ.
- روى عنه جماعة من التابعين، وأخرج حديثه أصحاب الكتب الستة.
- لا تُعرف سنة وفاته على وجه التحديد، ولم يرد في المصادر خبرٌ مشهور عنها.

شرح الحديث

قوله :(قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك)

أي: قل لي قولا لا أحتاج إلى أحد بعدك يفسره لي، فأعمل بما تقول، وأكتفي به.
وهذا من فقه الصحابي سفيان رضي الله عنه في سؤاله حيث سأل النبي ﷺ عن أهم أمر في الدين بحيث يكون وصية جامعة له يكفيه عن سؤال غيره، وإذا أحسن طالب العلم صياغة السؤال نال جوامع العلم بأقل زمن وأيسر كلفة، ومن رزق فقه السؤال فتح عليه في الفقه والفهم لمسائل الدين.

فأرشد النبي السائل إلى جملتين عظيمتين من جماع الخير وهما:
الإيمان، والاستقامة، وهذا من كمال نصحه، وفصاحته وجوامع كلمه ﷺ، وقد كان النبي ﷺ يراعي مقام السائل، وحاله وهذان الأمران يرجع إليهما صلاح العبد،

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان (باب جامع أوصاف الإسلام، حديث رقم 38)

وهدايته، وتوفيقه في الدنيا، والآخرة، ويترتب عليهما كل الخير، والفلاح، والفوز في الآخرة.

قوله: (قل آمنت بالله)

الوصية الأولى التي أوصى بها النبي ﷺ هي الإيمان بالله وهو الإقرار الجازم بوجود الله وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته.

ولا يصح إلا بثلاثة أركان:

- الاعتقاد بالقلب.
- والإقرار باللسان.
- والعمل بالجوارح.

والإيمان بالله يقتضي الإيمان برسوله محمد ﷺ والإيمان له ستة أصول لا يصح إيمان العبد إلا بالإتيان بها جميعا الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره، وشره.

قوله: (ثم استقم)

رتب الاستقامة على الإيمان، فالاستقامة ثمرة ضرورية للإيمان الصادق.

الوصية الثانية التي أوصى بها النبي ﷺ: (الاستقامة)

ما هي الاستقامة؟

في الرياضيات الخط المستقيم هو: الخط الذي لا ميل فيه.

وعرفها العلماء بقولهم: الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم والدين القيم من غير تعريج أو ميلان عنه يمنة ويسرة ويشمل فعل الطاعات الظاهرة والباطنة وترك النواهي.

وقال النووي: الاستقامة ملازمة الطريق؛ بفعل الواجبات، وترك المنهيات؛ قال تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾ [هود: 112]، وقال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة﴾ [فصلت: 30].
ونخلص من هذا أن الاستقامة التزام المؤمن بفعل الطاعات الظاهرة والباطنة وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، وهو ما يسميه البعض الالتزام ويقال: مسلم ملتزم والأصح مستقيم.

ومن معاني الاستقامة وخصائصها: الوسطية والاعتدال بأن يتبع المؤمن الطريق الوسط ويلزم طريق أهل السنة في كل أبواب الدين من غير إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا جفاء، وينبغي للمؤمن أن يدرك أنه إذا ورد الأمر من الله كان للشيطان فيه طرفان الزيادة والنقصان فليحذر كلا الطرفين وليسلك الوسط بينهما قال بعض السلف: (ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما إلى تفريط وتقصير وإما إلى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيها ظفر).
وقل من يوفق من الناس إلى سلوك الطريق الشرعي الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فلا تغتر بكثرة من ضل عن الطريق.

حقيقة الاستقامة:

يقول ابن القيم – رحمه الله: "والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال، والأحوال والنيات؛ فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله، وعلى أمر الله، قال بعضهم: كن صاحب الاستقامة، لا طالب الكرامة؛ فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة؛ فالاستقامة للحال بمنزلة الروح من البدن، فكما أن البدن إذا خلا عن الروح فهو ميت، فكذلك إذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد... وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة"[1]

ويقول ابن رجب رحمه الله: "أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد... فمتى استقام القلب على معرفة الله وعلى خشيته وإجلاله ومهابته ومحبته وإرادته ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإعراض عما سواه – استقامت الجوارح كلها على طاعته؛ فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه، وأعظم ما يراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللسان؛ فإنه ترجمان القلب، والمعبر عنه" [2]

ومن كلام السلف عن الاستقامة:

- قال أبو بكر رضي الله عنه في تفسير: (ثم استقاموا). لم يشركوا بالله شيئا.
- وقال عمر رضي الله عنه: (استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب.)
- وقال ابن عباس رضي الله (استقاموا على أداء فرائضه).
- وقال قتادة: (استقاموا على طاعة الله).

---

[1] انظر: مدارج السالكين(2/103)
[2] انظر: جامع العلوم والحكم (193) بتصرف يسير.

- وكان الحسن إذا قرأ قوله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) قال: (اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة).

جبر النقص بالاستغفار والتوبة:

لا يشترط في ثبوت وصف الاستقامة للمؤمن لزوم الشرع في جميع الأوقات والأحوال لأن الإنسان معرض للخطأ والتقصير والنفس تضعف والشيطان يتسلط والعبرة بغالب الحال ولا يؤثر الأمر العارض ولا يكاد يسلم المؤمن من التفريط. ولذلك أرشد النبي ﷺ إلى الحرص على لزوم الاستقامة على حسب القدرة والتوفيق فإن تعذر ذلك فليحرص على المقاربة من حال الاستقامة، **فقال: (إن الدين يسر ولن يشاد الدين إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة).**[1]

وقال أيضا ﷺ: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها)[2]

ولما أثنى الله على المتقين ذكر أنه يقع منهم وقوع الفاحشة وظلم أنفسهم فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]

ولكن حال أهل الاستقامة عدم الإصرار على الذنوب والإنابة والتوبة والرجوع إلى الله وفعل الحسنات إذا حصل منهم تقصير وتفريط.

من ثمرات الاستقامة

1- تنزل السكينة على أهل الاستقامة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30] فالملائكة تتنزل عليهم بالسرور والحبور والبشرى في مواطن عصيبة، قال وكيع: "البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث"

2- الطمأنينة والسكينة:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان (باب الدين يسر، حديث رقم 39)

(2) أخرجه الترمذي في سننه (حديث رقم 1987)، وقال: «حديث حسن»، وحسنه الألباني، فهو حديث حسن

حيث قال تعالى: ﴿ألا تخافوا ولا تحزنوا﴾ [فصلت: 30]؛ أي: لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا.

وقال عطاء – رحمه الله: "لا تخافوا رد ثوابكم؛ فإنه مقبول، ولا تحزنوا على ذنوبكم؛ فإني أغفرها لكم"

3- البشرى بالجنة:

فقال تعالى: ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [فصلت: 30]، وهذا هو الهدف الذي ينشده كل مسلم، نسأل الله من واسع فضله.

4- سعة الرزق في الدنيا:

قال تعالى: ﴿وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾ [الجن: 16]؛ أي: كثيرا، والمراد بذلك سعة الرزق، وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أينما كان الماء كان المال"

5- الانشراح في الصدر والحياة الطيبة:

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]

سبل تحقيق الاستقامة

1- فعل الطاعات، والاجتهاد فيها، ومجاهدة النفس عليها:

وأهم ما يحافظ عليه العبد الصلوات الخمس، وكذلك بقية الفرائض، ويستزيد من النوافل، ويكثر منها.

وفي الحديث القدسي حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعا: **قال الله عز وجل: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما زال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها) رواه البخاري.**[1]

فيحفظ الله عز وجل جوارحه، فلا يصدر منها إلا ما يرضيه سبحانه، وبهذا يكون حقق الاستقامة.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق (باب التواضع، حديث رقم 6502)

2- الإخلاص في العلم والعمل:

فلا بد من مجاهدة النفس على الإخلاص؛ فهو روح كل عبادة، وبه تستقيم النفس، وتصدق مع الله في الأقوال والأعمال؛ **قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا﴾** [الروم: 30].

3 -الدعاء:

من مقويات الإيمان: دعاء الله تعالى تحقيق الاستقامة والثبات عليها، كما كان النبي ﷺ يسأل ربه الثبات على الدين، وقد أمرنا بقراءة الفاتحة في كل ركعة، وفيها نسأل الله تعالى فنقول: **﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾** [الفاتحة: 6، 7]، فندعو الله تعالى؛ لأن الاستقامة والثبات عليها بيد الله تعالى.

4 -الإكثار من قراءة القرآن:

ومحاولة حفظه أو ما تيسر منه، وكذلك تدبره والعمل به من أهم الأمور في تحقيق الاستقامة؛ فقد جعله الله تعالى سبيلا لمن أراد الاستقامة، فقال: **﴿إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير: 27، 28]، وقال: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾** [الإسراء: 9]، وعلى العبد ألا يترك ملازمة القرآن، سواء من حفظه أو من تلاوته تلاوة نظر، فمع تدبره ينال العبد نصيبا من زيادة الإيمان الذي هو سبب كل استقامة.

5-الصحبة الصالحة:

لأن صحبة البطالين وأهل المعاصي تضعف الاستقامة، تأمل كيف أن الله تعالى بعد أن أمر بالاستقامة حذر من الركون إلى أهل المعاصي؛ لأن هذا يؤثر على الاستقامة، **فقال تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾** [هود: 112، 113]

6-التوسط والاعتدال:

بلا إفراط ولا غلو أو تشديد؛ **فإن النبي ﷺ قال: (لن يشاد الدين أحد إلا غلبه)؛ متفق عليه من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه.**[1]

وقال ﷺ: (هلك المتنطعون)؛ أي: المتشددون، قالها ثلاثا، والحديث رواه مسلم من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه.[2]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان (باب الدين يسر، حديث رقم 39)

[2] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب العلم (باب هلك المتنطعون، حديث رقم 2670)

وقال ﷺ: (اكلفوا من الأعمال ما تطيقون) [1]

وأيضا لا تفريط، باتباع الرخص والهوى في الفتاوى ونحوها، ولكن الوسط في ذلك، وهو اتباع سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

من فوائد الحديث:

1. حسن سؤال الصحابي رضي الله عنه، وأن من فقه طالب العلم أن يُحسن صياغة سؤاله؛ لأن حسن السؤال مفتاح لحسن الفهم.
2. أن هذا الحديث من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه جمع الدين في أصلين عظيمين: الإيمان والاستقامة.
3. أن الاستقامة ثمرة لازمة للإيمان الصادق، فلا يكفي مجرد الدعوى بلا عمل وثبات.
4. أن الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم بلا ميل ولا انحراف، وتشمل فعل الطاعات وترك المعاصي ظاهرًا وباطنًا.
5. أن من حقيقة الاستقامة لزوم الوسط والاعتدال، واجتناب الإفراط، والتفريط، والغلو، والجفاء.
6. أن المؤمن قد يقع منه تقصير أو ذنب، لكن ذلك لا يخرجه عن وصف الاستقامة إذا لم يُصرّ، وبادر بالتوبة والاستغفار.
7. أن من أعظم وسائل تحقيق الاستقامة المحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل.
8. أن الإخلاص من أهم أسباب الاستقامة، لأن العمل لا يستقيم إلا إذا كان لله.
9. أن صلاح الدنيا والآخرة كله راجع إلى هذين الأصلين: صحة الإيمان، ولزوم الاستقامة.

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه في كتاب الزهد (باب المداومة على العمل، حديث رقم 4240)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

الحديث الثاني والعشرون

أرأيت إذا

صليت المكتوبات

(22) أرأيت إذا صليت المكتوبات

عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: "أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئا؛ أأدخل الجنة؟ قال: نعم". رواه مسلم.[1]

التعريف براوي الحديث

- هو أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي، من كبار صحابة رسول الله ﷺ، ومن المكثرين من رواية الحديث.

- أسلم وهو صغير، وشهد مع النبي ﷺ معظم الغزوات بعد غزوة أُحد، إذ لم يشهد بدرًا وأحدًا لصغر سنه، حيث أبقاه والده لرعاية أخواته.
- كان من أهل العلم والفقه، واشتهر بحرصه على طلب الحديث ونشره.
- روى عن النبي ﷺ 1540حديثًا، وهو من المكثرين السبعة في رواية الحديث.
- أخذ عنه عدد كبير من الصحابة والتابعين، وكان مرجعًا في الفقه والحديث في المدينة.
- توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة 78هـ، وقيل 74 :هـ، وقد جاوز التسعين من عمره.

شرح الحديث

السؤال عن الأمور الشرعية يدل على حرص الصحابة على تعلم الخير وفهم الدين.

(أرأيت) الاستفهام هنا بمعنى الاستخبار، ورأيت بمعنى علمت؛ أي: أخبرني بما تعلمه وتتيقنه من أمري.

(إذا صليت المكتوبات) أي: المفروضات، وهي الصلوات الخمس.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان (باب بيان أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، حديث رقم 15)

(وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام) معنى أحللت الحلال: فعلته معتقدا حله، ومعنى حرمت الحرام: اجتنبته.

وقد ضل في هذا الباب ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الكفار الذين يحرمون ويحللون من تلقاء أنفسهم ليوافق أهوائهم ودينهم المحرف، كما قال الله في حق الكفار الذين كانوا يغيرون تحريم الشهور: **(إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله) [التوبة: 37]**، والمراد أنهم كانوا يقاتلون في الشهر الحرام عاما فيحلونه بذلك ويمتنعون من القتال فيه عاما فيحرمونه بذلك، أيضا حرموا على أنفسهم بعض الذبائح.

الصنف الثاني: المتصوفة الذين غلب عليهم زهدهم في الدنيا مع قلة الفقه في الدين وقلة الإتباع للسنة؛ فحرموا على أنفسهم بعض المباحات تقشفا وقد قال الله فيهم: **(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا)** [المائدة:87]

ويدخل في هذه الآية كل من حرم شيئا من الطيبات، والوسائل العصرية تورعا، أو اشتباها، وألزم الناس بذلك، وأثّمهم على تعاطيها أما من ترك شيئا، وكرهه ليس تحريما، وإنما من باب الورع، والاحتياط للشبهة، أو ما يترتب عليه من المفسدة، أو الصد عن ذكر الله، أو ترك شيئا من المباح لينكسر قلبه، ويتفرغ للعبادة؛ فهذا فعل حسن لا حرج فيه، وهو مسلك أهل الورع والزهد، والأفضل إن كان يقتدى به أن يباشره، ولو مرة ليبين الجواز، ورفع التهمة عن نفسه، والحرج عن العامة.

الصنف الثالث: السفهاء والجهال الذين يحرمون أشياء على أنفسهم لأجل الخصومة أو سبق الحلف والطلاق على ألسنتهم في كل مناسبة، أو الإضرار بأحد، ويغلب عليهم هذا السلوك المشين، ثم يذهبون لمن يجد لهم رخصة، ومخرجا مما هم فيه، وهذا تصرف فيه حرج وتنطع وتشبه بالمستخفين بشرع الله.

قوله: (ولم أزد على ذلك شيئا؛ أأدخل الجنة؟ قال: نعم) وهذا دليل على أن من التزم أداء الفرائض وترك المحرمات دخل الجنة.

وقد جاء صريحا في حديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال: (يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله علي من الصلاة فقال الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئا فقال أخبرني بما فرض الله علي من الصيام فقال شهر رمضان إلا أن تطوع شيئا فقال أخبرني بما فرض الله علي من الزكاة

فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام فقال والذي أكرمك بالحق لا أتطوع شيئا ولا أنقص مما فرض الله علي شيئا فقال رسول الله ﷺ أفلح إن صدق) متفق عليه.[1]

ولا يشترط في دخول الجنة الإتيان بالسنة فمن حافظ على الصلوات الخمس والزكاة ورمضان والحج واقتصر على ذلك ولم يتطوع بالنوافل دخل الجنة وكان في رتبة المقتصد من أهل الإيمان ويدخل في منزلة أهل اليمين في الجنة.

أما من أتى بالسنن وأكثر من النوافل فهو أفضل منه وأعلى منزلة في الجنة لأنه في رتبة السابق بالخيرات ويدخل في منزلة السابقين بالجنة.
قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32]

قال ابن عباس: (السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ).
فينبغي للمؤمن أن يأت بالفرائض والسنن ولا يفرط في فضلها لتكفر خطاياه وتسد خلله في الفريضة وترفع درجاته في الجنة.

اجتناب الكبائر:

أسباب الطاعات تكون مدخلة للعبد الجنة من أول وهلة إذا لم يتلبس العبد بشيء من الكبائر التي تحرمه وتمنعه من دخول الجنة كما جاء ذلك مفسرا في بعض الأحاديث: **كما في حديث عمرو بن مرة الجهني قال:(جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الخمس وأديت زكاة مالي وصمت شهر رمضان فقال رسول الله ﷺ: (من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ونصب أصبعيه ما لم يعق والديه)**[2]

وكذلك كل ما ورد من الأحاديث التي توجب عدم دخول الجنة بالكبائر كالعقوق والكبر والنميمة فإذا تغشى المسلم الكبائر وأصر على السيئات ولو مع فعل الطاعات استحق الوعيد وتعرض للحساب والعقوبة، ودخل النار ليمحص، وتكفر سيئاته إلا أن يتغمده الله برحمة من عنده، ويعفو عنه.

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (باب الزكاة من الإسلام، حديث رقم 46)، وفي كتاب الصوم (باب وجوب صوم رمضان، حديث رقم 1891)، ومسلم في كتاب الإيمان (باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، حديث رقم 11)

[2] أخرجه أحمد في المسند من حديث عمرو بن مُرَّة الجهني رضي الله عنه، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (2212)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رجال أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وحكم عليه أهل العلم بالصحة .

والحاصل أن نصوص الوعد والثواب لا تنفذ إلا بالخلو من نصوص الوعيد والعقاب فلا بد من تقييد النصوص المطلقة، والعمل بنصوص الوعد، ونصوص الوعيد كليهما على حد سواء، والنظر إليهما باتزان واعتدال، وعدم إهمال شيء منهما .

لماذا لم يذكر الزكاة والحج؟

لعدم فرضهما إذ ذاك، فربما ورد الحديث قبل أن تفرض الزكاة أو الحج؛ فإن الحج قد فرض في السنة التاسعة من الهجرة، والزكاة وإن كانت قد فرضت في مكة فإنها كانت عامة من غير تحديد النصاب، ولم يأت بيان النصاب إلا في المدينة، وكذلك أيضا يمكن أن يكون السائل فقيرا ليس عنده مال، ولهذا لم يسأل عن الزكاة.

النبي المعلم:

نتعلم هنا مراعاة النبي ﷺ لتنوع القدرات، إذ من المعلوم أن الناس ليسوا على شاكلة واحدة في ذلك، بل يتفاوتون تفاوتا كبيرا، فلئن كان في الصحابة من أمثال الصديق والفاروق وغيرهم، فإن منهم – في المقابل – الأعرابي في البادية، والمرأة الضعيفة، وكبير السن، وغيرهم ممن هم أدنى همة، وأقل طموحا من أولئك الصفوة.

قال أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ لأصحابه: "من أصبح منكم اليوم صائمًا؟"، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: "فمن تبع منكم اليوم جنازة؟"، قال أبو بكر رضي الله عنه أنا، قال: "فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟"، قال أبو بكر: أنا، قال: "فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟"، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: "ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة"[1]

وقال ﷺ في شأن عبد الله بن عمر: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا. متفق عليه. [2]

وقال: (يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) متفق عليه[3].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة (باب فضل من جمع هذه الخصال، حديث رقم 1028)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التهجد (باب فضل قيام الليل، حديث رقم 1122)، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة (باب من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حديث رقم 2479)

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التهجد (باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، حديث رقم 1152)، ومسلم في صحيحه في كتاب الصيام (باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقًا أو لم يفطر العيدين والتشريق، حديث رقم 1159)

وهذا درس للدعاة فإنه يجب على الدعاة إلى الله أن يفهموا طبيعة هذا الدين؛ حتى يتمكنوا من تربية الناس على مبادئه، ومراعاة الفروق بين الناس على حسب قوة إيمانهم أو ضعفه.
نسأل الله تعالى أن يلهمنا الخير والصواب، والحمد لله رب العالمين.

الفوائد من الحديث:

1- حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عن أمور الدين.

2- الاكتفاء بالفرائض مع اجتناب المحرمات سبب لدخول الجنة.

3- المقصود بإحلال الحلال وتحريم الحرام هو العمل بذلك مع اعتقاد حِلّ الحلال وحرمة الحرام.

4- لا يجوز للإنسان أن يشرّع لنفسه بتحليل أو تحريم من عنده، فهذا من الضلال.

5- الغلو في الزهد وتحريم المباحات بغير دليل مخالف للشرع ومن الاعتداء.

6- الإكثار من النوافل يرفع الدرجات ويجعل العبد من السابقين بالخيرات.

7- اجتناب الكبائر شرط مهم لنيل هذا الوعد بدخول الجنة ابتداءً.

8- من وقع في الكبائر قد يُعاقب قبل دخول الجنة إلا أن يعفو الله عنه.

9- مراعاة اختلاف الناس في القدرات والهمم من منهج النبي ﷺ في التعليم.

****

الحديث الثالث والعشرون

الطهور

شطر الإيمان

(23) الطهور شطر الإيمان

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن – تملأ – ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها) رواه مسلم[1].

التعريف براوي الحديث

- هو أبو مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه، من صحابة رسول الله ﷺ، ينتمي إلى قبيلة الأشعريين، وهم من أهل اليمن، وقد عُرفوا بالإيمان والفضل.
- أسلم رضي الله عنه وصحب النبي ﷺ، وروى عنه عددًا من الأحاديث.
- روى عنه جماعة من التابعين، وأخرج حديثه الإمام مسلم.
- وكانت وفاته سنة 18هـ.

شرح الحديث

(**الطُّهور شطر الإيمان**) الطَّهور: بفتح الطاء اسم للماء الذي نتطهر به كما يقال: الوَضوء بفتح الواو الماء الذي نتوضأ به، وبضم الطاء اسم للفعل أي التطهر، وهو المراد هنا، والطهور: فعل ما يترتب عليه رفع الحدث.

شطر: بفتح الشين نصف.

إذن (الطُّهور) هو: أن يتطهر المسلم لصلاته، سواء من الحدث الأصغر (ما يوجب الوضوء) أو من الحدث الأكبر (ما يوجب الغسل)، فجعله النبي ﷺ نصف الإيمان، **وكلمة: (الإيمان)** أحيانا تأتي بمعنى الصلاة، وأحيانا تأتي بمعنى الإسلام، والغالب في معنى الإيمان: أن يؤمن العبد بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره، وشره.

---

(1) صحيح مسلم في كتاب الطهارة (باب فضل الوضوء)، حديث رقم(223)

والإيمان في هذا الحديث على الراجح بمعنى الصلاة، وقد جعلها نصفين، فالطهور نصفها، فمن صلى بغير طهور فلا تعتبر صلاة، إلا إذا تطهر، فكأن الطهور على النصف من ذلك، وفي رواية ابن حبان: **(إسباغ الوضوء شطر الايمان)**
وعلى هذا فقد فسر معنى الإيمان بالصلاة كما في قوله تعالى: **{وما كان الله ليضيع إيمانكم}** [البقرة: 143] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل الأمر بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فلا يضيع ثوابها عند الله.

قال البراء رضي الله عنه: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ [1]
فالله تعالى سمى الصلاة إيمان لأنها فارقة بين الإيمان والكفر.

قوله: (والحمد لله تملأ الميزان) الحمد: عكس الذم، ومعناها أن الله تبارك وتعالى له كل صفات الكمال والجمال والجلال فهو سبحانه كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله.
و (الحمد) وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم، لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى" مدحاً"؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئاً، كما كان بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفاً منهم؛ ولكن حمدنا لربنا عزّ وجلّ حمدَ محبةٍ، وتعظيمٍ.
والحمد لله تملأ الميزان يوم القيامة؛ أي: أن كلمة **(الحمد لله)** لو وضعت في ميزان، أو لو جعلت جرما، أي: شيئا محسوسا يرى، لرأيتها تملأ الميزان، أي: تملأ كفة الميزان يوم القيامة، وتثقل عملك، لما اشتملت عليه من الثناء على الله سبحانه وتعالى والتبجيل له، وهذا يبين عظيم الأجر المترتب على هذه الكلمات الطيبات.

قوله: (وسبحان الله والحمد لله تملآن – تملأ – ما بين السماوات والأرض) أو قال (تملآن) شك من الراوي.

سبحان الله :أصلها اللغوي يدل على هذا المعنى، فهي مأخوذة من **السَّبْح** وهو البُعد، والعرب تقول: سبحان مِن كذا، أي ما أبعدَه؛ فتسبيح الله عز وجل إبعاد القلوب والأفكار عن أن تظن به نقصا، أو تنسب إليه شرا، وتنزيهه عن كل عيب نسبه إليه المشركون والملحدون.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما :سبحان الله: تنزيه الله عز وجل عن كل سوء .

---

[1] أخرجه صحيح البخاري في (كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، حديث رقم 40)، وصحيح مسلم في (كتاب الإيمان، باب بيان أن الإيمان هو الإسلام، حديث رقم 177)

وبهذا المعنى جاء السياق القرآني :تنزيه الله عن الشريك والزوجة والولد، قال تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ **[المؤمنون: 91]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 158-159]**

ومنه أيضا ما وردعن حذيفة رضي الله عنه – في وصف قراءة النبي ﷺ في صلاة الليل – قال: (وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَنْزِيهٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَبَّحَ) [1]

إذن فمعنى (سبحان الله) أنزه الله عن كل نقص، فالله جل وعلا لا يغفل، ولا ينام ولا يمرض ولا يتعب ولا يضعف ولا يعجز ولا يفتقر، ولا يحتاج إلى ولد أو زوجة، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يغيب عنه شيء .... الخ، مما يعجز اللسان عن إحصائه، **كما قال النبي ﷺ: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)**[2] إذن فالتسبيح تنزيه الله عن النقص، والحمد لله وصف الله بالكمال.

وقوله: (وسبحان الله والحمد لله تملآن) أي: أن هاتين الكلمتين لو تخيلت لهما حجما موجودا لرأيتهما تملآن ما بين السماء والأرض من عظيم ثوابهما.

وقوله: (والصلاة نور) وصف رسول الله ﷺ الصلاة بالنور ، وإذا كان الناس يستعينون على الظلمة بالنور، كي تتضح لهم معالم الطريق ، ويهتدوا إلى وجهتهم ، فذلك شأن الصلاة أيضا ، فهي نور الهداية الذي يلتمسه العبد ؛ حيث تمنع الصلاة صاحبها من المعاصي ، وتنهاه عن المنكر ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾ **[العنكبوت: 45]** ، ويقوى هذا النور حتى يرى أثره على وجه صاحبه ، **قال الله تعالى :** ﴿ **تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ** ﴾ **[الفتح: 29]**

ولن تكون الصلاة نورا لصاحبها في الدنيا فحسب، بل يشمل ذلك الدار الآخرة، **كما قال ﷺ: (بشر المشائين في الظلم إلى المساجد، بالنور التام يوم القيامة)** [3]

---

[1] صحيح مسلم في (باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، حديث رقم 772)

[2] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة (باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم 486) من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ«

[3] سنن أبي داود في (باب المشي إلى الصلاة في الظلم، حديث رقم 561)، وسنن الترمذي في (باب ما جاء في المشي إلى المسجد في الظلم، حديث رقم 223)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود والترمذي وابن ماجه.

وقوله ﷺ: (من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة).

وصلاة الليل نور للمؤمنين في قبورهم كما قال أبو الدرداء: (صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور).

وكلما ازداد المؤمن من الصلاة ازداد نورا وتوفيقا وهداية في الدنيا والآخرة.

قوله: (والصدقة برهان) الصدقة تعد عبادة مالية، يزكي بها المسلم ماله، ويطهر بها روحه من بخلها وحرصها على المال، وبذل الصدقة في سبيل الله دليل على صدق إيمان المنفق، ومحبته لله لأن المال محبب للنفوس، والنفوس مجبولة على إمساكه، ومنعه كما قال الله عزوجل في كتابه: **{وتحبون المال حبا جما}** [الفجر: 20]، فإذا أخرجه الإنسان طاعة لله كان ذلك دليلا ساطعا على كمال إيمانه، وتعلق قلبه بربه، واستخفافه بالدينا في سبيل مرضاة الله، والفوز بجنته، ومن أعظم ما يمتحن فيه إيمان العبد في المال.

وكلما تخلص المؤمن من رق المال وزخرف الدنيا وأنفقهما في سبيل الله تطهر قلبه من الشح والحسد والكبر التي تمنع نور الإيمان، وبهذا ينشرح صدره، ويطيب خاطره، ويقبل على عبادة ربه، والوقاية من الشح سبب للفلاح.
قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16]

قوله: (والصبر ضياء) الصبر يكون على ثلاثة أنحاء:

- الصبر على طاعة الله تعالى.
- والصبر عن معصيته.
- والصبر على المكاره في الدنيا.

والضياء في حقيقته: النور الذي يصاحبه شيء من الحرارة والإحراق، بعكس النور الذي يكون فيه الإشراق من غير هذه الحرارة، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: **{هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا} [يونس: 5]**، فالشمس ضياء لأنها مشتملة على النور والحرارة والإحراق، أما القمر فهو نور.

وإذا عدنا إلى قوله ﷺ: **(والصبر ضياء)** أدركنا أن الصبر لابد أن يصاحبه شيء من المعاناة والمشقة، وأن فيه نوعا من المكابدة للصعاب، فلا ينبغي للمسلم أن يعجزه ذلك أو يفت من عزيمته، ولكن ليستعن بالله عزوجل، ويحسن التوكل عليه، حتى تمر المحنة، وتنكشف الغمة.

والصبر خير عطاء للمؤمن كما جاء في الحديث: (وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر). متفق عليه.[1]

قوله: (والقرآن حجة لك أو عليك) أنزل الله عزوجل كتابه ليكون منهاجا للمؤمنين، يبين لهم هذا الدين، ويوضح لهم أحكامه، ويأمرهم بكل فضيلة وينهاهم عن كل رذيلة، فانقسم الناس نحوه إلى فريقين:

- فريق عمل بما فيه، ووقف عند حدوده، وتلاه حق تلاوته، فذلك السعيد به يوم القيامة.
- وفريق لم ينتفع به، بل هجر قراءته، وانحرف عن الصراط المستقيم، ولم يعمل بأحكامه، فإن هؤلاء يكون القرآن خصيما لهم يوم القيامة.
- وبين هذا الفريق وذاك يقول الله عزوجل واصفا إياهما: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾ [الإسراء: 82]

وقال ابن مسعود: (القرآن شافع مشفع وماحل مصدق فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره قاده إلى النار).
ماحل مصدق :بمعنى شاهد مصدق عند الله.

قوله: (كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها) أي: كل إنسان يسعى لنفسه، فمنهم من يبيعها لله بطاعته، فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها؛ أي: يهلكها.

الناس سائرون في هذه الحياة ، يغدون ويروحون ، يكدحون في تحقيق مآربهم وطموحاتهم ، والذي يفرق بينهم : الهدف الذي يعيشون لأجله ، فمنهم من سعى إلى فكاك نفسه وعتقها من نار جهنم ، فباع نفسه لله تعالى ، ومنهم من جعل همه الحصول على لذات الدنيا الفانية ، وشهواتها الزائلة ، فأهلك نفسه وباعها بثمن بخس ، قال الله عزوجل : ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ **[الشمس: 7-10]** ، فمن زكى نفسه ، فقد باعها لله واشترى بها الجنة، ومن دس نفسه في المعاصي، فقد خاب وخسر، وكتبت عليه

---

[1] صحيح البخاري في (كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم 1469)، وصحيح مسلم في (كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، حديث رقم 1053)

الشقاوة في الدنيا والآخرة ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لطاعته ، ويكرمنا بدخول جنته.

الفوائد من الحديث:

1. الطهارة أساس الإيمان والصلاة، فلا تصح الصلاة بدونها.
2. فضل كلمة "الحمد لله" وأنها تثقل الميزان يوم القيامة.
3. عظم شأن التسبيح، وأنه تنزيه لله عن كل نقص وعيب.
4. الجمع بين "سبحان الله" و"الحمد لله" من أعظم الأذكار أجرًا.
5. الصلاة نور لصاحبها في الدنيا، تهديه وتمنعه من المعاصي.
6. الصدقة دليل على صدق الإيمان ومحبة الله.
7. إخراج المال يزكي النفس ويطهرها من الشح والبخل.
8. أنواع الصبر ثلاثة: على الطاعة، وعن المعصية، وعلى البلاء.
9. القرآن حجة للعبد إن عمل به، وحجة عليه إن تركه.
10. الناس جميعًا يسعون، وكل واحد يختار مصيره بنفسه.
11. تزكية النفس سبب للفلاح، وإهمالها سبب للخسارة.

****

الحديث الرابع والعشرون

يا عبادي

إني حرمت الظلم

على نفسي

(24) يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي

عن أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ،يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ،يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم ،يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم ،يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم ،يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ،يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ،يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) أخرجه مسلم. [1]

شرح الحديث

(يا عبادي) النداء نداء تشريف وعز، وهو نداء لإيجاد الصلة بين المتكلم والمخاطب، فإذا نادى رب العزة **:(يا عبادي)** هل أنت من عباد الله؟
أي نعم؛ إذن الله ينادي عليك، وهذا النداء يا عبادي للذكور والإناث وللأنس والجن كما في الحديث لأن كل هؤلاء يشملهم الخطاب.

(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي) التحريم أصله المنع، حرمت أي منعت والله تعالى منع الظلم مع قدرته عليه.

---

[1] صحيح مسلم في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم 2577)

ما هو الظلم؟ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه او هو التصرف في ملك الغير بغير اذنه، وكلاهما حرام علينا.

وهل في إمكانه – تبارك وتعالى أن يظلم؟

أي نعم لكنه لم يفعل، لأنك لا تمدح أحدا بشيء وهو لا يقدر على فعله، فمثلا لن أمدح أني صائم وأنا لا أصوم أصلا، لكن أنا أصوم وأفطر لأني عندي القدرة على الاثنين، مثال آخر ملك قادر على الظلم والعدل فيعدل بين الناس رغم قدرته على الظلم باستعمال السلطة.

وليس لأحد أن يوجب على الله شيئا لكنه هو الذي يوجب على نفسه ما يشاء فهو الذي قال: **(كتب ربكم على نفسه الرحمة)** [الأنعام 54] فهو من كتب على نفسه الرحمة وهو الذي قال: **(إني حرمت الظلم على نفسي)** فالظلم مستحيل على الله لأنه لا يليق بجلاله وكماله أن يظلم؛ كما قال عز وجل: ﴿**وما أنا بظلام للعبيد**﴾ [ق: 29]، **وقال:** ﴿**وما الله يريد ظلما للعالمين**﴾ [آل عمران: 108]

وقوله تعالى: "وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا" أي: لا يظلم بعضكم بعضا، وقوله :فلا تظالموا أصل الكلمة تتظالموا فلأن فيها ثقل لاجتماع تاءين حذفت إحداهما، وفي بعض روايات الحديث أدغمت التاء الثانية في الظاء فصارت تظّالموا بتشديد الظاء.

والظلم نوعان:
أحدهما: ظلم المرء نفسه، وأعظمه الشرك، (إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان: 13]

لماذا سمى الله الشرك ظلم عظيم؟

لأن أعظم حقوق الله على العباد أن يعبدوه وحده لا شريك له كما في حديث معاذ لما قال له النبي ﷺ: (يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً)[1]
فإذا جاء من يشرك بالله، ويعبد معه غيره فهذا ظلم، لأنه أدى الشكر لغير المنعم، فالذي أنعم عليك ورزقك هو الله، فلماذا تعبد غيره؟

---

[1] صحيح البخاري في (كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله، حديث رقم 7373)، وصحيح مسلم في (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، حديث رقم 30)

أو أنه ظلم عظيم لنفسه لأن المشرك محروم من مغفرة الله عز وجل؛ فالله يغفر أي ذنب إلا الشرك قال تعالى: **(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا)** [النساء/116] فكل الذنوب واقعة تحت عفو الله ومشيئته إن شاء عفا، وإن شاء عذب، أما من عاش على الشرك، ومات عليه فقد حرمت عليه الجنة قال تعالى: **(إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)** [المائدة/72]

والثاني: ظلم المرء غيره، وهو المنهي عنه في هذا الحديث؛ والظلم بالنسبة للعباد فيما بينهم يكون في ثلاثة أشياء بيّنها رسول الله ﷺ في قوله وهو يخطب الناس في حجة الوداع: **"إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟" قالوا: نعم، قال: "اللهم فأشهد"**[1]

فهذه ثلاثة أشياء: الدماء، والأموال، والأعراض.

1- **الدماء:** فالظلم فيما بين البشر حرام في الدماء، فلا يجوز لأحد أن يتعدى على دم أحد، لا بقتل ولا بجرح أو اعتداء، كل هذا حرام لا يجوز.

2- **الأموال: وقوله ﷺ: "وأموالكم"** حرم الله – سبحانه وتعالى – على بعضنا أن يأخذ من مال أخيه بغير حق، بأي نوع من الأنواع؛ سواء أخذه غصبا بأن يأخذ بالقوة، أو أخذه سرقة، أو اختطافا، أو خيانة، أو غشا، أو كذبا، أو بأي نوع يأخذه، فإنه حرام عليه.

3- **أما الأعراض**: فهي أيضا حرام، فلا يحل للإنسان أن يقع في عرض أخيه، فيغتابه في المجلس أو يسبه، فإن ذلك من كبائر الذنوب.

قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ [الحجرات: 12]

وهذا الظلم لا يترك منه الله شيئا فلا بد فيه من القصاص يوم القيامة إلا أن يتحلل الظالم من المظلوم في الدنيا قال النبي ﷺ: **(من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).** [2]

---

[1] أخرجه صحيح البخاري في (كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم 1739)، وصحيح مسلم في (باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم 1679).

[2] صحيح البخاري في (كتاب المظالم والغصب، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، حديث رقم 2449)

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)[1]

قوله: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته) كرر النداء زيادة في تشريفهم وتعظيمهم؛ ولذا أضافهم إلى نفسه، (**إلا من هديته**) ؛ أي: وفقته ومنعت عنه أسباب الضلالة.

(فاستهدوني أهدكم) أي: اطلبوا مني الهداية، أدلكم على طرق النجاة في الدنيا والآخرة، وفي هذا دلالة على أن جميع العباد في الأصل على ضلال لا يمكنهم معرفة طريق الهداية وطريق الجنة من تلقاء أنفسهم مهما بلغوا من الذكاء ولا يمكنهم ذلك إلا عن طريق إرشاد الله، وهدايته، وتوفيقه لهم، ومن يمنع الله عنه طريق الهداية يكون ضالا حائرا عن الحق كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ** ﴾ **[الإسراء: 97]** ولذلك شرع لهم أن يسألوه الهداية والتوفيق دائما في كل صلاة كما قال تعالى: **(اهدنا الصراط المستقيم)** [الفاتحة:6]

وقد كان النبي ﷺ كثيرا ما يدعو بالهداية كما في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) [2]

ولا ينافي هذا ما ورد في حديث الفطرة في قول النبي ﷺ: (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه ينصرانه أو يهودانه أو يمجسانه). متفق عليه[3]

لأن المراد هنا أن الله يخلقه وينشئه في الأصل على قبول الحق ونبذ الباطل، وليس المقصود إمكان معرفته للإيمان الشرعي، وطريق الله الموصل للجنة من غير هداية الله، لأنه يخلق جاهلا لا يعلم شيئا؛ كما قال تعالى: **(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا)** [النحل :78] والإنسان قبل التعليم يكون جاهلا ولذلك قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: **(ووجدك ضالا فهدى)** [الضحى: 7] أي لا تعلم الكتاب والحكمة كما فسر ذلك في قوله تعالى: **(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان)** [الشورى: 52]

والهداية بأن يدلك الله على طريق الحق بالعلم به ثم يوفقك للعمل بهذا الحق؛ وذلك لأن الهداية التامَّة النافعة هي التي يجمع الله فيها للعبد بين العلم والعمل؛ لأن الهداية

---

(1) أخرجه صحيح مسلم في (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم 2578)
(2) صحيح مسلم في (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في الأدعية، حديث رقم 2721)
(3) صحيح البخاري في (كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلَّى عليه، حديث رقم 1358)، وصحيح مسلم في (كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم 2658)

بدون عمل لا تنفع، بل هي ضرر؛ لأن الإنسان إذا لم يعمل بما علم صار علمه وبالاً عليه.

والهداية نوعان:

الأولى: هداية إرشاد وبيان:

وهذه مهمة الرسول واتباعه من الصحابة والعلماء العاملين والدعاة المخلصين كلهم يهدون الناس؛ أي يدلونهم على الخير، ويدعونهم إلى الهدى ويبينون لهم مراد الله منهم، مثال قوله تعالى: **{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}** [فصلت: 17]، أي بيَّنا لهم الطريق وأبلغناهم العلم، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ استحبوا العمى على الهدى.

وقول الله تبارك وتعالى للنبي ﷺ: **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [الشورى: 52]، أي تدل وتبين وتعلم الناس الصراط المستقيم .

الثانية: هداية التوفيق والإعانة :

هذه هداية التوفيق للعمل، فمن قبل هداية البيان وفقه الله وأعانه، وهذه المرتبة أَخَصُّ مِن التي قبْلها، فهي هداية خاصَّة تأتي بعد هداية البيان؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ [مريم: 76]، **وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [المائدة: 15، 16].

وهذا النوع من الهداية هو الذي نَفَاه الله عن نبيِّه ﷺ: **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** [القصص: 56]، و **﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾** [النحل: 37].

فالرسول ﷺ لا يستطيع أن يوفق أحدًا للعمل الصالح أبدًا، ولو كان يستطيع ذلك لاستطاع أن يَهْدِي عمه أبا طالب، وقد حاول معه حتى قال له عند وفاته ـ أي قال لعمِّه عند وفاته: **"يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله"، فلم يقلها، وكان آخر ما قال: "هو على ملة عبد المطلب"**[1]

وفي هذا المعنى يقول القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: **(إذا رأيت الحسنة من الشخص فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا رأيت السيئة من الشخص فاعلم أن لها عنده أخوات.)**

---

[1] صحيح البخاري في (كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، حديث رقم 1360)، وصحيح مسلم في (كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يغرغر، حديث رقم 24)

فالحسنة تدعو إلى الحسنة، والسيئة تدعو إلى السيئة، كما قال ﷺ في الحديث المتفق عليه: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق؛ حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب؛ حتى يكتب عند الله كذابا"[1]

قوله :(يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم)

فاستطعموني اطلبوا الرزق مني، لا يستنكف حي، ولو كان غنيا أن يستطعمني، اطلبوا الرزق مني غنيكم وفقيركم، فمن الممكن أن أحد الأغنياء يمسي غنيا ويصبح فقيرا، وهناك من عندهم أطعمة ولا يستطيعون أن يأكلوها، لعلة في صحتهم تمنع الأكل.

قوله :(يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم)

(كلكم عار) فنحن قد ولدنا عرايا والذي كسانا ووهبنا ما كسينا به هو الله سبحانه وتعالى؛ فالعبد يوقن أن المطعم الكاسي هو الله عز وجل، **وفي الحديث: (من أكل طعاما فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوبا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)**[2]

أي: كل واحد منكم في حاجة إلى الطعام والكسوة من الله تبارك وتعالى؛ فهو الذي تفضل عليكم، قال تعالى: **﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 26]**

(فاستكسوني) اسألوني الكسوة، الكساء الجميل الظاهر، والكساء الباطن الأجمل: **(ولباس التقوى ذلك خير)** وخص الطعام والكسوة بالذكر دون غيرهما؛ لأنهما أهم شيء يهم العبد في حياته.

(أكسكم) يصح قول أكسُكم، وأكسِكم؛ بكسر السين وضمها.

---

[1] صحيح البخاري في (كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، حديث رقم 6094)، وصحيح مسلم في (كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، حديث رقم 2607)

[2] سنن أبي داود في (باب ما يقول إذا لبس ثوبًا جديدًا، حديث رقم 4023) وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود: حديث حسن.

قوله :(يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم)

أي: تفعلون الخطيئة أو الذنب، بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا؛ مهما بلغت ذنوبكم بالليل أو بالنهار لا تيأسوا من طلب المغفرة فإني أغفرها لكم، حتى لو ملأتم الليل والنهار ذنوبا، قال تعالى: **(ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده [التوبة: 104]، وقال تعالى: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى [طه: 82]**

(فاستغفروني)؛ أي: اطلبوا مني مغفرة ذنوبكم، وأصل الغفر: الستر، وغفرت المتاع: سترته، وغفران الذنب: ستره.

(أغفر لكم)؛ أي: أستر ذنوبكم وأمح أثرها ولا أؤاخذكم بها.

والتوبة الصادقة هي التي تجمع خمسة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص:

أن يكون التائب مخلصا فيها لله – عز وجل – لا يحمله على التوبة مراءاة الناس، ولا أن يتقرب إليهم بشيء، وإنما يقصد بالتوبة الرجوع إلى الله حقيقة، والإخلاص شرط في كل عمل، ومن جملة الأعمال الصالحة: التوبة إلى الله – عز وجل، كما قال تعالى: ﴿**وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾ [النور: 31].

الشرط الثاني: الندم:

أن يندم التائب على ما وقع منه من الذنب، يعني أن يحزن، ويتأسف ندما لأنه ارتكب خطأ، أما أن يكون ارتكاب الخطأ وعدمه عنده على حد سواء؛ فهذه ليست بتوبة، بل لابد من أن يندم بقلبه ندما يتمنى أنه لم يقع منه هذا الذنب.

الشرط الثالث: الإقلاع عن الذنب:

أن يقلع عن الذنب فلا توبة مع الإصرار على الذنوب، كما قال تعالى: ﴿**ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾ [آل عمران: 135]، أما أن يقول إنه تائب من الذنب وهو مصر عليه، فإنه كاذب مستهزئ بالله – عز وجل–

ومن التخلي عن الذنب والإقلاع عنه: أن يرد المظالم إلى أهلها إذا كانت المعصية في حقوق العباد، فإن كانت في أخذ مال فليرد المال إلى من أخذه منه، فإن كان قد مات فليرده إلى ورثته، فإن تعذر عليه أن يعرف الورثة، أو نسي الرجل، أو ذهب الرجل إلى مكان لا يمكن العثور عليه، مثل أن يكون أجنبيا، فيرجع إلى بلده، ولا

يدري أين هو، ففي هذه الحال يخرج ما عليه صدقة ينويها لصاحب المال الذي يطلبه.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود في المستقبل:

فإن تاب وأقلع عن الذنب لكن في قلبه أنه لو حانت الفرصة عاد إلى ذنبه، فإن ذلك لا يقبل منه، فهذه توبة لاعب، فلابد أن يعزم، فإذا عزم ثم قدر أن نفسه سولت له بعد ذلك، وفعل المعصية، فإن ذلك لا ينقض التوبة السابقة، لكن يحتاج إلى توبة جديدة من الذنب مرة ثانية.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه:

فإن فات الأوان لم تنفع التوبة، ويفوت الأوان بأحد أمرين:

الأول: إذا حضر الإنسان الموت، فإذا حضره الموت فلا توبة ولو تاب لم ينفعه، **لقوله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ [النساء: 18]**، الآن لا فائدة فيها.

ولهذا لما أغرق فرعون: **﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ [يونس: 90] فقيل له ﴿آلآن﴾**، يعني أتقول هذا الآن **﴿وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ [يونس: 91]**، فات الأوان.
ولهذا يجب على المسلم أن يبادر بالتوبة، لأنه لا يدري متى يفاجأه الموت، كم من إنسان مات فجأة، فليتب إلى الله قبل أن يفوت الأوان.

أما الثاني الذي يفوت به أوان التوبة: إذا طلعت الشمس من مغربها، فإن النبي – عليه الصلاة والسلام – أخبر أن الشمس إذا غابت سجدت تحت عرش الرحمن – عز وجل، واستأذنت الله، فإن أذن لها استمرت في سيرها، وإلا قيل: ارجعي من حيث جئت، فترجع بإذن الله وأمره، فتطلع على الناس من المغرب، فحينئذ يؤمن جميع الناس، يتوبون ويرجعون إلى الله، ولكن ذلك لا ينفعهم.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158]

﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ أي **عند الموت، ﴿أو يأتي ربك﴾** أي **يوم القيامة للحساب، ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾** أي **طلوع الشمس من مغربها.**

قوله: (يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)

أي: لا يلحقني منكم ضر ولا نفع، فملكي ثابت كامل، لا يزاد بطاعتكم، ولا ينقص بمعاصيكم، وإنما طاعاتكم منفعتها لكم، ومعاصيكم ضررها عليكم؛ قال تعالى: ﴿**من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد**﴾ [فصلت: 46]

فهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، فلو آمن أهل الأرض كلهم جميعاً ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولو كفروا جميعاً لم ينقص ذلك من ملكه شيئاً، قال تعالى: **(إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)** [إبراهيم: 8] وقال: ﴿**وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعموا إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ [الذريات: 56، 58]

قوله: (يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)

أتقى قلب رجل واحد: هو الرسول ﷺ كما ورد: **(أنا اتقاكم لله وأشدكم له خشية)** [1]

وأفجر قلب رجل هو إبليس ولا شك.

والمراد بهذا ذكر كمال قدرته سبحانه، وكمال ملكه، وأن ملكه وخزائنه لا تنفد ولا تنقص بالعطاء، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد.

وفي ذلك حث الخلق على سؤاله، وإنزال حوائجهم به؛ قال تعالى: ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾ [النحل: 96].

---

[1] صحيح البخاري في (كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم 5063)، وصحيح مسلم في (كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، حديث رقم 1401)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السنوات والأرض، فإنه لم ينقص ما في يمينه)[1]
وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه).[2]

قوله :(إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) المخيط: الإبرة، وهذا من باب تأكيد عدم النقص؛ لأنه من المعلوم أن المخيط إذا أدخل في البحر ثم نزع منه فإنه لا ينقص البحر شيئا؛ لأن البلل الذي لحق هذا المخيط ليس بشيء.

وهذا فيه إشارة إلى أن ملكه جل جلاله لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم؛ فإنه سبحانه الغني بذاته عمن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان.

قوله: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)

فإنه سبحانه يحصي أعمال عباده، ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها؛ قال تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾ [الزلزلة: 7، 8]، **وقال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾** [آل عمران: 30].

فمن وجد خيرا: أي: ثوابا ونعيما، أو حياة طيبة هنيئة؛ فليحمد الله تعالى على توفيقه للطاعات والأعمال الصالحة.
ومن وجد غير ذلك؛ أي: شرا، فلا يلومن إلا نفسه؛ لأن الله تعالى أوضح الطريق وحذر وأنذر.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، حديث رقم 7411)، ومسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، حديث رقم 993)

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، حديث رقم 2679)

والمعنى: من رأى نفسه تفعل شرا فلا يعترض إلا عليها؛ حيث إنها آثرت شهواتها ومستلذاتها على رضا خالقها ورازقها، فكفرت بنعمه، ولم تذعن لأحكامه، فاستحقت أن يعاملها بظهور عدله، وأن يحرمها مزايا جوده وفضله، والله أعلم.

الفوائد من الحديث:

1. إثبات كمال عدل الله تعالى وتنزهه المطلق عن الظلم .
2. تحريم الظلم بين العباد تحريمًا قاطعًا في جميع صوره .
3. وجوب التحلل من المظالم في الدنيا قبل الآخرة .
4. أن الظلم سبب للهلاك وهو ظلمات يوم القيامة .
5. افتقار العباد الكامل إلى الله في الهداية .
6. سؤال الله الهداية دائمًا وعدم الاعتماد على النفس .
7. أن الطاعة تقود إلى طاعة، والمعصية تقود إلى معصية .
8. افتقار العباد إلى الله في أرزاقهم (طعامهم وكسوتهم) .
9. وجوب شكر الله على نعمه الظاهرة والباطنة .
10. سعة مغفرة الله تعالى لجميع الذنوب لمن تاب واستغفر .
11. شروط التوبة الصادقة: الإخلاص، الندم، الإقلاع، العزم، وأن تكون في وقت القبول .
12. أن الله غني عن الخلق، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم .
13. كمال ملك الله وأنه لا يزيد بطاعة الخلق ولا ينقص بمعصيتهم .
14. سعة خزائن الله وأن عطائه لا ينقص مهما أعطى .
15. الحث على الإكثار من الدعاء وعدم التردد في سؤال الله .
16. أن الله يحيط بأعمال العباد كلها ويحصيها بدقة .
17. أن الجزاء من جنس العمل، فمن وجد خيرًا فبفضل الله .
18. أن من وجد شرًا فلا يلومن إلا نفسه لأنه هو الذي اختار الطريق .

الحديث الخامس والعشرون

ذهب أهل

الدثور بالأجور

(25)ذهب أهل الدثور بالأجور

عن أبي ذر رضي الله عنه أيضا أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر. رواه مسلم.[1]

شرح الحديث

(أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ) هم فقراء المهاجرين، كما بينه في رواية البخاري، من حديث أبي هريرة.

(قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور)؛ "الدثور" الأموال، واحدها دثر، أي: سار ومضى أصحاب الأموال الكثيرة بالأجور الزائدة على أجورنا.

(يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم)
أي: بأموالهم الفاضلة عن كفايتهم، أي: فنحن وهم سواء في الصلاة وفي الصيام، ولكنهم يفضلوننا بالتصدق بفضول أموالهم، أي بما أعطاهم الله تعالى من فضل المال؛ أي: ولا نتصدق، وهذا كما جاء في الحديث الآخر عن فقراء المهاجرين، قالوا: ويعتقون ولا نعتق.

حرص فقراء الصحابة على الاستكثار من فعل الخيرات:

انظر إلى الهمم العالية من الصحابة – رضي الله عنهم؛ يغبطون إخوانهم بما أنعم الله عليهم من الأموال التي يتصدقون بها ويعتقون منها، ولم يقولوا: عندهم فضول أموال؛ يركبون بها المراكب الفخمة، ويسكنون القصور المشيدة، ويلبسون الثياب الجميلة؛ ذلك لأنهم قوم يريدون ما هو خير وأبقى، وهو الآخرة، فهم اشتكوا

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم(1006)

للرسول – ﷺ– شكوى غبطة، لا شكوى حسد، ولا اعتراض على الله عز وجل – ولكن يطلبون فضلا يتميزون به عمن أغناهم الله من فضله؛ فتصدقوا بفضول أموالهم.

فكان السابق عندهم هو السابق بالخيرات، وليس السابق بالأموال والدنيا؛ وكان التنافس بينهم على الخير والعمل الصالح، وهذا ينبئنا عن عقليتهم الواعية، وقلوبهم النقية الصافية وكيف أن أحدهم كان يحزن لو فاته شيء من الخير، ويدل أيضا على قوة رغبتهم في الخير، وقد حزن فقراء الصحابة رضي الله عنهم على عجزهم عن الخروج في سبيل الله، لقلة ما في أيديهم قال تعالى: **(ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون)** [التوبة:92]

فالمؤمن حقا من يحزن على تقصيره في الطاعة، وعجزه عن الاستكثار من الصالحات، لأن قلبه مهتم بأمر الآخرة، وتحصيل رضا الله، ولا يكترث كثيرا لأمر الدنيا، ولا يحزن لفقدها لأن قلبه غير مهتم بها.

وأما الغافل فيحزن لفوات الدنيا، وعجزه عن الاستكثار منها، ولا يحزن لفوات أمر الدين، والتقصير في عمل الآخرة لأن قلبه مفتون بحب الدنيا.

(قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون)؛ أصلها: تتصدقون به، حذفت إحدى التاءين للتخفيف.

(إن لكم بكل تسبيحة صدقة)؛ أي: قول: سبحان الله، أي: كأجر الصدقة.

(وكل تكبيرة صدقة)؛ أي: قول: الله أكبر.

(وكل تحميدة صدقة)؛ أي: قول: الحمد لله.

(وكل تهليلة صدقة)؛ أي: قول: لا إله إلا الله

(وأمر بالمعروف صدقة)؛ أي: إذا أمر شخصا أن يفعل طاعة فهذه صدقة.

(ونهي عن منكر صدقة)؛ أي: إذا نهى شخصا عن منكر فإن ذلك صدقة.

الصدقة ليست محصورة في بذل المال:

وقد دل هذا الحديث على أن جميع المعروف، والإحسان يعتبر في الشرع صدقة، وأن الصدقة ليست محصورة في بذل المال، بل هي عامة في كل معروف؛ كما قال النبي ﷺ: **(كل معروف صدقة).** رواه مسلم[1]

وقد تكاثرت النصوص في الشرع بهذا المعنى:

- فالذكر باللسان صدقة.
- والتبسم في وجه المسلم صدقة.
- وبذل المعروف للغير صدقة.
- والأمر بالمعروف صدقة والنهي عن المنكر صدقة.
- وإرشاد الضائع صدقة.
- وكف الأذى عن المسلمين صدقة.
- وإعانة الأخرق[2] صدقة.
- وإزالة الأذى من الطريق صدقة.
- وتعليم العلم النافع صدقة.
- وإقراء القرآن صدقة.
- والشفاعة للمسلمين صدقة.
- والسعي في قضاء حوائجهم صدقة.
- والنفقة على الأهل صدقة.
- وإطعام الحيوان صدقة.

عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: (ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس قيل: يا رسول الله ومن أين لنا صدقة نتصدق بها قال: إن أبواب الجنة لكثيرة التسبيح والتكبير والتحميد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتميط الأذى عن الطريق وتسمع الأصم وتهدي الأعمى وتدل المستدل

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب باب كل معروف صدقة حديث رقم 6021

[2] الأخرق هو الذي لا يُحسن التصرف ولا يُجيد القيام ببعض شؤونه إما لجهل، أو ضعف خبرة، أو عجز، فإعانته تكون بمساعدته فيما لا يُحسنه كأن تعلّمه أو تُرشده أو تُتمّ عنه ما عجز عنه، فهذه المساعدة تُعد صدقة يؤجر عليها العبد لأنها من جملة الإحسان إلى الناس.

على حاجته وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف فهذا كله صدقة منك على نفسك)[1]
وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (على كل مسلم صدقة) قالوا: فإن لم يجد؟ قال: (فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق) قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: (فيعين ذا الحاجة الملهوف) قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: (فليأمر بالخير) قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: (فليمسك عن الشر فإنها له صدقة)[2]

والصدقة بغير المال نوعان:

الأول: صدقة قاصرة بالاشتغال بذكر الله من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير والمشي إلى المساجد.

الثاني: صدقة متعدية النفع بالإحسان إلى المسلمين بجميع صور البر الحسية والمعنوية وأعظمها أجرا تعليم الخلق دين الله عز وجل وتبصيرهم في أحكام الشرع وإنقاذهم من الهلاك.

قوله: (وفي بضع أحدكم صدقة) وهو بضم الباء، ويطلق على الجماع وعلى الفرج نفسه، وكلاهما يصح إرادته ها هنا.

هل له الأجر سواء نوى العبادة أم لا؟

مسألة النية للحصول على هذا الأجر على قولين:

1- ذهب طائفة من أهل العلم، واختاره الشيخ ابن عثيمين، إلى أن الزوج يُؤجر على جماع زوجته ولو لم ينوِ العبادة، استدلالاً بظاهر الحديث؛ فالصحابة تعجبوا قائلين: **"أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟" فلم يقل لهم "إذا نويتم"، بل قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر."**

2- يرى طائفة أخرى من العلماء، منهم النووي، أن العادات (مثل الجماع) لا تصبح عبادات، ويؤجر عليها الإنسان إلا بنية صالحة (احتسابها عند الله(

---

[1] مسند أحمد في مسند أبي ذر رضي الله عنه بلفظ قريب من المذكور، وأخرجه الأدب المفرد، وصحيح ابن حبان، وقال الألباني: حديث حسن، وصححه في صحيح الأدب المفرد.

[2] أخرجه البخاري في صحيحِه في كتاب الأدب باب كل معروف صدقة حديث رقم 6022، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف حديث رقم 1008 بلفظ: (تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك).

والنية هنا أن ينوي إعفاف نفسه وزوجته، أو قضاء حقها، أو طلب الولد الصالح، أو نية الخير العام والمتابعة لأمر الشارع بترك الحرام .

والراجح: أن إتيان الرجل أهله في الحلال يُؤجر عليه، وأن مجرد فعله للحلال وتركه للحرام فيه أجر لأن فيه إعفافًا للنفس والزوجة وامتثالًا لأمر الله، وهذا داخل في عموم قوله ﷺ، لكن الأجر يكون أعظم وأكمل إذا نوى به التقرب إلى الله كنية إعفاف النفس وغض البصر وإعفاف الزوجة وطلب الولد الصالح.

قالوا: (يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)

قال النووي رحمه الله: اعلم أن شهوة الجماع أحبها الأنبياء والصالحون، قالوا: لما فيها من المصالح الدينية والدنيوية؛ من غض البصر، وكسر الشهوة عن الزنا، وحصول النسل الذي تتم به عمارة الدنيا، وتكثر الأمة إلى يوم القيامة.

إذن من أعمال البر والطاعة معاشرة الرجل زوجه:

دل الحديث على أن من أعمال البر والطاعة معاشرة الرجل زوجه وأنه يؤجر على ذلك إذا ابتغى بذلك التعفف بالحلال عن الحرام والكف عن الفواحش وقد استشكل الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى فبين لهم النبي ﷺ ورفع عنهم اللبس بالمقابلة بين الحلال والحرام وهو ما يسمى عند الأصوليين بقياس العكس وقرر لهم أن الرجل إذا استعمل شهوته في الحرام كان آثما ؛ فكذلك إذا استعمل شهوته في الحلال كان مأجورا، وهذا يصدق على من قصد التعفف عن الحرام، واقتصر على الحلال ، وتورع عن الشهوات أما من فعل ذلك عادة ولم يكن تعففا عن الفجور، وكان لا يبالي في شهوته وضعها في حلال، أو حرام كعادة الفجار؛ فهذا لا يؤجر في نكاحه ،لأنه لم يقصد بذلك الاستعانة على القربة.

وفي هذا الحديث دليل على أن العلاقة الجنسية بين الأزواج مقصد شرعي يشتمل عليه النكاح لغرض التعفف وهناك مقاصد أخرى مهمة كالاستقرار والأمن الاجتماعي والولد والكفاية الاقتصادية وغير ذلك، ولكن هذه الأمور لا تهمل مقصد التعفف الجنسي والحماية من الوقوع في حمأة الشهوات المحرمة.

الفوائد من الحديث:

1. حرص الصحابة رضي الله عنهم على التنافس في الطاعات، حتى كانوا يحزنون إذا فاتهم باب من أبواب الخير .

2.الغبطة المحمودة هي تمني مثل ما عند الغير من الخير دون حسد أو اعتراض على قدر الله .

3.التفاضل الحقيقي بين الناس ليس بكثرة المال، بل بكثرة العمل الصالح والقرب من الله .

4.سعة رحمة الله تعالى حيث فتح أبوابًا كثيرة للصدقة لا تقتصر على المال .

5.الذكر بأنواعه (التسبيح، التكبير، التحميد، التهليل) يُعد صدقة يؤجر عليها العبد .

6.الأعمال القلبية والبدنية مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الصدقات .

7.كل معروف وإحسان للناس يدخل في مفهوم الصدقة، ولو كان شيئًا يسيرًا .

8.الإسلام يربط حياة المسلم كلها بالعبادة، حتى العادات يمكن أن تكون عبادة يؤجر عليها .

9.إتيان الرجل زوجته في الحلال فيه أجر، لأنه إعفاف للنفس وابتعاد عن الحرام .

10.ترك الحرام وفعل الحلال عبادة يؤجر العبد عليها .

11.النية تزيد الأجر وتكمله، فكلما احتسب العبد العمل لله كان أعظم ثوابًا .

12.من صفات المؤمن الصادق أنه يحزن على فوات الطاعات لا على فوات الدنيا .

13.مقصد النكاح في الإسلام ليس فقط الشهوة، بل التعفف، والاستقرار، وحفظ المجتمع من الفساد .

****

الحديث السادس والعشرون

كل سلامى

من الناس عليه صدقة

(26) كل سلامى من الناس عليه صدقة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابّته فتحمله عليها أو ترفع له متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة) رواه البخاري ومسلم[1].

شرح الحديث

قوله: (كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس) السلامى هي مفاصل الإنسان وعظامه الدقيقة التي يتركب منها البدن.

وقد ورد في السنة أن للإنسان ثلاث مئة وستون مفصلا (360)، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل؛ فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجرا عن طريق الناس، أو شوكة أو عظما من طريق الناس، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة السلامى، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار .)[2]

فكل حركة في اليد، أو الرجل، أو الأصابع، أو الظهر، أو غير ذلك إنما تكون بفضل الله، ولذلك جاء الشرع بتذكير العبد بها حتى يعرف عظيم نعمة الله عليه، فكل واحد منها نعمة تستحق الشكر، ولهذا قال النبي ﷺ إن على الإنسان صدقة عن هذه السَّلامى، أي شكرًا لله على هذه النعم الكثيرة، وهذا كله على سبيل الاستحباب المؤكد.

وقد يظن البعض أن شكر النعم يكون باللسان فقط، والحقيقة أن هذا لا يكفي، نعم: الشكر باللسان أمر مطلوب شرعا، ولكن ينبغي أن يضمّ إليه الشكر بالعمل، فيحقّق

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلح باب كل معروف صدقة (حديث رقم 2707)، وأخرجه أيضًا في كتاب الجهاد والسير باب من أخذ بالركاب ونحوه (حديث رقم 2989)، وفي كتاب الأدب باب كل معروف صدقة (حديث رقم 6021)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (حديث رقم 1009)

[2] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (حديث رقم 1007) من حديث

بذلك أعلى درجات الشكر للخالق، وحين نستعرض الصور التي وردت في الحديث الذي نتناوله، نجد أكثرها يدخل في باب الشكر بالعمل.

قوله: (تعدل بين اثنين صدقة) بمعنى: أنك تصلح بين اثنين بينهما خصومة ومنازعة، فتجمع بين القلوب وتفض النزاع، وتدفع أسباب الشر بين المسلمين، فإن هذا الأمر تؤجر عليه، سواء كان ذلك بين الرجل وامرأته، أو بين الرجل وجاره، أو بين الرجل، ومن يعامله بمعاملة كالأجير أو الشريك، أو نحو ذلك، فإن الإنسان يؤجر على هذا، فالعدل بين المتخاصمين شكر على نعمة اللسان الذي نطق بالحق ، وشكر على نعمة العقل الذي أعان العبد على اختيار الحق والقضاء به ، وشكر على نعمة الهداية والتوفيق التي أعانت على الإصلاح بين المتخاصمين ، ولو مضينا في ذكر هذه النعم فلن نحصيها عددا ، وحسبنا أن نعلم أن هذا العمل الخيّر هو من أفضل القربات إلى الله عزوجل ، كما أنه سبب تلتئم به المشاحنات التي تحصل بين الناس ، فهو إذا صدقة على المجتمع المسلم.

قوله: (وتعين الرجل في دابّته فتحمله عليها أو ترفع له متاعه صدقة)

هذا باعتبار الأزمنة السابقة حينما كان الناس يسافرون على الجمال، والدواب المعروفة، فلربما الرجل يحتاج إلى إعانة ليركب، ولربما يحتاج الرجل إلى إعانة ليحمل متاعه فتكون الأحمال، يكون العِدل من هاهنا، والآخر من هاهنا على جانبي البعير مثلاً أو الحمار، أو نحو ذلك، يحتاج إلى من يرفع معه هذا، وكانوا في السابق يتعبون من هذه القضايا في الأسفار وفي غيرها، فهذه الأحمال التي على الرواحل إذا نزلوا في محل اشتغلوا برفعها عنها، ووضعها على الأرض، من أجل أن تستروح الدواب، ولربما ترعى، أو نحو هذا، وإذا أرادوا أن يرتحلوا حملها الرجال، ووضعوها على ظهور هذه الدواب، فهذه أعمال تحتاج إلى جهود، ولربما يكون الإنسان ضعيفاً، والشباب الأقوياء ربما الواحد منهم يحمل العِدلين بنفسه، ولكن الضعيف الرجل الكبير!، فلا يبقى يكابد ذلك، فهذا يؤجر عليه الإنسان.
واليوم إذا تعطلت سيارة أخيك فأعنه على إصلاحها، أو نحو هذا فإن الإنسان يؤجر على ذلك جميعاً.

قوله: (والكلمة الطيبة صدقة) فكم كان للكلمة الطيبة من أثر واضح على كثير من الناس، وللكلمة الطيبة وجوه متعددة وصور متنوعة، فهي:

- الذكر لله عزوجل.
- وهي الشفاعة الحسنة التي تقضي للناس حوائجهم.
- وهي التسلية للمصاب لتخفف عنه بلاءه.

- وهي الموعظة الصادقة التي ترشد العباد إلى ربهم.
- وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- وهي كل ما يُسرّ بها السامع، وما يجمع القلوب ويؤلفها.

قوله: (وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة) وهذا من كمال فضل الله وجوده بعباده أن جعل السعي إلى العبادة عبادة في الأجر، وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على فضل المشي إلى المساجد، منها:

1- حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين: (صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسا وعشرين ضعفا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحطت عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه، ما لم يحدث، تقول: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه. ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة متفق عليه.[1]

2- وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: (بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). [2]

3- وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط) [3]

4- وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من خرج من بيته متطهرا إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم ومن

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأذان أو أبواب صلاة الجماعة والإمامة (باب فضل صلاة الجماعة، حديث رقم 647 في الترقيم المشهور، ويقع برقم 620 في بعض الطبعات)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، حديث رقم 649)

[2] أخرجه الترمذي في سننه في كتاب أبواب الصلاة عن رسول الله ﷺ (باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، حديث رقم 223)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة (باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، حديث رقم 251) وورد عند مسلم أيضًا من طريق مالك بزيادة تكرار قوله: (فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)

خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه (لا يخرجه) إلا إياه فأجره كأجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين)[1]

5- وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: (كان رجل لا أعلم رجلا أبعد من المسجد منه، وكان لا تخطئه صلاة، فقيل له أو فقلت له: لو اشتريت حمارا تركبه في الظلماء وفي الرمضاء؟ فقال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فقال رسول الله ﷺ: قد جمع الله لك ذلك كله). [2]

فينبغي للمؤمن ألا يزهد في هذا الفضل العظيم وأن يحرص على المشي إلى المسجد فإن الصبر على مشقة ذلك من الجهاد ولا يستبدله بالركوب إلا لحاجة عارضة.

قوله: (وتميط الأذى عن الطريق صدقة) إزالة الأذى عن طريق المسلمين عبادة لأنه داخل في الإحسان للخلق والله يحب الإحسان ويحب المحسنين ومن محاسن هذا الدين أن جعل كف الأذى عن الناس عبادة يتقرب بها المؤمن ويؤجر على فعلها.

وإزالة الأذى عن طريق المسلمين سبب لغفران الذنوب وتكفير الخطايا لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ)[3]

وفي رواية أبي ذر للحديث عند مسلم قال النبي ﷺ في آخره: (وَيَجْزِي مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعهُمَا مِنْ الضُّحَى) وفيه دليل على أن من صلى ركعتين ضحى فقد أدى شكر يومه على نعمة البدن، وذلك لأن الصلاة تشتمل على جماع الشكر، والحمد، والتوحيد والتأله لله عز وجل فمن أداها محتسبا موافقا لهدي النبي ﷺ كان شاكرا

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الصلاة (باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، حديث رقم 558)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، وقوله صلى الله عليه وسلم (فأجره كأجر الحاج المحرم) له ثلاثة تفسيرات: الأول: أي كامل أجره ، بأن يأخذ ثواب الحاج المحرم ، الثاني: أي كأجر الحاج المحرم من حيث أخذه ثوابا على كل خطوة يخطوها ، فالماشي إلى المسجد والحاج كلاهما لهما ثواب على كل خطوة يخطوهما ، وإن اختلف الثواب بينهما ، الثالث:أنه مثل الحاج المحرم من حيث أن له ثوابَ الصلاة من أول خروجه من بيته حتى عودته ، وإن لم يكن يصلي في كل الوقت ، كما أن للحاج ثوابَ الحج من أول خروجه إلى عودته ، وإن لم يكن في شعائر الحج طوال هذه الفترة.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، حديث رقم 663)

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المظالم والغصب (باب من أخذ الغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به، حديث رقم 2472)

لربه ذلك اليوم، فإن زاد عليها فعل النوافل التي أرشد إليها النبي ﷺ فقد جمع خصال الخير.

وقد دلت السنة على مشروعيتها واستحبابها قال أبو هريرة رضي الله عنه: (أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ). متفق عليه.[1]

وختاما: فإن أعمال العباد كلها لا تساوي قدر أقل نعمة من نعم الله المتكاثرة، فلئن كان شكرها لا يوافي قدرها، فلا أقل من رعاية الحواس حق الرعاية، وصيانتها من استعمالها في غير مرضاة خالقها ومولاها، لعل ذلك يكون أقل ما يجب.

نسأل الله التوفيق والسداد.

الفوائد من الحديث:

1. أن نعم البدن كثيرة ومتجددة، وكل مفصل من مفاصل الإنسان نعمة تستحق الشكر كل يوم لله تعالى.
2. أن الصدقة لا تقتصر على المال، بل تشمل أعمال الخير المتنوعة كالإصلاح، والإعانة، والكلمة الطيبة، والمشي إلى الصلاة، وإزالة الأذى.
3. أن شكر النعمة يكون باللسان والعمل، وليس بالقول وحده، ولذلك ذكر الحديث صورًا عملية للشكر.
4. أن الإصلاح بين الناس من الصدقات العظيمة؛ لأنه يجمع القلوب، ويقطع أسباب الخصومة، ويحفظ وحدة المجتمع.
5. أن إعانة المحتاج في أموره اليومية صدقة.
6. أن الكلمة الطيبة عبادة، وتشمل الذكر، والنصيحة، والمواساة، والشفاعة الحسنة، والأمر بالمعروف، وكل كلام يدخل السرور ويؤلف القلوب.
7. أن المحافظة على صلاة الجماعة من أعظم أبواب الأجر، لما فيها من مضاعفة الثواب، وكتابة الخطوات، وصلاة الملائكة على المصلي.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التهجد (باب صلاة الضحى في الحضر، حديث رقم 1178)

8.أن إزالة الأذى عن طريق الناس صدقة، وهي من صور الإحسان إلى الخلق وكف الضرر عنهم.

9.أن صلاة الضحى لها منزلة عظيمة؛ لأنها تجزئ عن شكر سلامى البدن في ذلك اليوم.

10.أن المسلم ينبغي ألا يحتقر شيئًا من المعروف.

11.أن الإسلام يربي المسلم على النفع العام، فلا يكون صلاحه لنفسه فقط، بل يمتد خيره إلى الناس والمجتمع.

12.أن استعمال الجوارح في طاعة الله من شكر النعمة، واستعمالها في المعصية من كفرانها.

13.أن العبد مهما عمل فلن يؤدي حق نعم الله كاملة، لكن الواجب عليه أن يجتهد في الشكر، ويحفظ جوارحه مما لا يرضي الله.

****

الحديث السابع والعشرون

البر ما اطمأنت

إليه النفس

(27)البر ما اطمأنت إليه النفس

عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: (أتيت رسول الله ﷺ فقال: جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم .فقال: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك)[1] والحديث له شاهد عن النواس بن سمعان رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس) رواه مسلم.[2]

التعريف براوي الحديث الأول

- هو أبو سَلَمَة وابصة بن معبد بن عوف الأسدي رضي الله عنه، من صحابة رسول الله ﷺ، ينتمي إلى قبيلة بني أسد بن خزيمة.
- أسلم رضي الله عنه، وقدم على النبي ﷺ، ولازمه، وروى عنه عددًا من الأحاديث.
- أقام رضي الله عنه في الكوفة، ولا تُعرف سنة وفاته على وجه التحديد.

التعريف براوي الحديث الثاني

- هو أبو سمعان النواس بن سمعان بن خالد الكلابي رضي الله عنه، من صحابة رسول الله ﷺ، وكان من أهل الشام، واشتهر بالعلم والعبادة.
- أسلم في أواخر حياة النبي ﷺ، ولازمه مدة، وروى عنه عددًا من الأحاديث.
- كان من الصحابة الذين سكنوا بلاد الشام بعد وفاة النبي ﷺ، وأخذ عنه التابعون العلم والحديث.

---

[1] أخرجه أحمد في المسند (حديث رقم 18028)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وحسنه الألباني لغيره، ومن أقوى شواهده حديث النواس بن سمعان رضي الله عنهما في صحيح مسلم: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم 2553.

- روى عن النبي ﷺ نحو 15 حديثًا.
- توفي رضي الله عنه في دمشق، وقيل: في خلافة معاوية رضي الله عنه، ولم تضبط سنة وفاته على وجه اليقين.

شرح الحديث

قوله: (جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم.) هذه جملة خبرية في ظاهرها، ولكنها استفهامية في معناها فمعنى **(جئت تسأل عن البر)** أي أجئت تسال عن البر؟

وهذا الحديث فيه حكاية ذكرها الإمام أحمد في مسنده، فيها: أن الرجل ذهب إلى النبي ﷺ والناس مزدحمون حوله، فأراد الإقبال على النبي ﷺ، فنهاه الناس أن يفعل هذا أمام النبي ﷺ، فالرجل علل بأنه يحب النبي ﷺ حباً شديداً يدفعه لذلك، فقال النبي ﷺ لهم: أفسحوا لـ وابصة، فجاء وابصة يريد أن يسأل النبي ﷺ، وقبل أن يسأل قال له النبي ﷺ: (تسأل أم أخبرك؟) قال: بل أخبرني يا رسول الله! فقال له النبي ﷺ: (جئت تسأل عن البر؟ قال: نعم، فقال ﷺ: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك).

(استفت قلبك) أي اسأل والاستفتاء طلب الافتاء وهو بمعنى الخبر لأن الافتاء إخبار عن حكم شرعي فأحاله النبي ﷺ على قلبه.

(البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه) أي تستقر فما استقر إليه القلب ورضي به وانشرح به، واطمأنت إليه النفس أيضا لا تحدثك نفسك بالخروج عنه فهذا هو البر، ولكن لمن قلبه سليم ونيته صادقه. أما من ليس كذلك فقلبه لا يطمئن للبر ولا تطمئن إليه نفسه، ولهذا تجده إذا شرع في البر يضيق ذرعا ويسرع هربا حتى كأنه مطرود، لكن المؤمن يطمئن قلبه وتطمئن نفسه إلى البر.

(والإثم ما حاك في النفس) معناها: أثّر فيها وخالجها ودار فيها مع شيء من الشك والاضطراب، كأن الأمر لم يستقر في القلب.
(وتردد في الصدر) بقي القلب غير مطمئن، يتقلب بين الإقدام أو التراجع عن الفعل. أي أن من علامات الإثم أن يجد الإنسان في داخله قلقًا وانقباضًا تجاه الفعل، فلا تنشرح له نفسه، ولا يطمئن إليه قلبه، بل يبقى مترددًا: هل أفعله أم لا؟ هل هو صحيح أم لا؟ وكأنه شيء يتحرك في صدره ويؤرقه.

وليس المقصود أن كل وسوسة أو خوف داخلي يكون دليلًا على التحريم؛ لأن الموسوس قد يتردد حتى في المباح أو الطاعة؛ إنما المقصود بالحديث القلب السليم الذي يعرض له أمر مشتبه، فيجد منه انقباضًا وحرجًا، خصوصًا إذا كان يكره أن يطّلع الناس عليه.

فالمعنى التام: الإثم هو ما لم يطمئن له قلبك السليم، وبقي في صدرك منه حرج واضطراب، ولو حاول بعض الناس تهوينه لك.

(وإن أفتاك الناس وأفتوك) هذا من باب التوكيد أي ، حتى لو أفتاك وأفتاك وأفتاك فلا ترجع إلى فتواهم ما دام قلبك لم يطمئن ولم يستقر فلا تلتفت للفتوى.

وكثير من الناس يخطئ في فهم هذا الحديث، حيث يجعلونه مطية لهم في الحكم بالتحليل أو التحريم على وفق ما تمليه عليهم أهواؤهم ورغباتهم، فيرتكبون ما يرتكبون من المحرمات ويقولون: **(استفت قلبك)!!** مع أن الحديث لا يمكن أن يراد به ذلك، وإنما المراد من الحديث أن المؤمن صاحب القلب السليم قد يستفتي أحداً في شيء فيفتيه بأنه حلال، ولكن يقع في نفس المؤمن حرج من فعله، فهنا عليه أن يتركه عملاً بما دله عليه قلبه.

قال ابن القيم رحمه الله: "لا يجوز العمل بمجرد فتوى المفتي إذا لم تطمئن نفسه ، وحاك في صدره من قبوله ، وتردد فيها ؛ لقوله ﷺ: **(استفت نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك)** فيجب عليه أن يستفتي نفسه أولا ، ولا تخلصه فتوى المفتي من الله إذا كان يعلم أن الأمر في الباطن بخلاف ما أفتاه ، كما لا ينفعه قضاء القاضي له بذلك ، كما قال النبي ﷺ: **(من قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من نار)** [1]والمفتي والقاضي في هذا سواء ، ولا يظن المستفتي أن مجرد فتوى الفقيه تبيح له ما سأل عنه إذا كان يعلم أن الأمر بخلافه في الباطن ، سواء تردد أو حاك في صدره ، لعلمه بالحال في الباطن ، أو لشكه فيه ، أو لجهله به ، أو لعلمه جهل المفتي ، أو محاباته في فتواه ، أو عدم تقيده بالكتاب والسنة ، أو لأنه معروف بالفتوى بالحيل والرخص المخالفة للسنة ، وغير ذلك من الأسباب المانعة من الثقة بفتواه ، وسكون النفس إليها" [2]

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:"أي: حتى وإن أفتاك مفتٍ بأن هذا جائز، ولكن نفسك لم تطمئن ولم تنشرح إليه فدعه، فإن هذا من الخير والبر، إلا إذا علمت في نفسك مرضا من الوسواس والشك والتردد فلا تلتفت لهذا، والنبي ﷺ إنما يخاطب

---

[1] متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، حديث رقم 2680)، ومسلم في صحيحه (كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم 1713)

[2] إعلام الموقعين".(4/254)

الناس أو يتكلم على الوجه الذي ليس في قلب صاحبه مرض" [1]

فالذي يستفتي قلبه ويعمل بما أفتاه به هو صاحب القلب السليم، لا القلب المريض، فإن صاحب القلب المريض لو استفتى قلبه عن الموبقات والكبائر لأفتاه أنها حلال لا شبهة فيها!

وفي هذا قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:"(الإثم ما حاك في نفسك) أي : تردد وصرت منه في قلق **(وكرهت أن يطلع عليه الناس)** لأنه محل ذم وعيب ، فتجدك متردداً فيه وتكره أن يطلع عليك الناس، وهذه الجملة إنما هي لمن كان قلبه صافياً سليماً ، فهذا هو الذي يحوك في نفسه ما كان إثماً ، ويكره أن يطلع عليه الناس.
أما المُتَمَرِّدون الخارجون عن طاعة الله الذين قست قلوبهم فهؤلاء لا يبالون ، بل ربما يتبجحون بفعل المنكر والإثم ، فالكلام هنا ليس عاماً لكل أحد ، بل هو خاص لمن كان قلبه سليماً طاهراً نقياً ، فإنه إذا هَمَّ بإثم وإن لم يعلم أنه إثم من قبل الشرع تجده متردداً يكره أن يطلع الناس عليه ، فهذا علامة على الإثم في قلب المؤمن" [2]
إذن فلا يقال لكل إنسان: استفت قلبك، وإنما يقال ذلك لمن كان في مثل الصحابي وابصة في قوة الفهم، وصفاء النفس، وسَعة العلم، والحرص على تحري الخير، فمثله لا يرجع لفتوى رضي الله عنه، أما عامة الناس فلا يقال لأحدهم: استفت قلبك، وإنما يقال له: استفت العلماء الذين يميل قلبك إلى أمانتهم في العلم، فاسأل واعمل بفتواهم، وإن خالفت فتواهم ما في قلبك؛ **لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]**

الحديث الثاني: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس)

قوله (البر) أي الذي ذكره الله تعالى في القرآن فقال: **(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) [المائدة: الآية2]** والبر كلمة تدل على كثرة الخير.

(حسن الخلق) أي: أن حسن الخلق أعظم خصال البر كما قال: **"الحج عرفة"**

(والإثم ما حاك في نفسك) الإثم ضد البر؛ أي ما تردد وصرت منه في قلق.

(وكرهت أن يطلع عليه الناس) لأنه محل ذم وعيب، فتجدك متردد فيه وتكره أن يطلع الناس عليك.

---

[1] "شرح رياض الصالحين"(2/284)
[2] "شرح الأربعين النووية" (صـ 294، 295)

من فوائد الحديث:

1. في الحديث معجزة واضحة للنبي ﷺ؛ حيث أخبر الصحابيَّ وابصةَ بما في نفسه قبل أن يتكلم به.
2. أن البر هو ما اطمأن إليه القلب السليم، وانشرحت له النفس، ولم يجد صاحبه حرجًا في فعله.
3. البر لا يُستحى من فعله في خلوات الإنسان وفي المجتمعات العامة بخلاف الإثم فإن فعله في الخلوة يسبب الحرج والضيق وفعله في العلانية يستحى منه.
4. أن الإثم من علاماته أن يحدث في النفس قلقًا واضطرابًا، ويتردد صاحبه في صدره بين الإقدام والتراجع.
5. أن قوله ﷺ :**(استفت قلبك)** لا يُقصد به اتباع الهوى، بل يُقصد به قلب المؤمن السليم الصادق الذي يتحرى الحق.
6. أن الفتوى لا تُبيح للإنسان ما يعلم في باطنه أنه حرام أو فيه ظلم، ولو أفتاه الناس بجوازه.
7. أن الإنسان إذا وجد في صدره حرجًا من فعلٍ مشتبه، مع سلامة قلبه من الوسوسة والهوى، فالأَوْلى له تركه.
8. أن حكم المفتي أو القاضي مبني على الظاهر، ولا يغيّر حقيقة الأمر عند الله إذا كان الإنسان يعلم الباطن.
9. أن من أخذ حق غيره بحكم أو فتوى وهو يعلم أنه ليس له، فقد أخذ حرامًا، كما في قوله ﷺ :**(فإنما أقطع له قطعة من نار).**
10. أن الحديث لا يُطبَّق على الموسوس؛ لأن الموسوس قد يقلق ويتردد حتى في المباحات والطاعات.

11. أن الحديث لا يُطبَّق على صاحب القلب المريض أو المتبع لهواه؛ لأن قلبه قد يطمئن إلى المعصية ولا ينكرها.
12. أن من لم يكن عنده علم أو قدرة على التمييز لا يعتمد على شعوره وحده، بل يسأل أهل العلم، لقوله تعالى :﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: 43].
13. أن المؤمن الصادق لا يطلب الرخص والحيل ليبرر ما في نفسه، بل يطلب ما يطمئن به قلبه أمام الله.
14. أن الورع مطلوب عند الاشتباه، فمن ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه فقد حفظ دينه وقلبه.

****

الحديث الثامن والعشرون

أوصيكم بتقوى

الله عز وجل

والسمع والطاعة

(28) أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة

عن أبي نجيح العرباض بن سارية [1] رضي الله عنه قال:

وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون،

فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال:

(أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة،

وإن تأمر عليكم عبد؛ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا،

فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين،

عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة) [2]

التعريف براوي الحديث

- هو أبو نجيح العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه، من صحابة رسول الله ﷺ، ومن أهل الصُّفَّة الذين لازموا النبي ﷺ، وعُرف بالزهد والعبادة.
- أسلم مبكرًا، وشهد مع النبي ﷺ عددًا من المشاهد.
- كان من فقراء الصحابة، ومن الملازمين لرسول الله ﷺ، فأخذ عنه العلم والهدي.
- سكن بلاد الشام بعد وفاة النبي ﷺ، وأقام في حمص، وروى عنه عدد من التابعين.
- روى عن النبي ﷺ نحو 31 حديثًا.
- توفي رضي الله عنه في حمص سنة 75هـ، وقيل قبل ذلك، والأول أشهر عند كثير من أهل السير.

شرح الحديث

---

[1] معنى العرباض الشخص الطويل طولا مميزا.

[2] أخرجه أبو داود في السنن (كتاب السنة، باب في لزوم السنة، حديث رقم 4607)، والترمذي في السنن (كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم 2676)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود وصحيح سنن الترمذي .

قال: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة) الوعظ هو التذكير المقرون بالترغيب أو الترهيب.

(وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون) (وجلت)؛ أي: خافت. **(وذرفت)**؛ أي: سالت **(منها العيون)** بالدموع، لأن القلب إذا خاف بكت العين، وإذا كان قاسيا، لم تدمع العين.

(فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا) لأن المودع إذا أراد المغادرة فإنه يعظ من خلفه الموعظة البليغة التي تكون ذكرى لهم لا ينسونها، ولهذا تجد الإنسان إذا وعظ عند فراقه بسفر أو غيره، فإن الموعظة تمكث في قلب الموعوظ وتبقى.

(أوصيكم بتقوى الله عز وجل) وتقوى الله: اتخاذ وقاية من عقابه؛ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا هو حق الله، وهي وصية الله للأولين والآخرين؛ قال تعالى: ﴿**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله**﴾ [النساء: 131].

(والسمع والطاعة) أي لولاة الأمور **(وإن تأمر عليكم عبد) "تأمر"** معنى تغلب، وفي بعض الروايات: عبد حبشي، قال بعض العلماء: العبد لا يكون واليا، ولكن ضرب به المثل على التقدير وإن لم يكن؛ كقوله ﷺ: **(من بنى لله مسجدا كمفحص قطاة، بنى الله له بيتا في الجنة)**، ومفحص القطاة لا يكون مسجدا [1] ، ولكن الأمثال يأتي فيها مثل ذلك، ويحتمل أن النبي ﷺ أخبر بفساد الأمر ووضعه في غير أهله، حتى توضع الولاية في العبد، فإذا كانت فاسمعوا وأطيعوا؛ تغليبا لأهون الضررين، وهو الصبر على ولاية من لا تجوز ولايته؛ لئلا يفضي إلى فتنة عظيمة.

العز بن عبد السلام بائع الملوك

في زمن العز بن عبدالسلام كان المماليك هم الذين يحكمون مصر، وكانوا بالأصل عبيدا جلبوا ليكونوا قوة عسكرية بالجيش، فالحكومة الحقيقية كانت في أيديهم، فقد كان نائب السلطنة مملوكيًّا، وكذلك أمراء الجيش، والمسئولون كلهم مماليك في الأصل، وفيهم من لم يثبت تحرره من الرق، وكان العز بن عبدالسلام كبير القضاة بمصر، فكان كلما جاءته رقعة فيها بيع أو شراء أو نكاح أو شيء من هذا للمماليك الذين لم يحرروا أبطلها وقال: هذا عبد مملوك، حتى لو كان أميرًا وكبيرًا عندهم، أو قائدًا في الجيش يَرُدُّه، إذ لابد أن يُبَاع ويحرَّرَ، وبعد ذلك يُصَحِّحُ بيعهم وشراءهم وتصرفاتهم كلها، أما الآن فهم عبيد.

---

[1] القطاة طائر، ومفحص أي موضع فحصها في الأرض لتضع بيضها.

فغضب المماليك من هذا الإمام، وجاءوا إليه وقالوا: ماذا تصنع بنا؟
قال: رددنا بيعكم، فغضبوا أشد الغضب، ورفعوا أمره إلى السلطان، فقال: هذا أمر لا يعنيه.

فلمّا سمع العز بن عبد السلام هذه الكلمة؟ قام وعزل نفسه من القضاء.

ثم قام بجمع متاعه وأثاث بيته واشترى حمارين، ووضع متاعه على حمار، وأركب زوجته، وطفله على الحمار الآخر، ومشى بهذا الموكب البسيط المتواضع يريد أن يخرج من مصر، ويرجع إلى بلده الشام، لكن الأمة كلها خرجت وراءه، فذهب بعض الناس إلى السلطان الصالح أيوب، وقالوا له: من بقي لك تحكمه إذا خرج القاضي العز بن عبد السلام، وخرجت الأمة كلها وراءه؟
فأسرع السلطان، وركض يدرك هذا الموكب ويسترضيه ويقول له: ارجع ولك ما تريد، قال: لا أرجع أبدًا إلا إذا وافقتني على ما طلبت من بيع هؤلاء المماليك، قال: لك ما تريد، افعل ما تشاء.

ورجع العز بن عبد السلام وبدأ المماليك يحاولون معه ليغيّر رأيه؛ إذ كيف يباعون بالمزاد العلني، فأرسل إليه نائب السلطنة وكان من المماليك بالملاطفة فلم يفد معه هذا الأسلوب، فاقترح بعضهم قتل العز بن عبد السلام، فذهب نائب السلطنة ومعه مجموعة من الأمراء، ثم طرق باب العز بن عبد السلام، وكانت سيوفهم مصلتةً يريدون أن يقتلوه.

فخرج ولد العز بن عبد السلام، واسمه عبد اللطيف، فرأى موقفًا مهيبًا مخيفًا، فرجع إلى والده وقال: يا والدي انجُ بنفسك.. الموت، الموت، قال: ما الخبر؟
قال: الخبر كيت، وكيت.
فقال العز بن عبد السلام لولده: يا ولدي، والله إن أباك لأحقر وأقل من أن يقتل في سبيل الله – عز وجل.

ثم خرج مسرعًا إلى نائب السلطنة، فلمّا رآه نائب السلطنة يبست أطرافه، وتجمّد وأصابته حالة من الذعر والرعب، وأصبح يضطرب، وسقط السيف من يده، واصفرَّ وجهه، وسكت قليلاً ثم بكى وقال: يا سيدي، خبِّر ماذا تعمل؟
قال العز: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: تقبض الثمن؟ قال: نعم.
قال: أين تضعه؟ قال: في مصالح المسلمين العامة، فطلب منه الدعاء وبكى بين يديه ثم انصرف.

وفعلاً فَعَلَها العز بن عبد السلام – رحمه الله – قام وجمع هؤلاء، وأعلن عنهم، وبدأ يبيعهم، وكان لا يبيع الواحد منهم إلا بعدما يوصله إلى أعلى الأسعار، فلا يبيعه

تَحِلَّةَ القسم، وإنما يريد أن يزيل ما في النفوس من كبرياء، فكان ينادي على الواحد بالمزاد العلني، وقد حكم مجموعة من العلماء والمؤرخين بأن هذه الواقعة لم يحدث مثيل لها في تاريخ البشرية كلها.

إنما الطاعة في المعروف

والسمع والطاعة هنا ليسا على الإطلاق، بل هما مقيدان بما كان وفق كتاب الله وسنة رسوله؛ كما جاء في عدة أحاديث منها:

- **(ما أقام فيكم كتاب الله)** [1]
- **وحديث: (إنما الطاعة في المعروف)**[2]
- **وحديث: (ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)**[3]

(فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا) هذا إخبار منه ﷺ بما وقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه، وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات.

(فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين) أي: الطريقة القويمة التي تجري عليها السنن، وهي السبيل الواضحة، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين يعني الذين شملهم الهدى، وهم الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم أجمعين.
وأمره ﷺ بالثبات على سنة الخلفاء الراشدين لأمرين: أحدهما: التقليد لمن عجز عن النظر، والثاني: الترجيح لما ذهبوا إليه عند اختلاف الصحابة.

(عضوا عليها بالنواجذ) جمع ناجذ، وهو آخر الأضراس، فمعناه: عضوا عليها بجميع الفم، ولا يكون تناولها نهسا، وهو الأخذ بأطراف الأسنان، وضرب مثلا لذلك العض بالفم؛ لأنه مبتدأ الأكل، وهو أيضا كناية عن شدة التمسك بها؛ لأن النواجذ محددة، إذا عضت شيئا نشبت فيه فلا يكاد يتخلص.

(وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة) تحذير لأمته من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وأكد ذلك بقوله: **(فإن كل بدعة ضلالة)**، والمراد ما أحدث مما لا

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم(1838)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأحكام (باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث رقم 7145)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإمارة (باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم 1840)

[3] أخرجه أحمد في المسند (حديث رقم 20653)من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا، وإن كان بدعة لغة، فقوله ﷺ: **(كل بدعة ضلالة)** من جوامع الكلم، لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين.

أما من أحدث شيئا له أصل في الدين فهذا لا يعتبر بدعة، مثلا لو قلنا: إن شاء الله عز وجل سنقوم بدرس في أحكام التجويد كل يوم بعد صلاة العشاء، هل هذه بدعة هذه ليست بدعة، لأنها تندرج تحت الأصل العام وهو مدارسة القرآن، وتعلم القرآن وأحكام القرآن، والقراءة الصحيحة للقرآن، ولا نعتقد أن ليوم الجمعة مساء بعد العشاء له مزية عن غيره، أو له فضيلة عن غيره،

وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فالمقصود به البدعة بمعناها اللغوي لا الشرعي، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه في التراويح: نعمت البدعة هذه! وروي عنه أنه قال: إن كانت هذه بدعة، فنعمت البدعة.[1]

فهذا الفعل لم يكن على هذا الوجه من قبل، ولكن له أصول من الشريعة يرجع إليها، فمنها: أن النبي ﷺ كان يحث على قيام رمضان، ويرغب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحدانا، وهو ﷺ صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة، ثم امتنع من ذلك معللا بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به، وهذا قد أمن بعده ﷺ.
ومن ذلك أذان الجمعة الأول، زاده عثمان لحاجة الناس إليه، وأقره علي، واستمر عليه عمل المسلمين.

ومثل هذا جمع القرآن في مصحف واحد لما كثر القتل في القراء، وأشار عمر على أبي بكر بهذا الأمر، وخاف أبو بكر، وقال كيف أفعل ما لم يفعله رسول الله؟ فما زال به حتى اقتنع ووافق فجمع القرآن لأول مرة في مصحف واحد.

الفوائد من الحديث

1. الموعظة النافعة هي التي تحرّك القلب وتوقظه، ولذلك وصف الصحابة موعظة النبي ﷺ بأنها وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون.
2. لين القلب علامة خير؛ لأن القلب إذا خاف الله أثّر ذلك في العين والجوارح، أما قسوة القلب فتمنع التأثر والدموع.

---

[1] وقد سبق تفصيل الحديث عن البدعة في شرح الحديث الخامس عَنْ أُمِّ المُؤمِنِينَ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ: (مَنْ أَحْدَثَ فِيْ أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) رواه البخاري ومسلم

3.تقوى الله، وصية ربانية عامة للأولين والآخرين، وهي أن يجعل العبد بينه وبين عقاب الله وقاية بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

4.السمع والطاعة لولاة الأمور أصل شرعي مهم لحفظ جماعة المسلمين ومنع الفتن.

5.الطاعة تكون في المعروف فقط، فلا يجوز أن يطاع أحد في معصية الله.

6.الصبر على بعض جور الولاة أو ضعفهم قد يكون من باب ارتكاب أخف الضررين إذا كان الخروج، أو التمرد يؤدي إلى فتنة أعظم.

7.النبي ﷺ أخبر أن الأمة ستقع فيها اختلافات كثيرة، وهذا يدعو المسلم إلى طلب النجاة بالرجوع إلى السنة لا باتباع الأهواء.

8.طريق النجاة عند الاختلاف هو التمسك بسنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ رضي الله عنهم.

9.قوله ﷺ: (عضوا عليها بالنواجذ) يدل على شدة التمسك بالسنة.

10.البدعة الشرعية هي ما أُحدث في الدين وليس له أصل صحيح في الشريعة يدل عليه.

11.قوله ﷺ: (كل بدعة ضلالة) أصل عظيم في الدين، وفيه تحذير شديد من إدخال العبادات والمحدثات في الدين بغير دليل.

12.المسلم عند الفتن والاختلاف يحتاج إلى ثلاث ركائز: تقوى الله، ولزوم الجماعة بالسمع والطاعة في المعروف، والتمسك بالسنة وترك المحدثات.

****

الحديث التاسع والعشرون

أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار

(29) أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: (لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)، ثم قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿تتجافي جنوبهم عن المضاجع﴾ [السجدة: 16.] ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟) قلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد).

ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟) فقلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: (كف عليك هذا)، قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم – أو قال: على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم)؛ رواه الترمذي[1]

شرح الحديث

(أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار) أي: أرشدني إلى عمل شامل جامع لأعمال القلب واللسان والجوارح، بحيث لو تمسكت به وسرت عليه يكون سببا في دخولي الجنة وبعدي عن النار.

والأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ [النحل: 32]؛ فالباء هنا سببية؛ أي بسبب أعمالكم رحمة من الله وفضلا، وليست الجنة مقابل أعمالهم؛ كما في الحديث: **(لن يدخل الجنة أحد منكم بعمله)**

وقصة هذا الحديث ذكرها معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: "كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير وقد أصابنا الحر، فتفرق

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث رقم 2616)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

القوم، فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني، فدنوت منه، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل، يدخلني الجنة ويباعدني من النار، فقال النبي ﷺ:

(لقد سألت عن عظيم) لأن عظم الشيء بعظم الأسباب، والنجاة من النار أمر عظيم، فكيف مع دخول الجنة؟!

(وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه) أي: سهل على من سهله الله عليه بتوفيقه وتهيئة أسبابه له، وشرح صدره إليه، وإعانته عليه.

ثم ذكر له أركان الإسلام الخمسة فقال:

(تعبد الله لا تشرك به شيئا) وعبادة الله سبحانه وتعالى هي القيام بطاعته؛ امتثالا لأمره، واجتنابا لنهيه، مخلصا له.

(وتقيم الصلاة) ومعنى إقامتها أن تأتي بها مستقيمة تامة الأركان والواجبات والشروط.

(وتؤتي الزكاة) تؤتي :أي تعطي، الزكاة المفروضة بأن تدفعها لمستحقيها.

(وتصوم رمضان) أي: شهر رمضان، والصوم هو التعبد لله تعالى، بالإمساك عن المفطرات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(وتحج البيت) أي: تقصد البيت الحرام، وهو الكعبة، لأداء المناسك.

ثم قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؟) أي: طرق الخير ومفاتيحه الموصلة له، والمراد بالخير: هو النجاح في الدنيا والنعيم في الآخرة.

فذكر له ثلاثة أبواب للخير:

1. صيام التطوع.
2. صدقة التطوع.
3. قيام الليل.

(الصوم جنة) بضم الجيم وتشديد النون معناها: ما يستتر به الإنسان ويتقي به الأذى، كالدِّرع أو الترس، فالصوم يحمي صاحبه من الشهوات والمعاصي في الدنيا؛ لأنه يكسر قوة النفس ويعوّدها الصبر ومراقبة الله، ويحميه من النار في الآخرة إذا صامه إيمانًا واحتسابًا وحفظه من اللغو والرفث والمعاصي.

وهذا تشبيه بليغ بحذف أداة التشبيه ووجه الشبه، فتقدير الكلام: الصيام كالجنة يحمي الصائم من الذنوب والسيئات كما تحمي الجنة المقاتل من الضرب والطعنات.
ومادة: "جن" تدل على الستر والوقاية، ومنه قيل: لـ: "الجن": جن، بالكسر، لاستتارهم عن أعين البشر، و "الجنة": جنة بفتح الجيم، لأنها مستترة بأشجارها الكثيفة، فصار للمادة معنى كلي هو: "الستر" فالصيام جنة لأنه يكسر الشهوة ويضعفها، وقيل من النار لأنه إمساك عن الشهوات والنار محفوفة بالشهوات.
والمراد به هنا: صيام التطوع؛ لأنه ذكر صوم رمضان قبل ذلك في الأعمال التي توجب دخول الجنة والمباعدة عن النار

(والصدقة تطفئ الخطيئة) والمراد بها أيضا هنا صدقة التطوع؛ لأن زكاة الفرض سبق ذكرها؛ أي: تمحوها وتذهب أثرها؛ لقوله تعالى: ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾ [هود: 114]، وقول النبي ﷺ: **(وأتبع السيئة الحسنة تمحها)** والصدقة تمحو أثر الخطيئة إن كانت من الصغائر بحق الله عز وجل، أما الكبيرة فلا يمحوها إلا التوبة، وأما حق الآدمي فلا يمحوه إلا رضا صاحبه.

(كما يطفئ الماء النار) كما أن إطفاء الماء للنار لا يبقي من النار شيئا، كذلك الصدقة لا تبقي من الذنوب شيئا.

(وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿تتجافي جنوبهم عن المضاجع﴾ [السجدة: 16])
وهو عام للرجل والمرأة، وإنما خص الرجل بالذكر؛ لأن السائل ذكر، وإلا فمثله المرأة، وجوف الليل :أي: وسطه أو آخره؛ إذ في الحديث: **(أي الدعاء أسمع؟ قال: جوف الليل الآخر)** [1]
والمعنى: أن صلاة الرجل في الليل من أبواب البر، وأنها تطفئ الخطيئة أيضا كالصدقة .

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟) أي: رأس الدين

قلت: بلى يا رسول الله، قال: (رأس الأمر: الإسلام) أي: إن رأس الدين الذي بعث به ﷺ هو الإسلام بأركانه الخمسة جميعا، شبه النبي ﷺ الإسلام بالرأس، لأن الرأس إذا ذهب: ذهبت معه الحياة، فكذلك إذا ذهب إسلام المرء: ذهب دينه.

(وعموده: الصلاة) الخيمة لها أربعة أوتاد، وفي الوسط عمود الخيمة اسمه الفسطاط، هذا الذي يرفع قبة الخيمة، فشبه الصلاة بعمود الخيمة فقال: إن الصلاة

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الدعوات، باب منه، حديث رقم 3499)، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

عمود الدين، فهي منار الإسلام، وبالمحافظة على الصلاة يقوى دين المرء ويشتد، وتظهر آثار الالتزام بالدين عليه، ولأن الصلاة هي الركن الدائم الذي يؤدى بصورة يومية خمس مرات ولا عذر لأحد في التخلي عنها وتركها، أما بقية أركان الإسلام فلا تؤدى إلا بشروط إذا توفرت في المسلم فإنه يؤديها وربما لا تتحقق هذا الشروط عند كثير من المسلمين، فلا يؤدي هذه الأركان؛ فلم يبق له إلا الصلاة، فصارت كالعمود لحمل الإسلام وإظهاره عند كل مسلم.

(وذروة سنامه: الجهاد) والسنام: ما ارتفع من ظهر الجمل، والمراد: أعلى ما فيه وأرفعه، أي: أعلى ما في الإسلام وأرفعه الجهاد؛ لأن به إعلاء كلمة الله، فيظهر الإسلام ويعلو على سائر الأديان، وليس ذلك لغيره من العبادات، فهو أعلاها بهذا الاعتبار.

فمن لم يقر بكلمتي الشهادة لم يكن له من الدين شيء أصلا، وإذا أقر بكلمتي الشهادة حصل له أصل الدين، إلا أنه ليس له قوة، كالبيت الذي ليس له عمود؛ فإذا صلى وداوم على الصلاة قوي دينه، ولكن لم يكن له رفعة وكمال، فإذا جاهد حصل لدينه الرفعة.

ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟) أي: ما يكمل به ويتم.

فقلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: (كف عليك هذا)، والمعنى أمسك لسان نفسه بيده، والحكمة في ذلك المبالغة في الزجر.

أي: اترك الكلام المحرم كالكلام الذي فيه شرك بالله تعالى، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بغير علم، والخوض في أعراض الناس، وغير ذلك من الموبقات كالغيبة والنميمة والفحش من القول ونحو ذلك، واترك الكلام فيما لا يفيد وفيما لا معنى له؛ فإذا تكلمت فلا تتكلم إلا بخير؛ كالأمر بالصدقة والمعروف أو الإصلاح بين الناس ونحو ذلك؛ فإن لم يكن في الكلام خير ففي الصمت السلامة، **وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"**[1]

قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ (!أي: إنا معاقبون بكل ما نتكلم به .
فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ) أي: فقدتك، وهو دعاء عليه بالموت على ظاهره، والأم الثكلى: هي من فقدت ولدها، وليس المراد الدعاء عليه بالموت، بل جريا على عادة

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم 6018)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، حديث رقم 47)

العرب في الخطاب؛ كقولهم: تربت يداك، ولا أم لك، ولا أبا لك، وأشباه ذلك، واستعماله ﷺ لها لتنبيهه إلى أمر كان ينبغي أن ينتبه له ويعرفه.

(وهل يكب الناس في النار على وجوههم – أو قال: على مناخرهم) المنخر: ثقب الأنف وفتحته، وكلمة مناخير فصيحة.

(إلا حصائد ألسنتهم) شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل، وهو من بلاغة النبوة، فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل أنواع الكلام حسنا وقبيحا.
والمعنى لا يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم؛ من الكفر، والقذف، والشتم، والغيبة، والنميمة، والبهتان، ونحوها، وهذا الحكم وارد على الأغلب؛ لأنك إذا نظرت لم تجد أحدا حفظ لسانه عن السوء إلا نادرا.

الفوائد من الحديث:

1. أن مفتاح العلم السؤال.
2. أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة برحمة الله وفضله، لا أنه ثمن مستقل للجنة.
3. أن أعظم أساس للنجاة هو توحيد الله وترك الشرك.
4. أن إقامة أركان الإسلام الخمسة هي أصل الطريق إلى الجنة: التوحيد، الصلاة، الزكاة، صيام رمضان، والحج لمن استطاع.
5. أن أبواب الخير بعد الفرائض كثيرة، ومن أعظمها: صيام التطوع، وصدقة التطوع، وقيام الليل.
6. أن الصوم وقاية وسترة، يحمي صاحبه من الشهوات والمعاصي في الدنيا، ومن النار في الآخرة.
7. أن صدقة التطوع سبب لمحو الخطايا، خاصة الصغائر المتعلقة بحق الله، أما الكبائر فتحتاج إلى توبة، وحقوق العباد تحتاج إلى رد الحقوق أو طلب المسامحة.

8.أن قيام الليل من أشرف أبواب الخير، وهو دليل على صدق العبد ومحبته للخلوة بربه.

9.أن الصلاة عمود الدين، وبالمحافظة عليها يقوى إيمان العبد ويظهر أثر الدين عليه.

10.أن الجهاد ذروة سنام الإسلام؛ لأنه سبب في إعلاء كلمة الله ورفعة الدين.

11.أن خطر اللسان عظيم، وقد يكون سببًا في هلاك الإنسان ودخوله النار.

12.أن المسلم مأمور بترك الكلام المحرم، مثل الكذب، والغيبة، والنميمة، والبهتان، وشهادة الزور، والقول على الله بغير علم.

13.أن «حصائد الألسنة» تشمل كل كلام فاسد يحصده الإنسان على نفسه، مثل الكفر، والقذف، والشتم، والغيبة، والنميمة، والبهتان.

****

الحديث الثلاثون

إن الله فرض

فرائض فلا تضيعوها

(30) إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها

عن أبي ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها) حديث حسن رواه الدارقطني وغيره.[1]

التعريف براوي الحديث

- أبو ثعلبة الخشني جرثوم بن ناشر، منسوب إلى قبيلة خُشينة، وهي من قبائل قضاعة.
- أسلم رضي الله عنه، وصحب النبي ﷺ وهو من أهل بيعة الرضوان، وأسهم له النبي ﷺ يوم خيبر، وأرسله إلى قومه، وأخوه عمر بن جرهم أسلم على عهد النبي ﷺ.
- وسكن أبو ثعلبة رضي الله عنه الشام، وذُكر أن له ذرية في داريا وقرية البلاط، وكان معروفًا بالعبادة والخشية.
- توفي وهو ساجد في صلاته، سنة خمس وسبعين.

شرح الحديث

" فرض فرائض" الفرائض هي الواجبات الشرعية التي أوجبها الله على عباده وألزمهم بها، ومنها ما يكون واجبا على كل أفراد الأمة، وهو ما يسمى بالفرائض العينية مثل الصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، ومالا يحصى، ومنها ما هو واجب على الكفاية أي: إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين كتغسيل المسلم وتكفينه والصلاة عليه.

" فرائض" ولا نقول: (فرائضا) لأنها اسم لا ينصرف من أجل صيغة منتهى الجموع.

" فلا تضيعوها" أي تهملوها فتضيع، بل حافظوا عليها.

---

[1] أخرجه الدارقطني في سننه (183/4)، والحاكم في المستدرك (حديث رقم 7114)، والبيهقي في السنن الكبرى (حديث رقم 20217) وحسنه شعيب الأرناؤوط بشواهده.

"وحد حدودا فلا تعتدوها" الحد في اللغة المنع، ومنه الحد بين الأراضي لمنعه من دخول أحد الجارين على الآخر، وفي الاصطلاح قيل: إن المراد بالحدود الواجبات والمحرمات، فالواجبات حدود لا تتعدى، والمحرمات حدود لا تقرب.
وقال بعضهم: المراد بالحدود العقوبات الشرعية كعقوبة الزنا، وعقوبة السرقة وما أشبه ذلك.

"وحرم أشياء" (أشياء) منصوبة بدون تنوين لوجود ألف التأنيث الممدودة.

"فلا تنتهكوها" أي فلا تفعلوها، فدعا إلى ترك المعاصي بجميع أنواعها، مثل: الزنا، وشرب الخمر، والقذف، وأشياء كثيرة لا تحصى.

وإنما عبر هنا بلفظ الانتهاك؛ ليبين ما عليه حال من يقارف المعاصي من تعد وعدوان على أحكام الله عزوجل، فأتى بهذه اللفظة للتنفير عن كل ما نهى الله عنه.

وطرق التحريم كثيرة، منها: النهي، ومنها: التصريح بالتحريم، ومنها: ذكر العقوبة على الفعل، ولإثبات التحريم طرق.

"وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها" سكت عن أشياء بمعنى لم يقل فيها شيئا، أي لم يحرمها ولم يفرضها، فإذا لم يرد نص في حكم مسألة ما، فإننا نبقى على الأصل، وهو الإباحة.

وقوله: "غير نسيان" أي أنه عز وجل لم يتركها ناسيا، ولكن رحمة بالخلق حتى لا يضيق عليهم، والنسيان مستحيل على الله، قال تعالى: **(وما كان ربك نسيا)** (مريم: الآية64)

فإن قال قائل: ما الجواب عن قول الله تعالى: (نسوا الله فنسيهم) (التوبة: الآية67) فأثبت لنفسه النسيان؟

فالجواب: أن المراد: النسيان هنا نسيان الترك، أي تركوا الله فتركهم.
فهؤلاء تعمدوا الشرك وترك الواجب، ولم يفعلوا ذلك نسيانا.
إذا: (نسوا الله) أي تركوا دين الله (فنسيهم) أي فتركهم؛ أما النسيان الذي هو الذهول عن شيء معلوم فهذا لا يمكن أن يوصف الله عز وجل به، بل يوصف به الإنسان، لأن الإنسان ينسى، ومع ذلك لا يؤاخذ بالنسيان لأنه وقع بغير اختيار.

"فلا تبحثوا عنها" هل هذا النهي في عهد الرسالة، أم إلى الآن؟
في هذا قولان للعلماء الراجح أن هذا خاص في عهد الرسالة، لأن ذلك عهد نزول الوحي، فقد يسأل الإنسان عن شيء لم يحرم فيحرم من أجله، أو عن شيء لم يجب فيوجب من أجله.

كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا"، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: "لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم"[1]

أما بعد عهد الرسالة فلا بأس أن يبحث طلبة العلم، لأن طالب العلم ينبغي أن يعرف كل مسألة يحتمل وقوعها حتى يعرف الجواب، وأما إذا لم يكن كذلك فلا يبحث، بل يمشي على ما كان عليه الناس.

ومن ذلك: البحث عما جد من مكونات ومواد تضاف إلى الأطعمة المختلفة، وما جد من معاملات مالية في البنوك والبورصة والعملات الرقمية ...الخ.

لكن مع ملاحظة ألا يكون ذلك على سبيل التكلف، فلا يسأل عن الأشياء النادرة، أو التي لا تقع، أو يبعد وقوعها جدا، أو صعاب المسائل التي يسمونها بالأغاليط، فهذا كله السؤال عنه مذموم، ولا يطلب أيضا من المسؤول أن يجيب عليه، ولا يكون ذلك من قبيل كتمان العلم.

الفوائد من هذا الحديث:

1. أن الله تعالى فرض على عباده فرائض يجب المحافظة عليها وعدم إضاعتها.
2. أن الفرائض تشمل الواجبات العينية التي تلزم كل مسلم، مثل الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، وصلة الرحم.
3. أن من الفرائض ما يكون فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين، مثل تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه.
4. أن قول النبي ﷺ: «فلا تضيعوها» يدل على وجوب العناية بالفرائض وعدم التهاون بها أو تأخيرها أو تركها.
5. أن الواجب على المسلم أن يحافظ على ما أوجبه الله عليه كما يحافظ على أغلى ما يملك.
6. أن حدود الله هي الأحكام التي وضعها الله لعباده، فلا يجوز تجاوزها ولا التعدي عليها.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم 1337).

7.أن الله تعالى حرّم أشياء على عباده، والواجب عليهم اجتنابها وعدم انتهاكها.
8.أن التعبير بلفظ «فلا تنتهكوها» فيه شدة في التحذير؛ لأن فعل الحرام كأنه اعتداء على حرمة أمر الله.
9.أن ما سكت الله عنه ولم يرد فيه نص بالوجوب أو التحريم، فالأصل فيه الإباحة.
10.أن سكوت الشرع عن بعض الأشياء رحمة بالعباد، وليس عن نسيان أو غفلة.
11.أن النهي عن البحث في المسكوت عنه كان آكد في زمن النبوة؛ لأن السؤال في ذلك الوقت قد يكون سببًا في نزول حكم بالتشديد أو الوجوب.
12.أن بعد انقطاع الوحي لا حرج على طلبة العلم في البحث عن المسائل المحتمل وقوعها لمعرفة حكمها.
13.أن البحث العلمي المطلوب هو ما تدعو إليه الحاجة أو يحتمل وقوعه، لا البحث المتكلف في المسائل النادرة أو المستحيلة.
14.أن الشريعة مبنية على الرحمة واليسر، فالله فرض ما فيه صلاح العباد، وحرّم ما فيه فسادهم، وسكت عن أشياء رحمة بهم.
15.إثبات أن الأمر لله عز وجل وحده، فهو الذي يفرض، وهو الذي يوجب، وهو الذي يحرم، فالأمر بيده، لا أحد يستطيع أن يوجب مالم يوجبه الله، أو يحرم مالم يحرمه الله.

****

الحديث الحادي والثلاثون

ازهد في الدنيا

يحبك الله

(31) ازهد في الدنيا يحبك الله

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس) [1]

التعريف براوي الحديث

- هو أبو العباس سهل بن سعد بن مالك بن خالد الساعدي الأنصاري رضي الله عنه، من صحابة رسول الله ﷺ، من بني ساعدة من قبيلة الخزرج.
- أسلم وهو صغير، وكان عمره نحو خمس عشرة سنة عند وفاة النبي ﷺ، ولازم رسول الله ﷺ في آخر حياته.
- عُرف بالعلم والفضل، وكان من آخر الصحابة وفاةً في المدينة.
- روى عن النبي ﷺ 188حديثًا، أخرج له أصحاب الكتب الستة.
- أخذ عنه جماعة من كبار التابعين، وكان مرجعًا في الحديث والفقه.
- توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة 91هـ، وقيل 88 :هـ، عن عمر يناهز ستًا وتسعين سنة.
- ويُعد سهل بن سعد رضي الله عنه من الصحابة المكثرين نسبيًا في الرواية، وقد نقل للأمة عددًا من الأحاديث العظيمة في الزهد، والعبادات، والآداب، والأحكام.

شرح الحديث

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: (يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس) وهذا يدل على حرص أصحاب رسول الله ﷺ على الخير، ومعرفة أمور دينهم، وحرصهم على معرفة ما يجلب لهم محبة الله الذي محبته لهم فيها خيرهم وسعادتهم، ومحبة الناس التي يكون فيها السلامة من شرهم.

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، حديث رقم 4102)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (حديث رقم 922).

فقال: (ازهد في الدنيا) ازهد: من الزهد، وهو الإعراض عن الشيء احتقارا له.

حقيقة الزهد:

الزهد: ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا، وإن كان حلالا، والاقتصار على الكفاية.
وأجمع تعريف للزهد هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: " الزهد: هو ترك ما لا ينفع في الآخرة "

وهذا يشمل ترك ما يضر، وترك ما لا ينفع ولا يضر، وإن أعظم ما يعين المؤمن على الزهد استحضار حقيقة الدنيا قال جل جلاله: **(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)** [آل عمران 185]

زهد رسول الله ﷺ:

وقد كان النبي ﷺ سيد الزاهدين في الدنيا مع قدرته على جمعها وكان ينفقها في وجوه الخير، ولا يمسك منها إلا قدر حاجته.

قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: (لو كان لي مثل أحد ذهبا، لسرني ألا تمر على ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين). متفق عليه.[1]

وفي الصحيحين قال عمر رضي الله عنه: (فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي، قال: ما يبكيك يا ابن الخطاب قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ، وصفوته، وهذه خزانتك، فقال: يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى).[2]

دخل عمر على رسول الله ﷺ فرآه "وهو مضطجع على حصير"، أي: نائم بجنبه عليه، بدون فرش، فشد النبي ﷺ إزاره على جسمه؛ طلبا لمزيد من الستر، ولم يكن على جسد النبي ﷺ إلا هذا الإزار، "وإذا الحصير قد أثر في جنبه"، أي: جعل عليه

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الاستقراض، باب أداء الديون، حديث رقم 2389)، ومسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، حديث رقم 991)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، باب قوله: ﴿تبتغي مرضات أزواجك﴾، حديث رقم 4913)، ومسلم في صحيحه (كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، حديث رقم 1479)

علامات إثر نومه عليه، فنظر عمر رضي الله عنه مستكشفا للغرفة التي يجلس بها رسول الله ﷺ، فلم يجد فيها إلا قبضة أي: كومة من شعير تقدر بصاع، والصاع: أربعة أمداد، والمد مقدار ما يملأ الكفين، ومثل ذلك القدر وجدت **"قرظا في ناحية الغرفة"**، أي: في جانب من جوانبها، وعلى بعد من النبي ﷺ، والقرظ بضم القاف قيل: نوع من الشجر يدبغ به الجلود، **"وإذا أفيق معلق"** وهو الجلد الذي لم يتم دباغه، وهذا كله كناية عن رثاثة هيئة المكان الذي كان به النبي ﷺ، وشدة الحال التي كان عليها النبي ﷺ.

قال عمر رضي الله عنه: "فابتدرت عيناي"، أي: سالت منها الدموع؛ شفقة برسول الله ﷺ، فسأله النبي ﷺ عن سبب بكائه، فقال عمر رضي الله عنه: **"يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته، وهذه خزانتك؟"** كل هذا كناية وبيان عما للكفار من نعيم مقارنة بالحال التي عليها النبي ﷺ، ومراد عمر رضي الله عنه أن الرسول ﷺ والمسلمين أولى من الكفار بذلك النعيم، **فقال النبي ﷺ: "يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟"** ففسر له النبي ﷺ بذلك منطق نعيم الدنيا ونعيم الآخرة؛ وهو أن من سنة الله في عباده أن جعل الكفار ينعمون بالدنيا على أن ينعم عباده المؤمنون بنعيم الآخرة، مع المفارقة فيما بين النعيمين، وخلود المؤمنين في نعيم الجنة وما يقابله من خلود الكفار في جحيم النار، **قال عمر رضي الله عنه: "بلى" رضيت بذلك يا رسول الله.**

هل الزهد هو الانقطاع عن الدنيا؟

ولا يفهم مما سبق أن الأخذ من طيبات الحياة الدنيا على قدر الحاجة ينافي معنى الزهد، فقد كان من الصحابة من كانت لديه الأموال الكثيرة، والتجارات العديدة، كأمثال أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، لكن هذه التجارات وتلك الأموال كانت في أيديهم، ولم تكن في قلوبهم، ولهذا ترى الصحابة رضي الله عنهم في باب الصدقة ومساعدة المحتاج والإنفاق في سبيل الله، تراهم كمطر الخير الذي يعطي ولا يمنع، ويسقي حتى يشبع.

وعلى هذا فإن حقيقة الزهد: أن تجعل الدنيا في يدك لا في قلبك، فإذا كان العبد مقبلا على ربه، مبتعدا عن الحرام، مستعينا بشيء من المباحات، فذلك هو الزهد الذي يدعو إليه الحديث .

ومن المفاهيم الخاطئة في باب الزهد اعتقاد أن الزهد ملازم للفقر ولا يجتمع مع الغنى أبدا **قال ابن تيمية: (وصار المتأخرون كثيرا ما يقرنون بالفقر معنى الزهد**

والزهد قد يكون مع الغنى وقد يكون مع الفقر ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير)[1]
وسئل الإمام أحمد عمن معه مال هل يكون زاهدا قال: (إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه فهو زاهد)[2]
ومصداق ذلك في كتاب الله قوله جل جلاله: (لكيلا تأسوا علىٰ ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) [الحديد:23]
فمن لم يحزن على نقص الدنيا ولم يفرح بزيادتها فقد سكن الزهد في قلبه.
أما الزهد في التكسب وتملك الأموال والرضا بالفقر والحاجة للناس فليس ذلك من الزهد المشروع.
قال أبو مسلم الخولاني: (ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال إنما الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يديك وإذا أصبت مصيبة كنت أشد رجاء لأجرها وذخرها من إياها لو بقيت لك)[3]

والزهد التام له علامات:

الأولى: التواضع وحب عدم الظهور والبعد عن الشهرة.

الثانية: عدم الحزن والهم على فوات الدنيا والفرح بكثرتها، قال مالك بن دينار: (بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك).

الثالثة: القناعة بما قسم الله من الرزق، قال الفضيل بن عياض: (أصل الزهد الرضا عن الله عز وجل).

الرابعة: عدم منافسة الخلق في الدنيا والتطلع لما في أيديهم.

الخامسة: الورع عن الحرام والشبهات، قال أبو سليمان الداراني: (الورع أول الزهد كما أن القناعة أول الرضا)، وكثير من الناس فتن بنعيم الدنيا وزهد في نعيم الآخرة، كما قال جل جلاله: **(بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى).** قال قتادة: (فاختار الناس العاجلة إلا من عصم الله).

---

[1] مجموع الفتاوى (11/25)
[2] ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم عند شرحه الحديث.
[3] المرجع السابق.

ثمرات الزهد:

والزهد له فوائد عظيمة على المؤمن:

1- سلامة القلب من الحسد والبغي، ومحبة الخلق، والسعادة في الدنيا؛ قال جل جلاله: ﴿**وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: 9]

2- الزهد يهون المصائب على قلب المؤمن، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات).

3- والزهد يدل على الحكمة، قال مالك: (بلغني أنه ما زهد أحد في الدنيا واتقى إلا نطق بالحكمة).

4- بالزهد يذوق المؤمن حلاوة الإيمان، قال الفضيل بن عياض: (حرام على قلوبكم أن تصيب حلاوة الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا).

5- والزهد راحة للمؤمن من الهموم والأحزان، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن)، وإذا ارتاح المؤمن تفرغ للعبادة.

6- والزاهد لا ينازع الناس في دنياهم، ولا يحزن على ما فاته من الدنيا؛ قال الفضيل بن عياض: (لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالي من أكل الدنيا).

7- والزهد يرغب المؤمن في محبة لقاء الله في الآخرة؛ قال بشر بن الحارث: (ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومن زهد فيها أحب لقاء مولاه).

8- ومن زهد في الدنيا وتخفف منها خف حسابه يوم القيامة، ولم يطل وقوفه، قال رسول الله ﷺ: **(قمت على باب الجنة، فإذا عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار)**[1]

9- والزهد في الدنيا يورث محبة الله ومحبة الخلق؛ كتب أبو الدرداء رضي الله عنه إلى بعض إخوانه: (أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله فإنك إذا فعلت ذلك أحبك الله لرغبتك فيما عنده وأحبك الناس لتركك لهم دنياهم والسلام).

من كلام السلف عن الزهد:

- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (أنتم أكثر صياما وأكثر صلاة وأكثر جهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرا منكم. قالوا: لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة).
- وبعث معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها مرة بمائة ألف درهم فما أمست حتى فرقتها فقالت لها خادمتها: لو اشتريت لنا منهم بدرهم لحما؟ فقالت: ألا قلت لي؟
- وقال بشر الحافي رحمه الله إذ يقول: " ليس الزهد في الدنيا تركها، إنما الزهد أن يزهد في كل ما سوى الله تعالى، هذا داود وسليمان عليهما السلام قد ملكا الدنيا، وكانا عند الله من الزاهدين "
- وقال الحسن البصري رحمه الله: " أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا إذا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها إذا أدبر، وكانت في أعينهم أهون من التراب."
- قال سفيان الثوري: (ما رأيت زهدا في شيء أقل منه في الرئاسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نوزع الرئاسة تحامى عليها وعادى).

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب النكاح، حديث رقم 5196)، ومسلم في صحيحه (كتاب الرقاق، حديث رقم 2736) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، ومعنى أصحاب الجَدّ :أصحاب الحظ والغنى، وليس المقصود أصحاب الجِدّ بمعنى الاجتهاد؛ أي إن أصحاب الأموال يُحبسون للحساب على أموالهم: من أين اكتسبوها وفيما أنفقوها.

- وقال أحمد بن حنبل: (الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين).
- وقال أبو داود: (كنت أجالس أحمد وكانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا ما رأيته ذكر الدنيا قط).
- وقال مالك بن دينار: (الناس يقولون: إني زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها).
- وقال أبو سليمان الداراني: الزهد أن يترك ما يشغله عن الله عز وجل.
- وقال ابن القيم: (والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد كالزهد لعبد الله ابن المبارك وللإمام أحمد ولوكيع ولهناد بن السري ولغيرهم ومتعلقه ستة أشياء لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها وهي المال والصور والرياسة والناس والنفس وكل ما دون الله وليس المراد رفضها من الملك)، وقال أيضا: (والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار).

قوله: (يحبك الله) ومن أحبه الله وضع له القبول في الأرض، فأقبلت عليه قلوب الخلق، ومن أبغضه الله تبارك وتعالى فإن القلوب تنقبض منه وتمقته وتبغضه، كما دل على ذلك الحديث المشهور: **(إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض)**[1]

(وازهد فيما عند الناس) أي: أعرض عما في أيديهم من الدنيا، والمعنى: لا يكن القلب متعلقا بما في أيدي الناس من نعيم الدنيا، فإذا فعل العبد ذلك، مالت إليه قلوب الناس، وأحبته نفوسهم.

وقد جاء في حديث سهل بن سعد مرفوعا: (شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس)[2]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم 3209)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، حديث رقم 2637)

[2] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (حديث رقم 4278)، والحاكم في المستدرك (حديث رقم 7921)، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وحسنه المنذري والألباني.

وقال الحسن: لا تزال كريما على الناس، ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك.

وقال أيوب السختياني: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم.

وقال أعرابي لأهل البصرة: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بما سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

(**يحبك الناس**) والسر في ذلك أن القلوب مجبولة على حب الدنيا ، وهذا الحب يبعثها على بغض من نازعها في أمرها ، فإذا تعفف العبد عما في أيدي الناس ، عظم في أعينهم ؛ لركونهم إلى جانبه ، وأمنهم من حقده وحسده.
فما أعظم هذه الوصية النبوية، وما أشد حاجتنا إلى فهمها والعمل بمقتضاها، حتى ننال بذلك المحبة بجميع صورها.
وقال الشافعي رحمه الله في ذم الدنيا :

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها

وسيق إلى عذبها وعذابها

فلم أرها إلا غرورا وباطلا

كما لاح في ظهر الفلاة سرابها

وما هي إلا جيفة مستحيلة

عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها

وإن تجتذبها نازعتك كلابها

فطوبى لنفس أولعت قعر بيتها

مغلقة الأبواب مرخى حجابها

الفوائد من الحديث:

1. حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عما يقربهم من الله ويصلح علاقتهم بالخلق.
2. أن أعظم مطلوب للعبد هو محبة الله تعالى؛ لأن فيها سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة.
3. أن محبة الناس مطلوبة إذا كانت بطريق شرعي، لا بالتنازل عن الدين أو طلب رضاهم بسخط الله.
4. أن الزهد ليس معناه ترك الدنيا كلها، ولا تحريم الحلال، ولا إضاعة المال.
5. أن حقيقة الزهد هي ترك ما لا ينفع في الآخرة، كما قال ابن تيمية رحمه الله.
6. أن الزهد يشمل ترك الحرام، وترك فضول المباحات التي تشغل القلب عن الله.
7. أن امتلاك المال لا ينافي الزهد إذا كان المال في اليد لا في القلب.
8. أن الفقر ليس هو الزهد بالضرورة، فقد يكون الإنسان فقيرًا وقلبه متعلق بالدنيا.
9. أن من أعظم ثمرات الزهد محبة الله تعالى للعبد.
10. أن الزهد فيما عند الناس يورث عز النفس وكرامة الإنسان.
11. أن تعلق الإنسان بما في أيدي الناس يضعف مكانته عندهم، ويجلب له الذل والاستخفاف.
12. أن الاستغناء عن الناس لا يعني ترك التعامل معهم، بل يعني ألا يكون القلب متعلقًا بأموالهم أو عطاياهم.
13. أن العفة عما في أيدي الناس من أسباب السيادة والمكانة بين الخلق.

الحديث الثاني والثلاثون

لا ضرر ولا ضرار

(32)لا ضرر ولا ضرار

عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه

أن رسول الله ﷺ قال: (لا ضرر ولا ضرار).

حديث حسن رواه ابن ماجه والدار قطني وغيرهما[1]

التعريف براوي الحديث

- هو أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي.
- أسلم وهو صغير، وأراد شهود غزوة أُحد، لكن النبي ﷺ رده لصغر سنه، ثم شهد غزوة الخندق وما بعدها من المشاهد.
- كان من كبار فقهاء الصحابة، وعُرف بالعلم والعبادة والحرص على تعليم السنة.
- روى عن النبي ﷺ 1170حديثًا، وهو من المكثرين السبعة في رواية الحديث.
- أخذ عنه عدد كبير من الصحابة والتابعين، وكان مرجعًا في الفقه والحديث بالمدينة.
- توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة 74هـ.

شرح الحديث

قوله: (لا ضرر ولا ضرار) احتمال أن تكون لا النافية للجنس أو لا الناهية، فعلى المعنى الأول: **(لا ضرر):** نفي أن يكون هناك ضرر؛ أي لا ضرر جائز ايقاعه شرعا فنفي النبي ﷺ أن يكون هناك ضرر جائز شرعا.

وبعض العلماء قالوا: إن (لا) ناهية أي النبي ﷺ ينهى كل مسلم أن ينشئ الضرر أو يكون سبب في الضرر؛ وكلا المعنيين جائز في اللغة.
فالنبي ﷺ نهى عن الضرر ونفاه نهائيا لا ضرر ولا ضرار.

---

[1] أخرجه الدارقطني والحاكم والبيهقي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه مالك في الموطأ مرسلًا عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن النبي ﷺ، وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند ابن ماجه، والحديث حسن بمجموع طرقه، وصححه الألباني.

والضرر: هو الأذى، أي لا يضر أحد أحدا فينقصه شيئا من حقه، سواء كان ماديا في النفس أو في المال أو في الولد، أو معنويا كالتجريح والسب والإهانة؛ فكل ما فيه أذى للغير ماديا أو معنويا فهو ضرر.

(ولا ضرار) لا يلحق بأخيه الضرر، والضرار هو رد الفعل المتعمد لمن يضرك.

وقوله: "لا ضرر ولا ضرار" هل هما لفظان بمعنى واحد؟

أقوال للعلماء:

1-بعض العلماء يرى أن الضرر عند أهل العربية الاسم، والضرار الفعل:

فمعنى "لا ضرر" أي لا يدخل أحد على أحد ضررا لم يدخله على نفسه،

ومعنى "لا ضرار" لا يضار أحد بأحد .

2-الضرر هو الذي لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة.

3-الضرر والضرار مثل القتل والقتال فالضرر أن تضر من لا يضرك:

والضرار: أن تضر من أضر بك من غير جهة الاعتداء بالمثل والانتصار بالحق.

4-ومن أوضح ما قيل في الفرق بينهما ما قاله ابن عثيمين رحمه الله: **قوله "لا ضرر" الضرر** معروف، والضرر يكون في البدن ويكون في المال، ويكون في الأولاد، ويكون في المواشي وغيرها.

"ولا ضرار" أي ولا مضارة والفرق بين الضرر والضرار: أن له ضرر يحصل بدون قصد، والمضارة بقصد، ولهذا جاءت بصيغة المفاعلة.

مثال ذلك: رجل له جار وعنده شجرة يسقيها كل يوم، وإذا بالماء يدخل على جاره ويفسد عليه، لكنه لم يعلم، فهذا نسميه ضررا.

مثال آخر: رجل بينه وبين جاره سوء تفاهم، فقال: لأفعلن به ما يضره، فركب موتورا له صوت كصوت الدركتر (البلدوزر)عند جدار جاره وقصده الإضرار بجاره، فهذا نقول مضار.
والمضار لا يرفع ضرره إذا تبين له، بل هو قاصده، وأما الضرر فإنه إذا تبين لمن وقع منه الضرر رفعه.

تطبيقات الحديث:

هذا الحديث أصل عظيم في أبواب كثيرة، ولا سيما في المعاملات: كالبيع والشراء والرهن والارتهان، وكذلك في الأنكحة يضار الرجل زوجته أو هي تضار زوجها، وكذلك في الوصايا يوصي الرجل وصية يضر بها الورثة.

فالقاعدة: متى ثبت الضرر وجب رفعه، ومتى ثبت الإضرار وجب رفعه مع عقوبة قاصد الإضرار.

من ذلك مثلا: كانوا في الجاهلية يطلق الرجل المرأة فإذا شارفت انقضاء العدة راجعها، ثم طلقها ثانية فإذا شارفت انقضاء العدة راجعها، ثم طلقها ثالثة ورابعة، لقصد الإضرار، فرفع الله تعالى ذلك إلى حد ثلاث طلقات فقط.

مثال آخر: رجل أوصى بعد موته بنصف ماله لرجل آخر من أجل أن ينقص سهام الورثة، فهذا محرم عليه مع أن للورثة أن يبطلوا ما زاد على الثلث.
ومن هنا ، فإن نفي الضرر يؤكد أن الدين الإسلامي يرسخ معاني الرحمة والتيسير ، وعدم تكليف الإنسان ما لا يطيق ، فلا يمكن أن تجد في أحكامه أمرا بما فيه مضرة ، أو نهيا عن شيء يحقق المصلحة الراجحة ، وإذا نظرت إلى ما جاء تحريمه في القرآن الكريم أو في السنة النبوية فلابد أن تجد فيه خبثا ومفسدة ، مصداقا لقوله تعالى : { **ويحرم عليهم الخبائث** } [الأعراف : 157]
ومن ناحية أخرى فإن كل ما ورد في الكتاب والسنة من أوامر، فالأصل أنها مقدورة، داخلة ضمن حدود الطاقة، وإذا عرض للإنسان أحوال تمنعه من إتمام الامتثال بالأمر الشرعي ، كأن يلم به مرض أو عجز أو نحوهما ، فهنا يأتي التخفيف من الله تعالى ، كما في رخصة الإفطار في نهار رمضان ، ورخصة الجمع والقصر في الصلاة ، وغير ذلك كثير.

هل نفي الضرر فيه نفي للعقوبة؟

كلا فإن المنفي هو الضرر لا العقوبة والقصاص، والمراد بالضرر في الحديث هو ما كان بغير حق، أما إدخال الأذى على أحد يستحقه – كمن تعدى حدود الله تعالى فعوقب على جريمته، أو ظلم أحدا فعومل بالعدل وعوقب على ظلمه – فهو غير مراد في الحديث لأنه قصاص شرعه الله عز وجل.
بل من نفي الضرر أن يعاقب المجرم بجرمه ويؤخذ الجاني بجنايته، لأن في ذلك دفعا لضرر خطير عن الأفراد والمجتمعات.

لا تكليف في الإسلام بما فيه ضرر، ولا نهي عما فيه نفع: إن الله تعالى لم يكلف عباده فعل ما يضرهم قط، كما أنه سبحانه لم ينههم عن شيء فيه نفع لهم، ففيما

أمرهم به عين صلاحهم في دينهم ودنياهم، وفيما نهاهم عنه عين فساد معاشهم ومعادهم. قال تعالى: **{قل أمر ربي بالقسط}** [الأعراف: 29] وقال: **{قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن}** [الأعراف: 33].

قاعدة رفع الحرج:

من نفي الضرر في الإسلام رفع الحرج عن المكلف، والتخفيف عنه عندما يوقعه ما كلف به في مشقة غير معتادة، ولا غرابة في ذلك فإن هذا الدين دين التيسير، قال الله تعالى: **{وما جعل عليكم في الدين من حرج} [الحج: 78] وقال: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}** [البقرة: 286]

ومن أمثلة التخفيف عن المكلف عند حصول المشقة:

- التيمم للمريض وعند عسر الحصول على الماء.
- الفطر للمسافر، والمريض، والحامل، والمرضع.
- إنظار المدين المعسر: فمن استدان في مباح لأجل ولم يتمكن من الوفاء، وجب على دائنه تأخير مطالبته إلى حال يساره، **قال تعالى: (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة)] البقرة:280[**

مظاهر الضرر:

يتجلى قصد الضرر في نوعين من التصرفات:

النوع الأول: تصرفات ليس للمكلف فيها غرض سوى إلحاق الضرر بغيره:
وهذا النوع لا ريب في قبحه وتحريمه، وقد ورد الشرع بالنهي عن كثير من التصرفات التي لا يقصد منها غالبا إلا إلحاق الضرر منها:
المضارة في البيع: كبيع المضطر: وهو أن يكون الرجل محتاجا لسلعة ولا يجدها، فيأخذها من بائعها بزيادة فاحشة عن ثمنها المعتاد، كأن يشتريها بعشرة وهي تساوي خمسة.
أخرج أبو داود من حديث عليّ رضي الله عنه: أنه خطب الناس فقال: نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر.[1]

والغبن الفاحش: إذا كان المشتري لا يحسن الفصال فاشترى بغبن كثير، لم يجز للبائع ذلك. ومذهب مالك وأحمد رحمهما الله تعالى أنه يثبت له خيار الفسخ.

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب البيوع، باب في بيع المضطر، حديث رقم 3382)، وأحمد في المسند من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي إسناده رجل مجهول، ولذلك ضعفه النووي والبغوي، وقال الخطابي: في إسناده رجل مجهول.

الوصية: والإضرار بالوصية على حالين:
الأول: أن يخص بعض الورثة بزيادة على فرضه الذي فرضه الله له، فيتضرر بقية الورثة بتخصيصه، ولذا منع الشارع من ذلك إذا لم يرض باق الورثة.

الثاني: أن يوصي لأجنبي لينقص حقوق الورثة، ولذا منع الشرع من ذلك فيما زاد عن الثلث سواء قصد المضارة أم لا، إلا إذا أجاز الورثة، **قال ﷺ: " الثلث والثلث كثير "**[1]
وأجازها في حدود الثلث ليتدارك المكلف بعض ما فاته من الخيرات في حياته، وما قصر فيه عن وجوه الإنفاق، وهذا إذا لم يقصد الوصي بوصيته إدخال الضرر على الورثة، وإلا فإنه يأثم بوصيته عند الله عز وجل.

النوع الثاني: تصرفات يكون للمكلف فيها غرض صحيح مشروع، ولكن يرافق غرضه أو يترتب عليه إلحاق ضرر بغيره:

وذلك على نوعين:

الأول: بأن يتصرف في ملكه بما يتعدى ضرره إلى غيره؛ بأن يحدث في ملكه ما يضر بجيرانه، من هدم أو دق أو نحوهما، أو يضع ما له رائحة خبيثة، فإنه يمنع منه.
ومن هذا الباب من يتعاطى السموم كالتدخين، ثم يقول: أنا حر !وهذا ولا شك أضر بصحته، ويضر غيره فيما يعرف بالتدخين السلبي، ويضر أطفاله، سواء في أثناء الحمل أم من خلال الاستنشاق.
ومن هذا الباب أيضا الحجر الصحي الذي سبق إليه الإسلام فقد قال عليه الصلاة والسلام: **(إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها)**[2]

الثاني: أن يمنع غيره من الانتفاع بملكه، فيتضرر الممنوع بذلك، بأن يمنع جاره من الانتفاع بملكه والارتفاق به: فإن كان يضر بمن انتفع بملكه فله المنع، كمن له جدار واه، لا يحمل أكثر مما هو عليه، فله أن يمنع جاره من وضع خشبة عليه، وإن كان لا يضر به: له المنع من التصرف في ملكه بغير إذنه.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الوصايا، حديث رقم 2742)، ومسلم في صحيحه (كتاب الوصية، حديث رقم 1628) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والحديث متفق عليه.
[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، حديث رقم 5728)، ومسلم في صحيحه (كتاب السلام، حديث رقم 2218) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، والحديث متفق عليه.

هناك قواعد متفرعة ذكرها الفقهاء مثل:

1. الضرر يزال.
2. الضرر يدفع بقدر الإمكان.
3. الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.
4. الضرر لا يزال بالضرر.
5. يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام.
6. درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

فوائد من الحديث:

1. هذا الحديث يعد قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة، يدخل تحتها أبواب كثيرة من الفقه والمعاملات، والأنكحة، والوصايا، وغيرها.
2. أن الإسلام يمنع إلحاق الأذى بالناس، سواء كان الأذى في النفس، أو المال، أو الولد، أو العرض، أو المشاعر.
3. أن الضرر يشمل الأذى المادي والمعنوي؛ فليس الضرر محصورًا في المال أو الجسد فقط.
4. أن من وقع منه ضرر بغير قصد، وجب عليه رفعه متى علم به.
5. أن من قصد الإضرار بغيره فهو آثم، ويجب رفع ضرره، وقد يستحق العقوبة على قصده الفاسد.
6. أن الضرر المنفي في الحديث هو الضرر بغير حق، أما العقوبة الشرعية والقصاص فليسا داخلين في النهي.
7. أن الشريعة لا تأمر بما فيه مفسدة خالصة أو ضرر محض على العباد.
8. أن كل ما أمر الله به ففيه مصلحة للناس في دينهم ودنياهم.
9. أن كل ما حرمه الله ففيه خبث أو مفسدة، وإن خفيت على بعض الناس.

10. أن الضرر قد يكون في تصرف له أصل مشروع، لكنه يترتب عليه أذى للآخرين، فيمنع أو يقيد بحسب الحال.
11. أن المسلم لا يرد الضرر بضرر مثله على وجه العدوان، وإنما يطلب حقه بالطرق المشروعة.
12. أن من كمال إيمان المسلم أن يكف أذاه عن الناس، وأن يزيل الضرر إذا صدر منه، وألا يتعمد المضارة بأحد.

****

الحديث الثالث والثلاثون

لو يعطى الناس بدعواهم

(33) لو يعطى الناس بدعواهم

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال:

"لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم،

لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر"[1]

حديث حسن رواه البيهقي وغيره هكذا، وبعضه في الصحيحين.

شرح الحديث [2]

(لو يعطى الناس) لو يعطى الناس: ما ادعوا أنه حقهم وطالبوا به.

(بدعواهم) أي بمجرد قولهم وطلبهم دون ما يثبت ذلك.

(لادعى رجال أموال قوم ودماءهم) قوله: "رجال" :جمع رجل: وهو الذكر البالغ من بني آدم، وذكر الرجال تغليبا؛ أو لأن الدعوى تصدر غالبا منهم، والمراد: "لادعى رجال ونساء".

ولماذا قدمت الأموال على الدماء مع أن الدماء أهم وأعظم خطرا، وقد ورد أنها أول ما يقضى فيه بين الناس؟

والجواب: لأن الخصومات في الأموال أكثر؛ إذ أخذها أيسر، وامتداد الأيدي إليها أسهل، ومن ثم ترى العصاة بالتعدي عليها أضعاف العصاة بالقتل.

ويمكن أن يقال: إن العطف بالواو لا يقتضي ترتيبا؛ كما في بعض روايات الحديث:

---

(1) أخرجه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم، ومسلم في صحيحه (كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، حديث رقم 1711) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظ: «البينة على المدعي، واليمين على من أنكر» أخرجه البيهقي وغيره، وقال النووي: حديث حسن، وبعضه في الصحيحين.

(2) قال الشيخ السعدي رحمه الله: "هذا الحديث عظيم القدر، وهو أصل من أصول القضايا والأحكام، فإن القضاء بين الناس إنما يكون عند التنازع، هذا يدعي على هذا حقا من الحقوق فينكره، وهذا يدعي براءته من الحق الذي كان ثابتا عليه، فبين صلى الله عليه وسلم أصلا بفض نزاعهم، ويتضح به المحق من المبطل، فمن ادعى عينا من الأعيان، أو دينا، أو حقا من الحقوق وتوابعها على غيره، وأنكره ذلك الغير، فالأصل مع المنكر. فهذا المدعي إن أتى ببينة تثبت ذلك الحق، ثبت له، وحكم له به، وإن لم يأت ببينة، فليس له على الآخر إلا اليمين". من كتاب بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، شرح الحديث الثامن والخمسين: «البينة على من ادعى»

"ادعى ناس دماء رجال وأموالهم" والمعنى: لادعى رجال: أي لاستباح بعض الناس دماء غيرهم وأموالهم وطلبوها دون حق.
والمعنى: لو أن الإنسان كلما ادعى شيئا أعطي ما ادعاه، لادعى ناس دماء رجال وأموالهم، دماء رجال بأن يقول: فلان قتل ابني من أجل أن يقتل، وأموالهم بأن يقول فلان سرق مني كذا وكذا، أو استعار مني كذا، وجحده، أو ما أشبه ذلك، هذه الأموال وكذلك الحقوق، لكن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدماء والأموال لأنها الأصل والحقوق تابعة.

(لكن البينة) البينة: هي الشهود، مأخوذة من البيان وهو الكشف والإظهار، أو إقرار المدعى عليه وتصديقه للمدعي، والبينة: هي اسم لكل ما يبين الحق ويظهره، فيدخل الشهود والإقرار، والقرائن الدالة، وفهم القاضي باختبار، ومعنى كون البينة على المدعي: أنه يستحق بها ما يدعيه.

(على المدعي) وهو من يدعي الحق على غيره ويطالبه به.

(واليمين على من أنكر) اليمين: الحلف على نفي ما ادعي به عليه، وقوله: على من أنكر: منكر الدعوى وهو المدعى عليه، وينبغي تذكير المدعى عليه بسوء عاقبة الحلف الكاذب فيحمله ذلك على الإقرار بالحق، **وفي الحديث: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه؛ فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة "، قيل: يا رسول الله وإن كان شيئا يسيرا؟ قال: " وإن كان قضيبا من أراك (عود السواك)**[1]

شرح هذه القاعدة (البينة على المدعي واليمين على من أنكر)

1- إذا ادعى شخص على آخر دما أو مالا أو حقا من الحقوق فإننا نقول للمدعى عليه أولا هل تقر بهذا؟

2- إن قال نعم فلا إشكال.

3- وإن قال لا قلنا للمدعي ألك بينة؟

4- إن قال نعم قلنا أحضرها.

5- وإن قال لا قلنا للمدعى عليه احلف.

6- فإذا حلف انتهت القضية.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، حديث رقم 137) من حديث أبي أمامة الحارثي رضي الله عنه.

البينات لا تختص بالشهود، بل للقاضي أن يعمل بالقرائن:

ومن العمل بالقرائن قصة سليمان عليه السلام، فإن سليمان عليه السلام مرت به امرأتان معهما ولد، وكانت المرأتان قد خرجتا إلى البر، فأكل الذئب ولد الكبرى، واحتكمتا إلى داود عليه السلام، فقضى داود عليه السلام بأن الولد للكبيرة اجتهادا منه، فخرجتا من عند داود عليه السلام وكأنهما والله أعلم في نزاع، فسألهما سليمان عليه السلام فأخبرتاه بالخبر، فدعا بالسكين وقال: سأشق الولد نصفين، أما الكبيرة فوافقت، وأما الصغيرة فقالت: الولد ولدها يا نبي الله، فقضى به للصغيرة) [1] لأن هنا بينة وهي القرينة الظاهرة التي تدل على أن الولد للصغيرة لأنها أدركتها الشفقة وقالت: كونه مع كبيرة ويبقى في الحياة أحب إلى من فقده الحياة، والكبيرة لا يهمها هذا، لأن ولدها قد أكله الذئب.

كذلك قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز لما قال الحاكم: ﴿**إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم**﴾ (يوسف: 26-28)

الفوائد من الحديث:

1. أن الشريعة لا تقبل الدعاوى المجردة بلا دليل، لأن قبول كل دعوى يؤدي إلى ضياع الحقوق وانتشار الظلم.
2. أن الحديث أصل عظيم من أصول القضاء وفصل الخصومات بين الناس.
3. أن الأصل في المدعى عليه براءة ذمته حتى يثبت خلاف ذلك.
4. أن البينة تكون على المدعي؛ لأنه هو الذي يدعي خلاف الأصل.
5. أن اليمين تكون على من أنكر؛ لأنه متمسك بالأصل، وهو براءة ذمته.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾، حديث رقم 3427)، وأخرجه أيضًا في كتاب الفرائض (باب إذا ادعت المرأة ابنًا، حديث رقم 6769)، ومسلم في صحيحه (كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، حديث رقم 1720) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى»، والحديث متفق عليه.

6.أن البينة لا تقتصر على الشهود فقط، بل تشمل كل وسيلة معتبرة تُظهر الحق.

7.أن من صور البينة: الشهادة، والإقرار، والقرائن القوية، وما يظهر للقاضي من أمارات معتبرة.

8.إذا حلف المدعى عليه على نفي الدعوى، انتهت القضية في الحكم الظاهر.

9.أن القضاء مبني على الظاهر والأدلة، أما السرائر فإلى الله تعالى.

10.أن الإسلام لا يحمي صاحب الحق فقط، بل يحمي أيضًا المتهم من أن يؤخذ بمجرد دعوى بلا بينة.

11.أن هذا الحديث من جوامع الكلم؛ لأنه وضع ميزانًا عامًا لفصل النزاعات وحفظ الحقوق بين الناس.

12.الأصل براءة الإنسان المسلم من كل تهمة ونقيصة حتى تثبت بينة.

****

الحديث الرابع والثلاثون

من رأى منكم

منكرا فليغيره

(34) من رأى منكم منكرا فليغيره بيده

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه،

فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم.[1]

سبب ورود الحديث

أورد الإمام مسلم هذا الحديث عن طارق بن شهاب قال: أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان بن الحكم فقام إليه رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد تُرك ما هناك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكرًا فليغيره) ... إلى آخره.[2]

وفي هذا الحديث دليل على أنه لم يقم بذلك أحد قبل مروان.

فإن قيل: كيف تأخر أبو سعيد الخدري عن تغيير هذا المنكر حتى أنكره هذا الرجل؟

يحتمل أن أبا سعيد لم يكن حاضرًا أول ما شرَع مروان في تقديم الخطبة، وأن الرجل أنكره عليه، ثم دخل أبو سعيد وهما في الكلام، ويحتمل أنه كان حاضرًا لكنه خاف على نفسه إن غيَّر حصولَ فتنة بسبب إنكاره، فسقط عنه الإنكار، ويحتمل أن أبا سعيد همَّ بالإنكار فبدره الرجل فعضده أبو سعيد، والله أعلم.

شرح الحديث

ترتبط خيرية هذه الأمة ارتباطا وثيقا بدعوتها للحق، وحمايتها للدين، ومحاربتها للباطل؛ ذلك أن قيامها بهذا الواجب يحقق لها التمكين في الأرض، ورفع راية التوحيد، وتحكيم شرع الله ودينه.

وهذا هو ما يميزها عن غيرها من الأمم، ويجعل لها من المكانة ما ليس لغيرها، ولذلك امتدحها الله تعالى في كتابه العزيز حين قال: **{كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}** (آل عمران: 110).

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، حديث رقم 49) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، والحديث صحيح.

[2] المرجع السابق.

قوله (من رأى منكم) رأى أي: عَلِمَ؛ سواء أبصر ذلك بنفسه، أو علمه بطريق يعتمد عليه.

ما حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فرض كفاية[1] ؛ إذا قام به البعض ممن يكفي لسقوطه، ارتفع الإثم عن الباقين، ولكنه قد يصبح **فرض عين** على المسلم إذا كان في موقف لا يوجد فيه غيره لتغيير المنكر، أو إذا تعلّق الأمر بأهله ومن تجب عليه رعايتهم.

(منكم) :أي: منكم يا معشر المكلفين القادرين، والخطاب شامل لجميع الأمة حاضرهم وغائبهم، والمرأة والرجل فيه سواء، وإنما ذكر الضمير على عادة النصوص في تذكير الضمائر تغليبا للذكورة على الأنوثة، وليس المراد اختصاص الرجال بذلك.

(**منكرا**) أي: شيئًا قبيحا قبَّحه الشرع قولاً أو فعلاً ولو صغيرة.

وشروط المنكر الواجب تغييره وإنكاره شرطان:

الشرط الأول: أن يكون مجمعا على تحريمه؛ فلا ينكر المختلف فيه، إذا كان فاعله مجتهدا، أو مقلدا لمجتهد تقليدا سائغا، واحتمل فيه الخلاف، وساغ فيه الاجتهاد.

الشرط الثاني: أن يكون المنكر ظاهرًا مِن غير تجسس، لقوله تعالى **﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾** [الحجرات: 12]

وكان الحسن يقول: "إياكم والتجسس فوالله لقد أدركنا ناسا لا عيوب لهم فتجسسوا على عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوبًا".

(فليغيره) :أي يُزيله، وجوبًا عينيا إن انفرد بعلمه مع القدرة عليه، وكفائيا إن شاركه غيره.

والحديث فيه أن إنكار المنكر على مراتب ثلاث:
التغيير باليد، والتغيير باللسان، والتغيير بالقلب.

---

[1] فرض العين هو الذي يتعين على كل شخص بعينه، كفرضية صلاة الجمعة، وفرض الكفاية: هو الذي إذا قام به عدد يحصل بهم المقصود، سقط الإثم عن الباقين، ويرى بعض العلماء أفضلية الواجب الكفائي، لأن العامل للواجب العيني أبرأ ذمة نفسه، أما من يقوم بالواجبات الكفائية فقد أبرأ ذمته وذمة غيره من الناس.

وهذه المراتب متعلقة بطبيعة هذا المنكر ونوعه، وطبيعة القائم بالإنكار وشخصه، فمن المنكرات ما يمكن تغييره مباشرة باليد، ومن المنكرات ما يعجز المرء عن تغييره بيده دون لسانه، وثالثة لا يُمكن تغييرها إلا بالقلب فحسب.

أولا /الإنكار باليد:

فيجب إنكار المنكر باليد على كل من تمكّن من ذلك، ولم يُؤدّ إنكاره إلى مفسدةٍ أكبر، وعليه: يجب على الحاكم أو من ينوب عنه أن يغير المنكر إذا صدر من الرعيّة، ويجب مثل ذلك على الأب في أهل بيته، والمعلم مع طلبته، والموظف في نطاق عمله، وإذا قصّر أحدٌ في واجبه هذا فإنه مضيّع للأمانة، ومن ضيّع الأمانة فقد أثم.

وقد جاءت نصوص كثيرة تنبّه المؤمنين على وجوب قيامهم بمسؤوليتهم الكاملة تجاه رعيتهم – والتي يدخل فيها إنكار المنكر منها:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته) [1]

وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم عاقبة الذين يفرطون في هذه الأمانة فقال: (ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يجد رائحة الجنة) رواه البخاري، وفي لفظ لمسلم: (ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة)[2]

ثانيا/ الإنكار باللسان:

فإن لم يستطع أي: فإن لم يقدر على التغيير باليد.

وحدود الاستطاعة: القدرة على التغيير وفق الضوابط الشرعية، بحيث لا يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر مما ينكره، أو يخاف على نفسه الهلاك، أو يلحقه الأذى في دينه وعرضه وماله، ونحو ذلك من الأضرار المتيقنة.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجمعة، حديث رقم 893)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإمارة، حديث رقم 1829) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والحديث متفق عليه.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأحكام، حديث رقم 7150)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، حديث رقم 142) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، والحديث متفق عليه.

عندئذ يغير المنكر بلسانه، أي بالكلام من نحو: تذكير وتوبيخ واستغاثة، وصياح، وإغلاظ في القول؛ ونحوهما؛ فيذكّر العاصي بالله، ويخوّفه من عقابه، على الوجه الذي يراه مناسبا لطبيعة هذه المعصية وطبيعة صاحبها.

وهل نقيس الكتابة على القول؟

أي نعم، فيغير المنكر باللسان، ويغير بالكتابة بأن يكتب في الصحف أو يؤلف كتبا يبين فيها المنكر، أو يكتب رسالة إلى المخالف.

وقد يكون التلميح كافيا – أحيانا – في هذا الباب، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟)، وقد يقتضي المقام التصريح والتعنيف، ولهذا جاءت في السنة أحداث ومواقف كان الإنكار فيها علناً، كإنكار النبي صلى الله عليه وسلم على أسامة بن زيد – رضي الله عنه – شفاعته في حد من حدود الله، وإنكاره على من لبس خاتم الذهب من الرجال، وغير ذلك مما تقتضي المصلحة إظهاره أمام الملأ.

ثالثا/ الإنكار بالقلب:

(فإن لم يستطع فبقلبه) ومعنى إنكار القلب كراهته والعزم إن قدر على التغيير بيده أو بلسانه أن يفعل، وظهور الإنكار وعلامته على جوارحه.

وهو فرض عين على كل مسلم، لا يسقط بحال من الأحوال؛ لقدرة كل أحد عليه بخلاف الإنكار باليد أو اللسان فبحسب الاستطاعة.

والمتأمل في أحوال الأمم الغابرة، يجد أن بقاءها كان مرهونا بأداء هذه الأمانة، وقد جاء في القرآن الكريم ذكر شيء من أخبار تلك الأمم، ومن أبرزها أمة بني إسرائيل التي قال الله فيها: **{لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون}** (المائدة: 78 – 79).

قال ابن مسعود: "يوشك من عاش منكم أن يرى منكرًا لا يستطيع له غير أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره، وسمع رجلاً يقول: هَلَكَ مَنْ لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فقال ابن مسعود: "هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر"
إشارة إلى فرضية الإنكار بالقلب وعدم سقوطه بحال، فمن لم يعرفه هَلَكَ.

ويستلزم الإنكار بالقلب هجران أماكن المنكر، وترك الخوض معهم، فلا يكفي في إنكار القلب أن يجلس الإنسان إلى أهل المنكر ويقول أنا كاره بقلبي؛ لأنه لو صدق ما بقي معهم ولفارقهم إلا إذا أكرهوه فحينئذ يكون معذورا.

وفي الحديث عن العُرس بن عَميرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا عملت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها " [1]

وتكمن خطورة التفريط في هذا الواجب أن يألف الناس المنكر، ويزول في قلوبهم بغضه، ثم ينتشر ويسري فيهم، وتغرق سفينة المجتمع، وفي ذلك يضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا رائعا يوضح هذه الحقيقة:

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)[2]

(وذلك أضعف الإيمان) ورد في تفسيره ثلاثة أقوال:

الأول: أضعف الأعمال؛ لأن الإيمان قد يُسمَّى عملاً والعكس.
وفي الآية: **(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)** [البقرة: 143)؛ أي: صلاتكم، وليس المراد أن العاجز إذا أنكر بقلبه يكون إيمانه أضعف من إيمان غيره.

الثاني: أو المراد: (أضعف "الإسلام) على تقدير حذف مضاف، والمقصود :أضعف آثار الإسلام، أو أضعف خصال الإسلام.

الثالث: أو يكون المراد ظاهره؛ أي أقل آثار الإيمان وثمراته في النفع. وقد جاء في الرواية الأخرى لمسلم: **(وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)**، أي لم يبق وراء ذلك مرتبة أخرى.

وإنما كان الإنكار بالقلب أضعف الإيمان؛ لأنه لا يحصل به زوال مفسدة المنكر المطلوب زواله فهو قاصر بخلاف اليد واللسان فإنَّه متعد؛ لأنه كراهة وإزالة في نفس الوقت.

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم 4345)، والطبراني في المعجم الكبير من حديث العُرْس بن عَميرة الكندي رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، وفي صحيح الجامع (حديث رقم 689).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، حديث رقم 2493) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

1- النظر في مآلات الإنكار:

ولابد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النظر في مآلات الأمور وعواقبها، فليس كل منكر يصح إنكاره في كل وقت، وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: **"لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل الناس وباب يخرجون**[1] **"**

ويُستفاد منه:

- أنه إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدئ بالأهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن نقض الكعبة وردها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم المصلحة، ولكن تعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريباً، وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة، فيرون تغييرها عظيما، فتركها.
- ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة.
- ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه.
- تفكر ولي الأمر في مصالح رعيته، واجتنابه ما يخاف منه تولد ضرر عليهم في دين أو دنيا إلا الأمور الشرعية كأخذ الزكاة وإقامة الحدود ونحو ذلك.
- تألف قلوب الرعية وحسن حياطتهم، وألا يُنفروا ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي.
- أن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولاً؛ ما لم يكن محرما.[2]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العلم، حديث رقم 126)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، حديث رقم 1333) من حديث عائشة رضي الله عنها، والحديث متفق عليه.

(2) ينظر: النووي، شرح صحيح مسلم، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، شرح حديث عائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر...»؛ وابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب

2- النظر في المآلات شيء والجبن والتخاذل شيء آخر:

فلا يعني النظر في عواقب الأمور وما تصير إليه القعود عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإنما المراد: ضبط التصرفات والأحوال بالضوابط الشرعية، وصبغتها بالصبغة الإسلامية الصحيحة، بعيدا عن الجبن والتخاذل، ومبرأة من التهور والاندفاع .

3- لا يُشترط العدالة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الراجح.

ولذلك قال العلماء: ليس من شرط الناهي أن يكون سليمًا عن معصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضًا.

4- هل يُشترط إذن الإمام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

لا يُشترط إذن الإمام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا السؤال منبعث من واقعنا المريض نحن المسلمين، فالله تعالى يقول: **(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ) [آل عمران: 104] ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكرًا...»** فما الذي يربط الدعوة بولي الأمر؟ وما الذي يربط إنكار المنكر بولي الأمر؟!فالمسلم يدعو إلى الله ممتثلاً أمر الله الذي يقول: **(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) [فصلت: 33].**

5- ما معنى قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مِّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105]

قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور، وذلك في قوله: **(إذا اهتديتم)** لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد . فمن العلماء من قال: **(إذا اهتديتم)** أي أمرتم فلم يسمع منكم.

ومنهم من قال: يدخل الأمر بالمعروف في المراد بالاهتداء في الآية، وهو ظاهر جدا ولا ينبغي العدول عنه لمنصف.

العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه، شرح حديث رقم.(126)

ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد أن الله تعالى أقسم أنه في خسر، في قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ **[العصر: 1-3]**
فالحق وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعد أداء الواجب لا يضر الآمر ضلال من ضل.

وقد دلت الآيات كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]، والأحاديث على أن الناس إن لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، عمهم الله بعذاب من عنده.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: " يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه" [1]

قواعد الإنكار[2]

القاعدة الأولى /تقديم الأهم على المهم

إن معرفتنا لتحديد نقطة البدء لمن نريد أن ننكر عليه أمراً ما، تنطلق من معرفتنا بالمعاصي والمناكر التى يقوم بها، وعلى ضوئها يتبين لنا أن ما ترك من الواجبات مهم، ولكن بعضها أهم من الآخر، وأن ما اقترف من المعاصي منكر، ولكن بعضها أنكر من الآخر.
وهذا ما نسميه بقاعدة تقديم الأهم على المهم؛ فيكون خارجاً عن فقه الإنكار من أنكر على من لا يربى اللحية، وهو يعلم أنه لا يصلى ولا يصوم ولا يزكى .

ويكون خارجاً عن فقه الإنكار من أنكر على أحدهم أكله بيده اليسار، وهو يعلم أنه لا يعلم أين القبلة، وما دخل في حياته كلها بيتاً من بيوت الله، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولو طبقنا هذه القاعدة لأخرجنا الكثير من فقه الإنكار لعدم تقديمهم الأهم على المهم.

الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعلم معاذاً هذه القاعدة:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم 4338)، والترمذي في سننه (كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيَّر المنكر، حديث رقم 2168)، وقال الترمذي: حديث صحيح، وصححه الألباني.
[2] من كتاب فقه الدعوة في إنكار المنكر لعبد الحميد البلالي باختصار وتصرف يسير

فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن همن أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[1]

يقول الحافظ ابن حجر: (وأما قول الخطابي: إن ذكر الصدقة أخر عن ذكر الصلاة؛ لأنها إنما تجب على قوم دون قوم، وأنها لا تكرر تكرار الصلاة فهو حسن، وتمامه أن يقال: بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب؛ لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة)[2]

مراتب المنكر الذي ينكره المرء

يختلف المنكر قوة وضعفًا، فتارة يكون من الشرك، وتارة يكون من المعاصي، هذا من جانب.

ومن جانب تفاوته في الأمر، إذا وجد منكرًا متفاوتًا فهنا يحكمه أو يدلنا على علاجه وإنكاره، قوله عليه الصلاة والسلام. **عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن فقال: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينهما وبين الله حجاب»** [3]

وأما مراتب إنكار المنكر، فقد ذكر ابن القيم رحمه الله أربع مراتب هي:

الأولى: أن يغلب على ظنك أنك إذا أنكرت هذا المنكر أن يحل محله معروف.

الثانية: أن يغلب على ظنك أنك إذا أنكرت المنكر أن يخف المنكر.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الزكاة، حديث رقم 1395)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، حديث رقم 19) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والحديث متفق عليه.

(2) ينظر: ابن حجر، فتح الباري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، شرح حديث بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن، 3/359.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع، منها كتاب الزكاة (باب وجوب الزكاة، حديث رقم 1395)، وكتاب المغازي (باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم 4347، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم 19)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وفي بعض طرق مسلم أن معاذًا رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم)

الثالثة: أن يتساويا، أي بمعنى أنه قد يترك المنكر الذي هو واقع فيه، لكن ينتقل إلى منكر يساويه.

الرابعة: أن ينتقل من منكر إلى ما هو أشد وأنكى منه.

قال ابن القيم: أما الأولان فمشروعان: أي إذا كان إنكار المنكر يؤدي إلى إحلال معروف، أو يخف المنكر فهذا لا يختلف عليه.

وأما الثالثة إذا تساويا: أي إذا خرج من كبيرة أنكرتها عليه، ذهب وارتكب كبيرة مشابهة لها، فيقول – رحمه الله -: «أما هذا فمحل اجتهاد». بمعنى أن الإنسان يجتهد إن رأى المصلحة في الإنكار عليه أنكر، وإن رأى المصلحة في تركه فليتركه.

وأما الرابعة وهي الخطرة: وقد قال: «إذا رأيت من هو على منكر وأنكرت عليه وترك ما هو فيه لذهب وارتكب لما هو أشد منه».

وينقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية فيقول: «مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس» [1]

القاعدة الثانية/ التدرج بالإنكار

وهذا وما وضحته عائشة رضى الله عنها عندما قالت له: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على محمد – صلى الله عليه وسلم - وإني لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) (القمر: 46) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده)[2]

---

[1] إعلام الموقعين (16/3)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، حديث رقم 4993) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وعائشة رضى الله عنها تبين للدعاة هنا قاعدة جليلة في التدرج بالإنكار بما بدأ به القرآن من الترغيب والترهيب والرقائق حتى إذا ما صلبت الأعواد وقوت القلوب جاءت مرحلة البناء.

الفرق بين المداراة والمداهنة:

المداراة: هي خفض الجناح للناس والرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألف، وهي من أخلاق المؤمنين ومندوب إليها.
والمداهنة: مأخوذة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه:
كمعاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، وهي محرمة منهي عنها.

وقال ابن القيم ما ملخصه: والفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة: التلطف بالإنسان لتستخرج منه الحق، أو ترده عن الباطل.
والمداهنة: التلطف به لتقره على باطله، وتتركه على هواه.
فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق.[1]
إذا كان الوضع يقتضي ألا تنكر باليد وتركت الإنكار باليد مداراة خشية أن تتضرر أو يتضرر من حولك، هذا لا يكون فاعله مرتكبًا منكرًا.
ومما يدل على هذا، أن الرسول عليه الصلاة والسلام، جلس في مكة ثلاثة عشر عامًا بعد الرسالة يأتي للبيت ويطوف به، والأصنام معلقة ثلاثمائة وستون صنمًا، ويصلي وهي أمامه، وكان ينكر باللسان، لكن لما لم يكن له قوة تحميه ولما كان استعمال اليد في ذلك الوقت يأتي بمردود أشد وأكثر بلاءً للإسلام والمسلمين ما استعمل القوة أبدًا.

ولكنه لما عاد فاتحًا لها هل جاء بما يسميه بعض الناس في عصرنا سنة التدرج في إزالة المنكر، أو سنة التصحيح، أو سنة الوضع، أو ما إلى ذلك، بل أقبل عليها بالقضيب يضربها وهو يقرأ قول الله: **(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)** [الإسراء: 81].

فالمداراة مرتبطة بالأمر العام، بأمر الدعوة، بأمر إنكار المنكر، بمصلحة الدعوة نفسها، ومصلحة إنكار المنكر نفسه، فإذا اقتضى الحال أن تسكت عن أمر ما لأنك لو نطقت بإنكاره لجاءك ضرر أو انتقل الضرر إلى دعوتك أو من حولك، فهنا تسكت مداراة ودرءًا للفتنة، لا مداهنة وتملقًا للباطل وأهله.

---

[1] كتاب الروح ص281

القاعدة الثالثة/ ترك التجسس

يقول النبى – صلى الله عليه وسلم – (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته) [1]
وتتبع العورات والتجسس يفسد الناس؛ وذلك أنه ينزع الثقة فيما بينهم وينشر ظن السوء، مما يجعل الطرف المتجسس عليه إذا علم بذلك أن يحمل حقداً وكراهية للطرف المتجسس، وهنا تنقطع الأواصر ويفسد الناس.

وفي هذا المعنى يقول النبى – صلى الله عليه وسلم –: **(إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت تفسدهم)**[2]
فمبدأ التجسس مرفوض في عملية الإنكار، ما دام المنكر مستوراً وحتى على من بيده السلطة، وذلك لما يؤدى من الفساد بين الرعية.

القاعدة الرابعة/ التثبت

التبين والتثبت صفة لأهل اليقين من المؤمنين، وقال تعالى حاثاً الدعاة على التخلق بهذا الخلق: **(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)** [الحجرات:6]، وليؤكد لهم أن هذا أصل لابد منه من أصول الإنكار، فإننا نسمع كثيراً عن معاصي يقترفها بعض الناس، وربما سمعنا ذلك من أناس قد التزموا اتباع السنة في مظاهرهم، وقد يكونون في بعض الأحيان من الملتزمين مع جماعة صالحة، ونسارع في تصديقهم، واتخاذ موقف من زيد أو عمرو دون أن نتثبت؛ لذلك جاءت هذه الآية لتكون قاعدة من قواعد فقه الإنكار.

القاعدة الخامسة/ لا إنكار على مجتهد ولا مختلف فيه

وجمهور العلماء على أن الإنكار لا يكون إلا فيما اتفق على كونه منكراً، فلا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهب ولا يشدد عليهم.

قال النووي في الروضة: (ثم إن العلماء إنما ينكرون ما أجمع على إنكاره، أما المختلف فيه فلا إنكار فيه؛ لأن كل مجتهد مصيب، أو المصيب واحد ولا نعلمه،

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب في الغيبة، حديث رقم 4880)، وأحمد في المسند من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود. ورد بنحوه عند الترمذي (حديث رقم 2032) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: حسن غريب.

[2] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب في النهي عن التجسس، حديث رقم 4888)، وابن حبان في صحيحه (حديث رقم 5760)، والطبراني في المعجم الكبير من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

ولم يزل الخلاف بين الصحابة والتابعين في الفروع ولا ينكر أحد على غيره، وإنما ينكرون ما خالف نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً) [1]

القاعدة السادسة/ اختيار الوقت المناسب

فلا يختار وقت غضب صاحب المنكر، بل يختار وقت هدوئه ، ولا يختار وقت انشغاله، بل يختار وقت فراغه، ولا يختار وقتاً يكون فيه الحديث بعيداً عن موضوع المنكر، بل يقتنص الوقت الذى يثار فيه موضوع الإنكار أو موضوعاً قريباً منه يجعله مدخلاً لإنكاره، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام عندما جاء له صاحبا السجن بعد أن وثقوا به وبعلمه، فأرادا منه أن يفسر حلمهما، فانتهز الفرصة للإنكار بأسلوب ذكى؛ لأن صاحب المنكر هنا هو صاحب الحاجة، وهو الذى يريد أن يستمع برضاه واختياره؛ فلذلك يكون استعداده للقبول أكثر مما لو أجبر على الاستماع دون رغبة منه.

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: (إن للقلوب شهوة وإقبالاً وفترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها)

القاعدة السابعة/ الإسرار بالنصيحة:

من طبيعة النفس البشرية أنها تحب ألا تبدو ناقصة أمام الآخرين، وأنها تبغض من يحاول أن يبدى بعض عيوبها أمام الآخرين، بغضاً يجعلها تأبى قبول النصح أو النقد، حتى وإن كان النقد في محله، والعيب موجود، وذلك على سبيل العناد لمن بين هذه العيوب.

يقول الإمام الشافعي:

تعمدني بنصحك في انفرادي

وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع

من التوبيخ لا أرضى استماعه

وإن خالفتني وعصيت قولي

فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

---

[1] روضة الطالبين وعمدة المفتين، للنووي، ج 10، ص 219-220، وقوله: "أما المختلف فيه فلا إنكار فيه" المقصود به المسائل الاجتهادية ذات الخلاف السائغ، لا المسائل التي تخالف نصًا صريحًا أو إجماعًا أو قياسًا جليًا.

القاعدة الثامنة /ترك الاستفزاز واستخدام الحجة

قال تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) [الأنعام:108]، فليس من واجب الدعاة سب رموز الضلال، وخصوم الدعوة أو الاستهزاء بهم، ولئن كان هذا هو أسلوبهم، فليس من اللائق أن يتشبه بهم الدعاة في هذه الأساليب الرخيصة وينزلوا إلى مستواهم.

والإسلام دين فيه قوة ذاتية، وبالتالي فهو لا يحتاج إلى الإرهاب والسلاسل والحديد لإقناع الناس باتباعه، فمن طبيعته أنه دين حجة ومنطق لا يخالف الفطرة أبداً ولا يصادمها.

ونرى إبراهيم عليه السلام مع النمرود الطاغية الذى أراد أن يكون إلهاً من دون الله، كيف يخاطبه، وكيف يعرض عليه الحجج دون أن يجرحه، أو يسبه، أو يستهزئ بطريقة تفكيره، **يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258]**

كان من الممكن أن يكون جواب ذلك الملك الذى حاج إبراهيم في ربه مستفزاً لإبراهيم عليه السلام، ومفقداً لأعصابه، وبذلك يتمكن عدو الله منه بسهولة، لكن إبراهيم عليه السلام، الداعية الحكيم، تمالك أعصابه، ولم يستفزه هذا الجواب من ذلك الملك الأحمق، ولم يرد أن يدخل معه في جدال عقيم وسباب ومشاتمة، فينحرف عن الهدف الذى حدده مع ذلك الطاغية، وما أحب أن يدخل معه في نقاش طويل حول ما ادعاه من الإحياء والإماتة؛ لأن الملك ما كان يستوعب، أو أنه كان مكابراً ويعتقد أنه يمكن أن يحي بالعفو عن رجل حكم عليه بالإعدام، ويمكن أن يميت بقتل رجل برئ، وما دام هذا هو تفكيره بما فيه من سطحية، فلقد انتقل معه إلى حجة لا يمكن إنكارها... وهذا هو فن الدعوة، وفن الإنكار بالحجة.

إن الداعية الذي تستفزه كلمات أعداء الدعوة، فيفلت من لسانه ما يكون حجة عليه من خصومه، لا يعلم أنه يساهم في تأصيل المنكر، وتثبيته في نفوس أصحاب الضلال، ويفقده التأييد من جمهور المستمعين إلى الطرفين، ويجعل لأصحاب الضلال المبرر لسب دينه وقرآنه.

نبغض الباطل ولا نبغض أهله:

والكثير يخلطون بين الباطل والقائم به، مما يجعلهم لا يتركون فراغاً في قلوبهم وإن كان يسيراً فيه رحمة وشفقة تدعوهم للقيام بنصيحة ذلك العاصي، بل يتركونه مع الشيطان دون أن ينتزعوه منه، أو يحاولوا الانتزاع، ويحرموه حتى من بسمة حانية تعيد له الأمل بالرجوع إلى الصراط المستقيم.

وهذا الصحابي الجليل أبو الدرداء يمر على رجل قد أصاب ذنباً والناس يسبونه، فلم يعجبه ما رأى من صنيعهم، وأراد أن يضيف إليهم من خبرته العميقة في الدعوة قاعدة لم يبد له أنهم يعرفونها فقال لهم: لو وجدتموه في قليب (بئر ذهب ماؤه)، ألم تكونوا مستخرجيه؟
قالوا: بلى .قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم.
فقالوا: أفلا نبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي.

القاعدة التاسعة / ادفع بالتي هي أحسن

فلابد للداعية أن يتوقع أنه سيواجه أثناء عملية الإنكار السب والاستهزاء والمكابرة من مقترف المنكر؛ لأنه يعتقد أنك تدخلت في شؤونه الخاصة، أو أنه يشعر أنك أردت الاستهزاء به والتعالي عليه؛ لذلك كان من فقه الإنكار أن يستخدم الداعية أسلوب رد السيئة بالحسنة، وهو الأسلوب الذى تعامل به أصحاب الرسالات مع أقوامهم، منطلقين من القاعدة القرآنية التى أمرهم الله بتطبيقها في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت: 34]هكذا أدركها زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنه، عندما خرج يوماً من المسجد فسبه رجل، فانتدب الناس إليه، فقال :(دعوه، ثم أقبل عليه فقال: ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل، فألقى إليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم. فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول: إنك من أولاد الأنبياء)

والحسن البصري أهدى طبقاً فيه رطب لرجل قد اغتابه وأساء إليه، قائلا: (بلغني أنك أهديت إليّ من حسناتك)

القاعدة العاشرة / أخف الضررين

هذا الخطيب المفوه الذي يجتمع إليه آلاف المستمعين، ويهتدى بتوجيهاته العشرات من الناس، ماذا عساه أن يجنى عندما يقوم بالإنكار الصريح دون استخدام التلميح على فرد من أصحاب النفوذ أو وضع يخالف الشرع، ماذا عساه أن يجنى أكثر من فوات كل هذه المصالح التى ذكرناها.
وهذه المجلة الإسلامية، والتي يقرؤها آلاف المسلمين في بقاع الأرض، فيتصلون من خلالها بقضاياهم الإسلامية، ويهتدى بسببها الكثير منهم، والتي تقوم بتعديل الكثير من الأفكار المتطرفة وغير المتزنة عند بعض المسلمين، والتي تزول كثير من المناكر بسبب مواضيعها، وغيرها من المصالح الكثيرة التى تسببها، ماذا عساها أن تجنى عندما تجاوز الحد في نقدها لمنكر لأحد الأنظمة أو أحد الأفراد المتنفذين أكثر من فوات كل هذه المصالح التى تسببها.

الآداب الواجبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

1- الإخلاص:

فلابد من تصحيح القصد، وإخلاص النية قبل أي عملية من عمليات الإنكار.

2- العلم:

يجب على الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، أن يكون عالمًا بالشيء الذي يأمر به، وينهى عنه، وهذه الصفة لابد أن توجد قبل البدء في الأمر والنهي، بأن يكون عالمًا بما يأمر به من معروف، وينهى به عن منكر، وهذا العلم يجب أن يكون مستمدًا من كتاب الله وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولا يعني هذا أنه لا يأمر إلا العلماء، أو طلبة العلم، إنما المقصود النهي عن المنكر باعتبار أنه منكر، أو الأمر بالمعروف على اعتبار أنه معروف، حتى نكون على بصيرة، ونكون ممن قال الله تعالى فيهم: **(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ) [يوسف: 108].** أي على علم، وعلى هدى.
ومعلوم أن الغرض من هذا الأمر أن ينقذ الجاهل من جهله إلى العلم، والعاصي من عصيانه إلى الطاعة، وهذا لا يتم إلا بعلم.

3- الرفق:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، وقال تعالى: **(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) [آل عمران: 159]**
وفي الحديث: " إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله " وفي رواية لمسلم: (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه)[1]
وقال سفيان الثوري: "لا يأمر وينهى إلا من كان رفيقا فيما يأمر رفيقا فيما ينهى".
وتأمل ما ذكره المولى سبحانه في قصة موسى حين أرسله إلى طاغية كفرعون، **فقال تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ تَخْشَى﴾** [طه: 43 – 44].
ونلمس الرفق عند الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة مواقف منها:

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، حديث رقم 6024)، ومسلم في صحيحه (كتاب السلام، حديث رقم 2165) من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»، وأخرج مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة، حديث رقم 2593) عنها أيضًا بلفظ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه.

عن أبي هريرة قال: دخل أعرابي المسجد والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فصلى فلما فرغ قال: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "لقد تحجرت واسعا" فلم يلبث أن بال في المسجد فأسرع إليه الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أهريقوا عليه سجلا من ماء أو دلوا من ماء" ثم قال: "إنما بعثتم مبشرين ولم تبعثوا معسرين "[1]

وعن معاوية بن الحكم السلمي قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن.[2]

وقال أحمد: الناس محتاجون إلى مداراة ورفق الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معلن بالفسق فلا حرمة له.

تنبيه: وهذا الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يعني: السكوت على المنكرات، ولا يتعارض مع الغيرة على المحارم والغضب إذا انتهكت، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أرفق الناس، وأشجع الناس، وأغير الناس على محارم الله في آن واحد .

4- الحكمة:

وهي صفة ضرورية فيمن يتصدى لهذا الأمر؛ لذلك قال تعالى في كتابه الكريم: **(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)** (النحل: 125)

وليس من الحكمة استخدام أسلوب واحد في النهى والأمر مع الكبير والصغير، والرجل والمرأة، والمثقف والجاهل، والأمير والحقير، والغضوب والهادئ، بل لابد من تنويع أسلوب المخاطبة بما يناسب السن والثقافة والطبيعة النفسية والمركز الاجتماعي لكل فرد.

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، حديث رقم 147) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح، وأصل القصة في صحيح البخاري (كتاب الوضوء، حديث رقم 220)، والحديث صحيح.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم 537) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

5- الصبر:

الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لابد أن يواجه معارضة ممن يأمرهم أو ينهاهم، ذلك؛ لأنه ينهاهم عن أمر يخالف أهواءهم وما اعتادوا عليه، فيصبر على ما يناله من أذى منهم، والله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: **(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)** [الأحقاف: 35]

فلابد للآمر بالمعروف، أو الناهي عن المنكر، أن يروّض نفسه على الحلم، وعلى الصبر ولو أصيب في ذات الله.

وصور المعارضة من أصحاب المنكر متعددة: فإما أن تكون على صورة ضرب وإيذاء، وإما أن تكون على صورة قتل، أو على صورة اتهام باطل، أو على صورة سب وشتيمة، أو على صورة طرد، أو على صورة سلب للممتلكات وغيرها من الصور الكثيرة.

6- القدوة:

وهو ركن لا تتم عملية الإنكار، ولا تؤتى ثمارها إلا به، وقد تكون الأفعال أكثر أثراً من الأقوال في كثير من الحالات، وإنكار وموعظة لا يلتزم صاحبها بها تؤدى إلى شر عظيم، وتؤدى إلى فتنة السامع وعدم اقتناعه بصحة ما يقوله ذلك الداعية؛ لذلك **يقول الحسن البصري: (عظ الناس بفعلك، ولا تعظهم بقولك)**

وحتى يؤدى التأثير حقه عند عملية الإنكار لابد للمنكر أن يبدأ بنفسه قبل نصيحته للآخرين، **هذا ما يبينه الحسن البصري في موضع آخر إذ يقول: (الواعظ من وعظ الناس بعمله لا بقوله، وكان ذلك شأنه إذا أراد أن يأمر بشيء بدأ بنفسه فعله، وإذا أراد أن ينهى عن شيء انتهى عنه)**

7- التواضع:

فكما أن لزيادة المال تأثيرا على بعض النفوس، يجعلها تطغى، وتتعالى على الخلق، كذلك للعلم تأثير على بعض النفوس يجعلها تتكبر وتتعالى على الخلق، إعجاباً بما يرى مما لديه من علم يتميز به بين قرنائه في الدعوة، أو يتميز به عمن يأمرهم وينكر عليهم.

لذلك حذر وهب ابن منبه من هذا الأمر عندما قال: (إن للعلم طغياناً كطغيان المال).

والتواضع قد يختلف في تعريفه ومعناه الكثير، وقد حدث مثل هذا الاختلاف في تعريف التواضع في مجلس الحسن البصري وهو ساكت (حتى إذا أكثروا عليه قال لهم: أراكم قد أكثرتم الكلام في التواضع.

قالوا: أى شيء التواضع يا أبا سعيد؟ قال: يخرج من بيته فلا يلقى مسلماً إلا ظن أنه خير منه)

هل تبرأ الذمة بإنكار المنكر مرة واحدة أم أن الواجب الاستمرار؟

لا تبرأ الذمة بإنكار المنكر مرة واحدة، إلا إذا كان منكرًا واحدًا ولم يتكرر ولم يقع مرة ثانية، فالمطلوب المواصلة في الإنكار فيما تكرر أو جدَّ أو أصر عليه صاحبه، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره...**» الحديث عام يشمل من رآه أول مرة ومن تكررت رؤيته للمنكر.

الفوائد من الحديث:

1. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب خيرية هذه الأمة ورفعتها.
2. خيرية الأمة مرتبطة بإقامة الحق، وحماية الدين، ومحاربة الباطل.
3. المنكر هو كل ما قبّحه الشرع من قول أو فعل، ولو كان صغيرًا.
4. لا يُنكر إلا ما كان منكرًا شرعًا، لا ما كان مبنيًا على مجرد العادات أو الأذواق الشخصية.
5. من شروط إنكار المنكر أن يكون المنكر ظاهرًا، فلا يجوز التجسس لاكتشاف المعاصي المستورة.
6. من شروط الإنكار أن يكون المنكر مما اتفق على إنكاره، أما مسائل الخلاف السائغ فلا يُشدّد فيها الإنكار.
7. التغيير باليد يكون لمن قدر عليه وكان له سلطان أو ولاية أو مسؤولية، بشرط ألا يؤدي إلى مفسدة أكبر.
8. الإنكار باللسان يشمل النصيحة، والتذكير، والوعظ، والتحذير، والكتابة، والرسائل، وبيان الحكم.
9. ليس كل منكر يُنكر بالأسلوب نفسه، بل تختلف الطريقة باختلاف الشخص والمنكر والمصلحة.

10. الإنكار بالقلب فرض عين لا يسقط عن أحد؛ لأنه داخل في قدرة كل مسلم.
11. معنى الإنكار بالقلب: كراهة المنكر، وعدم الرضا به، والعزم على تغييره لو قدر.
12. من صدق إنكاره بالقلب فارق أماكن المنكر إذا قدر، ولا يجلس مع أهله راضيًا أو متساهلًا.
13. من شهد المنكر فكرهه كان كمن غاب عنه، ومن غاب عنه فرضيه كان كمن شهده.
14. قوله ﷺ: «وذلك أضعف الإيمان» يدل على أن الإنكار بالقلب أقل مراتب التأثير، وليس معناه أنه بلا قيمة.
15. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى فقه المآلات والعواقب.
16. يجوز ترك مصلحة معينة إذا كان فعلها يؤدي إلى مفسدة أعظم.
17. لا يشترط أن يكون الآمر والناهي كامل العدالة حتى ينكر المنكر.
18. إذا أدى المسلم واجبه في النصح والإنكار، فلا يضره بعد ذلك ضلال من ضل.
19. ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لنزول العقوبة العامة.
20. ليس من الحكمة مخاطبة الكبير والصغير، والعالم والجاهل، والغضوب والهادئ، بطريقة واحدة.
21. الإنكار النافع يجمع بين العلم، والرفق، والحكمة، والصبر، والقدوة، ومعرفة المصالح، والمفاسد.

****

الحديث الخامس والثلاثون

لا تحاسدوا،

ولاتناجشوا، ولا تباغضوا

(35) لا تحاسدوا، ولاتناجشوا، ولا تباغضوا

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تحاسدوا، ولاتناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) رواه مسلم[1]

شرح الحديث

أهمية الحديث ومنزلته

- هذا الحديث أصل في بيان الحقوق الواجبة للمسلمين، وتنظيم العلاقات بين المسلمين في البيع والشراء، وسائر أمور الحياة.
- وهو أصل في الحثّ على تعاطي الألفة، ونبذ أسباب الفرقة بين المسلمين.
- وهو أصل في دفع المضارّ عن المسلمين، وجلب المصالح لهم.
- وهو أصل في حرمة مال المسلم ودمه وعرضه إلا بحق.

قوله :"لا تحاسدوا" :أصلها: لا تتحاسدوا (بتاءين) حُذِفَتْ إحداهما للتخفيف.

أنواع الحسد

والحسد منه ما هو المذموم وهذا هو الشائع المشهور لهذا اللفظ، ومنه ما هو مباح ومنه ما هو مستحب.

أولا/ الحسد المباح:

وهو أن يرى غيره في حال حسنة، فيتمنى لنفسه مثل تلك الحال الحسنة، من غير أن يتمنى زوالها عنه، وإذا سأل الله مثلها فهذا أفضل، والله تعالى قال: ﴿**وَاسْأَلُوا اللَّهَ**

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم 2564)

مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32] أي أن الأولى بدل من أن تتمنى ما عند غيرك تمنى على الله عز وجل ما هو خير وأعظم.
مثلا: أرى صديقي اشترى ملابس أو ساعة أو هاتف إلى آخره فأتمناها، لكن لا أحسده ولا أتمنى زوالها، وهذا مباح.

ثانيا/ الحسد المحمود(الغبطة):

وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين وذكر الرجل الذي آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار والرجل الذي آتاه الله المال فهو ينفق منه في الليل والنهار)[1]، فإذا كان حسدا مستحبا فأولى أن يكون لقارئ القرآن في الليل والنهار، والذي ينفق ماله صدقة وإحسانا وبرا في الليل والنهار، إشارة إلى أن التنافس في الخيرات أفضل من التنافس على الدنيا.

ثالثا/ الحسد المذموم:

وهو تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد.

أسباب الحسد

للحسد أسباب عديدة منها:

السبب الأول :العداوة والبغضاء:

وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام فإن عجز عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان.

السبب الثاني :المنافسة في أمور الدنيا:

وهي تجر غالبًا إلى الوقوع في الحسد والأخلاق الذميمة، وفي الحديث قال الرسول ﷺ: **(فو الله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تُبسَط الدنيا عليكم كما بُسطتْ على من كان قبلكم، فتَنافَسوها كما تَنافسوها، فتُهلِكَكم كما أهلَكتْهم) متفق عليه.**[2]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التوحيد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، حديث رقم 7529)، ومسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها، حديث رقم 815)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، حديث رقم 6425)، ومسلم في صحيحه (كتاب الزهد والرقائق، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، حديث رقم 2961)

السبب الثالث :الكبر:

أن يكون الإنسان في نفسه كبر، هذا الكبر يؤدي إلى الحسد، ومن هذا النوع: حسد الكفار نبينا محمداً ﷺ على نعمة الرسالة التي أعطاه الله إياها، فلما أرسل الرسول ﷺ قام كفار مكة وقالوا: **(لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)** [الزخرف: 31] قالوا: لماذا نزل القرآن على محمد؟ لماذا لم ينزل على فلان؟ فهذا الكبر الذي في أنفسهم أدى إلى أن حسدوا الأنبياء على الرسالة.

السبب الرابع :الحسد بين الأقران:

الحسد ينتشر غالباً بين الأقران والأمثال، فينتشر مثلاً على مستوى الأقارب؛ بين الإخوة وأبناء العم؛ لأنهم في طبقة واحدة، الإخوة يشتركون مع بعضهم في شأن واحد؛ وهو أنهم كانوا من نسْل أب واحد، فيقع بينهم الحسد، الطلبة في الفصل؛ لأنهم في مرحلة دارسة واحدة، فيقع بينهم من الحسد ما لا يقع في غيرهم، بمعنى أنك لا تجد طالبا في المرحلة الابتدائية يحسد طالبا بالجامعة، ولا تجد طالب جامعة يحسد طالب متوسط، لكن تجد غالبًا الحسد ينتشر بين الأقران المتماثلين، وتجد مثلاً العلماء الذين يستخدمون علمهم في الشر، والذين أوتوا ذكاًء ولم يؤتوا زكاًء، أي تزكية النفس، قد تجد في طبقة التجار يحسد التجار بعضهم بعضًا، ، ولذلك ما تجد مثلاً تاجر قماش يحسد صانع الأحذية، ولا تجد العالم يحسد التاجر، لكن تجد الحسد منتشر في طبقة العلماء، في طبقة التجار، أي الذين يشتركون أو يتماثلون في مهنة معينة أو حرفة معينة أو صنعة معينة.

سئل الحسن البصري، قيل له: يا أبا سعيد، أيحسُد المؤمن؟ قال: أنسيتَ إخوة يوسف؟ قال: نعم يَحسُد، المؤمنون بعضهم بعضًا.

السبب الخامس :حب الرئاسة وطلب الجاه والشهرة:

فإذا كان الرجل عديم النظر في مجال من المجالات، وصار الناس يثنون عليه ويمدحونه، وأنه فريد عصره ووحيد دهره، فإذا سمع هذا الإنسان بنظير له في محل من أنحاء العالم حسده مباشرة؛ لأن النفس بطبيعتها إذا كانت على مستوى معين، تكره أن يكون لها مماثل، لو واحد عنده سيارة ليس مثلها في العالم، صمّم تصميماً خاصًا وصار مشتهر بين العالم كله أن هذا عنده السيارة الفلانية التي مواصفاتها كذا وكذا، هذا إذا سمع بأن إنسانا آخر في العالم حتى ولو في أقصى الدنيا عنده مثل هذه السيارة يحسده حتى ولو لم يره لا هو ولا سيارته؛ لأن النفس تحب التفرُّد بالنعمة أو بالميزة، وتكره أن توجد هذه النعمة وهذه الميزة لأي إنسان

آخر، ولذلك فإن النفس تكره من يشاركها في العلم أو الشجاعة أو العبادة أو الصناعة أو الثروة، أو غير ذلك.

قوله :(ولاتناجشوا) النجش في اللغة الإغراء والإثارة بالمكر والحيلة.
والنجش في البيع: أن يزيد في السلعة مَنْ لا يريد شراءها، إما لنفع البائع بزيادة الثمن له، أو بإضرار المشتري بتكثير الثمن عليه.

قوله: (ولا تباغضوا) أي: لا يبغض بعضكم بعضا، والبغض النفرة من الشيء لمعنى فيه مستقبح، ويرادفه الكراهة.
وإذا كان البغض والحب أمرين قهريين لا يُنْهَى عنهما كما لا يُؤْمَرُ بهما، فالمعنى على ذلك:

- لا تتعاطوا أسباب الغضب كالشتم والضرب ومنع النفع ونحو ذلك.
- وقيل: لا تُوقعوا العداوة والبغضاء بالنميمة ونحوها.

والنهي عن التباغض مُقيَّد بالتباغض من أجل الدنيا، فيخرج بذلك البغض في الله، فليس منهيّا عنه؛ بل هو مشروع، بل ومستحب في بعض الأحيان.

قوله: (ولا تدابروا) التدابر المخاصمة والهجران مأخوذ من أن يُولِّي الرجل صاحبه دبره ويُعْرِض عنه بوجهه، وهو التقاطع.

والهجر ينقسم إلى قسمين:

الأول: هجر لأمر الدين وهذا له أحكامه المختصة وضابطها: أنه يجوز هجر المسلم لأجل الدين إذا كان فيه مصلحة لذلك الهجر، وهذا كما هجر النبي ﷺ المخلفين الثلاثة في غزوة تبوك، وأمثال ذلك.

والقسم الثاني: الهجر لغرض دنيوي؛ أن يهجر المسلم أخاه للدنيا لإيذاء آذاه، أو لشيء وقع في قلبه عليه، فالهجر إذا كان للدنيا فللمسلم أن يهجر أخاه للدنيا إلى ثلاثة أيام، وما بعدها فحرام عليه أن يهجره، وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: **(لا يهجر مسلم أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)**[1]

قوله: (ولا يبع بعضكم على بيع بعض) كأن يقول لمن أراد أن يشتري سلعة بعشرة: أنا أعطيك مثلها بتسعة، أو لمن أراد أن يبيع سلعة بعشرة: أنا أخذها منك

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب، باب الهجرة، حديث رقم 6077)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي، حديث رقم 2560)

بإحدى عشر وأشباه ذلك، يعني أنه يغريه بألا يشتري من أخيه أو أن يبيع عليه ففي هاتين الصورتين حصل بيع على بيع المسلم.

حكم بيع المزاد أو المزايدة:

البيع بما يسمى المزاد العلني جائز بشرطين هما:

الأول: ألا يكون فيه قصد الإضرار بأحد.

والثاني: أن يكون الزائد مريدا للشراء، وإلا كان نجشا وهو محرم.

والفرق بينه وبين الشراء على شراء أخيه أو السوم على سوم أخيه هو:

أن الشراء على شراء أخيه يكون بعد عقد البيع وقبل التفرق من مجلس العقد أو في زمن خيار الشرط، والسوم على سوم أخيه يكون بعد الاتفاق على الثمن وقبل عقد البيع.

وأما المزايدة فهي الزيادة في ثمن المبيع قبل أن يوافق البائع على ثمن معين مع شخص آخر.

وهذا بيع جائز بإجماع المسلمين، ودليل جوازه:

ما رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه "أن رجلا من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى حلس نلبس بعضه، ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه من الماء قال: ائتني بهما قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: من يشتري هذين قال: رجل أنا آخذهما بدرهم قال: من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا قال: رجل أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوما فأتني به، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال له اذهب فاحتطب، وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوما فذهب الرجل يحتطب، ويبيع، فجاء، وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا، وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة، لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع." [1]

قوله: (وكونوا عباد الله إخوانا) هذا كالتعليل لما قبله وكأنه قال: اتركوا إتيان التحاسد وما بعده لتكونوا إخوانا، وفيه الأمر باكتساب ما يصير به المسلمون

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، حديث رقم 1641)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

إخوانا؛ أي كونوا كإخوان النسب في الشفقة والمرحمة والمحبة، والمواساة، والمعاونة، والنصيحة.

و"عباد الله ": منادى حذف منه حرف النداء؛ أي كونوا يا عباد الله إخوانا.
وهذه الإضافة لتشريف المضاف، والفائدة منها استعطافهم؛ حثا لهم على الامتثال والقبول.

قوله: (المسلم أخو المسلم) لأنه يجمعهما دين واحد، والأخ من شأنه أن يُوصل النفع لأخيه، ويكفّ عنه الضرر، فلا يتصور حصول الضرر منه.

قوله: (لا يظلمه) لا ينقصه حقه ويمنعه إياه؛ لأن الظلم حرام مُذهب للبركة.

قوله: (ولا يخذله) الخذلان: ترك النصرة مع الاحتياج إليها؛ لأن من الحقوق التناصر.

وفي الحديث: " ما من امرئ مسلم يخذل أمرءاً مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يُحِبُّ فيه نصرته)[1]

قوله: (ولا يكذبه) يجوز في الياء الضم والفتح، وسكون الكاف، أي لا يخبره بخلاف الواقع؛ لأنه غشّ وخيانة.

أو لا يقول له: أنت كاذب، وكلما أخبره بخبر قال: هذا كاذب، وأنت كاذب؛ لأن الأصل في المسلم أنه لا يكذب.

حكم المعاريض

المعاريض من التعريض بالقول، وهو التورية بالشيء عن الشيء بكلام له وجهان يطلق أحدهما والمراد لازمه، أو هو كلام له ظاهر وباطن فقصد قائله الباطن ويظهر إرادة الظاهر.
والمقصود بالمعاريض: أن ينجو المرء من الكذب كما جاء في الحديث:
عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب.)[2]
أي أن في التعريض بالقول من الاتساع ما يغني الرجل عن تعمد الكذب.

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، حديث رقم 4884) وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم 5690

[2] أخرجه البخاري في الأدب المفرد (297/1) وقال الألباني (ضعيف)

وتصح المعاريض من القائل بشروط:

1- إذا دعت الحاجة أو المصلحة الشرعية لها.

2- لا يكثر منها بحيث تكون ديدناً له.

3- ولا أن يستعملها لأخذ باطل أو دفع حق.

4- إن دعَت إلى ذلك مصلحة شرعيَّة راجحة على خداع المخاطب، أو دعت إليه حاجة لا مندوحة عنها إلا بالكذب: فلا بأس بالتعريض.

5- فإن لم تدع إليه مصلحة ولا حاجة: فهو مكروه وليس بحرام.

6- فإن توصل به إلى أخذ باطل أو دفع حق فيصير حينئذ حراماً.

7- وكذلك إذا واجه المرء المسلم ظروفاً صعبة محرجة يحتاج فيها أن يتكلم بخلاف الحقيقة لينقذ نفسه، أو ينقذ معصوماً، أو يخرج من حرج عظيم، أو يتخلص من موقف عصيب.

أمثلة للمعاريض:

1- ما حدث في قصة إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة ،فعن أبي هريرة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :لم يكذب إبراهيم النبي ، عليه السلام ، قط إلا ثلاث كذبات ، ثنتين في ذات الله قوله : إني سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي ، يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي ، فإنك أختي في الإسلام ، فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك ، فلقا دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتي بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد، فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ، ففعلت ، فعاد، فقبض أشد من القبضتين الأوليين ، فقال : ادعي الله أن يطلق يدي ، فلك الله أن لا أضرك ، ففعلت ، وأطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطان ، ولم تأتني بإنسان ، فأخرجها من أرضي ، وأعطها هاجر، قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف

، فقال لها: مهيم ؛ قالت : خيرا، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادما. قال أبو هريرة : فتلك أمكم يابني ماء السماء.) [1]

2- وقصة طلحة الأنصاري مع زوجه أم سليم ،فعن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، أنه سمع أنس بن مالك يقول: اشتكى ابن لأبي طلحة ، قال : فمات وأبو طلحة خارج ، فلما رأت امرأته أنه قد مات ، هيأت شيئا ونحته في جانب البيت ، فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح ، وظن أبو طلحة أنها صادقة ، قال: فبات ، فلما أصبح اغتسل ، فلما أراد أن يخرج ، أعلمته أنه قد مات ، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما كان منهما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما. قال سفيان : فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما تسعة أولاد ، كلهم قد قرأ القرآن.)[2]

3- وما حدث في طريق الهجرة حينما كان الصديق أبو بكر رضي الله عنه في صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني الطريق، فيحسب الحاسب أنه يعنى به الطريق، وإنما يعنى سبيل الخير.[3]

4- وكذا في غزوة بدر قام صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخا من العرب، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه صلى الله عليه وسلم من أخبارهم: قال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أخبرتنا أخبرناك»
فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم»

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه مختصرًا ومطولًا في مواضع، منها كتاب الأنبياء (باب قول الله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلا، حديث رقم 3358 تقريبًا بحسب ترقيم فتح الباري)، وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 2371)، وقول أبي هريرة رضي الله عنه في آخره: (فتلك أمكم يا بني ماء السماء) يقصد هاجر أم إسماعيل عليه السلام، والعرب من ولده.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجنائز، باب من لم يُظهر حزنه عند المصيبة، حديث رقم 1301)، وأخرجه مسلم في صحيحه بمعناه مطولًا (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه، حديث رقم 2144

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم 3911)

فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به جيش المسلمين، وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلا، ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني ممن أنتما؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن من ماء»، ثم انصرف النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [1]

5- وأحضر سفيان الثوري إلى مجلس الخليفة المهدي فاستحسنه، فأراد الخروج فقال الخليفة لا بد أن تجلس فحلف الثوري على أنه يعود فخرج وترك نعله عند الباب، وبعد قليل عاد فأخذ نعله وانصرف فسأل عنه الخليفة فقيل له إنه حلف أن يعود فعاد وأخذ نعله.

6- وكان الإمام أحمد في داره ومعه بعض طلابه منهم المروذي فأتى سائل من خارج الدار يسأل عن المروذي والإمام أحمد يكره خروجه فقال الإمام أحمد: ليس المروذي هنا وما يصنع المروذي ها هنا وهو يضع إصبعه في كفه ويتحدث لأن السائل لا يراه.

7- وكان النَّخَعيُّ إذا طلبه رجُلٌ قال للجاريةِ: قولي له: اطلُبْه في المسجِدِ.

8- وكان الشَّعبيُّ يخُطُّ دائرةً ويقولُ للجاريةِ: ضعي أصبَعَك فيها، وقولي: ليس هو هاهنا.

9- ولو سألك شخص هل رأيت فلاناً وأنت تخشى لو أخبرته أن يبطش به فتقول ما رأيته، وأنت تقصد أنك لم تقطع رئته، وهذا صحيح في اللغة العربية، أو تنفي رؤيته وتقصد بقلبك زماناً أو مكاناً معيناً لم تره فيه.

10- وكذلك لو استحلفك ألا تكلم فلاناً: فقلت: والله لن أكلمه، وأنت تعني أي لا أجرحه لأن الكلم يأتي في اللغة بمعنى الجرح.

11- وكذلك لو أرغم شخص على الكفر وقيل له اكفر بالله، فيجوز أن يقول كفرت باللاهي. يعني اللاعب.

هذا مع التنبيه هنا ألا يستخدم المسلم التورية إلا في حالات الحرج البالغ وذلك لأمور منها:

1- أن الإكثار منها يؤدي إلى الوقوع في الكذب.

---

[1] انظر: زاد المعاد (172/3) (5) وسيرة ابن هشام (228/2).

2- فقدان الإخوان الثقة بكلام بعضهم بعضاً لأن الواحد منهم سيشك في كلام أخيه هل هو على ظاهره أم لا؟
3- أن المستمع إذا اطلع على حقيقة الأمر المخالف لظاهر كلام الموّري ولم يدرك تورية المتكلم يكون الموري عنده كذاباً وهذا مخالف لاستبراء العرض المأمور به شرعاً.
4- أنه سبيل لدخول العجب في نفس صاحب التورية لإحساسه بقدرته على استغفال الآخرين.

قوله :(ولا يحقره) أي: لا يستصغر شأنه، ويضع من قدره بالترفع والنظر إليه بعين القلة، ذلك أن الله تعالى رفع من قدره وكرمه والذي يحتقر المسلم إنما يحمله على ذلك الكبر.

قوله: (التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات) التقوى: اجتناب غضب الله وعقابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهو الميزان الذي يتفاضل به الناس عند الله تعالى، **قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]**
وقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: 32] أي تقوى الله عز وجل في القلب وليست في اللسان ولا في الجوارح، وإنما اللسان والجوارح تابعان للقلب.

وقال ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[1]

"ويشير إلى صدره ثلاث مرات" أي قال: التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، تأكيدا لكون القلب هو المدبر للأعضاء.

قوله: (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) أي يكفي المرء من خصال الشر في أخلاقه احتقار المسلم.

قوله: (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) فلا يجوز إيذاؤه والاعتداء عليه ولا على شيء مما يملك، فكل أذى للمسلم في دمه وماله وعرضه محرم.. فالمسلم محفوظ، ومعصوم الدم، والمال، والعرض .

وقد أكد النبي ﷺ على حرمة دم المسلم وماله وعرضه في حجة الوداع في خطبته المشهورة يوم النحر.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم 2564)

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: يا أيها الناس أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، فأعادها مرارا، ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت. قال ابن عباس رضي الله عنه: فوالذي نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته) [1]
وسؤاله ﷺ عن الثلاثة، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار الذهن، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم به، ولذلك قال بعدها: **(فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام)**، مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء.

حرمة الدم:

من أعظم الكبائر قتل مسلم بغير حق، قال تعالى: **{ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما}** (النساء:93)، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما)** [2]

(في فسحة) الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره، والفسحة في الذنب قبوله الغفران بالتوبة حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول.

حرمة المال:

المال هو كل ما له قيمة للإنسان، وهو عصب الحياة، ولا يجوز لمسلم أن يأكل من مال أخيه المسلم إلا إذا كان ذلك عن رضا منه وطيب نفس، وقد جعل النبي ﷺ لمال المسلم حرمة، فلا يجوز أبدا الاعتداء عليه بالإتلاف أو السلب والنهب.
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من اخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله) [3]
فلا يحل شيء من مال المسلم إلا بطيب نفسه ولو كان عودا من سواك.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم 1739)
[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم، حديث رقم 6862)
[3] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها، حديث رقم 2387)

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد اوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة، فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيبا من أراك (عودا من سواك) [1]

حرمة العرض:

كما جعل النبي ﷺ للمسلم حرمة في دمه وماله، جعل له أيضا حرمة في عرضه، فالدم كناية عن النفس، والعرض كناية عن أذاه بالقول.

ولما عرج بالنبي ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج: (مر على قوم لهم أظافر من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم) [2]

من فوائد هذا الحديث:

1. الحديث أصل جامع في تنظيم علاقة المسلم بأخيه المسلم، وفي حفظ الأخوة الإيمانية من كل ما يفسدها من حسد وبغضاء، وتدابر وظلم واحتقار.
2. الأخوة الإسلامية ليست مجرد شعار، بل تقتضي كفّ الأذى، وبذل النصح، وحفظ الدم والمال والعرض، ونصرة المسلم عند حاجته.
3. الحسد المذموم هو تمني زوال النعمة عن الغير، وهو من أمراض القلوب الخطيرة، أما الغبطة فهي تمني مثل النعمة من غير زوالها، وتكون محمودة إذا كانت في الطاعة والعلم والإنفاق.
4. من أعظم أسباب الحسد: العداوة والبغضاء، والمنافسة على الدنيا، والكبر، والتنافس بين الأقران، وحب الرئاسة، والجاه، والشهرة.
5. التنافس المذموم في الدنيا يفتح باب الحسد والخصومة، بخلاف التنافس المحمود في القرآن والصدقة وسائر أبواب الخير.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، حديث رقم 137)

[2] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب في الغيبة، حديث رقم 4878)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

6. النهي عن النجش يدل على أن الإسلام لا يكتفي بصحة ظاهر البيع، بل يمنع وسائل الخداع والإضرار بالمشتري أو البائع.
7. بيع المزايدة جائز إذا خلا من قصد الإضرار، وكان من يزيد في الثمن يريد الشراء حقيقة، أما الزيادة الصورية فهي من النجش المحرم.
8. النهي عن التباغض والتدابر يدل على أن الشريعة لا تريد للمسلم أن يتعاطى أسباب العداوة، كالشتم والنميمة والظلم وقطع المعروف.
9. الهجر لأجل الدنيا لا يجوز أن يتجاوز ثلاث ليال، وخير المتخاصمين من يبدأ بالسلام، أما الهجر لأجل الدين فله ضوابطه، ولا يكون مشروعًا إلا إذا ترتبت عليه مصلحة شرعية.
10. من حقوق المسلم على أخيه ألا يخذله، وخاصة إذا انتُهك عرضه أو احتاج إلى نصرة مشروعة، فالخذلان مناقض للأخوة الإيمانية.
11. الكذب على المسلم غش وخيانة، والأصل في المسلم أن يكون صادقًا، وأن يحفظ ثقة إخوانه بكلامه.
12. المعاريض والتورية ليست بابًا مفتوحًا للتحايل، بل لا تستعمل إلا عند الحاجة أو المصلحة الشرعية، ولا يجوز استعمالها لأخذ باطل أو دفع حق.
13. احتقار المسلم من كبائر أخلاق القلوب؛ لأن الله كرّم المسلم، وجعل التفاضل الحقيقي بالتقوى لا بالصورة ولا المال ولا الجاه.
14. التقوى محلها القلب، لكن أثرها يظهر على الجوارح، فلا يصح أن يدعي الإنسان التقوى مع ظلم الناس واحتقارهم وأكل حقوقهم.
15. حرمة المسلم عظيمة جامعة: دمه وماله وعرضه، فلا يجوز الاعتداء عليه بقتل أو إيذاء، ولا بأكل مال، ولا بغيبة أو سب أو انتقاص.

الحديث السادس والثلاثون

من نفس عن مؤمن

كربة من كرب الدنيا

(36) من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا

نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة،

ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة،

ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة،

والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه،

ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة،

وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه. رواه مسلم[1]

شرح الحديث

(من نفس) التنفيس هو فك الخناق عن المخنوق وإرخاؤه حتى يأخذ نفسه بعد أن أشرف على الهلاك، والخناق هو الحبل الذي يخنق به.

ومعنى قوله "نفس"؛ أي: أزال وفرّج، وهذا استعمال مجازي بذكر الملزوم وإرادة اللازم؛ لأنه يلزم من إرخاء الخناق إزالة الشدة وتفريجها.
ولا يُشترط في التنفيس أن يكون باليد؛ بل بكل ما يحصل به التنفيس، فيشمل المال، والجاه، وحتى الدعاء له بظهر الغيب.

ما الفرق بين "نفس" و"فرج"؟

- التنفيس: هو التخفيف من إرخاء الخناق ليأخذ الشخص نفسه.
- التفريج: هو إزالة الكربة بالكامل.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم 2699)

وقد ورد الجمع بينهما في الحديث عن كعب بن عجرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "من نفس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر على مؤمن عورة، ستر الله عورته، ومن فرج عن مؤمن كربة، فرج الله عنه كربته" [1]

وهذا يدل على أن الجزاء من جنس العمل؛ فالتنفيس جزاؤه التنفيس.

(عن مؤمن) ذكر "المؤمن" لشرفه ومزيد حرمته ومزيد ثوابه، وإلا فالذمي كذلك يجوز الإحسان إليه وتنفيس كربته.

لماذا عبر هنا بقوله "مؤمن"، وفي العبارات التالية "مسلمًا"؟

هذا يحتمل:

- إما للتفنن في العبارة.
- أو لبيان أن الإسلام والإيمان بمعنى واحد.
- أو لأن الكربة تتعلق بالباطن، فناسب ذلك الإيمان المتعلق بالباطن أيضًا، كما أن الستر يتعلق بالظاهر غالبًا، فناسبه الإسلام المتعلق بالظاهر أيضًا.

(كربة) أي شدة عظيمة، لأنها ما أهم النفس وغَمَّ القلب، والكربة تُقارب أن تزهق الروح لشدة همها، فكأنها لشدة أثرها عَطَّلت مجاري التنفس، ولهذا ناسب ذكر **"نفّس"** بدلاً من **"أزال" أو "خفف"**

(من كرب الدنيا) كرب الدنيا: وهي كثيرة؛ منها: العري، والجوع، والعطش.

(نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة) أي: منعها عنه وحفظه منها ابتداءً، جزاءً له على فعله من نفس جنسه.

فائدة:

قال هنا: "كربة من كرب يوم القيامة" ولم يذكر "الدنيا"، وقال فيما بعده: "ستره الله في الدنيا والآخرة" و "يسر الله عليه في الدنيا والآخرة".

ما السر في ذلك؟

---

[1] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط والمعجم الكبير، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه شعيب بياع الأنماط وهو مجهول، ولذلك فإسناد هذه الرواية ضعيف من جهة شعيب بياع الأنماط، لكن أصل المعنى ثابت صحيح بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة...)

السر أن الكرب هي الشدائد العظيمة، وليس بالضرورة أن تحصل هذه الشدائد لكل أحد في الدنيا، بخلاف الإعسار والعورات من المعاصي ونحوها التي تنكشف، فإنها تحتاج إلى التيسير والستر، ولا يكاد أحد يخلو منها في الدنيا، ولو بتعسر بعض حاجاته المهمة.

وقيل: لأن الدنيا لا تُقارن شدائدها بكرب الآخرة، فلا حاجة لذكرها معها.
ولا منافاة في حصول التنفيس في كرب الدنيا كما يحصل في كرب الآخرة، كما يفيد عموم قوله: **"والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه."**

فإن قيل: التنفيس يكون بعد حصول الكربة ونزولها بالإنسان، فكيف يتحقق التنفيس يوم القيامة وهي لم تنزل به أصلاً؟

فالجواب: أن ذكر التنفيس هنا على سبيل المشاكلة [1]مع قوله "نفس"، وإلا فإن تنفيس الكربة إنما يكون بعد حصولها، ولم تحصل القيامة بعد.
ويُحتمل أن يكون ذلك من قبيل التحقق بحصول القيامة والتيقن من ذلك على وتيرة **قوله تعالى: "أتى أمر الله فلا تستعجلوه"** [النحل: 1]، فعبر بصيغة الماضي عما لم يأت بعد لتحقق وقوعه وتيقن حدوثه.

ولا يرد هذا الاعتراض **في قوله: "يسر الله عليه في الدنيا والآخرة"**، لأن حصول اليسر لا يستدعي سبق العسر.

ذكر أمثلة من كرب يوم القيامة أعاذنا الله منها:

من ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 1-2]
قال الحسن البصري: "تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام".

---

[1] قولهم :على سبيل المشاكلة يعني أن تُستعمل كلمة في غير معناها الأصلي، لمجرد أنها جاءت مقابلة لكلمة أخرى تشبهها في اللفظ، لا لأنها تحمل المعنى نفسه حقيقة؛ بعبارة أبسط :المشاكلة هي أن تذكر لفظًا موافقًا للفظ سابق أو لاحق في الكلام، مع أن المقصود به معنى مختلف، وذلك للمناسبة اللفظية والبلاغية؛ وهذا مثاله من القرآن: قال تعالى :(نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) سورة التوبة، الآية 67. نسيانهم لله معناه ترك طاعته وذكره، أما (فنسيهم) فليس معناه النسيان الذي هو ذهول أو غفلة، لأن الله لا ينسى بهذا المعنى، بل معناه تركهم من رحمته وتوفيقه وجزاهم على إعراضهم. فهذا على سبيل المشاكلة.

وقال في سورة الواقعة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 1-11]

ونحو ذلك مما ورد في سور: التكوير والانفطار والانشقاق والزلزلة والقارعة وغيرها من سور القرآن عند الحديث عن القيامة وأهوالها.

وفي الحديث عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "تدنُو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل". قال سليم بن عامر: "فوالله ما أدري ما يعني بالميل، أَمَسَافةَ الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين؟". قال: "فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا". قال: "وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فمه"[1]

فإن قيل: قد أخبر الله تعالى أن الحسنة بعشر أمثالها، فما بالها في هذا الحديث قوبلت بتنفيس كربة واحدة من كرب الآخرة؟ ولم تقابل بعشر؟

فالجواب من وجوه:

1- يمنع هذا مفهوم العدد ولا يمنع الزيادة، ويشهد لذلك قوله: **"من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظلّه الله في ظله"** وفيه زيادة الظل لمن أنظر المعسر، يعني أمهله حين يُسرَّ ومقدرته على السداد.
2- أن كل كربة من كرب يوم القيامة تشتمل على أهوال كثيرة وأحوال صعبة ومخاوف جمة، وتلك الأحوال إما عشرة أو تزيد عليها.

3- وقيل: لأن كربة الدنيا كأنها لا شيء بالنسبة لكربة الآخرة.

وهنا سر آخر عظيم يظهر بطريق الفهم والتدبر، وهو أن من نفس كربة عن مؤمن في الدنيا يُختم له بالخير فيموت على الإسلام، لأن الكافر لا يُرحم في الدار الآخرة ولا يُنفَسُ عنه من كربها.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، حديث رقم 2864) ومعنى قول سليم بن عامر أنه لم يجزم هل المراد بالميل مسافة معروفة أم عود الكحل، والمقصود بيان شدة قرب الشمس وعظيم هول الموقف، لا تحديد المسافة على وجه القطع .

تنبيه:
ولا يقتصر التنفيس هنا على المال أو الأشياء المادية الظاهرة، بل ربما كان التنفيس عن طريق الدعاء، لأن المتقين يجدون في الدعاء فرجًا وتنفيسًا، كما في قوله تعالى: **(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)** [الطلاق: 23].

(ومن يسر على معسر) هذا وما بعده من ذكر الخاص بعد العام؛ لشمول تنفيس الكربة لهما، وليس المقصود بالمعسر هنا من عجز عن سداد الدين فقط، بل المقصود أعم من ذلك، فكل من تعسّر عليه أمره، كان في التيسير عليه أجر. فيدخل في ذلك الإفتاء بما فيه يُسر ورخصة من غير مخالفة للشرع، كما يدخل المدين من جهة العمل.

والتيسير على المعسر في المال يكون تارة بإمهاله إلى الميسرة وهو واجب، لقوله تعالى: **(وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ)** [البقرة: 280]، وتارةً يكون بإبرائه، أو الوضع عنه، أو بإعطائه ما يزيل به الإعسار من صدقة أو هبة، ونحو ذلك، وكل هذا له ثواب كبير وفضل عظيم .

وفي "الصحيحين": "كان تاجر يُداين الناس، فإذا رأى معسرًا قال لصبيانه: تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا؛ فتجاوز الله عنه" [1]

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: "أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: يا رب، آتيتني مالك، فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر، فقال الله: أنا أحق بذلك منك؛ تجاوزوا عن عبدي" [2]

وجاء عبد مكاتب[3] يريد الإعانة على عتقه، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ؟ لو كان عليك مثل جبل صير دينًا،

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب البيوع، باب من أنظر موسرًا، حديث رقم 2077)، ومسلم في صحيحه (كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، حديث رقم 1560)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب البيوع، باب من أنظر موسرًا، حديث رقم 2077)، ومسلم في صحيحه (كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، حديث رقم 1560)، ولفظه: (أُتي الله بعبد من عباده آتاه الله مالًا، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: ولا يكتمون الله حديثًا، قال: يا رب آتيتني مالك، فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أتيَسَّر على الموسر، وأُنظِر المعسر، فقال الله: أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عن عبدي)

[3] المكاتب هو العبد الذي اتفق مع سيده على أن يدفع له مبلغًا معيّنًا من المال على أقساط أو دفعات، فإذا أدّاه صار حرًّا، وسُمّي مكاتبًا لأن بينه وبين سيده كتابة، أي عقد مكتوب أو متفق عليه، كما في قوله تعالى :(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) [سورة النور، الآية

أداه الله عنك. قل: "اللهم اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك" وفي بعض الروايات: (مثل جبل ثبير دينًا)، والمقصود به جبل معروف بمكة.[1]

(يسر الله عليه في الدنيا والآخرة) وقوله: "يسر الله" مفعوله تقديره: (أمره)؛ أي: جميع أمره، فلا فرق فيما تعسر بين الدقيق والجليل، ولا فرق أيضًا فيما تيسر بين الدقيق والجليل.

(ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة) فيه حذف مضاف تقديره: من ستر زلة مسلم، والزلة: المعصية أو الهفوة ونحوها، أو تقديره: من ستر عورة مسلم، وستر الزلة يتحقق بأن يعلم بوقوعها فيما مضى فلا يخبر بذلك حاكمًا مثلا.

قيل: والمراد المسلم المستتر فيما وقع منه أو ما اتهم به وهو بريء.
ومثل هذا: إن جاء نادمًا تائبًا وأقر بحد؛ يُؤمر بالتوبة ولا يُستفسر منه عن الحد؛ كما فعل النبي ﷺ مع ماعز والغامدية (والحديث في الصحيحين)

ومثل هذا إن أُخذ بجريمته ولم يبلغ الإمام خبره؛ فيجوز الشفاعة في أمره حتى لا يبلغ، وفي الحديث: **"أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم"**[2] وهو قول مالك وأحمد.
فإن كان صاحب الزلة مستورًا، ووقعت منه هفوة أو زلة؛ فإنه لا يجوز كشفها، ولا هتكها، ولا التحدث بها؛ لأن هذه غيبة محرمة، ما لم يدع داعٍ إلى ذلك.

شروط ستر الزلة:

- أن تكون حقًا لله وليست حقًا للعباد.
- أن تكون قد انتهت ومضت.

ويخرج من هذا ما لو رآه على المعصية، فيجب عليه منعها إن قدر، أو يطلب من يعينه.

33.] فمعنى :جاء مكاتب يعني: عبد يريد أن يكمّل المال المطلوب منه حتى يتحرر، فسأل عليًّا رضي الله عنه الإعانة على قضاء دين الكتابة، فعلّمه هذا الدعاء.

[1] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 3563) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

[2] أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الحدود، باب في الحد يشفع فيه، حديث رقم 4375)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ومعناه: اصفحوا عن زلات أصحاب المروءات والفضل إذا وقعت منهم هفوة نادرة لا تتعلق بحد شرعي ولا بحق لازم للناس، أما الحدود والحقوق الواجبة فلا يجوز إسقاطها بالمحاباة.

إذن، فالستر قد يكون فيه خير فيكون محمودًا كما في ستر صاحب المروءة النادم على زلته، وقد يكون الستر شرًا فيكون مذمومًا، كما في الستر على المقيم على المعصية أو المعتدي على الناس، الذي لا يزداد بالستر إلا شرًا وطغيانًا.

وقد لا تعلم في بعض الناس هل الستر عليهم خير أم كشفهم، فالأصل أن الستر خير، والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، ولكن في هذه الحال تتبع أمره ولا تهمله؛ لأنه ربما يتبين بعد ذلك أن هذا الرجل ليس أهلاً للستر.
وعلى التقدير المذكور سابقًا: "من ستر عورة مسلم"، فالعورة هنا حسية أو معنوية، وذلك بإعانته على ستر دينه؛ كأن يكون محتاجًا لنكاح فيتسبب له أو يتوسل له في بضاعة يتجر فيها.
ويُؤخذ من الحديث أن مَن فضح مسلمًا أو كشف عورته بغير حق، فضحه الله وكشف عورته حتى في بيته، وهذا نص في الحديث: "من ستر عورة أخيه المسلم، ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم، كشف الله عورته حتى في بيته" [1]

قال بعض السلف: "أدركت قومًا لم يكن لهم عيوب، فذكروا عيوب الناس فذكر الناس لهم عيوبًا، وأدركت قومًا كانت لهم عيوب، فكفّوا عن عيوب الناس، فنُسِيَتْ عيوبهم".
ومعنى "ستره الله في الدنيا والآخرة": أي: لا يفضحه في الدنيا ولا يعاقبه على ما فرط منه في الآخرة.

(والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) الواو هنا استئنافية وليست عاطفة، **وفي الحديث الآخر: "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته".**
وعدل عن الجملة الشرطية إلى الجملة الاسمية؛ فلم يأت فيها بصورة التحقيق؛ إشارة إلى أن كون الله معينًا لمن أعان أمر محقق لا شك فيه، ثابت دائم مستقر، وإن كان ما قبله كذلك، لكنه هنا أشد وأكد.
و"عون" بمعنى معين، والمعنى: والله معين للعبد؛ أي إعانة كاملة، وذلك بأن يؤيده وييسر له قضاء حوائجه.

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب الحدود، باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات، حديث رقم 2546) وفي إسناده محمد بن عثمان الجمحي، وقد ضعفه جماعة من أهل العلم، لذلك فإسناد هذه الرواية فيه ضعف، وإن كان الألباني قد صححه في بعض كتبه، ومعنى الحديث ثابت من حيث الأصل بأحاديث صحيحة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح مسلم: (ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة)، وحديث: (لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة) .

وإلا فالله في عون العبد دائمًا، وعليه، فتقييد ذلك بقوله: **"ما كان العبد في عون أخيه"** غير مراد، وكأن المقصود منه الترغيب في الاستمرار على معاونة الأخ في الدين، ثم لا خفاء في أن الإعانة زائدة على ما ادخر الله لذلك العبد من الثواب الجزيل.

والمراد بالعبد هنا ما يشمل الذكر والأنثى.

"ما كان العبد": "ما" مصدرية ظرفية؛ أي: مدة كونه في عون أخيه.

والإعانة تكون بالقلب، واليد، واللسان، والمال، والجاه، ونحو ذلك.

والإعانة هنا مقيدة بكونها مطلوبة شرعًا، وإلا فلا خفاء أن الله لا يعين من أعان ظالمًا على ظلمه.

السعي في قضاء حوائج المسلمين من أعظم القربات:

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "خير الناس أنفعهم للناس" [1]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا. ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا.

ومن كف غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظه، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة. ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام. وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل" [2]

وعن أنس بن مالك قال: "كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنَّا الصائم ومنَّا المفطر. فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده. فقال النبي ﷺ: "ذهب المفطرون اليوم بالأجر"[3]

---

[1] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (حديث رقم 5787) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة بمجموع طرقه وشواهده، فالحديث حسن لغيره.

[2] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (حديث رقم 13646)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (حديث رقم 2623) فقال: حسن لغيره

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسير، باب فضل الخدمة في الغزو، حديث رقم 2890)، ومسلم في صحيحه (كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل، حديث رقم 1119)

وهذا الفاروق عمر رضي الله عنه رآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة، فدخل إليها طلحة نهارًا، فإذا هي عجوز عمياء مقعدة. فسألها: ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني، يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى. فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرات عمر تتبع؟! [1]

(**ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة**) سلك أي: سعى فيه ودخله.

والمقصود بالطريق هنا:

1- إن أريد به الطريق المحسوس: فهو يشمل مطلق ما يوصل إلى العلم، سواء كان طرق البر أو البحر أو الجو.

2- وإن أريد به الطريق المعنوي: فهو يشمل حفظ العلم، ومذاكرته، ومطالعته.

وفي ذلك استعارة تصريحية، حيث استعار اسم "الطريق" لما ذُكر بجامع أن كلاهما يوصل إلى الغاية.

"يلتمس فيه علمًا ": أي: يطلب في غايته، أو بسببه علمًا شرعيًا وقيل: هو عام لكل علم جائز، لوروده نكرة في سياق الشرط، والأول أوجه؛ لأنه الذي يسهل الله به طريقًا إلى الجنة.
ولا فرق بين الالتماس بالتعلم أو بالتعليم أو التصنيف، سواء حصل العلم أو لم يحصل؛ لأن الأعمال بالنيات.
ونُكر لفظ "العلم" ليشمل أنواع العلوم الدينية ويندرج فيه القليل والكثير، كما لا فرق في الطريق بين كونه طويلاً أو قصيرًا، عسير السلوك أو سهلًا.

قوله: "سهل الله به": أي: بذلك السلوك، إذا قصد بطلبه وجه الله تعالى، والانتفاع به والعمل بمقتضاه.

وذكر العلماء شروطًا لهذا العلم وهي:

1- العمل به ونشره.

2- وترك المباهاة والمماراة.

---

[1] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (1/47-48) في ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

3- والاحتساب في نشره.

4- وترك البخل به، والتواضع.

5- واحتمال الأذى في بذل النصيحة.

6- والاقتداء بالسلف.

7- وأن يقصد بعلمه من كان أحوج إلى التعلم.

8- وأن يظهر أثر العلم على سلوكه وحاله.

وهذا التسهيل يكون في الدنيا والآخرة:

في الدنيا: بتوفيقه للصالحات، وبحفظه من السيئات؛ فالمعنى أن الله سهل له هداية موصلة إلى الجنة؛ فيكون من باب الاستعارة التصريحية، حيث استعار اسم الطريق للهداية بجامع الإيصال في كلٍّ منهما، وقيل: التسهيل هنا للعلم الذي طلبه، وهو يؤدي إلى الخشية ثم الجنة.

وفي الآخرة: يجازيه الله على طلب العلم بتسهيل دخول الجنة، بحيث لا يرى شدة الموقف والمرور على الصراط، والطريق الحسي إلى الجنة؛ فلا مانع إذًا من أن يكون التسهيل في الدنيا والآخرة.

(وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله) الواو للاستئناف؛ لأن ما قبلها وبعدها متباينان، حيث الأول نفعه متعدٍّ، بخلاف الثاني فنفعه قاصر.

"قوم" :يعم الرجال والنساء، ولفظة قوم تُذكَّر وتُؤنَّث، ومثال المذكر: ﴿**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ**﴾ [الأنعام: 66]، ومثال المؤنث: ﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ**﴾ [الشعراء: 105].

وأفاد تنكير لفظة "قوم" :حصول الوعد لكل قوم اجتمعوا وجلسوا من غير اشتراط وصف فيهم كعلم أو زهد أو صلاح.

"في بيت" :قيد به الاجتماع نظرًا للغالب، وإلا فالظاهر أن هذا الفضل يشمل الاجتماع وإن كان في صحراء.

"من بيوت الله" :أي: مما بُني لنيل ثوابه ورضاه من مسجد أو مدرسة أو غيرها مثلها؛ لأن هذا القيد لا مفهوم له، إذ إنه خرج مخرج الغالب، وفي هذا إظهار لشرف المساجد؛ إذ العبادة فيها أفضل من غيرها، وإضافتها إلى الله تعالى لأنها بُنيت لنيل ثوابه ومرضاته.

(يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم) أي: مجتمعين للقراءة، كلٌّ يقرأ على انفراد أو يقرأ أحدهم فيقرؤون بعده معًا الآية التي قرأها، يقتدون به على سبيل التعلم، أو يقرأ أحدهم عقب الآخر، فيصل قراءته بقراءته أو يعيد ما قرأ، أو يقدمون أحدهم يقرأ ويستمعون له، وكان عمر يقدم الشاب الحسن الصوت بين يدي القوم؛ فكل هذا سواء في تحقق الوعد الآتي.
واستدل الأكثرون على ذلك بهذا الحديث وغيره من الأحاديث الدالة على استحباب الاجتماع للذكر، والقرآن أفضل أنواع الذكر.

(إلا نزلت عليهم السكينة) من السكون، والمقصود هنا: الوقار والطمأنينة، وكل ما يطمئن القلب به ويسكن، إذ بذكره تعالى تطمئن القلوب.

وفي "الصحيحين" عن البراء بن عازب قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس، فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها. فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال ﷺ: "تلك السكينة تنزلت للقرآن".[1]

(وغشيتهم الرحمة) أي: علتهم وسترتهم وشملتهم وغَطَّتهم من كل جهة؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: 56].

(وحفتهم الملائكة) أي: أحاطت بهم الملائكة إلى سماء الدنيا؛ كما في حديث أبي هريرة في "الصحيحين": **"فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا"**، وهذه الملائكة هي المنزلة بالرحمة والمنزلة لاستماع الذكر تعظيمًا له وإكرامًا للذاكرين على غاية من القرب والملاصقة، بحيث لم يَدَعُوا للشيطان فُرْجَةً يتوصل منها إليهم.

(وذكرهم الله فيمن عنده) أي: أثنى الله عليهم، قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: 152].

وكما ورد في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم"[2]
و"عنده" :أي: في الملأ الأعلى بين ملائكته، ومباهاتهم به، وتنويهه بذكره .

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف، حديث رقم 5011)، ومسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، حديث رقم 795)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ويحذركم الله نفسه، حديث رقم 7405)، ومسلم في صحيحه (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم 2675)، وفي رواية عند البخاري ومسلم تتمة: (وإن تقرب إلى شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)

(ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) البطء: نقيض الإسراع، والمقصود به من قصَّر في العمل عما يجب، فكان قليلاً أو ناقص الصحة أو عن الكمال، لم يجبر هذا النقص نسبه، ولم يلتحق بأصحاب الأعمال العظيمة الجليلة الشرف؛ فالمسارعة إلى الجنات بالأعمال وليست بالأنساب والأحساب؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: 13].

وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

لعمرك ما الإنسانُ إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

لقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارس وقد وضع الشركُ الشقيَّ أبا لهب.

وفي الحديث عن النبي ﷺ لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] قال: "يا معشر قريش أو كلمة نحوها، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا".[1]

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: 21]، فكيف يُلحق الله الذرية بأهل الجنة وإن كانوا دونه في العمل؟

فالجواب أن الآية تشير إلى فضل الله ورحمته التي تشمل المؤمنين وذرياتهم، فإذا كانت الذرية مؤمنة وإن كانت أعمالهم أقل من آبائهم، فإن الله يلحقهم بآبائهم في الجنة لتقر أعين الآباء والأبناء معًا.

ومع ذلك، فإن هذا الإلحاق لا يكون على حساب الأعمال التي قاموا بها؛ إذ إن الله لا ينقص أحدًا من أجره شيئًا.

قال ابن عباس رضي الله عنه: "إن الله يرفع ذرية المؤمن معه في الجنة في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ بهم عينه، وذلك بفضل الله ورحمته".

وهذا لا يتعارض مع أن النسب وحده لا ينفع دون الإيمان والعمل الصالح، فالمقصود هو الإلحاق بالفضل والكرم الإلهي لأهل الإيمان، مع احتفاظ كلٍّ بأجره الكامل على أعماله؛ فهذا يدلُّ على إلحاق ذرية المؤمن به.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين، حديث رقم 4771، وأخرجه أيضًا في كتاب الوصايا وكتاب المناقب بألفاظ قريبة)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين، حديث رقم 204)

فوائد الحديث:

1-الحديث أصل جامع في فضل نفع المسلمين، وتفريج كربهم، والتيسير عليهم، وستر زلاتهم، وطلب العلم، والاجتماع على القرآن، وبيان أن النجاة بالعمل لا بالنسب.

2-تنفيس الكربة لا يقتصر على المال، بل يكون بكل ما يرفع الشدة أو يخففها: بالمال، أو الجاه، أو النصيحة، أو الدعاء، أو السعي العملي في قضاء الحاجة.

3-الجزاء من جنس العمل؛ فمن نفّس عن مؤمن كربة في الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

4-تنفيس كرب المؤمن يدل على رحمة القلب، وحسن الإيمان، والقيام بحق الأخوة، وهو من أسباب حسن الخاتمة والنجاة يوم القيامة.

5-التيسير على المعسر يدخل فيه المدين وغيره، فكل من تعسّر عليه أمر مباح أو حاجة مشروعة، فالتيسير عليه داخل في فضل الحديث.

6-التيسير على المعسر يكون بإمهاله، أو إسقاط بعض الدين عنه، أو إعانته، أو إرشاده إلى مخرج شرعي، أو رفع الحرج عنه بقدر الاستطاعة.

7-ستر المسلم من أعظم الأخلاق، لكنه ليس سترًا مطلقًا في كل حال، فالستر المحمود يكون غالبًا في حق من وقع في زلة وانتهت، وكان مستترًا نادمًا، ولم يكن في كشفه مصلحة راجحة، والستر المذموم هو الستر على من يتمادى في المعصية أو يعتدي على الناس أو يترتب على ستره ضرر على الآخرين.

8-من كشف عورات الناس بغير حق عرّض نفسه لأن يكشف الله عورته ويفضحه، والجزاء من جنس العمل.

9-الإعانة تكون بالقلب واللسان واليد والمال والجاه، لكنها مقيدة بما يرضي الله، فلا إعانة في ظلم أو معصية.

10-قضاء حوائج المسلمين من أعظم القربات، وقد يكون السعي في حاجة مسلم أفضل من نوافل كثيرة إذا عظمت الحاجة وصدقت النية.

11-طلب العلم طريق إلى الجنة إذا صحّت النية، وكان العلم شرعيًا نافعًا، أو علمًا مباحًا يُقصد به نفع الناس وخدمة الحق.

12-فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ومدارسته عظيم، ومن ثماره نزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحضور الملائكة، وذكر الله لأهله في الملأ الأعلى.

13-قوله: (وذكرهم الله فيمن عنده) يدل على شرف مجالس القرآن والذكر، إذ يذكر الله أهلها في الملأ الأعلى بين ملائكته.

14-النسب الشريف لا ينفع صاحبه إذا قصّر في الإيمان والعمل، كما أن ضعف النسب لا يضر العبد إذا رفعه الله بالتقوى.

****

الحديث السابع والثلاثون

إن الله كتب

الحسنات والسيئات

(37) إن الله كتب الحسنات والسيئات

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال :(إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدة) رواه البخاري ومسلمٌ.[1]

شرح الحديث

(إن الله كتب) أي :أنه- سبحانه- أمر الحفظة بكتابتها في اللوح المحفوظ.

التعريف بالملائكة الكتبة:

وكل الله نوعا من الملائكة هم الملائكة الكتبة لحفظ أعمال بني آدم من خير وشرّ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كراما كَٰتِبِينَ ١١﴾ [الانفطار: 10-11]

وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين، لا يفارقانه، يحصيان عليه أعماله وأقواله: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 16-18]**

(رقيب) مراقب ليلاً ونهاراً، لا ينفك عن الإنسان.

(عتيد) حاضر، لا يمكن أن يغيب ويوكل غيره، فهو قاعد مراقب حاضر، لا يفوته شيء.

رقيب وعتيد وصف لكلا الملكين وليس اسما:

اشتهر عند الكثير منا أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد، استدلالاً بالآية وما ذكروه غير صحيح، فالرقيب والعتيد هنا وصفان للملكين اللذين يسجلان أعمال

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب من همَّ بحسنة أو بسيئة، حديث رقم 6491)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب، حديث رقم 131)

العباد، ومعنى رقيب وعتيد؛ أي: ملكان حاضران شاهدان، لا يغيبان عن العبد، وليس المراد أنهما اسمان للملكين.

صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات:

عن أبي أمامة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتب واحدة)[1]

وقد أجمع السلف الصالح على أن الذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات.

(الحسنات) هي ما يُحمد فاعلها شرعًا، ويتعلق بها الثواب.

(السيئات)هي ما يُذم فاعلها شرعًا، ويتعلق بها العقاب.

(ثم بين ذلك) ثم بَيَّنَ حالهما وعَيَّنَ مقدارهما للكرام الكاتبين.

(فمن همَّ بحسنةٍ) هم" يعني: أرادها وترجَّح عنده فعلها

وعن أبي الدرداء قال: "من أتى فراشه وهو ينوي أن يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح، كُتِبَ له ما نوى"[2]

وعن سعيد بن المسيب قال: "من همَّ بصلاة، أو صيام، أو حج، أو عمرة، أو غزو فحيل بينه وبين ذلك، بلَّغه الله تعالى بما نوى"

ومتى اقترن بالنية قول أو سعي، تأكد الجزاء، والتحق صاحبه بالعامل:

كما روى أبو كبشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي فيه ربَّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل.

وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سواء.

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (185/8)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (124/6)، والبيهقي في شعب الإيمان (حديث رقم 6650)، وقد وقع الخلاف في تقوية الحديث بسبب حال بعض رواته، ولذلك ضعفه بعض أهل العلم، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (حديث رقم 1209)

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه مرفوعًا (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن نام عن حزبه من الليل، حديث رقم 1344) ويروى الحديث موقوفا ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا، فهو يَخْبِطُ في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربَّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء.) [1]

وحمل قوله :"فأجرهما سواء" على استوائهما في أصل الأجر على العمل، لا في ثبوت التضعيف لمن لم يعمل، بمعنى أن مضاعفة الأجر لعشر حسنات إلى سبعمائة لمن عمل العمل، أما من تمناه فله أصل الأجر وهو حسنة واحدة.

وثبوت التضعيف خلاف المنصوص عليه، فالمضاعفة يختص بها من عمل العمل دون من نواه؛ قال تعالى :**(فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)** [النساء: 95-96].

(فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً) فلم يعملها: لسببٍ طرأ أو لكسلٍ أو نحو ذلك؛ وكُتِبَ الهمُّ حسنة؛ لأنه سبب لعملها وسبب الخير خير **"كاملة":** وُصِفَت بالكمال؛ لئلا يتوهم أن كونها مجرد همّ ينقص ثوابها.

(وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضِعفٍ)

وهذا التضعيف ملازم لكل حسنة، كما دل عليه قوله تعالى :**(مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا]** (الأنعام: 160

وهذا أقل ما وُعِدَ به من التضعيف، وقد تقع المضاعفة إلى ما شاء الله تعالى، **كما قال في الحديث: "إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة".**

كما في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: 261] فدلت هذه الآية على أن النفقة في سبيل الله تُضاعَف بسبعمائة ضعف.

والضعف: بكسر الضاد، يعني المثل، واستُعْمِل في المثل وما زاد عليه، وذلك بحسب إخلاص النية وصدقها.

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، حديث رقم 2325)، وأحمد في المسند (حديث رقم 18031)، من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (رقم 16).

وفي حديث أبي مسعود قال: جاء رجل بناقة مخطومة[1]، فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: "لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة"[2]

وهذا الثواب عام في جميع الطاعات الواجبة أو المندوبة.

(إلى أضعافٍ كثيرةٍ) بحسب الزيادة في الإخلاص والصدق فيه، وبحسب فضل العمل وقوة العزيمة وحضور القلب وتعدي النفع؛ كالصدقة والعلم والسنة الحسنة، ونحو ذلك.

وإنما أُبهم التضعيف؛ لأنَّ ذكر المبهم في مقام الترغيب والترهيب أقوى في الحث.

وهناكَ أعمالٌ يتضاعف أجره أضعافا كثيرة :

مثل الصوم:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم :" قال اللهُ: كلُّ عملِ ابنِ آدمَ لهُ إلا الصيامَ ، فإنَّه لي وأنا أُجْزي بهِ,والصيامُ جُنَّةٌ ، وإذا كان يومُ صومِ أحدِكُم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ ، فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتَلَهُ فلْيقلْ : إنِّي امْرُؤٌ صائمٌ ,والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لَخَلوفِ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ من ريح المسكِ ، للصائمِ فَرْحتانِ يفرَحُهُما إذا أَفطرَ فَرِحَ ، وإذا لقي ربَّه فَرِحَ بصومِهِ " وفي بعض ألفاظ مسلم: (كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي)[3]

والمراد بقوله: (وأنا أجزى به) أني أنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته؛ فالأعمال قد كشفت مقادير ثوابها للناس وأنها تتضاعف من عشرة إلى سبعمائة إلى ما شاء الله؛ إلا الصيام فإن الله يثيب عليه بغير تقدير.

ويشهد لهذا رواية مسلم المذكورة **(كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَةَ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إلا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ)** أي أجازي عليه جزاء كثيرا من غير تعيين لمقداره.

---

[1] مخطومة يعني: عليها خِطام. والخِطام هو الحبل أو الزمام الذي يُجعل في رأس البعير أو الناقة ليُقاد به؛ فمعنى الحديث :جاء رجل بناقة مجهّزة ومربوطة بخطامها، صالحة لأن تُقاد وتُستعمل في سبيل الله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: سيكون لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة، كلها مخطومة؛ أي كلها كاملة مهيأة بقيادها وخطامها .

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها، حديث رقم 1892)

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شُتم، حديث رقم 1904)، ومسلم في صحيحه (كتاب الصيام، باب فضل الصيام، حديث رقم 1151)

فإذا تولى الكريم سبحانه وتعالى الجزاء والهدية والعطية، فاعلم أنها لا منتهى لها.

دعاءُ السُّوقِ:

قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَن دَخَلَ السُّوقَ فقالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفَ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفَ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفَ دَرَجَةٍ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)[1]

الصدقة:

دَلَّ عليهِ قولُهُ تَعَالَى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: 261]. فَدَلَّتْ هذهِ الآيَةُ على أنَّ النفقةَ في سبيلِ اللَّهِ تُضَاعَفُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ .

والحديث السابق: جَاءَ رَجُلٌ بنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فَقَالَ: يا رسولَ اللَّهِ، هذهِ في سبيلِ اللَّهِ، فقالَ: (لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ)[2]
وهذا كله يدل على أن العدد المذكور العشرة والسبعمائة ليس للتحديد؛ لورود التضعيف بما هو أكثر من ذلك.

ومضاعفة ثواب الحسنات تكون بأمور، منها:

الأول: باعتبار الزمان:

مثاله: العشر الأول من ذي الحجة:

لحديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما العمل في أيام أفضل منها في هذه)، قالوا: ولا الجهاد؟ قال: (ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء)[3]

ومن ذلك قوله تعالى :(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) [القدر: 3]

الثاني: باعتبار المكان:

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا دخل السوق، حديث رقم 3428) وقال الترمذي: حديث غريب، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وذكر له بعض أهل العلم طرقًا وشواهد، وزاد في بعض الروايات: (وبنى له بيتًا في الجنة)، وقد اختلف أهل الحديث في تصحيحه وتضعيفه؛ فضعفه جماعة بسبب اضطراب أسانيده والكلام في بعض رواته، وحسنه الألباني فقال عن حديث دعاء السوق: (حديث حسن ثابت بطرقه)، وحكم عليه في بعض كتبه بالحسن لغيره.

[2] سبق تخريجه

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، حديث رقم 969)

ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام.)[1]

الثالث: باعتبار العمل:

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قال: (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[2]

فالعمل الواجب أفضل من التطوع.

كذلك كلما كانت الحاجة إلى العمل أكبر وكان نفعه وتعدي ذلك النفع للآخرين أكبر، كلما كان ثوابه أعظم.

ومن هنا كان لكل وقت فرضه وفضله المطلوب فيه، فلزم مراعاة ذلك.

الرابع: باعتبار العامل:

كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبّه خالد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه)[3]

ومعناه أن السابقين الأولين من الصحابة لهم من الفضل والسابقة ما لا يبلغه من جاء بعدهم، حتى لو عظمت نفقته وعمله، وذكر خالد رضي الله عنه في سبب الحديث لا يقدح في صحبته، وإنما خوطب بذلك لأنه تأخر إسلامه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فكان لعبد الرحمن وأمثاله من السابقين مزية السبق والنصرة.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم 1190)، ومسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، حديث رقم 1394)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم 6502)

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذًا خليلا، حديث رقم 3673)، ومسلم في صحيحه (كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، حديث رقم 2540)

الخامس: يتفاضل العمل بالإخلاص:

لأن صورة العمل قد تكون واحدة، لكن ما في القلب مختلف، فيختلف الثواب عند الله.

ويتفاضل العمل أيضًا بقوة الخشوع وحضور القلب. فقد يصلي شخصان الصلاة نفسها، لكن أحدهما حاضر القلب، خاشع، معظم لله، والآخر غافل مستعجل.
فالثواب ليس سواءً، لأن العمل لا يُوزن بكثرته فقط، بل بما قام في القلب من صدق وتعظيم، ومحبة، وخوف، ورجاء.

السادس: يتفاضل العمل أيضا بحسن إسلام العبد:

أي أن العمل الصالح إذا صدر من عبد مستقيم، صادق، بعيد عن الكبائر، حريص على طاعة الله، كان أعظم بركة وأجرًا من العمل نفسه إذا صدر من إنسان مفرّط كثير الذنوب، ضعيف الاستقامة؛ فكلما حَسُن إسلام العبد، عظمت قيمة أعماله.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تُكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تُكتب له بمثلها حتى يلقى الله) متفق عليه.[1]

فإن قيل: كيف التوفيق بين ما ذُكر من التضعيف وبين قوله تعالى) :وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ([النجم: 39]؟

فالجواب:

- أن معنى الآية: ليس له إلا ذلك عدلًا، وله أن يجازيه على الواحدة ألفًا فضلًا.
- وقيل: هذا خاص بقوم موسى وإبراهيم؛ لأنه وقع حكاية لما في صحفهما عليهما السلام، بقوله :**(أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)** [النجم: 36-37]

(وإن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً) أي أراد فعل ذنب، وسميت سيئة؛ لأنها تسوء صاحبها في الدنيا والآخرة، وتُسمى خطيئة؛ لأن شأنها ألا تقع من عاقل إلا على سبيل الخطأ.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب حسن إسلام المرء، حديث رقم 42)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، حديث رقم 129)

"فلم يعملها": أي تركها قولًا كانت أو فعلًا أو اعتقادًا لله تعالى، لا لنحو عجز عنها أو حياء أو خوف أو رياء.

وفي بعض روايات الحديث عند مسلم: "إنما تركها من جرائي"، يعني: من أجلي، فمن تركها لأجل الله والخوف منه، وترك الإقدام عليها، ورجع عن الهمّ بها؛ كان هذا الرجوع والترك عملًا صالحًا يُجازى عليه العبد بالحسنة.

فإذا تركها من أجل الخلق أو نحو ذلك؛ كأن يتركها خوفًا من المخلوقين أو رئاء لهم، فقد قيل إنه يُعاقب على تركها بهذه النية؛ لأن تقديم خوف المخلوقين على خوف الله محرم، وقصد الرياء للمخلوقين حرام.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ) سورة البقرة، الآية 284، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أُنزِلَت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير)، فلما اقترأها القوم وذلّت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى في إثرها: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...) إلى قوله: (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...) إلى آخر السورة، وفيها أن الله تعالى قال عند دعائهم: (نعم) أو في الرواية الأخرى: (قد فعلت). [1]

فبينت الآية الثانية أنَّ المراد بالآية الأولى هو العزائم المصمَّم عليها، وأنَّ ما لا طاقة لهم به، فهو غير مؤاخذ به، ولا مُكَلَّف به.

قال ابن المبارك: سألت سفيان الثوري: أيؤاخذ العبد بالهمَّة؟ قال: إذا كانت عزمًا أُوخِذ.

ورجَّح هذا القول كثير من الفقهاء والمحدثين، واستدلوا بنحو قوله تعالى : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) [البقرة: 235].

وقوله تعالى :(وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ([البقرة: 225].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، حديث رقم 125)

وقوله صلى الله عليه وسلم: "الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس".[1]

وحملوا قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل" [2]على الخطرات.

(وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدة)

ما يقع في النفس من قصد المعصية على خمس مراتب:

1. الهاجس :وهو ما يُلقى فيها.
2. الخاطر :وهو ما يجري فيها ويركن قليلًا.
3. حديث النفس :وهو ما يقع فيها من التردد في الفعل.
4. الهم :وهو ترجّح الفعل.
5. العزم :وهو قوة ذلك القصد والجزم به.

فالهاجس لا يُؤاخذ به إجماعًا، ولو كان كفرًا؛ لأنه ليس من فعله إنما هو شيء طرقه قهرًا عنه.
أما ما بعده من الخاطر وحديث النفس، وإن كان قادرًا على دفعهما، إلا أنهما مرفوعان بالحديث السابق: **وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله سبحانه وتعالى تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل"**[3]؛ لأن حديث النفس إذا ارتفع، فما قبله أولى، وهذه المراتب الثلاث لا أجر فيها في الحسنات أيضًا؛ لعدم القصد القوي.

أما الهم فقد بيَّن الحديث أنه بالحسنة يُكتب حسنة، وبالسيئة لا تُكتب سيئة، ثم يُنظر في السيئة؛ إن تركها لله تعالى، كُتبت حسنة، وإن فعلها، كُتبت سيئة واحدة من غير مضاعفة، ولا ينضم إلى عقوبة السيئة عقوبة الهم بها؛ لئلا يُعاقب عقوبتين على

---

[1] سبق تخريجه.
[2] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، حديث رقم 5269)، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، حديث رقم 127)
[3] الحديث السابق.

معصية واحدة.
وأما العزم على السيئة فقد تقدّم التفصيل فيه.

والهم بالسيئة له أحوال:

1- **الحال الأولى :**أن يهم بالسيئة، أي يعزم عليها بقلبه وليس مجرد حديث النفس، ثم يراجع نفسه فيتركها لله عز وجل، فهذا الذي يؤجر، فتكتب له حسنة كاملة؛ لأنه تركها لله ولم يعمل حتى تُكتب عليه سيئة.

2- الحال الثانية :أن يهم بالسيئة ويعزم عليها، لكن يعجز عنها بدون أن يسعى بأسبابها؛ كالرجل الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليت لي مثل مال فلان فأعمل فيه مثل عمله"، وكان فلان يسرف على نفسه في تصريف ماله، فهذا يُكتب عليه سيئة، ولكن ليس كعامل السيئة، بل يُكتب وزر نيته كما جاء في الحديث بلفظه: "فهو بنيته، فهما في الوزر سواء".

3- الحال الثالثة :أن يهم بالسيئة ويسعى في الحصول عليها، ولكن يعجز، فهذا يُكتب عليه وزر السيئة كاملًا

دليل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار". قالوا: "يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟" – أي لماذا يكون في النار – قال: "لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه"[1]، فكتب عليه عقوبة القاتل.

ومثاله: لو أن إنسانًا تهيأ ليسرق، وأتى بالسلم ليتسلق، ولكن عجز، فهذا يُكتب عليه وزر السارق؛ لأنه همّ بالسيئة وسعى بأسبابها، ولكنه عجز.

4- الحال الرابعة :أن يهم الإنسان بالسيئة، ثم يعزف عنها لا لله ولا للعجز، فهذا لا له ولا عليه، وهذا يقع كثيرًا؛ يهم الإنسان بالسيئة، ثم تطيب نفسه ويعزف عنها، فهذا لا يُثاب؛ لأنه لم يتركها لله، ولا يُعاقب؛ لأنه لم يفعل ما يوجب العقوبة.

وعلى هذا، فيكون قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: **"كتبها عنده حسنة كاملة"**، أي: إذا تركها لله عز وجل.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)، حديث رقم 31)، ومسلم في صحيحه (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، حديث رقم 2888)

قوله :"سيئة واحدة" :أي بلا مضاعفة، قال تعالى :(وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [الأنعام: 160]

هل تضاعف السيئة؟

الذي عليه جمهور العلماء أنها لا تضاعف، ولا حتى في مكة، خلافاً لمن قال من أهل العلم: إنها تضاعف في مكة؛ لأن القواطع في القرآن قائمة على أن السيئة لا تضاعف، قال الله جل وعلا: **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [الشورى:40]، {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} [الأنعام:160].**

لكن نقول من باب العلم -والعلم عند الله-: إنها قد تعظم لشرف المكان، لكنها لا تتعدد، بل تبقى سيئة واحدة، لكنها بتعبير علمي سيئة مغلظة وسيئة عظيمة؛ لشرف الزمان كالمعصية في رمضان، أو لشرف المكان كالمعصية داخل الحرم، فلا نستطيع أن نعددها؛ لأن الله يقول: **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا}** [الشورى:40]، لكن كذلك نقول: إنها تعظم لشرف المكان، أو شرف الزمان.

قال تعالى: **(وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)** [الحج: 25]

وكان جماعة من الصحابة يتقون سكنى الحرم خشية ارتكاب الذنوب فيه، منهم: ابن عمر، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو؛ وكان يقول: "الخطيئة فيه أعظم".
قال مجاهد: "تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات".
قال إسحق بن منصور: "قلت لأحمد في شيء من الحديث: هل السيئة تُكتب بأكثر من واحدة؟ قال: لا، ما سمعنا إلا في مكة لتعظيم البلد".

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله: "أما السيئات فالذي عليه المحققون من أهل العلم أنها لا تضاعف من جهة العدد، ولكن تضاعف من جهة الكيفية، أما العدد فلا؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول **:(مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)** [الأنعام: 160]، فالسيئات لا تُضاعف من جهة العدد لا في رمضان ولا في الحرم ولا في غيره، بل السيئة بواحدة دائمًا، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه.[1]

فإن قيل: قال تعالى: (وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الأنعام: 160]، وقال تعالى: (وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا) [الفرقان: 68-69]، وعقاب الكافر على الكفر لا نهاية له؛ فإن مدته تزيد على عمر الكافر، ففي ذلك مضاعفة أي مضاعفة؟

---

[1] مجموع فتاوى ومقالات متنوعة :(3/388)

فالجواب:

1- أنَّ الكافر كانت نيته الكفر ما عاش، ولو إلى ما لا نهاية.

2- التضعيف المذكور في الكيف لا في الكم كما مر.

3- التضعيف بالنظر إلى تعدد سببها، وهو الإشراك بالله، والقتل، والزنا؛ فليس العذاب على الثلاثة واحدًا، بل لكلٍّ عذاب، كما قال تعالى: **(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)** [الفرقان: 68].

فوائد من الحديث:

1. الحديث أصل عظيم في بيان سعة رحمة الله تعالى وفضله؛ إذ يضاعف الحسنات، ولا يضاعف السيئات.

2. الهمّ بالحسنة إذا لم تُعمل يُكتب حسنة كاملة، وهذا من فضل الله؛ لأن إرادة الخير سبب للخير.

3. من همّ بحسنة وعملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد تزيد بحسب الإخلاص، وفضل العمل، وحضور القلب، وتعدي النفع، وشرف الزمان والمكان.

4. من ترك السيئة لله تعالى بعد أن همّ بها، كتبها الله له حسنة كاملة؛ لأن الترك هنا عبادة ومجاهدة للنفس.

5. لا يُثاب من ترك السيئة خوفًا من الناس أو رياءً لهم، بل الثواب لمن تركها لله تعالى.

6. السيئات لا تضاعف من جهة العدد، لكنها قد تعظم من جهة الكيفية بسبب شرف الزمان أو المكان أو عظم الذنب.

7. المعصية في رمضان أو في الحرم أعظم من المعصية في غيرهما، لكنها لا تُكتب عددًا أكثر من سيئة واحدة عند جمهور العلماء.

8. من عزم على المعصية وسعى في أسبابها ثم عجز عنها، فإنه يؤاخذ بنيته وسعيه.

9. النية الصالحة قد تبلغ بصاحبها أجر العمل إذا صدق فيها وحيل بينه وبين العمل، لكن مضاعفة أجر العامل بالفعل أعظم.

10. من فضل الله أن باب الحسنات واسع جدًا؛ فالنية الصالحة تُكتب، والعمل الصالح يُضاعف، وترك السيئة لله يُكتب حسنة.

****

الحديث الثامن والثلاثون

من عادى لي ولياً

فقد آذنته بالحرب

(38) من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن عادى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ.) رواه البخاري

شرح الحديث

(مَن عادى لي وَلِيًّا) المعاداة: ضد الموالاة والمصادقة، والعدو ضد الولي. وعاداه: أي: آذاه وأغضبه وأهانه بالقول أو بالفعل، وعاداه اتخذه عدوا.

(وليا): الولي: مأخوذ من الولي بسكون اللام، وهو القرب والدنو، ومنه حديث: **"وكل مما يليك"** والولي: فعيل إما بمعنى فاعل؛ لأنه والى الله تعالى بالطاعة والتقوى من غير تخلل عصيان، وإما بمعنى مفعول: لأن الله والاه بالحفظ ومزيد الإمداد، ولم يكله إلى نفسه طرفة عين.
والولي في الاصطلاح: له معنيان عام و خاص :
فالعام: هو المؤمن؛ قال تعالى: **(الله ولي الذين امنوا)** [البقرة: 207] .
وبالمعنى الخاص: فهو المؤمن المواظب على فعل الطاعات واجتناب المنهيات، وهو الولي الكامل المذكور في قوله تعالى: **(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)** [يونس:12]

والمعنى المراد في الحديث: هو الخاص؛ أي: تحرم أذية المؤمن المواظب على فعل الطاعات واجتناب المنهيات.

وقيل: المراد من ذلك هو المعنى العام؛ أي: عموم المؤمن، فكل مؤمن تحرم أذيته بالقول أو الفعل.

ولا مانع من اعتبار المعنيين، على حسب درجات الإيذاء وأشكاله، وأحوال الأشخاص، فيدخل فيه جواز إيذاء عموم المؤمن في نحو حق، كما لا يمتنع إيذاء

خواص المؤمنين المواظبين على الطاعات واجتناب المنهيات في نحو ذلك، خاصة وأنه لا عصمة لأحد عن اقتراف بعض المزجورات وإن كان من أصلح الخلق.

(فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْب) آذنته: بالمد؛ أي: أعلمته، والإيذان: الإعلام، والأذان: الإعلام بدخول وقت الصلاة.

والمعنى: أعلمه أني محارب له، ومن حاربه الله تعالى لا يفلح أبدا، وويل لمن كان الله تعالى خصمه فهذا غاية الوعيد والتهديد؛ لأن فيه أعظم الهلاك، قال الحسن: ابن آدم هل لك بمحاربة الله من طاقة؟
وإذا كان في معاداة الولي عظيم الوعيد والتهديد والإهلاك. فليعلم أنه في موالاته عظيم الثواب، فأولياء الله تعالى تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم.

مسألة: المحاربة مفاعلة بين جانبين، فكيف تتحقق والمخلوق في أسر خالقه تعالى وفي قبضته؟
والجواب:
المقصود من المحاربة هو لازمها، وهو الإهلاك، فإن الحرب تنشأ عن العداوة، والعداوة تنشأ عن المخالفة، وغاية الحرب الهلاك، والله تعالى لا يغلبه غالب، فهذا من المجاز المرسل حيث أُطلق الحرب وأُريد لازمها.

وقد نص الله تعالى على تحريم الأمرين السابقين، واعتبر أكلة الربا وقاطعي الطريق محاربين لله تعالى لعظيم ظلمهم لعباده وسعيهم في الفساد في أرضه، فهذا كله محاربة لله، ولن تجد لمن حارب الله ناصرًا ولا معينًا، فالأرض والسماء ومن فيهما ملك لله، ولا مفرّ منه إلا إليه، ولا نجاة إلا به.

ولما ذكر أن معاداة أوليائه محاربة له؛ ذكر بعد ذلك وصف أوليائه الذين تحرم معاداتهم، وتجب موالاتهم فذكر ما يتقرب به إليه تعالى فقال :

(وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ) وما تقرب": أي: طلب القرب من رحمتي ورضاي وثوابي الجزيل، بشيء: الباء للسببية؛ أي: بسبب شيء.

أنواع القرب من الله:

قرب خاص: وهو قرب اللطف والنصر والتأييد، وهذا قرب خاصة عباده وصفوة أوليائه، و**قرب عام:** وهو قرب لسائر عباده بالعلم والقدرة.

(أَحَبَّ إِلَيَّ ممّا افْتَرَضْتُ عليه) تشمل فعل الواجبات وترك المحرمات، لأن ذلك كله من فرائض الله التي افترضها على عباده، أي: ما نال عبدي ثوابي وما حل له رضاي بمثل أداء الفرائض.

هل الفرض أفضل أم النفل؟

من كثرة كلام مشايخنا عن أحاديث الفضائل يظن البعض أن النوافل أفضل من الفرائض وهذا خطأ، لأن الفرض أفضل من النفل؛ وذلك لما ثبت من تعلق النجاة بفعل الفرائض؛ كما ورد في الحديث: **أرأيت إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئا أأدخل الجنة؟ قال: "نعم" قال: والله لا أزيد على ذلك شيئًا.)** [1]

ولأن الفرائض هي أركان الإسلام، والأمر بها جازم، فالثواب على فعلها والعقاب على تركها، بخلاف النوافل فالثواب على فعلها فقط، والفرض أفضل من النفل من حيث الثواب، فالفرض كالأصل والأساس والنفل كالفرع.

وقال عمر: "أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية فيها عند الله."

ومن أعظم الأدلة على ذلك: هذا الحديث؛ حيث قدم الفرض فيه على النفل.

فائدة: وفي قوله في الفرائض: "أحب إلى" إشارة إلى أن من غايات المولى من فرض الفرائض: فتح الطريق أمام الناس للتقرب إليه بمحبوباته، فالله ما افترض الفرائض إلا ليقرب عباده منه، ويوجب للناس رضوانه ورحمته.

(وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتّى أُحِبَّهُ)

النوافل لغة: جمع نافلة وهي الزيادة.
واصطلاحا: ما رجح الشرع فعله وجوز تركه، ولا فرق بين النوافل الظاهرة: كتلاوة القرآن والذكر، والباطنة: كالزهد والورع، والنوافل أبواب كثيرة من سائر العبادات: كالصلاة بالليل، والصدقات، والإصلاح بين الناس، وإعانة المسلمين، والتيسير على معسرهم، وهكذا، فمن أحبه الله رزقه محبته وطاعته فاستحق القرب منه جل وعلا.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، حديث رقم 15) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما،

وقوله: "وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه" ثم قوله: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه":

أفاد هذا أن أولياء الله على قسمين:

أصحاب اليمين: وهم من تقربوا إليه بأداء الفرائض، وهذا يشمل فعل الواجبات وترك المحرمات.

السابقون المقربون: وهم الذين تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات والالتفات عن دقائق المكروهات من خلال الورع الذي يحجبهم عن الشبهات.

وعلى المعنى الأول: يكون **قوله: "من عادى لي وليا"** يقصد به المؤمن المؤدي للفرائض.

ومن هنا يعلم أن طريق الولاية يمر بأداء الفرائض أولا، ثم يترقى بأداء النوافل ثانيا، ثم يصل إلى الإحسان في ذلك كله، ودعوى الولاية بغير هذين دعوى كاذبة، فأولياء الله هم الطائعون له على بصيرة واهتداء .

والطاعة يشترط فيها شرطان:

- الإخلاص.
- المتابعة: والمتابعة مفتقرة إلى العلم بالشرع وكيفية أداء العبادة على وجه صحيح.

تنبيه: علم مما تقرر أن المراد من التقرب بالنوافل: أن تقع مع أداء الفرائض، لا مع الإخلال بالفرائض؛ فمن أقام النفل وأخل بالفرض، أو من شغله النفل عن الفرض فهو مغرور، ومن أقام الفرض وأخل بالنفل فهو معذور.

قال سلمان: الذي يكثر الفضائل، ولا يكمل الفرائض كمثل تاجر خسر رأس ماله، وهو يطلب الربح.

وقال الغزالي رحمه الله تعالى: (المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة.)

فالفرض هو الأساس والأصل، والنفل هو الفرع وباقي البناء، ولهذا تقدم الأصل في الذكر على الفرع.

قوله: "حتى أحبه":"حتى": إما أن تكون للغاية فهي بمعنى **" إلى أن أحبه".**
وإما أن تكون للتعليل فهي بمعنى **"كي أحبه".** والمراد أعلى درجات المحبة وأرفعها لا أصلها؛ لأن حصول أصلها لا يتوقف على الاستكثار من النوافل، بل بفعل الفرائض أولا.

من ثمرات الولاية تسديد الله لوليه:

(فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به) والمعنى هنا على تقدير مضاف محذوف؛ أي: كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل سماعه، وحافظ بصره فلا ينظر إلا إلى ما يحل نظره، وهكذا.
أو أن هذا مجاز عن نصرة الله لعبده المتقرب إليه بها وتأييده وإعانته وتوليه في جميع أموره، والمجاز هنا من قبيل ذكر الملزوم وإرادة اللازم.

(وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها) فالله يسدد هذا العبد في سمعه وبصره ويده ورجله، فيوفق العبد فلا يسمع إلا ما أذن الشرع بسماعه، ولا يبصر إلا ما أذن الشرع بإبصاره، ولا يمد يده إلى شيء لم يأذن الشرع به، ولا يسعى برجله إلا إلى ما أذن الشرع فيه.

والمعنى أن من اجتهد بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض، ثم بالنوافل؛ قربه إليه، ورفعه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيعبد الله تعالى على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله تعالى، ومحبته، وعظمته، وخوفه، ومهابته، وإجلاله، والأنس به، والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا له بعين البصيرة، فيسدده الله في سمعه وبصره ويده ورجله، ويكون المعنى أن يوفق هذا الإنسان فيما يسمع ويبصر ويمشي ويبطش.
ومعنى ذلك أنه لا يسمع ما لم يأذن الشرع له بسماعه، ولا يبصر ما لم يأذن الشرع له في إبصاره ، ولا يمد يده إلى شيء ما لم يأذن الشرع له في مدها إليه ، ولا يسعى برجل إلا فيما أذن الشرع في السعي إليه، ولا شك أنه إذا وصل إلى هذه المرتبة فإن الله تعالى يسدده في جميع حواسه، فلا ينظر إلا إلى ما يحب الله، ولا يستمع إلا إلى ما يحب الله، ولا يمشي إلا إلى ما يحب الله، من جلسة ذكر، أو حلقة علم، أو مكان وعظ، أو صلة رحم، أو حج أو عمرة، ونحو ذلك من أنواع المماشي التي هي في طاعة الله عز وجل، وكذلك لا يبطش إلا في مرضاة الله؛ من إزالة منكر، أو نصرة مظلوم ونحو ذلك، وكذلك يستمع إلى ما يحب الله؛ من كتابه وذكره، وسنة رسوله، وعلم شريعته ونحو ذلك، والنظر في المصحف من العبادات، وكذلك النظر في الأمانات لتمييزها لأصحابها، والنظر في كتب العلم والفقه ونحو ذلك من أنواع النظر الذي هو من العبادات.

ولا يزال هذا الحب يزيد ويقوي حتى تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيره، فلا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم.

ومن هذا المعنى قول علي: "إن كنا لنرى أن شيطان عمر ليهابه أن يأمره بالخطيئة".

استجابة الدعاء لأولياء الله:

(وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ) لأعطينه أي: ما سأل من أمور الدنيا والآخرة جلبا أو دفعا.

قوله: (ولئن استعاذني لأعيذنه): أي: طلب الإعاذة مني والحفظ مما يضره في دنياه، أو آخرته، أو يضر غيره، وحذف المستعاذ منه ليعم كل مستعاذ منه، واللام في قوله: **(لأعيذنه)** للتأكيد

وأعاده بعد قوله: " ولئن سألني" مع أن السؤال يشمل الاستعاذة: من باب ذكر الخاص بعد العام؛ اهتماما به؛ لأن الاستعاذة لدفع المضار، ولأن المقام مقام ترغيب وامتنان وهو يناسبه التفصيل .

وسنة الله مع أوليائه أن يعيذهم، وأن يحفظهم من كل مكروه، وأن يجيب دعاءهم، ويحقق سؤالهم، وهذا واقع بكثرة في السلف والخلف من أولياء الله تعالى، حتى كان علامة أولياء الله تعالى إجابة الدعاء، وإبرارهم في أيمانهم.

أمثلة لأولياء الله من مستجابي الدعاء:

1- في الصحيحين" أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية جارية، فعرضوا عليهم الأرش(التعويض)، فأبوا، فطلبوا منهم العفو فأبوا، فقضى بينهم رسول الله بالقصاص، فقال: أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع؟ والذي بعثك بالحق لا تخسر ثنيتها، فرضي القوم وأخذوا الأرش. فقال: " إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره "[1]

2- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(كم من ضعيف متضعف ذي طمرين، لو أقسم على الله لأبر قسمه، منهم البراء بن مالك) وكان البراء بن مالك في زحف أمام المشركين فقيل له: أقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك رب لما منحتنا أكتافهم، فمنحهم أكتافهم، ثم

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع، منها :كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، حديث رقم 2703، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، حديث رقم 1675

التقوا مرة أخرى فقالوا: أقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، وألحقتني بنبيك فمنحوا أكتافهم، وقتل البراء.[1]

3- وعن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه سعد رضي الله عنه، أن عبد الله بن جحش قال له يوم أُحد: ألا ندعو الله؟ فخلا كلٌّ منهما ناحية، فدعا سعد، ثم دعا عبد الله بن جحش فقال :يا رب، إذا لقيت العدو غدًا فلقني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حَرَدُه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت: يا عبد الله، من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد :فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط..[2]
شديدًا حَرَدُه أي شديد غضبه وغيظه، وفيجدع أنفي وأذني، أي يقطعهما.

4- وكان سعد بن أبي وقاص مجاب الدعوة، دعا على رجل كان قد طعن فيه بالباطل، فقال: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبا قام رباء وسمعة فأطل عمره وأطل فقره وعرضه للفتن، وكان بعد ذلك إذا سئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد، قال عبد الملك بن عمير: فأنا رأيته قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن.[3]

5- وكان سعيد بن زيد مجاب الدعوة، فقد دعا على امرأة ادعت عليه أنه أخذ شيئا من أرضها، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فاعم بصرها واقتلها في أرضها، فما ماتت حتى ذهب بصرها وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت. متفق عليه، وفي رواية لمسلم عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بمعناه، وأنه رآها عمياء تلتمس الجدر تقول: أصابتني دعوة سعيد، وأنها مرت على بئر في الدار التي خاصمته فيها فوقعت فيها وكانت قبرها.[4]

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر شهادة البراء بن مالك، وقال الحاكم عقبها :هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة البراء بن مالك رضي الله عنه.

(2) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (108/1)

(3) أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع، منها كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، حديث رقم 755 أو 756 بحسب اختلاف الترقيم، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة، باب القراءة في الظهر والعصر، حديث رقم 453.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، ضمن حديث) :من ظلم من الأرض شيئًا طُوِّقه من سبع أرضين(، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، حديث رقم 1610

6- ومنهم من كانوا لا يسألون الله الدنيا، وكانوا كثيرا ما يصبرون على البلاء، مثل سعد بن أبي وقاص لما عمي بصره في آخر عمره قيل له: لو دعوت الله لبصرك؟ فقال: قضاء الله أحب إليّ من بصري.

مسألة: فإن قيل: إن كثيرا من العباد والصلحاء سألوا ولم يعطوا؟ واستعاذوا ولم يعاذوا؟ فكيف بقوله: "ولئن سألني..." إلخ؟

فالجواب عن ذلك من وجوه:

1- ربما دعا المؤمن مجاب الدعوة بما يعلم الله الخيرة له في غيره فلا يجيبه إلى سؤاله، ويعوضه عنه ما هو خير له، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

2- **أن قوله: "ولئن سألني لأعطينه..."** خبر كبقية الأخبار مقيد في الوقوع بمشيئة الله تعالى. قال جل وعلا: **"فيكشف ما تدعون إليه إن شاء "** [الأنعام:41]، **ومثل هذا قول النبي سألت ربي ثلاثًا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة؛ سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث ثوبان رضي الله عنه بمعناه، وفيه :وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم... وسألته ألا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها).**[1]

3- وقد يكون السبب في عدم إجابة الدعاء: وجود موانع أو فقد شرط من شروط إجابة الدعاء.

4- والإجابة تتنوع، فتارة تقع بعين المطلوب على الفور، وتارة بعينه على التراخي؛ لحكمة فيه، وتارة تقع بغيره حيث لا يكون في المطلوب مصلحة ناجزة، وفي الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منها.

(وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ) سميت كراهته تعالى أذى المؤمن ومساءته ترددا في حق قبض عبده المؤمن، ولا يلزم من ذلك أن يكون الله جاهلا بعواقب الأمور-حاشاه تبارك وتعالى- كما هو سبب ترددنا في كثير من الأحيان تعالى الله عن ذلك، وما وصف الله به نفسه حق لكن لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم 2890

ولما كان موت المؤمن مرادا لله تعالى من وجه ومكروها له من وجه كان ذلك ترددا فإن حقيقة التردد أن يكون الشيء الواحد مرادا من وجه مكروها من وجه وإن كان لابد من ترجح أحد الجانبين، كما ترجح إرادة الموت لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته.[1]

فوائد من الحديث:

1. هذا الحديث أصل عظيم في بيان منزلة أولياء الله، وخطورة معاداتهم أو إيذائهم بالقول أو الفعل.
2. الولي هو المؤمن المواظب على الطاعة، المجتنب للمعصية، الملازم للتقوى.
3. معاداة أولياء الله من أعظم أسباب الخذلان والهلاك؛ لأن الله تعالى أعلن الحرب على من عاداهم.
4. قوله :**(فقد آذنته بالحرب)** يدل على شدة الوعيد، وأن من خاصمه الله فلا ناصر له ولا معين.
5. موالاة أولياء الله واجبة، ومعاداتهم محرمة، كما أن معاداة أعداء الله مشروعة بقدرها الشرعي.
6. طريق الولاية ليس بالدعوى ولا بالخوارق، بل يبدأ بالإيمان، ثم أداء الفرائض، ثم الترقي في النوافل.
7. أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله هو أداء الفرائض؛ والفرائض تشمل فعل الواجبات وترك المحرمات، فترك الحرام عبادة عظيمة كفعل الواجب.
8. من الخطأ الانشغال بالنوافل مع التقصير في الفرائض؛ فالفرض أصل، والنفل فرع وتكميل.

---

[1] انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (18/ 131،130).

9.من أقام النفل وأخل بالفرض فهو مغرور، ومن حافظ على الفرض وقصّر في بعض النفل فهو معذور من حيث الأصل.

10.النوافل سبب لزيادة محبة الله للعبد بعد قيامه بالفرائض.

11.من ثمرات الولاية أن يوفق الله العبد في أقواله وأفعاله وحركاته، وانقادت جوارحه للطاعة، وضعفت دواعي المعصية.

12.من علامات ولاية الله إجابة الدعاء، لكن ذلك يكون وفق حكمة الله ومشيئته، لا وفق رغبة العبد المجردة.

13.إجابة الدعاء قد تكون بإعطاء عين المطلوب، أو تأخيره، أو صرف سوء، أو ادخار خير أعظم في الآخرة.

14.عدم حصول المطلوب لا يعني رد الدعاء؛ فقد يعلم الله أن الخير في غير ما سأل العبد.

****

الحديث التاسع والثلاثون

إن الله تجاوز

لي عن أمتي

39- إن الله تجاوز لي عن أمتي

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

(إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) حديث حسن، رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما.[1]

شرح الحديث

من رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن عفا عن إثم الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه، **فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** [الحج: 78].

والمؤاخذة على الأفعال مشروطة بقصدها، وفي هذا الحديث فضل لهذه الأمة على سواها من الأمم، وفضل لنبينا على غيره من النبيين.

(إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي) وفي بعض الروايات: **"وضع"**، والمعنى: عفا، أو رفع .

(عَنْ أُمَّتِي) أي لأجل كرامتي عليه، وزيادةً في اعتنائه "عن أمتي": أي دون الأمم السابقة، فكانوا يُؤاخذون بالخطأ والنسيان والإكراه.

والمقصود أن الله تجاوز لي عن أمتي إثم أو عقاب أو حكم الخطأ أو النسيان أو ما استكرهوا عليه.

ورفع الإثم في الآخرة لا يعني رفع الحكم في الدنيا كضمان المتلفات، كما لا يمنع بقاء ذات الخطأ والنسيان والاستكراه

(الْخَطَأَ) الخطأ في اللغة يُطلق على معانٍ:

1- ضد الصواب، وليس مرادًا هنا.

2- ضد العمد؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾ [النساء: 92]. وهذا هو المعنى المقصود في الحديث.

3- كما يُطلق الخطأ على الذنب أيضًا؛ كما في **كلام إخوة يوسف: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 97]، وقولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 91].**

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، حديث رقم 2045) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.

وقيل: الخاطئ مَن فعل ما لا ينبغي، والمخطئ مَن أراد الصواب فصار إلى غيره.
وقيل: خَطِئ وأَخْطَأَ كلاهما بمعنى واحد.
ويمتنع أن يكون المراد من الحديث المعنى الثالث؛ لأن معناه إسقاط الشريعة ورفع التكليف، وهو مخالف لكثير من النصوص ويؤدي إلى الاستهتار بالشرع ونصوصه.
معنى الخطأ اصطلاحًا هو الزلل عن الحق عن غير تعمد.
والخطأ من عوارض الأهلية المكتسبة؛ لأنه لا يخل بأسس الأهلية وقواعدها، وهي الحياة والعقل والتمييز.

أقسام الخطأ:

1- **خطأ في الفعل:** وهو أن يقع من المكلَّف فعل لم يكن قاصدًا إليه أصلاً.

ومن أمثلته: ما لو رمى شيئًا فأصاب إنسانًا أو حيوانًا، أو كما لو حفر حفرة بإذن ولي الأمر لغرض مشروع فسقط فيها إنسان.

2- **خطأ في القصد:** وهو أن يقصد إلى الفعل فيخطئ في محله، كمن رمى إنسانًا يظنه طيرًا، أو يقصد إلى هدف يحسبه مرميً فظهر إنسانًا.

3- **خطأ في التقدير:** كما في حالة الأطباء حين يبذلون أقصى الجهد في التعرف على الداء وعلاجه، فيقع الخطأ الذي ينشأ عنه الضرر، أو يؤدي إلى قطع عضو أو طرف لا حاجة إلى قطعه، والخطأ الفاحش في التقدير يكون معه إهمال.

أثر الخطأ على حقوق الله والعباد

فيما يتعلق بحقوق الله:
فالأصل أنه لا مُؤَاخَذَة؛ للآية والحديث. **وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ، وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5].**

أما في حق العباد فعلى أحوال:

الأول: ما يعتبر فيه الخطأ سببًا في التخفيف: كما لو قتل غيره خطأً، فتجب الدية على عاقلته في ثلاث سنين، أي إذا قتل شخصٌ غيره خطأً، فإن الدية لا يدفعها القاتل وحده من ماله، بل تتحملها عاقلته.

والعاقلة هم: عصبة الرجل من جهة أبيه، كالأبناء، والإخوة، والأعمام، وأبناء الأعمام، ونحوهم من قرابته الذكور، وسُمّوا عاقلة لأنهم كانوا يعقلون الإبل، أي يجمعونها ويدفعونها ديةً عن قريبهم.

مثال:
رجل يقود سيارة فأخطأ بغير قصد، فصدم إنسانًا فمات. هذا قتل خطأ. هنا تجب الكفارة (صيام شهرين متتابعين) على القاتل نفسه، وتجب الدية لأهل المقتول، لكن الدية في الأصل تكون على العاقلة، لا على القاتل وحده.

والفرق بين القتل العمد والخطأ:

1 .العمد: الدية أو القصاص على الجاني نفسه، ولا تتحملها العاقلة.

2 .الخطأ: الدية على العاقلة، والكفارة على القاتل نفسه.

الثاني: ما لا يعتبر فيه الخطأ عذرًا :كما لو أخذ مال غيره يظنه ماله.

(وَالنِّسْيَانَ) النسيان لغةً: بكسر النون ضد الذكر والحفظ.

1.عدم استحضار الشيء وقت الحاجة إليه.

2.وقد يُطلق على الترك؛ ومنه: ﴿**وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ [البقرة: 237].

وعليه، يكون النسيان في قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ [البقرة: 286]؛ أي تركنا شيئًا من طاعتك عن غفلة منا .

والأصل أن النسيان عذر يرفع الإثم والمؤاخذة بالنسبة لحق الله تعالى للآية والحديث، وذلك لأن مناط العقوبة هو القصد، وهو غير متحقق في الناسي، تيسيرًا من الله تعالى على عباده ورفعًا للحرج والمشقة عنهم بالنسبة لأعمال الآخرة، قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: 185]، وقال: ﴿**يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ**﴾ [النساء: 28].

أثر النسيان على الأحكام المتعلقة بحقوق العباد

الأصل أن النسيان لا يُعتبر عذرًا شرعيًا فيما يتعلق بحقوق العباد فإذا نسي الإنسان ديناً عليه لأخيه، أو نسي أمانةً استودعها إياه، فبمجرد تذكره **يجب عليه رد الحق فوراً**.

الفرق بين الجاهل والمخطئ والناسي

الجاهل: من لم يعلم الحكم الشرعي أو غاب عنه.

المخطئ: من علم الحكم لكنه ارتكب الخطأ عن غير قصد.

الناسي: من غاب عنه الفعل أو نسي الحكم الشرعي وقت القيام به.

في أفعال الجاهل والناسي

من يرى أن جميع المحرمات في العبادات وغير العبادات، إذا فعلها الإنسان جاهلًا أو ناسيًا أو مكرَهًا، فلا شيء عليه فيما يتعلق بحق الله.
أما حق الآدمي فلا يُعفي عنه من حيث الضمان، وإن كان يُعفي عنه من حيث الإثم.
فجميع المحرمات يرفع حكمها بهذه الأعذار، أما المأمورات فإنها لا تسقط أداؤها أو قضاؤها ويُعفي فقط عن الإثم في تأخيرها بعذر.
أمثلة على ذلك

الصلاة: رجل تكلم في الصلاة يظن أن الكلام جائز، فلا تبطل صلاته؛ لأنه جاهل، وقد ثبت في حديث معاوية بن الحكم – رضي الله عنه – أنه تكلم في الصلاة، ولم يأمره النبي ﷺ بالإعادة.

الصيام: لو أكل الصائم يظن أن الشمس قد غربت، ثم تبين أنها لم تغرب، فلا يُؤمر بالقضاء، كما ثبت عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنها – أنهم أفطروا في يوم غيم ثم طلعت الشمس، ولم يؤمروا بالقضاء.

(وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) "ما" هنا تعم القول والفعل، إلا أنه يباح عند الجمهور (مالك والشافعي وأحمد) لمن أُكره على أي قول أن يقوله؛ لأنه إذا رُخص في كلمة الكفر، فما دونه من باب أولى.
وأما في الأفعال، ففيها خلاف وتفصيل، وعند الجمهور أنه فيما دون القتل والزنا يجوز للمكره الفعل، وأما القتل فلا يجوز بأي حال من الأحوال، وكذلك لا يجوز عند الحنابلة أن يزني الرجل لو أُكره على ذلك بأي حال من الأحوال.
وقال ابن العربي: الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حد عليه خلافًا لمن ألزمه بذلك.

ومعنى "اسْتَكْرِهُوا": أي حُمِلُوا عليه قهرًا بإكراه أو إلجاء.
والإكراه لغة: حمل الغير على ما لا يرضاه.
والمُكروه: ما يكرهه الإنسان ويشق عليه ويُجمَعُ على مكاره.
والكُره ضد الحب، وكَرِهَ الشيء: كُرهًا وكراهة وكراهية.

الإكراه اصطلاحًا :حمل الغير على أمر يكرهه ولا يريد مباشرته بالوعيد الشديد، وهذا يشمل الإكراه على الأقوال والأفعال، ولا يُتصور الإكراه على شيء من أفعال القلوب.

شروط الإكراه وأركانه

ومن التعريف يمكن استفادة شروط الإكراه المعتبر وأركانه التي يتحقق شرعًا بها:

1. أن يكون المكرِه قادرًا على تحقيق ما هدد به، إما بولاية، أو تغلّب، أو فرط هجوم، فإن لم يكن قادرًا لم يتحقق الإكراه.
2. أن يكون المُكرَه عاجزًا عن أن يدفع عن نفسه بالهرب أو الاستغاثة أو المقاومة.
3. أن يكون التهديد بأمر يتضمن إتلاف نفس أو عضو أو بما دون ذلك كالحبس أو القيد.

وإذا ظهر من المُكرَه ما يدل على رضاه بما يُكره عليه، ووجدت رغبة لديه فيه، فإنه يصح منه ما يوقعه من العقود وغيرها، ولا يُعتد بالإكراه ولو كان قائمًا، لصحة قصده لما يصدر عنه من تصرف.

أقسام الإكراه

أ. إكراه بحق: كالحاكم يُكره الغاصب على ردّ ما اغتصبه، أو يُكره المدين الموسر على سداد دينه، فهذا الإكراه لا يرفع الحكم عن المكلف، بل يكون الفعل من المكلف معتبرًا شرعًا.

ب – الإكراه بغير حق

هذا محل الخلاف بين العلماء، ولهم في ذلك تفاصيل:

أولًا: باعتبار الفعل المهدد به من قتل أو إتلاف عضو أو دون ذلك.

ثانيًا: باعتبار المكرَه عليه من قتل أو زنا أو دون ذلك.

وقد ذهبوا إلى أن الإكراه على القتل لا يحصل إلا بالتهديد به، أما إذا كان الإكراه

على ما دون القتل، كشرب خمر أو إتلاف مال مسلم أو ترك واجب كالصلاة ونحوها؛ فقد اختلفوا في حصول الإكراه في هذه الحالات.

وسائل الإكراه:

واختلف العلماء في وسائل الإكراه كما يلي:

1. الإكراه لا يحصل إلا بالقتل فقط؛ فإن كان بما دونه فلا يُعتد به.
2. يحصل الإكراه بالقتل وبقطع الأعضاء أو الضرب الذي يُخاف معه الهلاك.
3. يتحقق الإكراه بما يسلب الاختيار ويجعل المكرَه كالهارب من الأسد يدخل في النار ولا يبالي، ويمشي على الشوك ولا يدري.
4. يحصل الإكراه بعقوبة بدنية تتعلق بها القصاص كقطع أو جرح.
5. يحصل بعقوبة بدنية شديدة كالحبس الطويل، لا مجرد الحبس أو الحبس المطلق.
6. يحصل الإكراه بما ذُكر جميعًا، أو بأخذ مال المكرَه أو إتلافه.

وهذا يختلف باختلاف الأشخاص والأفعال المكرَه عليها، والشيء الذي يُخوَّف به. فالإكراه على الطلاق، مثلًا، يحصل بالتخويف بالقتل وقطع العضو والحبس الطويل والضرب الكثير أو المتوسط لمن لا يحتمله ولم يُعَدَّ له.
وكذلك يحصل الإكراه بالتخويف بالصفع والإهانة لذوي المروءات في الملأ، وتشويه الوجه، ونحو ذلك، كما يحصل بقتل الوالد وإن علا، والولد وإن سفل على الصحيح.
أما بالنسبة للإكراه على القتل، فإن التخويف بالحبس أو قتل الولد لا يُعتبر إكراهًا، بينما يُعتبر كل ما ذُكر إكراهًا فيما يتعلق بإتلاف المال.

حكم عقود المكرَه وفسوخه وأيمانه

الطلاق، والخلع، والبيع، والحلف، وسائر الأقوال يُتصوّر فيها الإكراه. سواء في العقود كالبيع والنكاح، أو الفسوخ كالخلع والطلاق، وكذلك الأيمان والنذور.
فإذا تحقق الإكراه بشروطه، وانتفت موانعه، فلا يترتب عليه حكم من الأحكام في الدنيا ولا يُؤاخذ به في الآخرة. وهذا رأي جمهور العلماء، كمالك والشافعي وأحمد.

وقد ورد عن ابن عباس قوله فيمن يُكرهه اللصوص فيطلق: "ليس بشيء". ورُوي نحوه عن ابن عمر وغيره من الصحابة، وبه قال الشعبي والحسن.

وقال أبو حنيفة: "طلاق المكرَه يلزم"؛ لأنه يفتقد الرضا فقط، وليس وجود الرضا شرطًا في الطلاق كالهازل. بينما قال القرطبي إن هذا قياس باطل، فالهازل قاصد للإيقاع بخلاف المكرَه.

فوائد الحديث

1. الحديث يدل على سعة رحمة الله تعالى بهذه الأمة، إذ رفع عنها الإثم في الخطأ والنسيان والإكراه.
2. قول النبي ﷺ: **تجاوز لي** يدل على كرامة النبي ﷺ عند ربه، وفضل أمته بسبب شفاعته ومكانته.
3. رفع الإثم لا يعني سقوط حقوق العباد؛ فمن أتلف مال غيره خطأً أو نسيانًا وجب عليه الضمان.
4. في حقوق الله الأصل أن الخطأ يرفع الإثم، وفي حقوق العباد لا يكفي رفع الإثم، بل يبقى الضمان المالي أو رد الحق.
5. النسيان عذر يرفع الإثم في حقوق الله تعالى؛ لكنه لا يسقط حقوق العباد؛ فمن نسي دينًا أو أمانة وجب عليه الأداء عند التذكر.
6. الإكراه عذر شرعي إذا تحققت شروطه، لأنه يسلب الاختيار أو يضعفه بشدة.
7. ليس كل تهديد يُعد إكراهًا؛ بل لا بد أن يكون المكرِه قادرًا، والمكرَه عاجزًا عن الدفع، والضرر المهدد به معتبرًا.
8. جمهور العلماء يرون أن تصرفات المكره لا يترتب عليها حكم إذا تحقق الإكراه بشروطه.

****

الحديث الأربعون

كُنْ فِي الدُّنْيَا

كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أو عابر سبيل

(40) كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمنْكبيَّ فَقَالَ: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ) وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُوْلُ: (إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ. وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لمَوْتِكَ..) رواه البخاري[1].

شرح الحديث

الحديث يدور حول التخفف من الدنيا وترك الانشغال بها عن الآخرة، وتقصير الأمل فيما فيها، والحث على طلب الصالحات والتحذير من تسويف التوبة، واغتنام الأوقات في طاعة الله.

(أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمنْكبيَّ) أي تناوله بيده وقبض عليه، والمنكب :مجمع الذراع والكتف، وقد روى بمنكبي بالإفراد دون التثنية.

ويُستفاد من هذا جواز – بل استحباب – إمساك المعلّم بمنكب المتعلم أو يده أو نحو ذلك منه، وذلك لما فيه من الأمور التالية:

- استحضار قلبه وتنبيهه وتذكيره.
- وليكون أبعد عن النسيان، إذ العادة غالبًا ألا ينسى من فُعل ذلك معه.
- أن فيه مؤانسة لقلب المتعلم، وإشعارًا بالمحبة والشفقة نحوه.

ولهذا أمثلة في الأحاديث والآثار، ومنها:

1- عند نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم لأول مرة، قال له جبريل عليه السلام: اقرأ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بقارئ"، فغطّه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله...)[2]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، حديث رقم 6416

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 3، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 160

2- حديث جبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم حين أسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه.

3- فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع ابن مسعود رضي الله عنه في تعليم التحيات، حيث قال ابن مسعود: "علّمني رسول الله التشهد وكفّي بين كفّيه" وفي هذا دليل على محبته لابن مسعود[1].

4- وفي حديث الباب دليل على محبته لابن عمر رضي الله عنهما أيضًا، والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قبض على كتفيه تنبيهًا له على ما سيقول له وإيناسًا له، وتبسطًا معه.

فَقَالَ: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ) أي متشبهاً بالغريب، أي: لا تركن إلى الدنيا، ولا تطمئن فيها، ولا تتعلق بها؛ لأنك على جناح السفر منها إلى وطن إقامتك، وهو كالغريب الذي لا يستقر في دار الغربة، ولا يسكن إليها، ويظل مشتاقاً إلى وطنه.

وجه الشبه بينه وبين الغريب:

أن الغريب مستوحش في دار الغربة، لا يجد من يأنس به، ولا مقصد له إلا الخروج من غربته إلى وطنه، من غير أن ينافس أحدًا من أهل غربته؛ وكذلك المؤمن في الدنيا.

(أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ) أي: غريب يمر بطريق لحاجته.

"أو" هنا ليست للشك؛ بل تفيد :العطف بمعنى "بل"، وقيل: تفيد التخيير، وهذا محتمل، والأصح الأول؛ فهي هنا من باب عطف الخاص على العام بمعنى "بل".

والمعنى: كن في الدنيا كغريب، بل كعابر سبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة، بخلاف عابر السبيل، فإن من شأنه ألا يقيم ولا يتخذ سكنا، وكذلك المؤمن في الدنيا.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: (ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها) [2]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، حديث رقم 831، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم 402

[2] أخرجه الترمذي في سننه كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، حديث رقم 2377، وقال الترمذي :حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

هكذا كانوا غرباء في الدنيا:

1- عن أبي هريرة قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصُّفَّةِ، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته) [1]

2- وعنه أيضًا: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" [2]

3- وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: "والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهِلَّة في شهرين، وما أُوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار" فقلت: يا خالة! فما كان يُعيشُكُم؟ قالت: "الأسودان؛ التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يرسلون إلى رسول الله من ألبانها فيسقينا"[3]

(وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُوْلُ: (إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ) جاء بكلام ابن عمر عقب الحديث: لأن قول ابن عمر أصرح في بيان المعنى المراد من سياق الحديث، فهو كالتفسير والتتميم للمعنى المذكور في الحديث.

أي إذا دخلت في المساء فلا تحدّث نفسك بالبقاء إلى الصباح، وكذا إذا دخلت في الصباح فلا تنتظر المساء، بل انتظر الموت على كل حال، واجعله نصب عينيك؛ فإن من قصر أمله زهد، ومن طال أمله طمع ورغب، وترك الطاعة، وتكاسل عن التوبة، وقسا قلبه لنسيانه الآخرة.

(وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ) فمن كان محافظًا على وردٍ معين من الأعمال الصالحات، أو كان مستمرًا على فعل من صلاة أو صدقة أو صيام ثم عرض له ما يمنعه من عمله هذا، كُتب له أجره، كما لو كان عاملاً، وكان حاله في هذا العارض صدقة من الله سبحانه وتعالى على عبده.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب نوم الرجال في المسجد، حديث رقم 431.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم 2956.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب فضل المنيحة، حديث رقم 2567، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم 2972

وقد ورد هذا المعنى في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا." [1]

(وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) أي اغتنم ما ترجو نفعه بعد موتك ما دمت حيًا، فإن الإنسان إذا مات انقطع عمله، واعلم أنه سيأتي عليك زمان طويل وأنت تحت الأرض، لا يمكنك أن تتقرب فيه بشيء إلى مولاك.

والمؤمن مكلّف أن يعمل في الدنيا بطاعة الله تعالى وما أمره به، والاجتهاد في ذلك؛ لأنه لا يدري أي وقت يدركه الموت.

ويؤيد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل"[2]

ومعنى الفسيلة :النخلة الصغيرة أو الغرسة الصغيرة، والمقصود من الحديث الحث على العمل النافع، وعدم ترك الخير ولو قربت النهاية.

تنبيه: وإنما ذمّ طول الأمل؛ لما فيه من معنى إيثار الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، والرضا بالدنيا الأدنى على الآخرة الأعلى، والمقصود أن تكون الدنيا في يد الإنسان لا في قلبه وعقله وتفكيره، حتى لا يستولي عليه حبها فيُفسده.

وهذا حث على الزهد في الدنيا، بجانب الحثّ على إصلاح المال، واتخاذ أسباب الكسب، والإنفاق على النفس ومن تعول.

فالمراد من ذلك كله: قطع العلائق التي تحول بين المرء وبين إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وتفريغ القلب من كل شائبة تشغل بغير الله سبحانه وتعالى، وليس المقصود التفريط في جانب على حساب جانب آخر من الأوامر والنواهي.

أو كما قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا".

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب يُكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، حديث رقم 2996

[2] أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب اصطناع المال، حديث رقم 479، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم 9، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه كذلك في صحيح الأدب المفرد .

فوائد الحديث

1. الحديث أصل عظيم في الزهد في الدنيا، وقصر الأمل، والاستعداد للآخرة.
2. وصية النبي ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما تدل على عنايته التربوية الخاصة بأصحابه، وحسن تعليمه لهم.
3. أخذ النبي ﷺ بمنكب ابن عمر فيه لطف ومؤانسة، وتنبيه للمتعلم ليستحضر قلبه ويعي الكلام.
4. الغريب لا يستقر قلبه في دار الغربة، بل يظل مشتاقًا إلى وطنه، وكذلك المؤمن وطنه الحقيقي الآخرة.
5. المؤمن في الدنيا مسافر إلى الله، والدنيا ليست دار إقامة دائمة، بل محطة عبور.
6. الزهد المشروع ليس ترك الدنيا بالكلية، بل ألا تسكن الدنيا في القلب ولا تشغل العبد عن الآخرة.
7. قصر الأمل يعين على المبادرة إلى الطاعة، وترك التسويف، والاستعداد للموت.
8. طول الأمل يورث الغفلة، والتكاسل عن التوبة، والتعلق بالدنيا، وقسوة القلب.
9. المسلم ينبغي أن يعيش بين أمرين: يعمل لدنياه بما يحتاجه، ويستعد لآخرته كأن الموت قريب.
10. لا يدري الإنسان متى يأتيه الموت، ولذلك لا يجوز له تأخير التوبة ولا تسويف العمل الصالح.
11. الجمع بين الزهد والعمل هو المنهج الصحيح: قلب متعلق بالآخرة، ويد عاملة في الدنيا بما يرضي الله.

****

الحديث الحادي والأربعون

لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى

يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا

لِمَا جِئْتُ بِهِ

(41) لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعَاً لِمَا جِئْتُ بِهِ

عَنْ أَبِيْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ بِنِ عمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تَبَعَاً لِمَا جِئْتُ بِهِ) [1]

التعريف براوي الحديث

- هو أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي رضي الله عنهما، من كبار صحابة رسول الله ﷺ، وابن الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه.
- أسلم قبل والده، وكان من أحرص الصحابة على طلب العلم وحفظ حديث رسول الله ﷺ.
- أذن له النبي ﷺ في كتابة الحديث، فكان يكتب كل ما يسمعه منه، وجمع ذلك في صحيفة عُرفت باسم "الصحيفة الصادقة"، وهي من أوائل ما كُتب من السنة النبوية.
- روى عن النبي ﷺ 700حديث، وأخرج له أصحاب الكتب الستة.
- عُرف بكثرة العبادة والاجتهاد، فكان كثير الصيام والقيام، حتى وجهه النبي ﷺ إلى الاعتدال في العبادة، وتوفي رضي الله عنه سنة 65هـ

---

(1) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، حديث رقم 15، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 4/368، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى، حديث رقم 209، والبغوي في شرح السنة، ابن حجر العسقلاني في *فتح الباري* أشار إلى ضعف الحديث بسبب ضعف أحد رواته وهو نعيم بن حماد، وقد أعله ابن رجب في جامع العلوم والحكم، وضعفه الألباني في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم، وذكر أن في إسناده كلاما، وفي *السلسلة الضعيفة* (حديث رقم 78) حكم عليه بالضعف.
والخلاصة: الحديث ضعيف من حيث السند، ولكنه صحيح من حيث المعنى؛ إذ أن تحقيق الإيمان الكامل يتطلب أن يوافق هوى الإنسان ما جاء به النبي ﷺ من الشرع، وهذا مدعوم بنصوص أخرى من القرآن والسنة، كقوله تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} (سورة النساء: 65).فشرط التحقق بصفة الإيمان الكامل هو الخضوع لأحكام الشرع والتسليم لإرادة الله دون أدنى تردد، ومن استحسن شيئًا برأيه المجرَّد، ومالت إليه نفسه، ولو كان مخالفًا للشرع؛ فهذا يكون ناقص الإيمان، وقد ينتفي الإيمان بالكلية إن كان هواه لا يكون تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ في كل الدين.

شرح الحديث

(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ) المقصود بالإيمان هنا: الإيمان الكامل، أي لا يكون المرء مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتى تتحقق محبته التامة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي.
ومذهب أهل السنة :الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وهذا الحديث يدل على ذلك؛ إذ ربط النبي ﷺ كمال الإيمان بجعل الهوى تابعًا لما جاء به.

يتحقق ذلك من خلال: محبة ما أمر به الرسول ﷺ، وكراهية ما نهى عنه.
(حَتَّى يَكُونَ هَواهُ)"حتى": بمعنى "إلى"، أي: يستمر عدم الإيمان الكامل إلى صيرورة هواه تابعًا لما جاء به النبي ﷺ.

تعريف الهوى:
الهوى هو ميل النفس إلى مخالفة الشرع وإلى ما تدعو إليه الشهوات.
كما في قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات: 40). وقال تعالى مخاطبًا داود عليه السلام: ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (ص: 26).

هذا هو المعروف في استعمال الهوى غالبًا، وقد يأتي بمعنى الميل إلى الشيء فقط سواء كان حقا أو باطلا.
كما بقول عائشة رضي الله عنها: كنتُ أغارُ على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ قلتُ: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك) متفق عليه[1]
ومعنى قولها :ليس المقصود ذمَّ النبي ﷺ أو اتهامه باتباع الهوى المذموم، حاشاه؛ وإنما قالت ذلك عائشة رضي الله عنها بدافع الغيرة المعروفة بين الزوجات، ومعناه: ما أرى ربك إلا يوسّع عليك فيما تحبه ويختاره لك، ويقضي لك بما فيه راحتك وخصوصيتك من الأحكام، ولذلك قال أهل العلم: المراد بـ هواك هنا ما تحبه وتميل إليه مما أباحه الله لك، لا الهوى المذموم المخالف للحق

وفي قصة أسارى بدر أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمر :ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فأشار أبو بكر رضي الله عنه بأخذ الفداء، رجاء أن يهديهم الله، وأشار عمر رضي الله عنه بقتل صناديد الكفر، قال عمر :فهوِيَ رسولُ الله ﷺ ما قال أبو

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾، حديث رقم 4788، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها، حديث رقم 1464)

بكر، ولم يهوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء، ثم نزل قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 67][1]

ومعنى **"هوِيَ ما قال أبو بكر"** :أي مال إليه واختاره، وليس المراد الهوى المذموم، بل الميل والاختيار في موضع الاجتهاد قبل نزول الحكم.

وجوب تقديم الوحي على كل شيء:

لا يجوز تقديم القياس أو الاستحسان أو الرأي الشخصي على النصوص الشرعية.
إذا جاء الحكم الشرعي، فإن الواجب هو:
التصديق به، والإيمان بصحته، والاستسلام التام له، سواء وافق هوى النفس أم خالفه؛ ظهرت الحكمة والمصلحة منه أم خفيت.
(تَبَعَاً لِمَا جِئْتُ بِهِ) تابعًا لما جاءت به الشريعة، أي أن يميل قلبه تلقائيًا إلى ما تحبه الشريعة طبعًا واستسلامًا.

أهمية تقديم الدليل على الحكم:

القاعدة الشرعية: المسلم يجب أن يستدل أولًا ثم يحكم، وليس العكس.

خطورة عكس القاعدة:

الحكم قبل الاستدلال يجعل العقل هو الأصل والنصوص الشرعية تابعة له، وهذا يؤدي إلى ضلال الفكر.

الأمثلة على هذه الخطورة:

بعض العلماء أو أصحاب المذاهب يحكمون بناءً على آرائهم المسبقة، ثم يفسرون النصوص لتناسب هذا الحكم، وهذا يؤدي إلى: ليّ أعناق النصوص الشرعية، وإخراج النصوص عن سياقها الصحيح.

والواجب هو: الالتزام بالنصوص الشرعية وجعلها الأصل، واتباع الكتاب والسنة في إصدار الأحكام، مع فهم النصوص وفقًا لقواعد أهل العلم.

علامات اتباع الهوى:

1- كراهة ما جاء به النبي ﷺ

2- النفور من الأحكام الشرعية والسعي للتخلص من الأمر والنهي بشتى الحيل.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم 1763

3- تفضيل الأدنى على الأعلى في الأعمال المشروعة: كالمسارعة إلى النوافل مع التكاسل عن أداء الواجبات؛ كالإكثار من الصدقة أو الصلاة النافلة مع إهمال الصلاة المكتوبة أو أداء الزكاة الواجبة.

4- كراهة التحاكم إلى الله ورسوله: النفور من الرجوع إلى القرآن والسنة عند حدوث الخلاف.

5- الحب والبغض لغير الله :تفضيل العلاقات والمصالح الدنيوية على معايير الحب والبغض لله، ووزن الناس بميزان المصلحة الدنيوية بدلاً من معايير الدين.

الآثار السلبية لاتباع الهوى:

1- رفض الأحكام الشرعية بحجة أنها تحدّ من الحرية الشخصية.

2- إشباع النفس الأمارة بالسوء على حساب حقوق الآخرين، كأكل الأموال بالباطل، وانتهاك الحرمات.

3- معاداة أهل الحق ومعاداة الناس جميعًا.

4- من يتبع هواه يعادي أهل الحق لأنه لا يحتمل من يُذكّره بالصواب.

5- وقد يعادي كل من يشاركه الهوى نفسه، إذ تنشأ صراعات للحصول على نفس المصلحة أو الرغبة.

الفرق بين أهل الطاعة وأهل الهوى:

أهل الطاعة: قلوبهم صافية، صفوفهم متماسكة، يجتمعون على طاعة الله وحب الخير للآخرين.

أهل الهوى: قلوبهم متفرقة، صفوفهم ممزقة، يعيشون في نزاعات مستمرة بسبب تنافسهم على إشباع رغباتهم الشخصية.

أسباب الوقوع في الهوى:

1- مخالطة أهل الأهواء :فهم ينشرون شبهاتهم بين الناس، فيؤثرون على من يختلط بهم.

2- قراءة كتب أهل البدع والاستماع إلى شبهاتهم بوسائل الإعلام المغرضة التي تؤدي إلى انحراف الفكر.

3- التأثر بالعلمانيين وعلماء السوء: هؤلاء يُلبسون الباطل ثوب الحق، ويضللون الناس بحجج واهية.

فوائد الحديث:

1. كمال الإيمان لا يتحقق حتى يخضع هوى العبد لما جاء به النبي ﷺ.
2. الواجب على المسلم أن يجعل ميله ورغبته تابعة للوحي، لا أن يجعل الوحي تابعًا لرغبته.
3. لا يجوز تقديم الرأي الشخصي أو القياس أو الاستحسان على النص الشرعي الصحيح.
4. الشرع لا يعارض الهوى دائمًا؛ بل إن الهوى إذا وافق الحق فإنه محمود.
5. إذا ثبت حكم الله ورسوله، فالواجب التصديق والانقياد، سواء ظهرت الحكمة للإنسان أم خفيت.
6. من علامات صدق الإيمان أن يفرح العبد بحكم الله إذا وافق هواه أو خالفه.
7. المنهج الصحيح أن يستدل المسلم أولًا ثم يحكم، لا أن يحكم أولًا ثم يلوّي النصوص لتوافق حكمه.
8. كراهية ما جاء به النبي ﷺ علامة خطيرة من علامات اتباع الهوى.
9. من اتباع الهوى: النفور من الأحكام الشرعية ومحاولة التخلص من الأوامر والنواهي بالحيل.

10. الهوى إذا تمكن من النفس دفعها إلى أكل الحقوق، وانتهاك الحرمات، والتعدي على الآخرين.
11. صاحب الهوى يعادي أهل الحق؛ لأنهم يذكّرونه بما يخالف شهوته.
12. مخالطة أهل الأهواء من أسباب الانحراف؛ لأن شبهاتهم تنتقل إلى القلوب الضعيفة.
13. مجاهدة الهوى من أعظم أبواب تزكية النفس .
14. أهمية العلم الشرعي: لأن فهم النصوص والقواعد الشرعية ضرورة لضمان عدم الانحراف أو الوقوع في المبالغات.
15. العودة إلى العلماء الموثوقين: لأن العلم الشرعي يجب أن يُؤخذ من أهله، ممن عُرفوا بالاستقامة والمنهج الصحيح.

****

الحديث الثاني والأربعون

يا ابن آدم إنك

ما دعوتني ورجوتني

(42) يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.[1]

شرح الحديث

هذا الحديث هو خاتمة الأربعين حديثاً التي جمعها الإمام النووي رحمه الله والتي عرفت باسم **(الأربعين النووية)** وقال النووي وقد أنهى كتابه " الأذكار" بكتاب الاستغفار: "اعلم أن هذا الباب من أهم الأبواب التي يعتني بها، وتحافظ على العمل به، وقصد بتأخيره التفاؤل بأن يختم الله الكريم لنا به" وفيه إشارة إلى تغليب حسن الظن بالله تعالى في آخر العهد بالدنيا وأول العهد بالآخرة.

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله في شرح الأربعين النووية: هذا الحديث بشارة عظيمة، وحِلْمٌ وكرم عظيم، وما لا يحصى من أنواع الفضل والإحسان، والرأفة، والرحمة، والامتنان.

قوله: (يا ابن آدم)

هذا نداء عام، لم يُقصَد به فرد بعينه، بل يشمل جميع بني آدم، وهذا النداء تكرر ثلاث مرات في الحديث:

النداء الأول: للتنبيه على الرحمة الواسعة.

النداءان الآخران: لتأكيد ما فُهِم من النداء الأول وزيادة التأكيد.

ما دلالة النداء بـ "يا ابن آدم"؟

يدل على رفعة المنادى **(ابن آدم)**، لأن الله يدعوه للإقبال عليه، ولا يطلب الإقبال إلا من هو عظيم في المقام، وهذا هو سر التكرار في النداء، فهو لإظهار أهمية الرسالة المُلقاة إليه.

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، حديث رقم 3540، وصححه الألباني في صحيح الترمذي .

ولفظ "الابن" يُستخدم بمعنى الولد، وهو شامل للذكور والإناث[1].

لماذا لم يُقل: "يا عبادي"؟

اختيار النداء "يا ابن آدم" يُظهر شرف الإنسان وتميزه عن سائر المخلوقات، والتعميم باستخدام "يا عبادي" قد يوهم دخول الملائكة، وهم غير معنيين بالاستغفار والمغفرة لأنهم معصومون.

معنى لفظ "آدم" :"آدم" هو اسم علم على أبي البشر آدم عليه السلام؛ غير منصرف لعلَميته ووزنه الذي يشبه وزن الأفعال.[2]

أصله "أأدم" بهمزتين: الأولى متحركة، والثانية ساكنة للتخفيف أُبدلت الهمزة الثانية ألفًا.

أصل التسمية :"آدم" ليس اسمًا أعجميًا، بل هو مأخوذ من "أديم الأرض"

والمقصود بـ "أديم الأرض": هو سطح الأرض الظاهر، ويُقصد به ما يبدو من وجهها، سواء كان ترابًا أو صخرًا، والكلمة تُستخدم للإشارة إلى الطبقة الخارجية أو الغطاء الذي يواجه الإنسان عند النظر إلى الأرض، من حيث الألوان والطبائع، فكما أن الأرض متنوعة في مكوناتها (طين، تراب، صلصال، حمأ مسنون، وكذلك الألوان الأبيض والأسمر والأصفر...)، وهذا يدل على تنوع البشر في صفاتهم وألوانهم وأحوالهم تبعاً لأصل الخلق.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه " عن النبي ﷺ قال:" إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحَزْن، والخبيث والطيب " [3]

وقوله "الحزن": الحزن هنا يشير إلى الشخص غليظ القلب القاسي، الذي لا يُرجى منه خير ولا يُؤمَن شره.

---

[1] ومن الطريف في الدارجة المصرية قولهم للفتاة: يا بني آدمة هكذا بالتأنيث ولا يصح لغويا.

[2] معنى ممنوع من الصرف، أي لا يُنوَّن ولا يُجرّ بالكسرة، فيقال: جاء آدمُ، ورأيتُ آدمَ، ومررتُ بآدمَ، ولا يقال: آدمٌ أو بآدمِ. وسبب منعه من الصرف أنه اجتمع فيه سببان: الأول العَلَمية، أي أنه اسم عَلَم على شخص معيّن، وهو آدم عليه السلام أبو البشر، والثاني أنه على وزن يشبه وزن الفعل، مثل: أكرم وأحمد. فمعنى (غير منصرف لعلميته ووزنه الذي يشبه وزن الأفعال) أنه اسم علم، وجاء على وزن من أوزان الأفعال، ولذلك مُنع من التنوين ومن الجر بالكسرة.

[3] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم 4693، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، حديث رقم 2955، وصححه الألباني في صحيح أبي داود وصحيح الترمذي.

النداء الأول:

(قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي)

أي: إنك ما دعوتني في أي وقت من ليل أو نهار أو على أي حال من سر أو علانية غفر لك.

و(ما) هنا مصدرية ظرفية، أي: مدة دعائك إياي ورجائك فيما عندي.

وقد تكون (ما) هنا شرطية، وفعل الشرط: (دعا) في قوله: "دَعَوتَنِي" وجواب الشرط: "غَفَرْتُ" وإذا أردنا أن نعرف: (ما) الشرطية نجعل مكانها: (مهما) فلو قلت: مهما دعوتني ورجوتني غفرت لك لصح المعنى.

وليس المقصود أن المغفرة تحتمل في وقت الدعاء ومدته، إنما المراد أي وقت دعوتني، لا تقييد المغفرة بزمن الدعاء.

و"الدعاء" :رفع الحاجات إلى رفيع الدرجات، وإظهار العجز والمسكنة بلسان التضرع.

تفسير آخر في معنى "ما دعوتني" :أي: ما دمت تعبدني، لأن الدعاء هو العبادة، وقد فسر الدعاء في القرآن بالعبادة، **كما قال تعالى: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)** [غافر:90]

ما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مرد له؟

دائما تطرح هذه الشبهة والجواب عليها كالتالي:

1. **الدعاء نفسه من القضاء**

فالله سبحانه قدّر الشيء وقدّر سببه، كما أن الشبع مقدّر، ومع ذلك لا يحصل إلا بالأكل، والشفاء مقدّر، ومع ذلك يطلب الإنسان الدواء، فكذلك الفرج والرزق ودفع البلاء قد يقدّره الله بسبب الدعاء.

2. **القضاء لا ينافي اتخاذ الأسباب**

من قال: ما فائدة الدعاء والقضاء مكتوب؟ يُقال له: وما فائدة الطعام والرزق مكتوب؟ وما فائدة الدواء والأجل مكتوب؟

فالجواب: لأن الله أمرنا بالأسباب، والدعاء من أعظم الأسباب.

3. **الدعاء سبب لدفع البلاء أو تخفيفه**

قد يكون البلاء مقدرًا أن ينزل، ويكون مقدرًا أيضًا أن يُدفع أو يُخفف بدعاء العبد، فليس الدعاء خارجًا عن قدر الله، بل هو داخل في قدر الله.

4. **ورد في الحديث: "لا يرد القضاء إلا الدعاء"**[1]

ومعناه عند أهل العلم: أن الدعاء سبب من الأسباب التي جعلها الله لدفع بعض ما قدّره على العبد من البلاء، أو لتغييره مما في صحف الملائكة، أما علم الله الأزلي فلا يتغير ولا يخفى عليه شيء.

5. **هناك فرق بين علم الله الأزلي وما يظهر للعبد**

الله يعلم أزلًا أن هذا العبد سيدعو، وأنه بسبب دعائه سيُصرف عنه بلاء أو يُعطى خيرًا. فالعبد لا يغيّر شيئًا خفي على الله، وإنما يقع ما علمه الله وقدّره من قبل.

6. **الدعاء عبادة قبل أن يكون طلبًا**

حتى لو لم يرَ الإنسان أثر الدعاء فورًا، فهو مأجور؛ لأن الدعاء عبادة، وفيه افتقار إلى الله، وتوحيد، وخضوع، وحسن ظن بالله.

7. **ثمرة الدعاء ليست محصورة في حصول المطلوب بعينه**

قد يعطي الله العبد ما سأل، أو يصرف عنه شرًا، أو يدخر له أجر الدعاء يوم القيامة، فالداعي رابح على كل حال إذا دعا بصدق ولم يعتدِ في الدعاء.

8. **ترك الدعاء بحجة القدر خطأ في فهم القدر**

الصحابة آمنوا بالقدر، ومع ذلك كانوا أكثر الناس دعاءً وجهادًا وعملًا وأخذًا بالأسباب. فالإيمان بالقدر لا يعني ترك العمل، بل يعني العمل مع الاعتماد على الله.

9. **الدعاء يغيّر حال العبد نفسه**

فهو يوقظ القلب، ويزيد الإيمان، ويكسر الكبر، ويجعل العبد متعلقًا بالله لا بالأسباب وحدها.

قوله: (ورجوتني) في اللغة: الرجاء بالمد: الأمل، واصطلاحا: تعلق القلب بمرغوب في حصوله في المستقبل مع الأخذ في أسباب الحصول.

وما الفرق بينه وبين الطمع؟

الطمع ليس فيه أخذ بالأسباب، وهو مذموم، وقلّ أن يظفر صاحبه بمقصوده.

وقد يطلق الرجاء على الخوف ومنه قوله تعالى: **(وارجوا اليوم الأخر)** **[العنكبوت:36]** وقول نوح لقومه: **(ما لكم لا ترجون لله وقارا)** [نوح:13]؛ أي: لا تخافون عظمة الله.

وقد يستعمل الطمع بمعنى الرجاء في قوله: **(والذي أطمع أن يغفر إلى خطيئتي يوم الدين)** [الشعراء:82]

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب ما جاء: لا يرد القدر إلا الدعاء، حديث رقم 2139، وحسّنه الألباني في صحيح الترمذي.

المسلم بين الخوف والرجاء:

يكون المسلم بين **الخوف والرجاء** بأن يجمع في قلبه بين أمرين:
الخوف من ذنوبه وتقصيره وعدل الله وعقوبته، فلا يغتر بعمله ولا يأمن مكر الله.
و**الرجاء** في رحمة الله وفضله ومغفرته، فلا ييأس بسبب ذنوبه ولا يقنط من رحمة الله.
فليس الصحيح أن يغلب عليه الخوف حتى ييأس، ولا أن يغلب عليه الرجاء حتى يتجرأ على المعاصي، بل يسير إلى الله بهما معًا.
وقد قال الله تعالى في وصف عباده الصالحين: ﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [السجدة: 16]، وقال سبحانه: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ**﴾ [الحجر: 49-50] فجمع بين الرجاء والخوف.

ومثال ذلك:
إذا أذنب المسلم، لا يقول: ذنوبي كثيرة ولن يغفر الله لي؛ فهذا يأس.
ولا يقول: الله غفور رحيم وسأستمر في المعصية؛ فهذا غرور.
بل يقول: ربي غفور رحيم، فأرجو مغفرته، وهو شديد العقاب، فأخاف من ذنبي، ولذلك أتوب وأستغفر وأجتهد في الطاعة.
وكان السلف يقولون: ينبغي أن يكون خوف العبد ورجاؤه كجناحي الطائر؛ إذا استويا استقام الطائر، وإذا نقص أحدهما وقع.

وقال بعض العلماء في كلام نفيس: إن كان عاصيا فالخوف أفضل، وإن كان مطيعا فالرجاء أفضل، أو إن كان قبل الذنب فالخوف أفضل، وإن كان بعده فالرجاء أفضل، أو إن كان صحيحا فالخوف أفضل.

قوله: (غفرت لك على ما كان منك) :أي: غفرتُ لك ذنوبك التي وقعت منك، مهما كثرت وعظمت، ما دمتَ قد دعوتني ورجوتني واستغفرتني، ولم تيأس من رحمتي.

(على ما كان منك) :يفيد العموم، أي: على كل ما صدر منك من تقصير وذنوب ومعاصٍ.
(ولا أبالي) معناه: لا يتعاظمني ذنبك، ولا يصعب عليّ مغفرته، فذنوب العباد وإن عظمت فهي يسيرة أمام سعة رحمة الله ومغفرته؛ فهو غني عن خلقه، لا يُعجزه شيء، ولا تؤثر كثرة الذنوب في قدرته على المغفرة؛ **كما قال تعالى:** ﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [لقمان: 28]. أي أن خلق الجميع وبعثهم جميعًا بالنسبة إلى الله كخلق نفس واحدة.

لماذا خُصَّت المغفرة بالذنوب؟ مع أن الله يجيب دعاء عباده في كل الأمور؟
من أعظم ما يُسأل الله في الدعاء هو مغفرة الذنوب، لأن المغفرة تستلزم: النجاة من النار، ودخول الجنة.

النداء الثاني
(يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك)

العنان بفتح العين هو السحاب، والمعنى: أن الخطايا لو صارت جسما له حجم وكتلة فبلغت بحجمها إلى أن ملأت الأرض، بل ووصلت للسحاب إشارة إلى كثرتها.

(ثم استغفرتني) أي: طلبت مني مغفرتها بصدقٍ وإخلاص وافتقار، وقد امتدح الله عز وجل عباده المتقين بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ **[آل عمران: 135]**، وهذا الاستغفار هو المقرون بالعزم على ترك الذنب وعدم الإصرار عليه، فإذا أقلع العبد عن الذنب وعزم على عدم العود إليه واستغفر الله عز وجل غفر الله له.

(غفرت لك) إياها غير مبالٍ بكثرتها؛ أي: سترت عليك ذنوبك بعدم العقاب، وذلك لأن كرم الله تعالى وفضله ورحمته لا تتناهى؛ فهي أكثر وأوسع مما ذكر.

فلا ينبغي لعبد أن يستعظم ذنبا بجانب عفو الله، فيقول: لن يغفر الله لي، لن يقبلني الله عز وجل، فمهما كان ذنبك وخطؤك طالما دعوته واستغفرته فإنه يغفر لك، قال تعالى:**(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)** [الزمر/53]
وعد العلماء من جملة الكبائر اليأس من رحمة الله كما قال يعقوب لبنيه: **(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)** [يوسف/87]

وفي الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ)[1]
لو أساء إنسان في حق أحد يحمل ألف هم كيف يقابله وكيف يعتذر له ويسترضيه، لكن سبحان الله العظيم علمنا الله ألا نستعظم ذنبا بجانب عفوه سبحانه وتعالى فمهما

---
[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾، حديث رقم 7554، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم 2751

أذنبت أقبل على ربك وتب إليه، واستغفره فإنه يغفر ولا يبالي، فليس هناك ذنب عظيم على ألا يغفره الله.

وقد أحسن من قال: أنا خاطئ أنا مذنب أنا عاص، هو راحم هو غافر هو كافي، قابلتهن ثلاثة بثلاثة، ولتغلبن أوصافه أوصافي.

فأنا عبد خاطئ مذنب عاص أما هو الله جل جلاله فهو راحم غافر كافي فهذه الأوصاف الثلاثة من العبد يقابلها تلكم الثلاثة صفات لله، ولا شك أن صفاته أعظم وأكمل وأتم، فبرحمته سبحانه يغفر ويستر ويرحم، ولتغلبن أوصافه أوصافي.

يقول ابن القيم: " إن في القلب شعثًا لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفة الله وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى لقائه، وفيه فاقة لا يسدّها إلا محبّة الله والإنابة إليه ودوام ذكرِه وصدق الإخلاص له، ولو أعطِي العبد الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة منه أبدًا.[1]

ومن جميل الشعر

فليتك تَحلو والْحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بينِي وبينك عامر ... وبيني وبين العالَمين خراب

إذا صحّ منك الود فالكل هين ... فكلّ الذي فوق التراب تراب

الشافعي عند موته :

دخلوا على الشافعي رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، فقيل له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

قال: أصبحت من الدنيا راحلا، ولإخواني مفارقا، ولكأس المنية شاربا، ولا أدري إلى الجنة تصير روحي فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها.

ثم قال:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعل الرجا مني لعفوك سلما

---

[1] مدارج السالكين، 164/3.

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظم

فضل الاستغفار:

تعهد سبحانه أن يغفر لمن استغفره كما في هذا الحديث، وكما قال تعالي: "ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما (النساء:110)، وأمر به في مواضع؛ كقوله سبحانه: " واستغفروا الله إن الله غفور رحيم "[البقرة:199]، ومدح المستغفرين بالأسحار فقال سبحانه: "والمستغفرين بالأسحار" [آل عمران:17]، وكثيرا ما يقرن الاستغفار بالتوبة، كما في قوله سبحانه: (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) (هود:3]

فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلوب والجوارح، وأفضل الاستغفار: ما اقترن به ترك الإصرار، وهو حينئذ توبة نصوح.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ :"أذنب عبد ذنبا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا فيعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا، فقال: رب أذنبت آخر فاغفره لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا، قال: رب أذنبت ذنبا آخر فاغفره لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدي فليعمل ما شاء"[1]

ومعنى (اعمل ما شئت فقد غفرت لك) ليس إذنًا في المعصية، وإنما معناه: ما دمت كلما أذنبت ندمت ورجعت واستغفرت توبةً صادقة، فإن باب المغفرة مفتوح لك؛ أما من استمر على الذنب بلا توبة ولا ندم، فهو مستحق للعقوبة إلا أن يعفو الله عنه.

وقال الحسن: "أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم أينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة.

والاستغفار التام الموجب للمغفرة: هو ما قارن عدم الإصرار، كما مدح أهله، ووعدهم المغفرة، قال بعض العارفين: "من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته؛ فهو كاذب في استغفاره"

وقال بعضهم: "استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار كثير"، وهذا هو استغفار من استغفر بلسانه وقلبه مصرّ على المعصية.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾، حديث رقم 7507، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث رقم 2758

مسألة: وهل التوبة والاستغفار بمعنى واحد أم لا؟

الذي يظهر من النصوص الواردة في الباب أن التوبة والاستغفار يفترقان في المعنى عند اجتماعها، ويغني أحدهما عن الآخر عند الانفراد، فإذا قال الشخص أستغفر الله؛ فهذه توبة، وإذا قال: أتوب إلى الله أو رب تب عليّ فهذا شامل للاستغفار وطلب العفو والمغفرة.

وشروط التوبة: الإخلاص، والندم على ما حصل، والإقلاع عن المعصية التي تاب منها، والعزم على ألا يعود، وأن تكون التوبة وقت قبول التوبة، ومن الإقلاع عن المعصية تدارك الواجبات وإرجاع الحقوق لأصحابها.

وأفضل أنواع الاستغفار: أن يبدأ العبد بالثناء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة.
كما في حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال:) سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت).
ثم قال ﷺ: ومن قالها من النهار موقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة.) [1]

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: "قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم" [2]

النداء الثالث
(يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة)

قوله: "لَوْ أَتَيْتَنِيْ" أي جئتني بعد الموت.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، حديث رقم 6306
(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، حديث رقم 834، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، حديث رقم 2705.

"بقراب الأرض" :بضم القاف أشهر من كسرها؛ أي: بقرب ملئها أو بملئها، وهو أبلغ في سعة العفو.

"خَطَايا " جمع خطيئة وهي الذنوب، وهذه مبالغة أيضا فلو أن الذنوب تجسمت وبلغت ما يقارب ملء الأرض، ثم لقيت الله على التوحيد لا تشرك به شيئا:

(لأتيتك بقرابها مغفرة) أي مغفرة تمحو كل هذه الذنوب، وعبر بقرابها للمشاكلة وإلا فمغفرة الله سبحانه أعظم وأوسع من ذلك.

وفي هذا يقولُ بعضُهُم:

يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفْوُ اللهِ مـنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرُ

أَعْظَمُ الأَشْيَاءِ فِي جَنْبِ عَفْوِ اللهِ يَصْغُرُ

وقالَ آخَرُ:

يا رَبِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِيَ كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

إنْ كَانَ لا يَرْجُوكَ إلاَّ مُحْسِنٌ فمَن الَّذِي يَرْجُو وَيَدْعُو المُجْرِمُ

مَالي إلَيْكَ وَسِيلَةٌ إلاَّ الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثمَّ أَنِّي مُسْلِمُ

هل معنى ذلك أن لو مات المسلم على التوحيد فقط يكفيه ليغفر الله له؟

هناك فارق بين من فعل الصغائر ومن فعل الكبائر، فالصغائر لا يخلو منها إنسان، وقد وعد الله بمغفرتها فقال تعالى: **(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما)** [النساء/31]

أما الكبائر فمن مات موحدا لله لكنه مصرا على كبيرة فإن عبارة أهل السنة تقول: **(من مات على كبيرة فهو واقع في خطر المشيئة إن شاء الله عذبه بعدله وإن شاء عفا عنه بفضله)**

وقد يجعل الله للعبد مكفرات دون أن يشعر بأن يرزقه التوبة النصوح فيبدل الله سيئاته حسنات، **قال تعالى: (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما)** [الفرقان/70] أو يوفقه لعمل صالح قبل الموت كما في الحديث:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله) قالوا: كيف يستعمله؟ قال: (يوفقه لعمل صالح قبل موته) [1]

[1] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم، حديث رقم 2142

أو تكون هناك شدائد كالمرض قبل الموت، أو شدة خروج الروح أو في القبر وكذلك بين يدي يوم القيامة حين يغرق الناس في عرقهم على قدر أعمالهم.

عن المقداد – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – ﷺ– يقول: " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمهم العرق إلجاما "، وأشار رسول الله – ﷺ– بيده إلى فيه. [1]

أيضا لا ننس شفاعة الأنبياء والشهداء والصالحين، فإن كانت ذنوبه أكثر من ذلك غمس في النار بمقدار ما يطهر من ذنوبه ثم يخرج منها لأن الجنة دار الأبرار الأطهار لا يدخلها إلا كل من طهُر من الذنوب، فهو لا يدخل الجنة أولا وإنما يدخلها آخرا ولذلك يقول علماؤنا: **(لا يخلد موحد في النار)**

ومن لقي الله مشركا يخلد في النار، قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) [النساء/48] وقال تعالى: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) [المائدة/72]
وهذا جمع وتوفيق بين النصوص الواردة.

الإسراف في الترهيب:

والحديث يفتح باب الأمل دائما لكل من عصى وأسرف وقصر في حق ربه، وبعض الخطباء يسرف في جانب الترهيب ولو بالقصص المكذوبة ناسيا الترغيب في رحمة الله الواسعة.
ومن ذلك:

1- **الأثر المروي عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه " لو أن إحدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله " : فمع أنه أثر مشهور متداول، إلا أني لم أقف عليه مسنداً لا بسندٍ صحيح ولا ضعيف ،وهو يتنافى مع ما ورد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال النبي – ﷺ– : يقول الله تعالى : (**

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، حديث رقم 2864، والحِقْوان :موضع الإزار من الجسد، أي قريب من الخصر والوسط، والميل في الحديث بيّن الراوي سليم بن عامر أنه لا يدري: هل المراد به مسافة الميل المعروفة، أم الميل الذي يُكتحل به، والمقصود بيان شدة القرب والهول.

أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) [1]

فلا يتصور مؤمن أبدا أن عبدا من عباد الله وضع أحد قدميه في الجنة ثم يقول له الله ارجع فلن تدخلها!!! ثم إن مكر الله يكون بالعاصين والكافرين وليس بالمؤمنين.

2- ويذكرون عن البعض أنه بكى من خشية الله حتى أصابه العمى!!!

3- ومنهم من كان يبكي حتى تجري دموعه من الميزاب!!!

وفي الصحيح من كتاب الله وهدي رسول الله غنية عن هذا كله من المبالغات والقصص التي لا أساس لها من الصحة قال تعالى: **(ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون)** [الأعراف/156]

ويقول عمر بن عبد العزيز: "اللهم إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهل أن تبلغني، فرحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء، فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين"

فهذا الحديث ليس لفتح باب التكاسل عن أداء العبادات وتسويف التوبة والتواكل على المغفرة؛ كلا، بل هو لفتح أبواب الرحمة والأمل في وجه العصاة عساهم يتوبوا ويرجعوا إلى الله سبحانه وتعالى

فوائد من الحديث

1. هذا الحديث من أعظم أحاديث الرجاء وسعة رحمة الله.
2. تكرار النداء بـ **"يا ابن آدم"** ثلاث مرات فيه تنبيه وتشريف وتأكيد لعِظَم الرسالة الموجهة للإنسان.
3. من أسباب المغفرة العظيمة :**الدعاء مع الرجاء**، فمن دعا الله راجيًا رحمته غفر الله له.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، حديث رقم 7405، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم 2675.

4.المسلم ينبغي أن يجمع بين الخوف والرجاء؛ فلا ييأس بسبب ذنوبه، ولا يغتر برحمة الله فيتجرأ على المعصية.

5.الاستغفار هو طلب المغفرة بصدق وإخلاص، مع ترك الإصرار على الذنب.

6.لا ينبغي للعبد أن يستعظم ذنبه بجانب عفو الله، ولا أن يقول: لن يغفر الله لي؛ فإن القنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب.

7.التوحيد أصل النجاة، والشرك أكبر مانع من المغفرة.

8.من مات موحدًا مصرًّا على كبيرة فهو تحت مشيئة الله: إن شاء عذبه بعدله، وإن شاء عفا عنه بفضله.

9.لا يخلد موحد في النار، أما من مات على الشرك فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

10.الحديث لا يفتح باب التكاسل عن الطاعة ولا تسويف التوبة، بل يفتح باب الأمل للعصاة ليرجعوا إلى الله.

11.خلاصة أسباب المغفرة في الحديث ثلاثة :**الدعاء مع الرجاء، والاستغفار الصادق، والتوحيد الخالص**.

****

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	2
التمهيد: أولا/ ترجمة الإمام النووي	7
ثانيا/ مقدمة عن كتاب الأربعين النووية	14
الحديث الأول/ إنما الأعمال بالنيات	20
الحديث الثاني/ حديث جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان	38
الحديث الثالث/ حديث بني الإسلام على خمس	55
الحديث الرابع/ حديث مراحل خلق الإنسان	65
الحديث الخامس/ النهي عن الابتداع في الدين	83
الحديث السادس/ الحلال بيّن والحرام بيّن	101
الحديث السابع/ الدين النصيحة	128
الحديث الثامن/ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا	144
الحديث التاسع/ ما نهيتكم عنه فاجتنبوه	151
الحديث العاشر/ إِنَّ اللهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبَاً	165
الحديث الحادي عشر/ دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيْبُكَ	178
الحديث الثاني عشر/ مِنْ حُسْنِ إسلام المَرْءِ	188
الحديث الثالث/ عشر لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيْه	194
الحديث الرابع عشر/ لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ	203
الحديث الخامس عشر/ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر	214
الحديث السادس عشر/ لا تغضب	228
الحديث السابع عشر إن الله كتب الإحسان على كل شيء	238
الحديث الثامن عشر /اتق الله حيثما كنت	245

الحديث التاسع عشر/ احفظ الله يحفظك	263
الحديث العشرون/ إذا لم تستح فاصنع ما شئت	296
الحديث الحادي والعشرون/ قل آمنت بالله ثم استقم	309
الحديث الثاني والعشرون/ أرأيت إذا صليت المكتوبات	317
الحديث الثالث والعشرون/ الطهور شطر الإيمان	323
الحديث الرابع والعشرون/ يا عبادي إني حرمت الظلم	330
الحديث الخامس والعشرون/ ذهب أهل الدثور بالأجور	342
الحديث السادس والعشرون/ كل سلامى من الناس عليه صدقة	349
الحديث السابع والعشرون/ البر ما اطمأنت إليه النفس	356
الحديث الثامن والعشرون / أوصيكم بتقوى الله عز وجل	363
الحديث التاسع والعشرون/ أخبرني بعمل يدخلني الجنة	370
الحديث الثلاثون/ إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها	377
الحديث الحادي والثلاثون/ ازهد في الدنيا يحبك الله	382
الحديث الثاني والثلاثون/ لا ضرر ولا ضرار	392
الحديث الثالث والثلاثون/ لو يعطى الناس بدعواهم	400
الحديث الرابع والثلاثون/ من رأى منكم منكرا فليغيره	405
الحديث الخامس والثلاثون /لا تحاسدوا، ولاتناجشوا	426
الحديث السادس والثلاثون/ من نفس عن مؤمن كربة	440
الحديث السابع والثلاثون/ إن الله كتب الحسنات والسيئات	455
الحديث الثامن والثلاثون/ من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب	469
الحديث التاسع والثلاثون إن الله تجاوز لي عن أمتي	480
الحديث الأربعون/ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أو عابر سبيل	488

الحديث الحادي والأربعون/ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَواهُ	494
الحديث الثاني والأربعون/ يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني	501